mngool.com

مع الأنبياء
في القرآن الكريم

قصص ودروس وعبر من حياتهم

تأليف

عفيف عبد الفتاح طبّاره

الطبعة الخامسة عشرة

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥

الموزعون الوحيدون لجميع أقطار العالم
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

كلمة شكر

اقدم شكري و امتناني للاساتذة الكرام :

شريف خليل سكر

الشيخ حسين غزال
قاضي الشرع الشريف

رضوان السيد

لما قدّموا لي من جهد في تصحيح ومراجعة لفصول هذا الكتاب يدفعهم لذلك الإخلاص والحماس لنشر الاسلام .

كما اخص بالشكر العميق **جامعة بيروت العربية** ومكتبتها العامرة التي تقدم كل المعونة والخدمات المجردة للباحثين والمستزيدين من المعرفة، ولما أتاحت لي من المراجع الضرورية لهذا الكتاب .

واخص بالشكر ايضاً **أصحاب دار العلم للملايين** لما لمست منهم من نبل وصدق وتشجيع .

الى هؤلاء جميعاً ابتهل إلى الله ان يجزيهم خير الجزاء وييسرنا جميعاً لخدمة الحقيقة خدمة مجردة .

المؤلـــف

قال تعالى

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب
ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه
وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

وقال تعالى

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة
فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها
بكافرين ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

قرآن كريم

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم الأستاذ
محمد شريف سكر
ماجستير في الشريعة الاسلامية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله محمد ، وبعد، فقد كتب الكثيرون في قصص الانبياء قديماً وحديثاً ، ولكن مناهج كتاباتهم كانت متشابهة في اغلب الاحيان ، وكانت قصصهم مشحونةً بالاساطير والاسرائيليات ، فكان جمعُ هذه الاساطير والاسرائيليات الى جانب ما اورده القرآن الكريم من حقائق يوحي للقارىء العادي أنها في مرتبةٍ واحدة .

ومما يؤسف له ان بعض كتب التفسير والتاريخ المعتمدة لم تخلُ من هذه الترهات ، ومن هنا كانت مهمة المؤلفين المدققين صعبة وقاسية .

ومؤلف الكتاب الذي بين ايدينا حرص اشد الحرص على ان يجعل قصصه قرآنية ، لذا اتخذ من القرآن الكريم مناراً له اثناء كتابة قصص انبياء الله لأن القرآن هو المصدر الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم استعان بعده بالتاريخ الثابت ، فكان يكتفي بالقرآن اذا وجد فيه بغيته ، وبالتاريخ الثابت عندما لا يجد تفصيلاً فيه . وهكذا خرج كتاب مؤلفنا الفاضل قرآنياً ترتاح اليه النفوس وتطمئن له القلوب .

وكتاب (مع الانبياء في القرآن) ليس اول كتاب سلك هذه الخطة الرشيدة فقد سلك هذا المنهج قبله المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فابدع في كتابه

(قصص الأنبياء) فجزاه الله خيراً ، إلا ان ما كتبه لا يستسيغه الا العلماء المتخصصون نظراً لما فيه من محـــاورات ومناقشات واعتراضات وردود واستطرادات ، وهذا ما لا يرتاح الى مطالعته القارىء العصري . وفضلاً على ذلك فإن الشيخ عبد الوهاب النجار لم يتعرض في كتابه لسيرة محمد ﷺ خلافاً لما فعل مؤلفنا الذي عالج سيرة الرسول محمد ﷺ بطريقة جديدة رائعة تعرّف القارىء العصري على نواح جديدة من عظمة الرسول كانت مجهولة لدى الكثيرين .

لهذا فإني اعتقد مخلصاً ان هذا الكتاب هو اروع ما صدر من نوعه حتى الآن لانه يرضي الخاصة والعامة .

لقد اطلعت على مراحل تأليف هذا الكتاب وعرفت عشرات المراجع التي اطلع عليها المؤلف ليستخرج منها مؤلفه ، كما اطلعتُ على الجهود الكبيرة التي بذلها في تأليف هذا الكتاب حتى خرج بهذا الشكل الجيد ..

وللمؤلف منهج خاص في التأليف سلكه من قبل في مؤلفاته : (روح الدين الاسلامي) و (اليهود في القرآن) و (روح الصلاة) وقد آتى منهجه أكله فطبع كل كتاب اكثر من طبعة ووصل احدها الى تسع طبعات مما يدل على ارتياح القارىء لما يكتبه مبنى ومعنى .

والمؤلف الفاضل يرمي في كتابه هذا الى اهداف ثلاثة :

اولاً : ــ تعليم القرآن الكريم للقارىء العصري من خلال عرضه لقصص الانبياء ، فالحديث عن الانبياء في القرآن يأخذ حيزاً كبيراً منه ، ثم ان الآيات التي تتحدث عن كل نبي موزعة في سور عدة ، فقام المؤلف بجمع هذه الآيات في وحدة موضوعية ثم عمد الى تفسيرها تفسيراً وافياً بطريقة حديثة بعيدة عن التعقيد ، وبهذا يكون الكتاب قد اعطى للقارىء الى جانب القصص ذخراً إضافياً في : تفسير القرآن الكريم ، والاحكام الشرعية ، والبلاغة القرآنية وسواها .

ثانياً : ــ استخراج ما تحويه قصص الانبياء من عبر ودروس وحكم ؛ لان الغاية من قصص الانبياء هي (العبرة) ، قال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة) .

لقد افرغ المؤلف جهده في استخراج الدروس والعبر فاستنبط الكثير منها :

تربوية وروحية واجتماعية وصوفية مما لم يسبقه احد إلى كثير منها . فالمؤلفون القدماء لم يعيروا الدروس والعبر اهتماماً ، وتركوا امر استنباطها لحكمة القارىء وفهمه ، وهذا ما يجعل القراء في مستوى مختلف من حيث معرفتها وادراكها ، ولكن المؤلفين المحدثين اوردوا ما وفقهم الله الى فهمه من دروس وعبر . وجاء مؤلفنا فذكر ما عندهم بطريقته الخاصة وزاد عليهم دروساً وعبراً وحكماً جديدة تمس مختلف نواحي الحياة وتعالج الفساد الذي بدأ يستشري في المجتمع المعاصر ويهدد الحضارة الحديثة بالدمار كما حصل من قبل .

ومن الآفات التي تحدث عنها في الدروس والعبر : الكفر بالله — الشرك — الكفر بالنعمة — الطغيان — البطر — الفساد — استعباد الشعوب — الاسراف والتبذير — الغش وتطفيف الكيل — الزنا واللواط ... وغيرها .. كل هذه الآفات اقترفتها الامم القديمة فاصابها من جراء ذلك غضب الله وسوء العاقبة .

ثالثاً : — إثبات ان القرآن وحي إلهي ، وإثبات صدق نبوة محمد ﷺ . وقد استطاع المؤلف بالفعل إثبات ذلك بالأدلة العلمية الساطعة عندما تناول بالتحليل الآيات القرآنية التي تتحدث عن الانبياء وبيّن ما فيها من حقائق علمية كانت مجهولة في عصر محمد والعصور التي تلته ثم ظهرت في العصر الحديث والتي عرفها الانسان المعاصر بعد وقوفه على اسرار الحفريات والآثار التي طمرت منذ آلاف السنين والتي استطاع العلماء كشف رموزها وفك معمياتها . كما ظهرت براعة المؤلف في اثبات نبوة محمد عندما تعرض لسيرته الشريفة التي بيّن من خلالها الدلائل التي لا يرقى اليها الشك في انه رسول الله حقاً .

وفي الختام اعلن اني لا استطيع ان اذكر مزايا الكتاب في صفحات ثلاث حددها لي المؤلف ولكني اكتفي بما ذكرت تاركاً للقارىء أن يتحسس وحده المجهود الضخم الذي بذله المؤلف وان يطلع بنفسه على ما يحويه هذا الكتاب من متعة روحية وفائدة .

فجزاه الله خيراً ونفع بكتابه كل قارىء يطلب الحقيقة ويسعى لرضوان الله.

الباب الأول

مدخل

١ـ تعريف بالنبوة

٢ـ قصص الأنبياء وأهدافها

الفَصْلُ الأوّل

تَعْرِيفُ بالنُبوَّة

من هم الأنبياء والرسل – الانبياء وإمكانية وجودهم – خصائص النبوة – وظيفة النبوة – عدد الأنبياء والرسل – وجوب الايمان بالأنبياء – عصمة الأنبياء – الأنبياء قدوة للبشر – معجزات الأنبياء .

من هم الانبياء والرسل

الأنبياء[1] والرسل هم الذين اصطفاهم الله من بني البشر يحملون دعوته لعباده ، يبشرون من آمن منهم وعمل صالحاً بحسن الثواب والمكافأة في الحياة الدنيا والآخرة ، وينذرون من كفر وعمل سيئاً بالعقاب وسوء المصير . قال تعالى: ﴿ وما نُرسِلُ المرسَلين إلاّ مبشّرين ومُنذرين فمن آمن وأصْلَح فَلا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون ﴾ الانعام : ٤٨ .

وهؤلاء الأنبياء والرسل يتلقون العلم عن الله بواسطة العقل والحواس على ضروب شتّى ، منها : الالقاء في الروع . والسماع المباشر من ملك يتمثل في صورة بشرية ، والرؤيا الصادقة اثناء النوم او غير ذلك من الحالات الروحية التي لا يدركها غير نبي . ويسمى هذا الأسلوب التعليمي المخالف للسنن العادية وحياً .

الفرق بين النبي والرسول : النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى حينئذ نبياً، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم سلوك جماعة من الناس فيسمى هذا التكليف رسالة ويدعى صاحبها رسولا . وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً .

---

(١) الأنبياء : جمع نبي والنبي مشتق من نبأ ، وجاء في شرح القاموس : والنبيء بالهمز هو المخبر عن الله تعالى ، فإن الله أخبره بتوحيده وأطلعه على غيبه وأعلمه انه نبي، وقيل من النبوة أي الرفعة وسمي نبياً لرفعة محله عن سائر الناس .

الأنبياء وإمكانية وجودهم

اثارت الفلسفة المادية شبهات جمة على مبدأ النبوة ، ونفت وجود الأنبياء ، وبالأحرى نفت وجود العالم الروحاني .

ولكن الباحث الدارس لحقيقة النبوة يرى أمام نظره وقائع ثابتة تقنعه بما لا مجال للشك بحقيقة النبوة ، فقد حدث فعلاً في كثير من اقطار العالم وجود ديانات دعا اليها انبياء لا حصر لهم ، فأخذ بها اهل تلك الاقطار في حياتهم المادية والروحية . هذه الأديان التي تختلف في جزئياتها وتتفق في كلياتها على أمور جوهرية هي : الاعتقاد بوجود خالق للوجود ، ووجود حياة بعد هذه الحياة ، يُثاب فيها الإنسان على ما اقترف من عمل في دنياه .

إن هذا العموم يدل دلالة قاطعة على ان النبوة كانت حاجة روحية لجميع البشر وخصوصاً في الماضي حيث كان العالم يجهل بعضه بعضاً بما يفصله عن بعض من مسافات لا يمكن اجتيازها بسهولة ، وحيث كان الاتصال بين الأمم مفقوداً ، فلا إذاعات ، ولا صحف ، ولا مواصلات سريعة تجمع بين العالم كما يحصل الآن .

وهذه الأديان المستمرة الى اليوم والتي يدين بها مئات الملايين تشهد بوقوع النبوة ، لأن النبوة هي مصدر هذه الأديان ، ولا دين بدون نبي .

الإلهام عند الحيوان : والنبوة ليست بعيدة عن العقل ، فإن في العالم اليوم معرفة لبعض الكائنات من غير طريق الحواس ، ومستقلة عن المحاولات العقلية وهي الهام الحيوانات ، فقد شهد علماء الحيوان ان للحيوانات وخاصة الساذجة منها اعمالاً في البحث عن غذائها ، وبناء بيوتها ، واحتضان بويضاتها مما يفوق حدّ التصوّر * .

فاذا كان هذا معترفاً به عند العلماء ، فإنه ليس بعيداً عن العقل ان يخص

(*) مثلاً على ذلك : الحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد ان تبيض مباشرة أي انها لا ترى لها ذرية قط ولكنها قبل ان تبيض تعنى كل العناية بوضع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض لتكون غذاء لصغارها متى خرجت ، فمن الذي أدرى هذه الحشرات ان في بيضها صغاراً ، وان تلك الصغار ستخرج في حاجة إلى الغذاء ؟ وان ما تحتاج اليه هو تلك الجثث الحيوانية ؟ ولولا خوف التطويل لذكرنا عشرات الأمثلة على ذلك .

الله افراداً من البشر بوحيه ، يعلمهم ما يشاء من غير الطرق المتعارف عليها والمألوفة عند البشر .

الدراسات الروحية المعاصرة : والعلم اليوم يعترف بوجود عالم روحاني مستقل عن المادة ، وهو ما يسوّغ لنا اعتبار النبوة والوحي امراً ممكناً ، فقد اكتشف العالم الألماني الدكتور (مسمر) سنة ١٧٧٠ م التنويم المغناطيسي . فأثبت بالتجربة أن الإنسان ليس مجرد أداة مادية ولكنه مستودع لروح تخالف المادة من جميع الوجوه ، وتتسلط عليها بعد ان تبطل عمل النواميس الطبيعية ، ودلل على وجود عقل باطني للإنسان ارفع من عقله العادي متصل بعالم روحاني .

هذا الاكتشاف هال العلماء الماديين الذين حاربوه مدة قرن كامل ولكنه تغلّب بحقائقه الثابتة على كل خصومه ، وحصل على اعتراف العلم به ، وكانت نتيجته الإثبات بالدليل المحسوس ان الإنسان ليس محصوراً في هذا الجسم الحيواني ولكنه ينطوي على قوى باطنية علوية متصلة اتصالاً مباشراً بالعالم الروحاني على درجات شتّى .

هذا الاتصال الروحاني بين النفس البشرية وبين عالم ما وراء الطبيعة يقرّب الى عقولنا ان الله يصطفي أرواحاً شديدة الاتصال بذلك العالم فيوحي اليها ما يريد إبلاغه الى خلقه مما يجب ان يأخذوا به من المعتقدات القلبية ، والتعاليم الخلقية التي فيها صلاحهم .

وأخيراً نذكر ان الرؤيا الصادقة من وسائل الوحي التي أيّد الله بها رسله وهي من الحقائق المعترف بها ، والتي شاهدها البعض وأقر العلماء بحدوثها .

خصائص النبوة

والنبوة فضل الهي يؤتيها الله من يشاء من عباده ، فهي لا تنال بالعقل ، ولا تدرك بالكسب وكثرة الطاعة ، ولا يحصل عليها بالوراثة ، بل هي اصطفاء من الله لبعض خلقه ، ولا يُوصل اليها إلاّ بالإلهام الإلهي والتوفيق منه سبحانه .

﴿ اللهُ يَصْطفي مِنَ الملائكةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاس إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ ﴾ الحج : ٧٥

﴿ إنَّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآل ابراهيم وآل عِمرانَ على العالمين ﴾ آل عمران : ٣٣

والدعوة التي يقوم بها الأنبياء لا تصدر عن ذكائهم ، أو من تألمهم للوضع المزري الذي يعيش فيه مجتمعهم ، او من شعورهم الدقيق الحساس ، وإن كانوا متمتعين بالعقل والذكاء والاحساس المرهف ... لا شيء من ذلك وحده يحثهم على الاندفاع المتفاني للإصلاح ، انما مصدر ما يفعلون هو الوحي والرسالة لهذا لا يُقاسون أبداً بالحكماء او الزعماء او المصلحين أو العباقرة ، قال تعالى :

﴿ يُنزِّل[1] الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمره على مَنْ يَشاءُ من عِبَاده أَن أنْذروا أنه لا إلهَ إلاَّ أنا فاتّقون ﴾ النحل : ٢ .

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية ... ولا يدير رسالته حسب الأوضاع الاجتماعية ، وقد أمر الله رسوله محمداً ان يخاطب قومه .

﴿ قُلْ ما يكونُ لي ان أُبَدِّلَهُ[2] من تلقاءِ نفسي إن أَتّبعْ إلاَّ ما يُوحى إليَّ ﴾ يونس : ١٥ .

عموم الرسالة : ثم ان الرسالة الالهية تشمل البشر كافة لأن الله رب العالمين ، لا رب شعب بعينه ، قال الله تعالى :

﴿ ولَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أمةٍ رسُولاً أَنِ اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت[3] فمنهم من هَدَى اللهُ ومِنهُم من حَقّت عليه الضلالة ﴾ النحل : ٣٦ .

هذا بخلاف ما يعتقده بنو اسرائيل الذين انكروا ان يختص الله تعالى بنعمته ورحمته من يشاء من عباده، وجعلوا النبوة قاصرة عليهم كأن بقية البشر ليسوا من خلق الله .

---

(١) ينزّل : اي الله سبحانه وتعالى .
(٢) أبدّله : اي القرآن .
(٣) الطاغوت : كل معبود غير الله كالصنم والشيطان .

وظيفة النبوة

ووظائف النبوة تتلخص في ثلاثة أمور : اولاً ــ الدعوة الى الإيمان بالله ووحدانيته . ثانياً ــ الايمان باليوم الآخر والجزاء فيه على الأعمال . ثالثاً ــ تبيان الشرائع التي فيها صلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، واليك بيان هذه الأمور :

الايمان بالله : فالإيمان بالله فطرة في النفس الإنسانية ، فكل انسان يجد نفسه مسوقاً الى قوة أرفع من قوته ، ولكن الناس اختلفوا في تحديد تلك القوة ، فمنهم من فسرها بالقوى الطبيعية وبعضهم تمثلها بأصنام من صنعه ، وآخرون فسروها بغير ذلك ، فجاء الأنبياء مصححين لهذه الضلالات ، مرشدين العقل الى الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته .

(فالأنبياء كان اول دعوتهم واكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة تصحيح العقيدة في الله تعالى وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة الى اخلاص الدّين لله وحده ، وإفراد العبادة لله وحده ، وأنه النافع الضار ، المستحق للعبادة ، والدعاء والالتجاء والنسك وحده ... وكانت حملتهم مركزة موجهة الى الوثنية القائمة في عصورهم الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والاصنام والصالحين والمقدسين من الأحياء والأموات)[١] .

ولو استقل العقل البشري بإدراك هذه الحقائق لم يصب الهدف . ولم يصل الى المطلوب ، وبالأخص في أمور غيبية لا يصل اليها استعداد الإنسان في المعرفة بدون الوحي الذي بلّغه الله الى الأنبياء .

ولقد حاولت الفلسفة الاغريقية وغيرها ان تخوض في الإلهيات فجاءت بالسخف المرذول والمتناقض من الآراء ، كما اختلف العلماء حديثاً في تفسيرهم لهذه الإلهيات عندما اعتمدوا على عقولهم ، بينما الأنبياء جاءوا بالقول الفصل في تفسير وتحديد هذه القوة الإلهية بما يطمئن اليه العقل .

الإيمان باليوم الآخر : هو أيضاً من وظائف النبوة لأنه من الأمور الغيبية التي لا يصل الى ادراك حقيقتها العقل بدون هداية الانبياء .

فكل إنسان فيه شعور ما بأن هذه الحياة لا تنتهي بانتهاء العمر بل إن

(١) حجة الله البالغة للشيخ الدهلوي

هناك حياة اخرى سيحياها على شكل ما ، هذا الشعور العام المصاحب لأكثر الناس لا يمكن ان يُعد ضلالة من ضلالات العقل ، ولا وهماً من أوهامه كما يدّعي الماديون .

ثم إن فراغ العقل من الاعتقاد بحياة أخرى يؤدي الى كارثة على الجنس البشري من الناحية النفسية والاجتماعية ، فكل إنسان معرض للمصائب من أمراض واضطهاد وظلم وفقد عزيز ، فالاعتقاد بحياة اخرى افضل من هذه الحياة يُكافأ فيها الإنسان بالعدل ، وتجمع بين الأحباء الصالحين لمّا يُدخل العزاء والطمأنينة الى النفوس الملتاعة ، كما ان الاعتقاد بحياة اخرى يحاسب فيها الإنسان على ما اقترفت يداه يولّد في الانسان ضميراً حيّاً يدفعه الى الخير ، ويلجمه عن الشر .

هذا وإن الإنسان عاجز عن ادراك صفة الجزاء على وجهها الحق دون وهم أو خيال بدون هداية الأنبياء .

تبيان الشرائع : ومن وظائف النبوة ارشاد الناس الى الفضائل التي فيها سعادتهم في الدارين بواسطة الشرائع التي يتلقونها من الله .

فالناس لا يستطيعون التوصل بعقولهم الى جميع الفضائل والسير بموجبها لأن عوامل غرائزهم ومصالحهم وشهواتهم متفاوتة ، فالشر قد يكون في نظر البعض خيراً إذا كان لهم فيه غنم وفائدة ، وقد يتركون الخير إذا كان لا يرضي مصالحهم واهواءهم الخاصة ، واكبر دليل على ذلك ما يسود عالمنا اليوم من ظلم وعدوان وانتهاك لحقوق الضعفاء ، هذا العالم الذي يدّعي انه وصل الى درجة عالية من الرقي والمدنية . لهذا كانت رسالة الأنبياء تبيان الأعمال الصالحة التي تؤهل الإنسان الى رضاء الله واصلاح المجتمع . والتحذير من الأعمال السيئة التي تؤدي الى سخط الله وفساد المجتمع .

ولا شك ان تحديد الأعمال الحسنة والسيئة وبيان نفعها وضررها وثوابها وعقابها يولّد في الانسان عامل الترغيب في إتيان الخير ، والترهيب من إتيان الشر ، وهو عنصر بالغ التأثير في النفسية الإنسانية .

وإن إرسال الرسل الى البشر يقطع على الظالمين طريق الأعذار . ولا يدع لهم حجة يتذرّعون بها بأن الله لم يبين لهم طريق الهدى الذي ينبغي أن

يسيروا عليه ، هذه الحقيقة أعلنها القرآن :

﴿ رُسُلاً مبشّرين وَمُنذِرين لِئلاّ يكون للناس على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُسُل وكان اللهُ عزيزاً حكيماً ﴾ النساء: ١٦٥ .

هذا وقد جرت سُنّة الله في خلقه أن لا يعاقب احداً إلاّ بعد ان يبعث رسولاً قال سبحانه :

﴿ وما كُنَّا مُعَذّبين حتى نبعث رسولاً ﴾ الإسراء : ١٥ .

عدد الأنبياء والرسل

والأنبياء والرسل كثيرون ، اما الذين ذكرهم القرآن فهم (٢٥) خمسة وعشرون يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهم :

(١) آدم (٢) ادريس (٣) نوح (٤) هود (٥) صالح (٦) ابراهيم (٧) لوط (٨) اسماعيل (٩) اسحق (١٠) يعقوب (١١) يوسف (١٢) شعيب (١٣) ايوب (١٤) ذو الكفل (١٥) موسى (١٦) هارون (١٧) داود (١٨) سليمان (١٩) الياس (٢٠) اليسع (٢١) يونس (٢٢) زكريا (٢٣) يحيى (٢٤) عيسى (٢٥) محمد ، عليهم السلام اجمعين .

وهناك رسل آخرون لم ترد اسماؤهم في القرآن ولكن أشار الله اليهم بقوله مخاطباً رسوله محمداً ﷺ :

﴿ ورُسُلاً قَدْ قَصَصْناهم عليك من قَبْلُ وَرُسُلاً لم نَقْصُصهم عليك ﴾ النساء : ١٦٤ .

والأنبياء ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة ، بل قد فضَّل الله بعض النبيين على بعض ، قال سبحانه :

﴿ ولقد فضَّلنا بعض النبيين على بعض ﴾

وقد رفع الله درجة محمد ﷺ فوق درجة النبيين بأن أرسله الى الناس كافة بينما الأنبياء السابقون أُرسلوا الى أُممهم خاصة ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ :

﴿ وما ارسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ اكثر الناس لا يعلمون ﴾ سبأ : ٢٨ .

كما ان الرسول محمداً هو خاتم النبيين فقد اختُتِمت به الرسالة وأتى بالكامل من التشريع ، قال تعالى :

﴿وما كان مُحمَّدٌ أبا أَحَدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين﴾ الاحزاب : ٤٠ .

اولو العزم من الرسل : ومن الرسل من وصفهم القرآن (بأولي العزم) وهم الذين أمر الله رسوله محمداً بالاقتداء بهم في جهادهم بقوله :

﴿فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل﴾

وإنما سموا (بأُولي العزم) لأن عزائمهم كانت قوية ، وابتلاؤهم كان شديداً ، وجهادهم كان شاقاً وهم :

نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى .

هذا وإن محمداً عليه السلام كان من أولي العزم أيضاً فهو أكثر الأنبياء جهاداً وصبراً وتضحية، كما ان الله خصه بالثناء والإكرام إلى حدٍّ لم يخص به نبياً قبله .

وجوب الايمان بالانبياء

والإسلام جعل الإيمان بالأنبياء من أركان العقيدة الإسلامية ، قال تعالى :

﴿قولوا آمنا بالله وما أُنْزِلَ الينا ، وما أُنْزِلَ الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أُوتيَ موسى وعيسى وما أُوتي النبيّون من ربهم لانُفَرّق بين أَحَدٍ منهم ونحنُ له مسلمون﴾ البقرة : ١٣٦ .

وقال تعالى في بيان عقيدة المؤمنين :

﴿آمن الرسولُ بما أُنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله لا نُفرّق بَيْنَ أحَدٍ من رُسُله﴾ البقرة : ٢٨٥ .

فالمسلمون يؤمنون بجميع أنبياء الله ويحترمونهم ويجلونهم ، فمن كفر بنبي أو سب أحداً من النبيين الذين نص عليهم القرآن فهو غير مؤمن بما أُنزل على محمد ﷺ . قال سبحانه :

﴿إنَّ الذين يكفرون بالله وَرُسُله ويُريدون أن يُفرّقوا بين الله ورُسُله

ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقاً .. ﴾ النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .

فالاسلام بموجب هذه التعاليم وضع أساساً للتعارف والإخاء والوحدة بين شعوب الأرض ، لأن الناس متى آمنوا بجميع المرسلين سَهُل تفاهمهم على ما يمكن ان يبقى بينهم من الخلاف .

هذه ميزة اختص بها الاسلام وجعل إمكان التقارب بينه وبين غيره من الأديان سهلاً ممكناً عندما أوجب على متبعيه الإيمان بأنبياء الأمم الذين أرسلهم الله واحترامهم .

عصمة الأنبياء

اقتضت حكمة الله ان يجعل انبياءه اكمل البشر خَلْقاً وخُلُقاً ، وافضلهم علماً ، واشرفهم نسباً ، واصدقهم قولاً ، واشدهم فطنة ، كما قد صانهم عن العيوب الخلقية والجسدية كالأمراض المنفرة(١) .

والأنبياء احاطهم الله بالرعاية وشملهم بالعناية والهداية ، قال الله تعالى في شأن محمد عليه السلام ﴿ فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ وقال سبحانه في شأن موسى عليه السلام ﴿ ولتُصْنع على عيني ﴾ .

فالله سبحانه تولى تأديبهم وتربيتهم ، وعصمهم عن الوقوع في الذنوب والمعاصي فلم تكن حياتهم لأنفسهم ، بل كانوا مُثُلاً يُهتدى بهديهم ، ويُسار على نهجهم ثم غدت سننهم وذكراهم من بعد وفاتهم مصابيح تضيء للإنسانية ظلمة الحياة ، وتوضح لها طرق الرشاد ، فهم الهداة الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم .

قال تعالى في جماعة من أنبيائه :

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هَدَى الله فبهُداهم اقتده ﴾ الانعام : ٨٩، ٩٠ .

---

(١) الأمراض المنفرة هي كالجذام والبرص وغير ذلك . لأن الحكمة من بعثة الأنبياء هداية الناس وهي لا تكون إلا مع مخالطة الناس ، ولا تحصل الهداية مع قيام المنفر من تلك الأمراض .

وهؤلاء الأنبياء كانوا في نهاية الطاعة والعبادة وفعل الخير .

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فِعْلَ الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ الأنبياء : ٧٣ .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم نراها تسبغ على كل نبي اكمل الصفات وأسمى النعوت التي سنذكرها عند الكلام عن كل نبي .

وأنبياء الله لو لم يكونوا بهذه المثابة من الكمال الإنساني لصَغُر شأنهم في أعين الناس ولما استجاب لهم احد ؛ ولو كذبوا وخانوا وقبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من ارسالهم ، لهذا نفى الله الخيانة عن جميع الأنبياء بقوله: ﴿وما كان لنبي ان يَغُلَّ ﴾(١) آل عمران : ١٦١ .

والقرآن الكريم يخالف العهد القديم في نظرته الى الانبياء ، فالعهد القديم وصف الأنبياء بالكذب والخداع وارتكاب كبائر المعاصي ، فنسب الى يعقوب الخداع ، وادّعى ان لوطاً زنى بابنتيه ، وقال عن هارون انه دعا الاسرائيليين لعبادة العجل وقال عن داود انه زنى بزوجة قائده اوريا ، وعن سليمان : انه عبد الأصنام إرضاء لزوجاته ، وقد حكى القرآن قصص هؤلاء الأنبياء ولم يؤيد واحدة من هذه الادعاءات وهذه ميزة للقرآن يتميز بها على العهد القديم ، فإن وصف هؤلاء الأنبياء بهذه المثالب وغيرها من شأنه ان يترك انعكاسات سيئة على نفسية المؤمن التقي الورع فيقول في نفسه : إذا كان هذا حال أنبياء الله ورسله ، فلا حرج علينا في العمل مثلهم ، وهذه ثغرة يمكن ان يستغلها اصحاب النفوس المريضة للانزلاق في المعاصي والآثام . فضلاً عن أن هذا يخالف الحقيقة والواقع ، ويتنافى مع عصمة أنبياء الله عن كبائر الذنوب .

فالانبياء – في نظر الاسلام – معصومون عن المعاصي .

وقد تقع من بعضهم اخطاء يعاتبون عليها ولا تتصل بأمور اعتقادية او خلقية مما لا يعد الوقوع فيه أمراً شائناً .

---

(١) يغل : يخون .

وقد يعتبر الأنبياء أنفسهم مقصرين في حق الله لأنهم اعرف الناس بجلال الله وعظمته فيستغفرون الله على تقصيرهم لا على ذنوب اقترفوها .

الأنبياء قدوة للبشر

ولما كان الأنبياء في هذه المنزلة الرفيعة من الطاعة والترفع عن اهواء النفس والبعد عن المعاصي أمرنا الله بالتمثل بهم والأخذ بسِيَرهم والتشبه بهم قال تعالى : ﴿ اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

ويأمر الله المسلمين بالإقتداء برسوله محمد ﷺ .

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وَذَكَرَ الله كثيراً ﴾ الاحزاب : ٢١ .

وسورة الفاتحة التي يرددها المسلمون في صلواتهم جعل الله فيها هذا الدعـــاء :

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ﴾ .

وفي مقدمة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم : الأنبياء .

وفي هذا الدعاء إيحاء من الله للمؤمنين ان يجعلوا الأنبياء قدوتهم في كافة اعمالهم واقوالهم .

معجزات الأنبياء

ويجب على كل مؤمن ان يعتقد ان الله تعالى قد أيّد انبياءه وامدهم من عنايته الالهية بالمؤيدات التي لم تعهدها العقول من قبل ليثبتوا بها للناس صدقهم فيما يدعون اليه ، وانهم مُرسلون من عند الله، وهذه المؤيدات يطلق عليها لفظ معجزات أو آيات ، او بيّنات ، لأنها افعال فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم ، كما أنها مخالفة للسنن الخاصة بالمادة والقوانين الطبيعية المألوفة .

واكثر الالفاظ تداولاً هو لفظ (معجزات) وسميت كذلك لأنها أفعال يعجز البشر عن فعل مثلها وعرّفها العلماء بأنها الأمر الخارق للعادة يجريه الله على يد نبي مرسل ليقيم به الدليل على صدق نبوته ، وهذه المعجزات ممكنة في ذاتها، والعقل لا يمنعها والواقع يؤيدها ، فقد قام رجال وادعوا انهم

رسل الله ، وتحدّوا اممهم بما اظهروه من هذه الخوارق ، ورآها الناس عياناً وآمن بها الكثير عبر التاريخ[١] .

فالنبي يبلغ امته الهدى الذي امره الله بتبليغه ، فمن الناس من تكون فطرته سليمة فيتقبل الحق إذا شعّ نوره ، ومنهم من فسدت فطرته فيتعامى عن الحق وعن نور الهداية عناداً واستكباراً ، لذلك اقتضت حكمة الله ان يؤيد رسله بالبرهان الذي بـــه يخرس لسان المكابرين والمعاندين ، ويقطع اعذارهم ، ويقيم الحجة عليهم .

والمعجزة لا تأتي عن طريق ممارسة علوم ومزاولة اسباب يمكن تعاطيها كما هو الحال في السحر الذي له اسباب وقواعد يمكن البعض ان يتعلمها فيصدر منه السحر الذي يشبه خوارق العادات وليس منها .

انواع المعجزات : ومعجزات الأنبياء انواع : منها — معجزة كونية كانفجار الماء من الحجر حينما ضربه موسى بعصاه حين استسقاه قومه ، وكتظليل الغمام على بني اسرائيل في التيه ، وكانشقاق البحر لموسى ، وانحسار الماء عنه حتى مشى فيه هرباً من فرعون .

ومنها : اخبار غيبية ، كإنباء عيسى قومه بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم .

ومنها : ما هو مخالف للقوانين الطبيعية ، كالنار التي اراد بها الكافرون احراق ابراهيم فكانت عليه برداً وسلاماً .

ومنها : معجزات طارئة تتقدر بقدر الحاجة اليها .

وقد اقتضت حكمة الله ان تكون معجزة كل رسول مما هو شائع بين القوم المرسل اليهم ليكون ذلك أبلغ في تأييد الرسول وأقوى في الالزام ، كمعجزة عيسى عليه السلام بإحياء الموتى لـمـا كان عليه اليهود من إنكار الروح ، وكمعجزة موسى عليه السلام وهي العصا التي اصبحت حية وبلعت عصي السحرة

---

(١) هناك امور خارقة للعادة يجريها الله على يد بعض الصالحين ولا تقترن بدعوى النبوة ويطلق عليها اسم : الكرامة ، كما حدث للسيدة مريم إذ كانت تأتيها في مصلاها فاكهة الصيف شتاء والعكس ، وكانت تهز النخلة بعد ولادتها لعيسى فيسقط عليها رطباً جنياً ولم ولم يكن عليها تمر من قبل .

وحبالهم ، لما بَرِعَ فيه المصريون إذ ذاك من السحر .

وانما جاءت معجزات الانبياء قبل محمد ﷺ على هذا النحو لأن العقول البشرية لم تكن من النضوج بحيث تستطيع ان تقتنع بالحجة وتؤمن بالبرهان العقلي ، ولم يكن لها في هذه الأطوار إلاّ أن تؤمن بالخارق للعادة الذي يأخذ عليها مسالك النظر فيبهرها ظهوره ويكون داعياً الى اقناعها بصدق نبوة نبيها .

معجزة محمد ﷺ : ظلت المعجزات على هذا النمط حتى بلغت البشرية سن الرشد وبدأ نضوجها العقلي فتحققت ارادة الله أن يأتي بالرسالة العامة على يد رسوله محمد ﷺ ، فأيده بالمعجزة العقلية الخالدة ألا وهي القرآن المعجز بأسلوبه وبلاغته ، وبما يحتويه من هدى وعلوم ومعارف ، والذي تحدّى به محمد ﷺ العرب أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وهم الذين اشتهروا بالفصاحة والبراعة في فنون القول .

ومعجزة محمد ﷺ تتميّز عن المعجزات السابقة بأنها معجزة باقية خالدة على الدهر في متناول أي باحث ، وأي طالب للحقيقة ان يلمسها ، بينما معجزات الأنبياء وقائع انقضت رآها الذين عاصروا الأنبياء ، ولم يرها الذين جاءوا من بعدهم ، وإنما وصلت سماعاً ورواية ، وذلك مما يضعف تأثيرها ، وخصوصاً في هذا الزمن الذي كثرت فيه الشبهات على الأديان .

لهذا كان موقف الاسلام من المعجزات هو صرف الناس عن طلبها ، وردهم الى التأمل والتفكر في موضوع رسالة الإسلام ، وما تضمنته من الهدى المتمثلة في القرآن الكريم ، لقد طلب بعض المرتابين في رسالة محمد ﷺ بعض المعجزات[١] فكان ردّ الله تعالى عليهم ان ينظروا في القرآن وما فيه من هُدى ودلائل عقلية على انه وحيٌ إلهي . قال تعالى :

﴿ وقالوا لولا أُنزِلَ عليه آياتٌ[٢] مِنْ رَبِّه ، قل إنّما الآياتُ عِندَ الله وانما أنا نذيرٌ مبين . أوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنّا أنزلنا عليك الكتاب[٣] يُتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقومٍ يؤمنون ﴾ العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ .

---

(١) وعلى الرغم من ذلك فقد اجرى الله على يد نبيه محمد عدداً من المعجزات كنبع الماء بين اصابعه حين وضعها في القربة ، واشباع العدد الكبير من الطعام القليل ، واخباره عن بعض حوادث المستقبل وعن رحلته الى بيت المقدس ليلة الاسراء وغيرها .

(٢) لولا انزل عليه آيات : هلا أنزل على محمد معجزات تدل على صدقه .(٣) الكتاب : اي القرآن

الفصل الثاني

قصص الأنبياء وأهدافها

الغاية من قصص الأنبياء – منهج القرآن في قصصه – اسلوب قصص الأنبياء – سر التكرار في قصص الأنبياء – الفرق بين القرآن والتوراة في قصص الأنبياء .

الغاية من قصص الأنبياء

قصص الأنبياء من اهم العوامل النفسية التي لجأ اليها القرآن في الجدال مع مخالفيه وفي التبشير برضوان الله ، والتحذير من معصيته ، وفي شرح مبادىء الدعوة الإسلامية واهدافها ، وفي تثبيت قلب النبي ومن اتبعه وفي الدلالة على صدق نبوة محمد وأنه مبلّغ عن ربه .

فحين جاء محمد عليه السلام بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء قبله بهذا البيان والتفصيل المحكم– وهو النبي الأمي الذي لم يتتلمذ على احبار اليهود ورهبان النصارى وسواهم – كان بذلك يقدم اعظم دليل على ان ما يأتي به هو وحي الهي . وقد أشارت بعض الآيات الى هذا الغرض في مقدمات بعض القصص او في ذيولها، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً: ﴿ نحن نقص عليك احسن القـَصَص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ يوسف : ٣ .

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل ﴾ هود: ٤٩ .

كما ان الغاية من قصص الأنبياء بيان ان الدين كله من عند الله من عهد نوح الى عهد محمد وأن المؤمنين برسل الله كلهم أمة واحدة والله الواحد هو رب الجميع ، فليس بين الأديان السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام تنافر بل إنها جميعاً تستقي من نبع واحد وكل نبي انما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه قال تعالى مخاطباً أمة محمد : ﴿ شرع لكم

من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه ﴾ . الشورى : ١٣

منهج القرآن في قصصه

والقرآن حين يعرض قصص الأنبياء وغيرهم نراه « يأخذ مواد القصص من احداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها عرضاً ادبياً ، ويسوقها سوقاً عاطفياً ، يبين المعاني ، ويؤيد الأغراض ، ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعاً استهوائياً يستثير منها العاطفة والوجدان »[(١)] ويخرج بها من الدائرة التاريخية الى الدائرة الدينية ، ومن هذا الاتجاه الذي يقصده القرآن « لا يصح حينئذ ان يُؤخذ عليه انه لا يتناول القصة من جميع اطرافها ، وانه لا يتسلسل في ايراد حدوثها مرتبة منظمة ، وانه يصعب فهم القصة من القرآن على من لم يطلع عليها من مصدر آخر ، ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق اهدافه من التهذيب والوعظ ، فحيناً يقص القصة كلها محبوكة الأطراف موصولة الأجزاء مرتبطاً بعضها ببعض في تسلسل واتساق يسلمك السابق منها الى لاحقه حتى تصل الى خاتمتها ... كما نراه في سورة يوسف ، وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها لأن في هذا البعض ما يحقق الهدف ، وقد يلمح القرآن ويشير الى القصة تلميحاً يستغني به عن الاطالة ، اعتماداً على ان القصة معروفة مشهورة . أرأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص أتراه يعمد الى القصّة كلها فيسردها ؟ أم انه يعمد أحياناً إلى جزء من القصة يورده في خطبته ، واحياناً يكتفي بالإيماء الى القصة والاشارة اليها من غير ان يكون في مثل هذا العرض نقص في الخطبة او اعتراض على الخطيب »[(٢)].

أسلوب قصص الأنبياء

وظاهرة بارزة تلفت النظر في أسلوب القرآن في قصصه وغيرها ، هو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس وذلك من تأثير بلاغته التي ترجع الى جمال الفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه فإنك « لا ترى شيئاً من الألفاظ افصح ولا اجزل ولا اعذب من الفاظه ، ولا ترى نظماً احسن تأليفاً ، ولا

---

(١) الفن القصصي في القرآن – الدكتور محمد احمد خلف الله ص ١٢٢ .

(٢) من بلاغة القرآن – الدكتور احمد احمد البدوي .

اشد تلازماً وتشاكلاً من نظمه ، واما المعاني فلا خفاء على ذي عقل انها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في ابوابها ، والترّقي اعلى درجات الفضل من نعوتّها وصفاتّها »[1] ويقول الباقلاني : « إن اسلوب القرآن خاص به لا يضارعه فيه غيره ، كما أنه خارج عن الأساليب المعروفة »[2] « فلم يوجد ولن يوجد في العربية أثر يجاريه في بلاغته بحيث يحفظ جمال الأسلوب مع هذا المقدار من الطول ، والاشتمال على الموضوعات المختلفة من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص »[3] .

ومما يختص به أسلوب القرآن ذلك الايقاع الموسيقي الذي ينجم عن ترابط الكلمات بشكل خاص يكوّن نغماً معيناً رتيباً من مجموعة مقاطع صوتية كما ينجم من الفاصلة واطرادها او تغيرها في نسق معين، فالفاصلة[4] هي مفتاح الوزن القرآني وموسيقى نظمه.

هذه البلاغة القرآنية وما تحمل من معاني الهداية هي التي اخذت بألباب العرب في بدء الاسلام فكانت اكبر حافز لهم للهداية وهي التي شهد الكتاب والشعراء في كافة العصور بتفوقها واستحالة مجاراتّها .

سر التكرار في قصص الأنبياء

ومما يلفت النظر في قصص الأنبياء هو ان معاني القصة ترد مكررة في مواضع شتى من سُور القرآن ، وهذا التكرار لا يتناول القصة كلها وانما هو تكرار لبعض حلقاتّها ، وسبب ذلك « ان المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص ، وهي الأمور التي يبحث عنها ، وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات »[5] .

فليس المقصود من القصص سرد المواد التاريخية بل المواعظ والعبر والتحذير من معصية الله والبشارة برضوان الله ، وهذه الأمور تختلف في موطن

(١) بيان اعجاز القرآن ص ٢٨ – الخطابي .
(٢) اعجاز القرآن ص ٦٠ وما بعدها .
(٣) اعجاز القرآن ص ٦٧ .
(٤) الفاصلة : هي الكلمة التي تختم بها الآية القرآنية .
(٥) الفن القصصي في القرآن – للدكتور محمد احمد خلف الله .

عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف ، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك الى اختلاف الصور الأدبية .

فتارة يجيء اسلوبه في موطن عن طريق الأطناب وفي مواطن أخرى عن طريق الإيجاز مع اختلاف الفواصل من موطن لآخر ومع التنوع بالعبارات البليغة والألفاظ العذبة لتتجلى بلاغته وفنونه الرفيعة في التعبير ، هذا التكرار البليغ برهان على كونه وحياً الهياً يستشعره كل مطلع على أسرار فصاحة اللغة العربية ، فالشاعر أو الكاتب إذا كرّر قولاً لا يكون كلامه الثاني بدرجة الأول في الفصاحة بل تظهر عليه علامات الضعف والتكلف والتفكك ، أما أسلوب القرآن فقد بلغ الغاية في الفصاحة في جميع ما كرر من قصص وسواها .

ولا بد من الاشارة إلى ان في التكرار أثراً ملموساً في التأثير على الجماعات والأفراد فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً ينتهي بها الى قبوله وهذه حقيقة ساطعة .

الفرق بين القرآن والتوراة في قصص الانبياء

« لم يسلك القرآن مسلك التوراة فلم يقص أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هي ، وانما اختار بعضهم ليقص قصصهم واعرض عن الباقي ، قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً : ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ .

وهو حين اختار بعض هؤلاء الرسل لم يعمد الى اخبار هؤلاء جميعاً وانما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوة الاسلامية وموقف النبي من قومه ، ومن هنا لم يكن فيه ذلك التفصيل الموجود في التوراة ، ثم ان القرآن الكريم لم يعمد الى الزمن فيجعله العامل الاساسي في ترتيب هذه القصص كما في التوراة ، إن كل هذا إنما يدل على الفارق الأكبر بين قصص القرآن وبين قصص التوراة ، فالتوراة قصدت الى التاريخ ، اما القرآن فلم يقصد إلاّ الى العظة والعبرة ، والى البشارة والإنذار ، وإلى الهداية والإرشاد ، والى شرح مبادىء الدعوة الاسلامية والرد على المعارضة والى تثبيت قلب النبي ﷺ ومن اتّبعه »[1] .

---

(١) الفن القصصي في القرآن – محمد احمد خلف الله .

فالله سبحانه يبين لنا في القرآن الغاية من ايراده قصص الأنبياء.

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾

ويخاطب الله رسوله محمداً عليه السلام بقوله:

﴿ وكُلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ هود: ١٢٠.

فجملة ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ إشارة الى ان القرآن أتى بوقائع صحيحة من التاريخ ليبين لأتبـاع الأديان القول الفصل في القضايا التي اختلفوا فيها حول حقيقة الأنبياء ورسالتهم والدفاع عما ألصق ببعضهم من تهم وأباطيل.

الباب الثاني

آدم عليه السلام

إدريس عليه السلام

١ - تكوين آدم وتكريمه

٢ - آدم وإبليس

٣ - دروس وعبر

٤ - قصة قابيل وهابيل

٥ - نبوة إدريس

الفصل الأول

تكوين آدم وتكريمه

ظهور آدم – منزلة آدم – تكريم آدم – سجود الملائكة وامتناع ابليس .

ظهور آدم *

تبدأ قصة خلق آدم بتلك المحاورة بين الله والملائكة : فالله سبحانه يخبر الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة هو آدم وذريته ، وأنه سيمكنهم في الأرض ويجعلهم أصحاب السلطان فيها ، ولكن الملائكة تعجبوا من هذا النبأ ، فالذي سيكون خليفة لله في ارضه لن يستطيع ان يقيم ملكوتاً يساوي ملكوت السماء رحمة وطهراً ، فقد خلق الله بشراً قبل آدم فأفسدوا في الأرض ، فقال الملائكة مخاطبين ربهم : اتجعل في الأرض بشراً يفسدون فيها بالمعاصي ويسفكون الدماء بينما نحن ننزهك عما لا يليق بجلالك ونمجدك شكراً لك ! قال الملائكة لربهم ذلك لأنهم رأوا انفسهم أفضل من هذا المخلوق الذي سيُجعل خليفة ، وأنهم أولى منه بخلافة الأرض ، ولكن الله اجابهم بالسرّ المغيب عنهم والحكمة التي اختص بها في خلق آدم ، وهي انه يعلم مالا يعلمون .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعِلٌ في الأرض خليفة، قالوا : أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويَسفكُ الدماء ونحنُ نُسَبِّحُ[1] بحمدك ونُقَدِّس[2] لك قال : إني اعلم مالا تعلمون ﴾ البقرة : ٣٠ .

---

* ملاحظة : لم يذكر القرآن لفظ النبوة بازاء آدم كما ذكر ذلك بازاء غيره من الأنبياء، ولكن ذكر ان الله خاطبه بلا واسطة فأمره ونهاه وأحلّ له وحرّم عليه وهذا هو معنى النبوة؛ وعلى هذا الاساس نستعرض قصة آدم كما جاءت في القرآن ضمن عرضنا قصص الأنبياء عبر تاريخ الانسان .

(١) التسبيح : تنزيه ذات الله عن صفة الأجسام .

(٢) التقديس : تنزيه افعاله عن صفة الذم .

منزلة آدم

وبعد ان خلق الله آدم علّمه أسماء الأشياء وحقائقها وخواصها ليتمكن في الأرض وينتفع بها حق الانتفاع .

ثم أراد الله ان يُري الملائكة رأي العين إن هذا الكائن الجديد الذي صغروا من شأنه هو اكثر منهم علماً وأوسع معرفة ، ولهذا سألهم ان يخبروه بأسماء أشياء معينة وخواصها إن كانوا مصيبين – في ظنهم – وأنهم احق منه بخلافة الأرض .

ولكنّ الملائكة عجزوا عن الإجابة وخاطبوا ربهم معتذرين : اننا ننزهك يا ربنا التنزيه اللائق بك ، ولا نعترض على مشيئتك إذ لا علم عندنا إلاّ الذي وهبتنا إياه وأنت العليم بكل شيء ، الحكيم في كل أمر تفعله .

ويدعو الله سبحانه آدم ليكون معلّما للملائكة ويقول له : يا آدم اخبر الملائكة بما سألتهم، فيجيب آدم، ويظهر فضله عليهم، وهنا خاطب الله الملائكة : ألم أقل لكم إني أعلم ما في السموات وما في الأرض مما لا يعلمه غيري وأعلم ما تظهرون من أقوالكم وما تخفون في نفوسكم .

﴿ وعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّها[١] ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني[٢] بأسماءِ هؤلاء إن كُنتم صادقين . قالوا : سُبحانك لا عِلْمَ لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنْتَ العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألَمْ أقُلْ لكم إني أعلم غَيْبَ السموات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون ﴾ البقرة : ٣٢ ، ٣٣ .

---

(١) علم آدم الاسماء كلها : المراد بالاسماء المسميات ، أي اودع الله في نفس آدم علم الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالله سبحانه خلق في الانسان بموجب استعداده علماً ضرورياً بحقائق الأشياء وسنن الله التي تحكمها وما لها من قوانين النفع والضر ، والواقع يؤيد هذا الرأي، فقد ورث الجنس البشري عن ابيهم هذا الاستعداد الفطري على مدى العصور وظلوا به يكشفون من اسرار هذه الأرض وقوانين طبيعتها ما مكن لهم من السيطرة عليها وتحقيق قول الله (إني جاعل في الأرض خليفة) . وقيل : خلق الله في آدم علماً بأسماء الكائنات من سماوات وارض وحيوان ونبات وجبال وبحار ونحو هذا مما يلابس اهل الدنيا ويحتاج المقيم فيها الى معرفته ليستطيع مزاولة الحياة فيها وبخاصة من يكون خليفة الله في أرضه .

(٢) انبئوني : اخبروني .

تكريم آدم

ويخبرنا القرآن عن المادة التي خلق الله منها آدم :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين[1] ﴾ .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صَلصال[2] من حمأ[3] مسنون[4] ﴾ .

﴿ خـَلـَقَ الانسان من صلصال كالفخار ﴾ .

سوى الله آدم من طين أسود على هيئة إنسان حتى إذا جف الى حدّ أنه إذا نُقر سمع له صوت ، غيّره طوراً بعد طور ، ثم نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان من لحم ودم وعصب يتحرك بإرادته ويفكر .

ثم يأمر الله الملائكة بتكريم آدم بأن يسجدوا له سجود تكريم لا سجود عبادة ، لأن الله لا يأمر احداً ان يتوجه بالعبادة الى سواه .

﴿ وإذ قالَ رَبُّك للملائكة إني خالِقٌ بَشَراً من صَلصال مِنْ حمأ مَسْنُون . فإذا سوّيتُهُ ونَفَخْتُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

ففي هذه الآية ثلاث مكرمات خص الله بها آدم :

أولاً : خلقه بيده .

ثانياً : نفخه فيه من روحه .

ثالثاً : أمره الملائكة بالسجود له .

سجود الملائكة وامتناع ابليس

سجد الملائكة كلهم لآدم – امتثالاً لأمر الله – باستثناء ابليس الذي أبى ان يسجد استكباراً وعناداً ، ولقد سأله الله تعالى – وهو اعلم – عن السبب الذي منعه من السجود لآدم بعد أن أمره به فاحتج بأنه افضل

---

(١) الطين : التراب المختلط بالماء .

(٢) صلصال : مأخوذ من الصلصلة وهي الصوت ، وهو الطين اليابس لم تصبه النار فاذا نقرته صل فسمعت له صلصلة .

(٣) حمأ : طين تغير واسود من مجاورة الماء .

(٤) مسنون : مصور على صورة الوجه ، او مفرغ على هيئة إنسان .

منه تكويناً ، فهو قد خلق من نار ، بينما آدم قد خلق من طين ، والنار في رأيه أفضل من الطين وأبدى غاية التكبر ، عندئذ طرده الله من الجنة، ولعنه لعنة دائمة الى يوم القيامة بسبب كبريائه .

﴿ فَسَجد[1] الملائكةُ كُلُّهم أجمعون . إلاّ ابليس[2] اسْتكبر وكان مِنَ الكافرين . قال يا ابليسُ : مَا مَنَعَكَ أن تسجُدَ لِمَا خلقتُ بيديّ أستكبرت أمْ كُنْتَ من العالين . قال : أنا خيرٌ مِنْهُ خلقتني من نَار وخلقته من طين [3] . قال فاخرج منها [4] فإنك رجيم . وإنّ عليك لعنَتي الى يوم الدّين ﴾ ص : ٧٣ — ٧٨ .

---

(١) السجود في أصل اللغة تذلل مع انخفاض بانحناء وغيره، ثم استعمل في الشرع بمعنى وضع الجبهة على الأرض قصد العبادة ، وهنا المراد به سجود تكريم .

(٢) ابليس : اسم علم اعجمي، وقال ابو عبيدة: انه عربي مشتق من الإبلاس وهو الإبعاد عن الخير او اليأس من رحمة الله .

(٣) اما بيان ان النار افضل من الطين فلأن النار مشرق علوي لطيف مجاور لطبيعة الاجرام السماوية والطين مظلم سفلي ، وايضاً النار قوية التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلا القبول والانفعال .

(٤) منها : اي من الجنة .

الفصل الثاني

آدم وإبليس

طرد ابليس من الجنة – خلق حواء – أغواء ابليس لآدم – خطيئة آدم – العفو عن آدم واخراجه من الجنة – الجنة التي اسكن الله فيها آدم .

طرد ابليس من الجنة

كان جزاء ابليس على عناده وكبريائه وتمرده عن السجود لآدم هو الطرد من الجنة ذليلاً مهانا .

وطلب ابليس من ربه ان يمهله حياً الى يوم القيامة فأجاب الله طلبه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وعلّل طلبه قائلاً : بسبب حكمك عليّ يا رب بالهلاك أقسم لأحاولنّ جهدي أن أضل بني آدم واصرفهم عن طريقك المستقيم متخذاً في سبيل ذلك كل وسيلة ممكنة، وسآتيهم من كل جهة استطيعها مترقباً كل غفلة منهم وضعف حتى أصل الى اغوائهم وافسادهم ، واجعل اكثرهم غير شاكرين لك .

ولكن الله نهره قائلاً : اخرج من الجنة مذموماً مطروداً من رحمتي واقسم اني سأملأ جهنم منك وممن يتبعك من بني آدم اجمعين . وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله :

﴿ قال : فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبّر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين[1]. قال : أنظرني الى يوم يُبعثون[2]. قال : إنك من المُنظرين . قال : فَبِما اغويتني[3] لأقْعُدنّ[4] لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم

(١) الصاغرين : الأذلاء .

(٢) يبعثون : البعث هو يوم القيامة، يوم يبعث الله الناس من قبورهم .

(٣) الاغواء : الهلاك ، وقيل ايقاع الغي في القلب ، وهو الاعتقاد الباطل .

(٤) لأقعدن لهم : يرى النحويون ان حرف (على) محذوف من هذه الجملة والتقدير : لأقعدن لهم على صراطك المستقيم .

ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤماً[1] مدحوراً[2] لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين ﴾ الاعراف ١٣ – ١٨ .

وتارة يصور القرآن عزم ابليس على اغواء آدم باستثناء عباد الله الصالحين :

﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً . قال أرأيتك[3] هذا الذي كرّمت عليّ لئن اخرتني الى يوم القيامة لاحتنكن[4] ذريته إلاّ قليلا . قال: اذهب[5] فمن تبعكَ منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز[6] من استطعت منهم بصوتك[7] واجلب عليهم[8] بخيلك ورَجلك[9] وشاركهم في الأموال والأولاد وعِدهم وما يعدُهم الشيطان إلاّ غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ الاسراء : ٦١ – ٦٥ .

والمعنى : إن الله قال للملائكة حيوا آدم وكرّموه بالانحناء له ، فامتثلوا لأمره إلاّ ابليس امتنع وقال منكراً : كيف اسجد لمن خلقته من طين ؟. اخبرني يا رب عن هذا الذي كرّمته عليّ حين أمرتني بالسجود له ، لِمَ فضّلته عليّ مع اني خيرٌ منه ؟ ولئن أخرت موتي الى يوم القيامة لأهلكن ذريته بالاغواء والضلال إلاّ القليل منهم ممن عصمته وحفظته . فقال الله مهدداً إياه : امض لشأنك الذي اخترته لنفسك فمن اطاعك من ذرية آدم فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ، وهو جزاء وافر كامل . ويمضي الله سبحانه في وعيده قائلاً : استخف[10] وأوقع في معصية الله من استطعت منهم وافرغ جهدك في جميع

---

(١) مذؤماً : محقوراً .

(٢) الدحر : الطرد والابعاد .

(٣) أرأيتك : اخبرني .

(٤) لاحتنكن : لأقودنهم الى المعاصي .

(٥) اذهب : امض لشأنك .

(٦) استفزز : يقال استفزه إذا استخفه فخدعه واوقعه فيما اراده .

(٧) بصوتك : بدعائك الى معصية الله .

(٨) واجلب عليهم : اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك .

(٩) بخيلك ورجلك : كل راكب او راجل في معصية الله من اتباع ابليس .

(١٠) استخفه : ازاله عن الصواب .

انواع الإغراء وشاركهم في كسب الأموال المحرمة وصرفها في المعاصي ، وتكفير الأولاد واغرائهم على الفساد ، وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة . ثم يستدرك الله فيقول : إن ما يعد الشيطان اتباعه انما هو غرور وتمويه ، أما المخلصون من عباد الله المؤمنين فليس لإبليس عليهم سلطة ولا قدرة لأنهم توكلوا عل ربهم ، وكفى بالله نصيراً .

خلق حواء

أمر الله آدم ان يسكن الجنة مع زوجته ، واختلف العلماء في الوقت الذي خلقت زوجته فيه ، فقيل : إن الله تعالى لما اخرج ابليس من الجنة واسكن فيها آدم بقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به ، فألقى الله تعالى عليه النوم ، ثم اخذ ضلعاً من اضلاعه من شقه الأيسر ووضع مكانه لحماً وخلق حواء منه فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة فسألها: من أنت ؟ قالت : امرأة ، قال: ولمَ خـُلِقتِ ؟ قالت: لتسكن إليّ. وفي القرآن الكريم اشارة لذلك ، قال تعالى :

﴿ الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾.
﴿ وجعل منها زوجها ليسكن اليها ﴾

إغواء إبليس لآدم

لما اسكن الله آدم وزوجته الجنة أباح لهما ان يتمتعا بكل شيء فيهـا فيأكلان ما يشتهيان من ثمرها ، ولم ينههما إلاّ عن شجرة واحدة ، وأمرهما ان لا يقرباها وان لا يذوقا من ثمرها ، وأنهما إن فعلا ذلك يكونان من الظالمين لنفسيهما بمخالفة أمر الله ، وما يترتب على ذلك من العقوبة .

سُرّ ابليس في قرارة نفسه لأنه وجد في ذلك النهي منفذاً ينفذ فيه الى آدم وزوجته، فأخذ يحدثهما ويغريهما ليأكلا من ثمر تلك الشجرة ليكون عاقبة ذلك كشف ما سُتر وغطي من عوراتهما .

وقد بالغ ابليس في إلحاحه وخداعه فأوهمهما ان الله منعهما من الأكل من تلك الشجرة لكي لايصيرا ملكين، ولا يخلدا في الجنة ذات النعيم ، وأقسم أنه لهما من الناصحين . قال تعالى :

﴿ ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنّة فكُلا من حيثُ شئتُما ولا تقربا هذه الشجرة[1] فتكونا من الظالمين . فوسوس[2] لهما الشيطان ليُبدي لهما ما وُري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ ان تكونا ملكين[3] او تكونا من الخالدين . وقاسمهما[4] اني لكما لمن الناصحين ﴾ الاعراف : ١٩ — ٢١ .

خطيئة آدم

نسي آدم وحواء أن ابليس هو عدوهما ، ووقعا في حبائل الفتنة ، وأكلا من الشجرة ، فلما ذاقا طعمها ، انكشفت لهما عوراتهما ، وكانا قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته ولا عورة الآخر ، ومن فرط حيائهما أخذا يجمعان بعض اوراق الشجر ليغطيا به ما انكشف ، وناداهما ربهما مؤنباً اياهما على ذنبهما : ألم انهكما عن الأكل من تلك الشجرة ، واخبركما ان الشيطان لكما عدو مبين ؟

وشعر آدم وحواء بمبلغ ما اقترفا من إثم في معصيتهما لله ، فندما اشد الندم وتضرعا الى ربهما قائلين : يا ربنا اننا ظلمنا انفسنا بعصيانك ومخالفة أمرك فاغفر لنا وارحمنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا بفضلك لنكونن من الخاسرين .

﴿ فدلاّهما بغرور[5] فلما ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لهما سوآتُهما[6] وطفقا[7] يخصفان[8] عليهما من ورق الجنّة وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما

(١) وقع الخلاف في نوع هذه الشجرة فقيل الحنطة وقيل النخلة وقيل التين وقيل شجرة المحبة وقيل غير ذلك والأجدر عدم التعيين لأن الله لم يعينها .

(٢) الوسوسة : الخطرة الرديئة والهمس الخفي ، فوسوسة الشيطان للبشر هي ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم ما يضرهم في ابدانهم وارواحهم ومعاملاتهم .

(٣) تكونا ملكين : أي فيما أوتي الملائكة من الخصائص كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بعوارض الكون المؤلمة المتعبة .

(٤) قاسمهما : حلف لهما .

(٥) فدلاهما بغرور : دلاه إذا أطمعه ، وقيل : الدالة هي الجرأة ، أي جرأهما على أكل الشجرة ، والغرور : الخداع بالباطل ، وقيل : اوقعهما في الهلاك .

(٦) فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما : يرى الشيخ رشيد رضا ان الرغبة الجنسية دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة فنبهتهما الى ما كان خفياً عنهما من أمرها فخجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة الى سترها.

(٧) طفقا : اخذا وجعلا .

(٨) يخصفان : يجعلان ورقة على و رقة من اوراق الشجر .

الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن مِن الخاسرين ﴾ الاعراف : ٢٢ ، ٢٣ .

العفو عن آدم واخراجه من الجنة

قَبلَ الله توبة آدم ﴿ فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب[١] عليه إنه هو التواب الرّحيم ﴾ البقرة : ٣٧ .

ولكن الله أنزل آدم وحواء من الجنة الى الأرض ، واخبرهما انه سيكون لذريتهما عداء فيما بينهم ، وانهم سيقيمون في الأرض يعمرونها ويتمتعون فيها تمتعاً موقوتاً الى حين انتهاء آجالهم ، وأنه سبحانه سيمدهم بالهدى والرشاد ، فمن تبع هدى الله فلن يقع في المآثم في الدنيا ولن يشقى فيها .

﴿ قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مُسْتَقَرٌ ومتَاعٌ الى حِينٍ قال : فيها تَحْيَوْن وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُونَ ﴾ الاعراف : ٢٣ ـ ٢٥ .

﴿ قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإما يأتينّكم مني هُدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ طه : ١٢٣ .

الجنة التي اسكن الله فيها آدم

اختلف العلماء في الجنة المذكورة في القرآن التي أسكن الله فيها آدم والتي أمره بالهبوط منها هل كانت في الأرض أو في السماء .

والرأي الراجح ان هذه الجنة كانت في الأرض لأن الله سبحانه خلق آدم في الأرض كما في قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ولم يذكر الله انه نقله الى السماء .

ثم إن الله تعالى وصف الجنة الموعودة في السماء (جنة الخلد) ولو كانت هي ذاتها التي اسكنها لآدم لما تجرأ ابليس ان يقول لآدم : ﴿ هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ .

وجنة الخلد دار للنعيم وليست بدار تكليف وقد كلف الله آدم وحواء بأن لا يأكلا من الشجرة .

---

(١) فتاب عليه : قبل توبته ، وتاب العبد : رجع الى طاعة ربه ، واصل التوبة الرجوع .

كما ان جنة الخلد التي في السماءوصف الله من يدخلها ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ ﴿واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها﴾ بينما أخرج آدم وحواء من الجنة التي أدخلا فيها فتعين ان تكون تلك الجنة غير الموعودة في القرآن للمؤمنين الصالحين يوم القيامة .

ووجه آخر أن ابليس لما امتنع عن السجود لُعِنَ وأخرج من الجنة فلو كانت هذه جنة الخلد فإنه لا يقدر مع غضب الله ان يصل الى جنة الخلد ويوسوس فيها لآدم وحواء .

يتبين مما ذكرنا ان الجنة التي أسكنها الله لآدم هي غير جنة الخلد التي هي في السماء، ولا يمنع ان تكون الجنة التي اسكنها الله لآدممرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات اشجار وثمار وظلال ونعيم ، وهي التي وصفها الله بقوله : ﴿إن لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى[1]﴾ طه : ١١٨

أي هذه الجنة لا تجوع فيها ولا تتعرى من اللباس ولا يمس باطنك حرّ الظمأ ولا ظاهرك حرّ الشمس ، ولكن لما أكل آدم وحواء هبطا الى ارض الشقاء والتعب والابتلاء والامتحان .

واما من احتج بأن آدم وحواء كانا في جنة الخلد التي في السماء وأمرهما بالهبوط الى الأرض بدليل قوله تعالى : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ فقد رُدّ على ذلك بأن الهبوط يأتي بمعنى الانتقال من بقعة الى بقعة كما في قوله تعالى : ﴿ اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم ﴾ وكما قال سبحانه عن نبيه نوح حين أمره بمغادرة السفينة ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا ﴾ .

(١) ولا تضحى : ولا يصيبك حر الشمس .

الفَصْلُ الثالِث

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

تكريم الانسان – عاقبة الكبر – دعوة الى السمو الروحي – آدم ليس اول من سكن الأرض – نظرة العلم الى مادة الانسان – درس في اتقاء الشر .

تكريم الانسان

من المطاعن التي وجهت الى الاسلام أنه لم يكرم الإنسان ولم يرفع مكانته، وهذا ما جاء في كتاب (حضارة الاسلام)[1] إذ يقول الكاتب : « والاسلام منذ بداءته لم يعترف للانسان إلاّ بقليل من التقـــدير وينزع القرآن الى اقناعه بمهانة اصله الجسدي » .

والناظر المتأمل في هذا القول يرى ان قصة آدم في القرآن من أولها الى منتهاها هي رد على هذا الزعم، فالقرآن يرفع من مكانة الانسان ويعلي قدره بما لم تصل اليه أية فلسفة او دين او مذهب اجتماعي .

اما الزعم بأن القرآن ينزع الى اقناع الانسان بمهانة أصله الجسدي، فالمتأمل في القرآن يرى انه يذكّر الانسان بهوانه وضعفه، فهو يلفت نظره الى خلقه من تراب او من طين او من نطفة – وهذا معترف بـــه علمياً – وذلك كبحاً لجماح غروره كي لا يتجاوز حدّه فيكفر بخالقه ويطغى ويستكبر على من حوله .

ففي قصة آدم يخبرنا الله بأنه خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض؛ يحيي مواتها ويستخدم مواردها ويذهب في الابداع بها والترقي فيها الى ابعد الحدود .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ ويخاطب الله بني آدم ﴿ وهو الذي خَلَقَ لكم ما في الارض جميعاً ﴾ .

---

(١) تأليف المستشرق النمساوي ج.ا.جرونيباوم .

وقد هيأ الله كل الوسائل التي تمكن الإنسان من تحقيق الخلافة فعلمه الأسماء كلها ﴿ وَعلّم آدم الاسماء كلها ﴾ أي علم آدم وركز في طبعه ومواهبه وسائل التعرف للحقائق واكتناه الأشياء والمعارف التي يحتاجها .

ثم تتراءى لنا صورة ثانية من تكريم آدم حيث أمر الله الملائكة بالسجود له تحية اجلال وتعظيم لا سجود عبادة .

﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

وإذا ذكرنا آدم في معرض التكريم فإن نسله يشملهم هذا التكريم بنص القرآن فالله سبحانه يقول :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . الإسراء : ٧٠ .

ففي هذه الآية تكريم لجميع افراد النوع الإنساني لأن الله يقول ﴿ بني آدم ﴾ فلا تمييز بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون ، ولا بين آري وسامي ، ولا بين ذكر وانثى ولا بين قوي وضعيف .

وتأمل ما جاء في الآية ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ فهو تصوير لمظهر العلو وأن الإنسان مخدوم حيثما حل، فقد سخر الله له في البر والبحر من يحمله، ففي الماضي كانت الحيوانات والسفن الصغيرة وسيلة للمواصلات ، اما الآن فإننا نفهم هذا الحمل على المعنى الواسع بما ألهم الله الانسان لاختراعه من طائرات وقطارات وسيارات وبواخر كبيرة .

وتأمل ايضاً ما جاء في الآية السابقة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ فهو تصوير للمستوى الرفيع الذي عليه الإنسان في مطعمه ومشربه، وفي قوله سبحانه ﴿ وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ بيان لشأن الإنسان وأن له الفضل على جميع المخلوقات .

هذا وإن شعور الإنسان بأنه خليفة لله في الأرض، وان الملائكة سجدت له وانه مستحق للتكريم ومفضل على كثير ممن خلق الله، ان ذلك كله من اهم الحوافز له على الترقي المعنوي والأخذ بالمقومات الأدبية .

أين هذا كله من تلك النظرات المتشائمة التي تنظر من خلالها بعض الفلسفات الحديثة للإنسان فتراه أتعس المخلوقات واشقاها ، وأنه ليس إلاّ حشرة

حقيرة او دودة قذرة يعيش في مزبلة الحياة كما يقول (سارتر)، او انه ليس إلاّ قرداً خلقه الله ليتلهى به في ابديته الطويلة المملة كما يقول (نيتشه) .

هذه النظرات المريضة تقتل في الإنسان كل أمل، وتجعله عرضة لسهام اليأس والتشاؤم، على حين ان نظرة القرآن للإنسان تولد فيه كل طموح وسمو وتجعله يشعر بمعاني العزة والكرامة .

عاقبة الكبر

ونأخذ من قصة آدم درساً في الابتعاد عن الكبر والنفور منه بعد ان بيّن الله لنا عاقبته المترتبة عليه .

فإبليس عندما تكبر ولم يذعن لأمر الله ابتلاه الله بالذلة وطرده من الجنة مهاناً كما قال الله تعالى :

﴿ فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين[١] ﴾

وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ (من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه الله) .

ويوضح الرسول معنى الكبر بقوله :

(الكبر بَطَرُ الحق وغمط الناس)[٢] .

وبطر الحق : رده وعدم الإذعان له .

وغمط الناس هو ازدراؤهم وانتقاص اقدارهم .

فالكبر على هذا التحديد هو الأنانية بعينها التي يريد صاحبها ان يكون اشبه بإله في الأرض لا يخضع لحق ولا ينتصح من احد . لأنه ــ بزعمه ــ لا يريد ان يكون تابعاً للغير ، فهو طاغية جبار على من تحت يده من الناس لا يخصهم بكرامة او خير اذ يرى نفسه أولى بكل ذلك .

لهذا كانت عاقبة الكبر في القرآن وخيمة، ذلك بأن المتكبر مكروه من الله ﴿ إن الله لا يحب المستكبرين ﴾ ، وأن الكبر يوجب العقاب الشديد والاخراج من زمرة المؤمنين الى زمرة الملعونين، ولهذا خاطب الله ابليس المتكبر ﴿ فاخرج

---

(١) الصاغرون : الأذلاء .

(٢) اخرجه مسلم .

منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي الى يوم الدين ﴾ .

هذا وإن الكبر ينم عن خفة في العقل ، وقد صور ذلك الإمام جعفر الصادق اصدق تصوير إذ قال : (ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلاّ خرج من عقله مثل ما دخله) .

دعوة الى السمو الروحي

وفي قصة آدم دعوة للإنسان الى السمو الروحي والتغلب على عوامل الشر في نفسه وذلك بأن الله خص آدم بروح منه.

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين .فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

فالإنسان – كما يقرّر القرآن – مخلوق من مادة وهي الطين تتمثل في جسد الإنسان : عضلاته واعضائه ولحمه ودمه ، والعلم يقرر ان جسم الإنسان مكون من العناصر نفسها التي يتكون منها جسم الأرض ، وتكوين الإنسان من المادة تنبعث منه عدة عوامل : نزوع الى اللذات البشرية من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومال وجاه ونشاط جنسي ، كما ان الإنسان من طبيعة مادته ينزع الى الإيذاء والضرب والقتل والثأر والانتقام والتسلط والكبرياء .

وكما ان الإنسان مخلوق من مادة فإن فيه أيضاً نفخة من روح الله ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي ﴾ .

ونفخ الروح في الإنسان هو سرّ من لدن الله سبحانه وضعه في الانسان ليحدوه الى الايمان بخالقه والشكر له والرجوع اليه ، ويدعوه الى تحقيق ارادة الله في هذه الحياة والتحلي بالقيم الاخلاقية من العدل والصدق والاحسان وحب الحق والخير . لهذا يقول الله في وصف عباده المؤمنين ﴿ اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه ﴾ .

وليس المراد بالروح ما يتبادر للذهن من بث الحياة فيه ، لأن الحياة الحيوانية قدر مشترك بين الإنسان والحيوان، فليس له من جلالة الشأن إذا كان مختصاً بالحياة الحيوانية ما يأمر الله من أجله الملائكة أن تسجد له ، هذا ولم يَرِدْ في القرآن ذكر الروح مراداً بها إجراء الحياة الحيوانية في البدن .

فالإنسان – في مفهوم القرآن – مادي وروحي بفطرته، يجمع بين سرّ الايمان بالله والرجوع اليه[1] والسمو الخلقي، وبين الانجذاب الى الأرض والركون الى متعتها الحيوانية .

يتبين لنا مما تقدم من مفهوم القرآن ان الإيمان والأخلاق في أشمل معانيهما ليسا شيئاً منفصلاً عن الانسان ولا شيئاً مفروضاً عليه من خارج كيانه بل هما نابعان من صميم فطرته بسبب ان الله نفخ فيه من روحه .

من هنا تتضح لنا مخالفة القرآن لمذهب (دركايم) اليهودي الذي يقول : (إن مجموعة القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها) ، ومخالفة القرآن للتفسير المادي للتاريخ الذي يقول : (إن القيم الأخـــلاقية ليست شيئاً نابعاً من كيان الإنسان إنما هي انعكاس للتطور الاقتصادي والاجتماعي والمادي الذي يعيش فيه الإنسان والذي هو مفروض على الإنسان من خارج نفسه) .

ان مخالفة القرآن لهذه المذاهب المادية ليست غريبة لأن هذه التفسيرات تسقط من حسابها فطرة الإنسان الخيّرة وتعامله في الحقيقة على اساس التفسير الحيواني للإنسان الذي اوحت به (الداروينية) وسرى في اكثر المذاهب الأوروبية في القرن التاسع عشر ومبادىء القرن العشرين وهو تفسير يجرد الإنسان من انسانيته ويهبط به الى دركات الحيوانية .

آدم ليس أول من سكن الأرض

لم يجاف الاسلام العلم في اي فترة من فتراته بل كان دائماً يفتح صدره لمقرراته .

فعلم الانثربولوجيا يقرّر ان الأرض سكنها انواع شتّى من البشر قبل آدم معتمداً على تحليل وفحص الجماجم والعظام المتحجرة التي وجدت في انحاء المعمورة والتي قدّر العلماء ان بعضها يرجع عمرها الى مليون سنة وبعضها الى ثلاثة ارباع المليون والبعض الى أقل من ذلك .

فإنسان جاوه هو اقدم انسان حفري، ثم يليه إنسان بكين ثم إنسان صولو فإنسان بلتداون ثم هيلدبرج ثم إنسان روديسيا، ويأتي في نهاية هذا التصنيف

---

(١) وفي القرآن تأكيد لذلك وهوقوله تعالى (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها)

الزمني للأشكال البشرية إنسان نياندرتال الذي يظن انه هو الجد المباشر للانسان العاقل ، وقد ساد هذا النوع في الفترة بين ١٣٠,٠٠٠ سنة الى ٧٠,٠٠٠ سنة ق . م وانتشر في جهات كثيرة من العالم .

والقرآن يشير الى ان هناك بشراً قبل آدم في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

فللمفسرين في معنى الخليفة مذهبان : الأول ـ انه كان في الأرض صنف او اكثر من نوع الإنسان وانه انقرض وقد افسد في الأرض وسفك الدماء وان الملائكة عجبوا لأنهم اعتقدوا ان الخليفة لا بد ان يشابه من يخلفه ويكون على شاكلته ولذا قالوا ﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ .

والثاني ـ ان الله سماه خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه وجعل له التصرف على هذه الأرض والسيطرة على مخلوقاتها .

وهكذا نرى ان القرآن يسير جنباً الى جنب مع مقررات العلم التي اخبرتنا ان هناك صنفاً من البشر قبل آدم سكن الأرض ثم انقرض .

نظرة العلم الى مادة الانسان

القرآن اخبرنا عن المادة التي خُلِقَ منها آدم وذريته .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴾ .

فالطين كما صرحت به هذه الآية هو الأصل الذي نشأ منه الإنسان وإن يكن هذا الطين قد تقلب في اطوار عديدة حتى ظهر منه الإنسان ، والطين كما هو معروف هو التراب المختلط بالماء .

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

والمراد بـ (الحمأ المسنون) هو الطين الأسود المتغير الرائحة . ويقول البيضاوي في تفسيره : انه الطين المتغير المسود من طول مجاورة الماء له .

فالقرآن صرح : أن خلق الإنسان وأصله هو من تراب وماء .

أما ان خلق الإنسان من تراب فذلك ما يؤيده الواقع ويقره العلم ، فلو اخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عمليات التحليل لوجدتها تتركب

من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض ، هذا وإن الإنسان عندما يموت يتحلل جسده الى تراب .

أما الماء فيعتقد علماء الأحياء ان الحياة بدأت في المياه المالحة للمحيطات الأولى ولكن قليلاً منهم يعتنقون نظرية تقول إنها بدأت في الماء العذب .

والحياة لم تبدأ في الماء فحسب بل يمكننا ان نقول دون ان نحيد كثيراً عن الدقة العلمية ان الحياة لم تترك الماء قط ، ذلك ان جميع صور الحياة تستمر بفضل البروتوبلازم وتمارس نشاطها داخله، وقد عرّف احد المعاجم البروتوبلازم بأنه مادة زلالية نصف سائلة تعد الأساس الأول للحياة الطبيعيّة التي تتطور منها جميع الكائنات الحية ، وتكون المواد التي يتكون منهـا البروتوبلازم ذائبة في الماء او عالقة به ، فالماء اساسي للبروتوبلازم . والبروتوبلازم اساسي للحياة ، فالحياة والماء في هذا الكوكب متلازمان لا ينفصل احدهما عن الآخر، وصدق الله إذ قال: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ .

درس في اتقاء الشر

اخبرنا الله في هذه القصة عداوة ابليس لأبينا آدم، وبيّن لنا كيف اغراه بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الاقتراب منها وأوقعه في مخالفة أمر ربه بكذبه وخداعه وما ترتب على ذلك من خروجه من الجنة جزاء عصيانه ؛ ان عداوة ابليس لآدم لم تنقطع منذ ذلك العهد فهي مستمرة في ذريته الى يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ﴾ .

هذا وقد ذكرنا من قبل ان الله نفخ في آدم من روحه ، وان الانسان – تبعاً لذلك – فيه صفات الخير والعدل والإحسان ، كما انه معرّض لغواية الشيطان الذي يحاول ان يطمس في الإنسان هذه الصفات السامية ويقوده الى الشر ، ومن هنا نشأ الصراع بين الخير والشر في الإنسان ، وفي ذلك اختبار له ، وامتحان لجوهره ، فإن جاهد اهواء نفسه وانتصر عليها فاز بنعيم الله ورضوانه ، وإن انقاد لأهواء نفسه ، واستجاب لوساوس الشيطان قادته الى الشر واصبح من الخاسرين .

وفي هذا المقام يَحسُنُ بنا ان نتكلم قليلاً عن الشيطان ووسوسته وتأثيره على الإنسان ليأخذ القارىء حذره منه، ويجاهد نفسه ليصل الى السمو الروحي الذي فيه سعادته في الدارين .

طبيعة إبليس والشياطين : ابليس هو ابو الشياطين واصلهم الأول ، وإبليس وذريته هم المتمردون من عالم الجن: ﴿ إلاّ ابليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه ﴾ .

والجن نوع من الأرواح العاقلة المريدة وهم مكلفون على نحو ما عليه الإنسان، ولكنهم مجردون عن المادة البشرية مستترون عن الحواس، لا يُرون على طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقية قال تعالى عن ابليس :

﴿ انه يراكم هو وقبيله(١) من حيث لا ترونهم(٢) ﴾ الاعراف : ٢٧ .

والجن خُلقوا من نار ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم(٣) ﴾ .

ويقول ابليس مخاطباً ربه : ﴿ خلقتني من نار ﴾ .

والجن طوائف فمنهم الصالحون الذين يعملون الخير ومنهم الضالون المفسدون .

﴿ وأنّا مِنـّا الصالحون ومِنـّا دون ذلك كنا طرائق قددا(٤) ﴾ الجن : ١١ .

الشياطين أعداء الإنسان : وابليس ومن معه من الشياطين هم اعداء الإنسان الذين يدأبون على تقوية دواعي الشر والباطل في النفس الإنسانية . قال تعالى :

---

(١) قبيله : جماعته .

(٢) ان عدم رؤيتنا للجن والشياطين لا يستلزم عدم وجودهما، فالطبيعة فيها أمور كثيرة خافية عن حواس الانسان، وقد توصل العلماء الى كشف بعض هذه المخفيات منذ عهد قريب كالميكروبات والكهرباء وغير ذلك . فهل كانت هذه الأشياء قبل كشفها غير موجودة ثم وجدت بعد ان اكتشفها الإنسان؟ لا .. لا يقول عاقل بهذا ابداً . هذا ولا يزال هنالك الكثير مما لم يتوصل الإنسان الى كشف اسراره . والجن والشياطين من العوالم الغيبية التي اخبرنا القرآن بوجودها ، وهما مما لا يقع تحت حواس الإنسان.

(٣) نار السموم : لهب النار الخالص .

(٤) طرائق قددا : مذاهب متفرقة .

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ .

وقد أَمَدَّ الله كُلَّ إنسان بشيطان يوسوس له ويزيّن له السوء ويغريه بالمنكر يستوي في ذلك الأنبياء وغيرهم ، قال تعالى :

﴿ وكذلك جعلنا لكلّ نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ﴾ الانعام : ١١٢ .

وروي عن الرسول أنه قال: « ما منكم من أحد إلاّ وقد وكّل به قرين من الجن . قالوا : واياك يا رسول الله ؟ قال : واياي إلاّ ان الله اعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلاّ بخير[١] » .

الشياطين مصدر الشر في الوجود : والشياطين هم دعاة الشر والفساد على هذه الأرض .

فالشيطان هو الذي يزيّن لكل فرد ما تهفو اليه نفسه ويميل اليه هواه من حب للجنس وتطلع الى الجاه ، وايثار للاستبداد ، وميل الى الطغيان والفساد .

فهو الذي يغري بالعداوة والبغضاء بين الناس فيفرق بين الأخ واخيه ، وبين الزوج وزوجه وبين طوائف الأمة وجماعاتها . قال تعالى :

﴿ قل لعبادي يقولوا التي هي احسن إنَّ الشيطان يَنْزغُ بينهم ﴾ .

فالشيطان يفسد بين المؤمنين بالكلمة الخشنة القاسية تصدر وتفلت بلا وعي، ثم بالرد السيء الذي يتلوها، فإذا جو المحبة والوفاق يتبدل الى العداوة والخلاف ، بينما الكلمة الطيبة تبعد الشيطان ، وتأسو جراح القلوب .

والشيطان هو الذي يلقي في نفس الإنسان ان الإنفاق على المحتاجين يُذهب المال، ويأمره بالإمساك والبخل والحرص عليه ومنع الزكاة عن مستحقيها:

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ البقرة : ٢٦٨ .

والخمر والقمار هما من اهم ما يحرص عليه الشيطان في وسوسته للناس لأنهما أداتان من أدوات المعصية والتخريب والعداوة بين الناس والاعراض عن ذكر الله ، قال تعالى :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ إنّما الخمرُ والميسر والانصابُ والأزلام رِجسٌ من عَمَل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يُريدُ الشيطان أن يُوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ المائدة : ٩١ .

والتبذير من صفات الشياطين وايحائهم ، لأن التبذير يؤدي الى كفران النعمة .

﴿ إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ .

والفساد الجنسي الذي استشرى في العالم من استحـداث اللباس العاري الذي يكشف عن عورات المرأة ومفاتنها والذي يغري الناس بالفواحش هو من ايحاء الشيطان . وإن ما في العالم اليوم من فساد خلقي من إنشاء اندية للعراة يظهر فيها الرجال والنساء بدون لباس ، وما يحدث في (البارات) وجماعات (الهبيين) من فساد خلقي كل ذلك من وساوس الشيطان اخبرنا به الله قبل ان يقع وينتشر ويستفحل كما حصل في هذا العصر . قال تعالى :

﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطانُ كما اخرج ابويكم من الجنة يَنْزِعُ عنهما لباسهما ليُريهما سوآتهما ﴾ الاعراف : ٢٧ .

لا سلطان للشيطان على المؤمن : والإيمان يفيض على النفس اشراقاً ويملأ القلب نوراً ، وإذا اشرقت النفس واستنار القلب انمحى كل ما يوسوس به الشيطان من شر . قال تعالى :

﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سُلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ النحل : ٩٨ ، ٩٩ .

﴿ إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ .

ولا شيء أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله بالقلب ، ومراقبته في السر والجهر ، فذكر الله يجلي البصيرة ويقوي في النفس حُبَّ الحق ودواعي الخير ، ويضعف فيها الميل الى الباطل والشر حتى لا يكون للشيطان مدخل اليها ، قال تعالى :

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم[1] طَائِفٌ مِنَ الشيطان تَذكَّروا فإذا هُمْ مُبصرون﴾ الاعراف : ٢٠١ .

والمعنى : إن المتقين إذا اتصل بهم طيف من الشيطان ليحملهم على المعصية تذكروا ان هذا من عدوهم الشيطان وإغوائه ، وتذكروا عقاب الله لمن اتبع الشيطان، وجزيل ثوابه لمن أطاع الله فإذا هم اولو بصيرة يفرقون بها بين الخير والشر وبين الحق والباطل فيبعدون عن انفسهم نزغ الشيطان ووساوسه .

ولا بد من الاشارة الى ان الشيطان لا يتمكن من الإنسان إلاّ إذا أعرض عن ذكر الله وفي هذا يقول تعالى :

﴿ ومن يَعْشُ[2] عَنْ ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين﴾ الزخرف : ٣٦ .

والمعنى : ان من غفل عن ذكر الله يسّر له شيطاناً يكون له قريناً ، كما أن من داوم على ذكر الله باعد عنه الشيطان .

* * *

وملخص القول ان في العالم الغيبي مخلوقاً خفياً اسمه الشيطان لا تدركه حواسنا له أثر في انفسنا فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر، وقد سماه الله في القرآن: وسواساً ، ونزغاً ، ومسّاً، ونحن نجد أثر ذلك في انفسنا وإن لم ندرك مصدره . وتأثير هذه الشياطين في الأرواح كتأثير الميكروبات في الجسم، والميكروب ينتهز كل ضعف في الجسم ، وتهاون في الاحتراز منه والتوقي منه باستعمال الوسائل الطبية المعروفة فيتسلل الى الجسم محاولاً القضاء عليه والفتك به .

وهكذا الشياطين يمكن ان نتقي تأثيرها بتقوية الأرواح بالايمان بالله تعالى ومراقبته ومناجاته وإخلاص العبادة له ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن حتى ترسخ في النفس ملكات الخير وحب الحق وكراهية الباطل، فحينئذ نحصّن انفسنا من هذه الشياطين التي تدعو الى الباطل والشر .

والحكمة من تحذيرنا من الشيطان في القرآن ان نراقب افكارنا وخواطرنا

---

(١) المس : يقال في كل ما ينال الإنسان من شر وأذى .

(٢) عشي الرجل : إذا أظلم بصره، والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة .

وميولنا ولا نغفل عنها كما نراقب ما يحدث في اجسادنا من سقم فنبادر الى علاجه بالوسائل الطبية ، فمتى لمسنا ميلاً من انفسنا الى الشر او الباطل قومناها بما وصفه الله تعالى :

﴿ وإما يَنْزَغَنَّك مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم ﴾ الاعراف : ٢٠٠ .

﴿ قل أعوذ بربّ الناس. مَلِكِ الناس . إلٓه الناس . من شر الوسواس الخنّاس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنّة والناس ﴾

فالقرآن ينص على أن الوسوسة ليس مصدرها شياطين الجن فقط بل إن هناك أناساً هم كالشياطين في افعالهم وفي ايحاُهم للشر ، فهم أعضاء في حزب الشيطان . كما قال تعالى :

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ المجادله : ١٩ .

التوبة تطرد الشيطان : لقد استطاع الشيطان ان يغري آدم وحواء بالأكل من الشجرة، وان يوقعهما فيما نهاهما الله عنه ، إلاّ ان نوازع الخير تيقظت في قلب آدم وحواء بعد ان وقعا في الخديعة ، فتغلبت هذه النوازع الطيبة على وسوسة الشيطان فتابا الى الله وأنابا قائلين :

﴿ ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

فقبل الله توبتهما واستجاب دعاءهما .

﴿ فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ .

وبالتوبة والانابة يتغلب الخير على الشر ، ومتى تغلب الخير على الشر انهزم الشيطان وتعرض الانسان لهداية الله .

فإذا زلت قدمك ايها المؤمن فاقترفت معصية فأمامك السبيل الذي سلكه قبلك ابوك آدم من التوبة واستئناف حياة افضل واطهر . وبهذا تتخلص من سلطان الشيطان ووساوسه .

الفصل الرّابع

قِصّة قابيل وَهابيل

قابيل وهابيل ولدا آدم عليه السلام، روى القرآن قصتهما لما فيها من عبر وحكم ينتفع بها المؤمنون .

كان قابيل رجلاً ذا شخصية مريضة تمتزج بها عناصر الشر وتسيطر على تصرفاتها دواعي الطمع والإثم والتمرد على حكم الحق ، وكان اخوه هابيل رجلاً صالحاً تقياً يطمئن للحق، وقد وقع بينه وبين اخيه خلاف وصراع يقع مثله عادة بين البشر ويتكرر على مدى الحياة ابداً ، انه صراع بين الخير والشر الذي انتهى بأن قتل قابيل أخاه هابيل .

وفي سبب وقوع النزاع بينهما قولان :

أحدهما : أن هابيل كان صاحب غنم ، وقابيل كان صاحب زرع فقرّب كل واحد منهما قرباناً ، فاختار هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً ، واخذ قابيل شرّ حنطة في زرعه فجعلها قرباناً ، ثم تقدم كل منهما بقربانه الى الله فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فعلم قابيل ان الله قَبلَ قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقتله .

وثانيهما : ما روي أن آدم عليه السلام كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، وكان يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر، فولد أولاً قابيل مع توأم أنثى ، وبعدها وُلد هابيل وتوأمه الانثى، وكانت توأم قابيل أحسن الناس وجهاً فأراد آدم ان يزوجها من هابيل فأبى قابيل ذلك وقال أنا احق بها وهو أحق بأخته وليس هذا من الله تعالى وإنما هو رأيك، فقال آدم عليه السلام لهما: قرّبا قرباناً فأيكما قُبِلَ قربانه زوجتها منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن انزل على قربانه ناراً ، فالتهمته ، فقتل قابيل اخاه حسداً له .

وإلى عدم قبول قربان قابيل اشار القرآن بقوله :

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال: إنما يتقبّل الله من المتقين[1]. لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك إني اخاف الله رب العالمين. إني أريد ان تبوأ بإثمي وإثمك[2] فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوّعت[3] له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ المائدة : ٢٨ .

لنقف قليلاً عند قوله تعالى : ﴿ فَتُقُبِّلَ من احدهما ولم يُتَقَبَّل مِنَ الآخر قال لأقتلنك قال : إنما يتقبّل الله مِن المتقين ﴾ .

لقد كانت كلمة التقوى الجارية على لسان هابيل وهو يخاطب اخاه قابيل جديرة بأن تقضي على إرادة الشر في نفسه . ولكن هيهات فقابيل ليس من أهل التقوى والطاعة فلذلك لم يقبل الله قربانه ، والحسد الذي غمر قلبه جعله طافحاً بالعزم على قتل اخيه .

ثم ننتقل الى قوله تعالى وهو يحكي على لسان الأخ المظلوم :

﴿ لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ .

هنا تتراءى لنا نفسية هابيل الخيّرة التي خالطتها التقوى وسيطر عليها الخير فهي تأبى ان تقابل السيئة بمثلها ، لأن القتل لا يتفق مع صفاتها وشمائلها ، فهي تخاف الله رب العالمين . ومن يخاف الله لا يعتدي على احد ، فخيفة الله اعظم رادع عن الاجرام على هذه الأرض ، فإذا عرف المربون والمصلحون ان يوجهوا الناس إلى الإيمان بالله ومراقبته في أعمالهم والخوف من معصيته حصلوا على المجتمع المتماسك الذي يسوده السلام .

ولكن قابيل الذي سيطر عليه الشر نفّذ فعلته الشنيعة :

(فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) .

---

(١) انما يتقبل الله من المتقين : التقوى ان يكون الإنسان في غاية الحذر من أن يأتي بالطاعة لغرض سوى طلب مرضاة الله ، وأن لا يكون لغير الله فيه شركة ، وان يكون على خوف ووجل من تقصير نفسه في تلك الطاعة ، فقابيل جعل قربانه اردأ ما كان معه وقد اضمر في نفسه ان لا يبالي سواء قبل قربانه أم لم يقبل ولهذا لم يتقبل الله قربانه .

(٢) ان تبوء باثمي واثمك : أي تحمل إثم قتلي وإثمك الذي كان منك قبل قتلي .

(٣) فطوعت : سهلت .

فالصراع لم يكن بين قابيل وهابيل ولكن الصراع كان بين قابيل وبين نفسه الأمّارة بالسوء، وبينه وبين النوازع الشريرة والإرادات الخبيثة ، وكان الواجب ان يعمد قابيل الى هذهِ الأهواء فيكبح جماحها ويتخلص من أسرها ، ولكنه عجز امام ضعفه ، وطغيان شهواته ، وتحوّل اجرامه الى قتل اخيه وهذا أعنف ضروب الحسد .

لقد كان الحسد أول ذنب عُصي الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض ، أما في السماء فحسد ابليس آدم ، وأما في الأرض فحسد قابيل هابيل .

درس من الغراب : ولما قتل قابيل أخاه تركه لا يدري ما يصنع به ، فبعث الله غرابين اقتتلا فقتل احدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، ولما رأى قابيل الغراب يدفن الغراب الآخر رق قلبه ولم يرض ان يكون أقل شفقة منه فوارى اخاه تحت الأرض وهو متحسر متلهف نادم على فعلته[1] قائلاً في نفسه : أفأكون أقل شفقة من هذا الغراب ، وهذا ما ذكره الله بقوله :

﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة اخيه[2]، قال : يا ويلتا أعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة اخي فأصبح من النادمين ﴾ .

(١) وقيل لما قتله وتركه بعث الله غراباً يحثو التّراب على المقتول ، فلما رأى القاتل كيف أن الله يكرمه بعد موته تحسر وندم .

(٢) سوءة اخيه : أي جسده الميت ، وسمي سوءة لأنه مما يسوء ناظره .

الفَصْلُ الخَامِسُ

نبُوّة إدْريس

إدريس من الانبياء الذين ورد ذِكْرهُم في القرآن ، قال تعالى :

﴿ واسماعيل وإدريس وذا الكفل كُلٌ مِنَ الصابرين ﴾ الأنبياء : ٨٥ .

﴿ واذكُر في الكتاب إدريس إنه كان صِدّيقاً نبيّاً . ورفعناه مكاناً عليّا[١] ﴾ مريم : ٥٦ ، ٥٧ .

فالقرآن وصفه بصفات هي : الصبر ، والصدق ، ورفعة المنزلة .

وخلاصة أقوال العلماء فيه أنه أول من نزل عليه المَلَك جبريل بالوحي لهداية نسل (قابيل) ليرجعوا عن غيهم وكفرهم ، ويتوبوا الى الله ، ويسيروا حسب شريعته .

والقرآن لم يذكر شيئاً مفصّلاً عن حياته وتعاليمه ، كما انه ليس هناك سَنَدٌ تاريخي ثابت عن حياته ، وأبرز من تعرّض للكلام عنه كتاب (تاريخ الحكماء)[٢] الذي سننقل عنه بعض الشذرات مما جاء فيه ، ننقلها لا على أنها حقائق ثابتة بل من باب الاطلاع :

اختلف الحكماء في مولده ومنشئه فقالت فرقة وُلِدَ بمصر وسموه هرمس الهرامسة ومولده بمنف، وقالوا هو باليونانية أرميس وعُرّب بهرمس[٣]... وهو عند العبرانيين خنوخ وعُرّب اخنوخ وسماه الله عز وجل في كتابه العربي المبين : إدريس ... وخرج هرمس (أي ادريس) من مصر وجاب الأرض

(١) (ورفعناه مكاناً علياً) المكان العلي شرف النبوة والزلفى عند الله ، ورفع ذكره بين الناس ونحو هذا قوله تعالى لنبيه محمد (ورفعنا لك ذكرك) . وقيل المراد بالمكان العلي ان الله رفعه الى السماء ، وقد جاء في الصحيحين ما يؤيد ذلك .

(٢) ننقل هنا عن مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب اخبار العلماء لجمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي .

(٣) هرمس لقب له ، كما يقال قيصر او كسرى .

كلها ثم عاد اليها ورفعه الله اليه وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره .

وقالت فرقة أخرى: إن ادريس وُلِدَ ببابل وبها نشأ، وأنه أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جدّ جدّ ابيه ... ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلهم وخالفه جلّهم ، فخرج هو واتباعه حتّى وافوا مصر .

وأقام إدريس ومن معه بمصرَ يدعو الخلائق الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل ، كما قد قيل : انه دعا الى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا، وحضَّ على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل ، وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بيّنها ، وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر ، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم ، وأمرهم بزكاة أموالهم معونةً للضعفاء .

وكان على فص خاتمه : الايمان بالله يورث الظفر .

وكان على المنطقة الّتي يلبسها وقت الصلاة على الميت : السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة .

ومن أقواله : — لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه .

— إذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النية وكذا الصيام والصلوات فافعلوا .

— لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ فإن استمتاعهم به قليل.

— من تجاوز الكفاف لم يغنه شيء .

— حياة النفس في الحكمة .

البابُ الثَالِث

نوح عليه السلام

١ـ قصّة نُوح
٢ـ الطوفان
٣ـ دُروسٌ وعِبَر

الفصل الأول

قصة نوح

عبادة الأصنام والآلهة – الدعوة الى الله – استعلاء الكفار – نوح يتابع دعوته – العناد القاتل – الشكوى الى الله – لفته الأنظار الى قدرة الله – تهديد نوح .

عبادة الأصنام والآلهة

نوح عليه السلام اول رسول[1] ارسله الله بالرسالة الالهية الى قومه عندما تحولوا الى عبادة الأصنام وأمعنوا في الضلالة والكفر .

وقد ذكر القرآن اسماء الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح بما جاء على لسان اشرافهم : ﴿ وقالوا : لا تَذَرُنَّ [2] آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعا . ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ... ﴾ نوح : ٢٣ ، ٢٤ .

كما كان لقوم نوح آلهة أخرى كما اشارت الآية : ﴿ ولا تَذَرُنَّ آلهتكم ﴾ قيل: هي الكواكب السيارة ، وبما ان هذه الكواكب تظهر ليلاً وتغيب نهاراً لذا اتخذوا الأصنام واسطة لتقرّبهم الى آلهتهم .

وقد لبث نوح في قومه زمناً طويلاً يدعوهم الى عبادة الله ، قال تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فَلَبِثَ فيهم الف سنة إلاّ خمسين عاماً ﴾ العنكبوت : ١٤ .

ولكنّ هذه المدة لم تؤت ثمارها فيهم ، فلم يؤمن برسالته إلاّ القليل منهم .

---

(١) هذا ما ثبت في الصحيحين عن النبي في حديث الشفاعة : أن نوحاً أول الرسل الى أهل الأرض ، وبعض العلماء يؤول هذا الحديث ويقول برسالة آدم وادريس فيكون نوح هو النبي الثالث .

(٢) لاتذرن : لا تتركن .

وكان الوالد إذا بلغ ولده سن الرشد يوصيه ان لا يتبع نوحاً ابداً ما عاش ، لذا توارثوا الإصرار على الشرك ، وأمعنوا في العصيان .

الدعوة إلى الله

قال نوح لقومه : إني محذركم من عذاب الله ومبين لكم طريق النجاة فاعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً لأني أخاف عليكم إن عبدتم غيره أو اشركتم معه سواه أن يعذبكم يوم القيامة عذاباً شديداً .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه إني لكم نذيرٌ مبين . ان لا تعبدوا إلاّ الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم ﴾ هود : ٢٥ ، ٢٦ .

كما قال لهم نوح : إنكم إن أطعتم الله واجتنبتم السيئات يغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم ويمهلكم ويمتعكم في هذه الدنيا الى الأمد الأقصى الذي قدّره الله لانتهاء آجالكم، ولكن إن عصيتم ربكم فإنه لن يمهلكم بل سيعجل لكم العذاب وسيأتيكم بغتة من حيث لا تشعرون .

﴿ قال يا قوم ، اني لكم نذيرٌ مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون . يَغْفِرْ لَكُم مِنْ ذنوبكم ويؤخركم الى أَجَلٍ مُسمّى[1] . إنّ أَجَلَ الله إذا جاء لا يُؤخَّر لو كنتم تعلمون ﴾ نوح : ٢ — ٤ .

استعلاء الكفار

ولكن قوم نوح لم يستجيبوا لنصيحته، ولم يأبهوا لإنذار الله لهم، وانكروا عليه ان يكون نبياً لعدة أسباب :

منها : إنه إنسان مثلهم يأكل ويشرب ، فكيف يكون نبياً من كان بشراً مثلهم ، فالنبي — في نظرهم — يجب أن يكون ملكاً لا بشراً .

ومنها : ان الذين اتبعوه هم المستضعفون، ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين واصحاب المهن الوضيعة ، وهؤلاء — في نظرهم — قد اتبعوا نوحاً دون رويّة ولا تفكير ، وهم ليسوا من ذوي الفضل .

ومنها : إتهام نوح ومن آمن معه بالكذب ، ولم يكونوا متأكدين من اتهامهم هذا بل كانوا يبنونه على الظن ...

---

(١) استدل العلماء بهذه الآية على ان الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر.

﴿ فقال الملأ[1] الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذِلُنا[2] بادي الرأي[3] وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ هود : ٢٧ .

ويصوّر القرآن في آية اخرى استعلاء القوم ورفضهم الاستجابة لدعوة نوح ووصمهم له بالضلال ، كما يصوّر نوحاً الصابر الملاطف الذي يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم فيقول لهم : يا قوم ليس بي ضلالة كما تزعمون ، ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم ما أرسلني به من الوصايا والأحكام التي تصلح بها أموركم ، وإني ناصح لكم بما فيه سعادتكم ومحذركم مما فيه شقاؤكم وقد علمني الله مالا تعلمون .

ثم بيّن لهم نوح انه ليس عجيباً ان يجيئهم وعظ وإرشاد على لسان رجل منهم يحذرهم عذاب الله ويدعوهم الى رحمته ورضوانه .

﴿ قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين . قال : يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين . أبلّغكُم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم مِن الله مالا تعلمون . اوعجبتم ان جاءكم ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون ﴾ الأعراف : ٦٠ ــ ٦٣ .

نوح يتابع دعوته

استمر نوح في دعوته محاولاً اقناع قومه ، وأخذ يحاورهم ويجادلهم فقال لهم : ما رأيكم في حالي معكم إن كنت على حجة ظاهرة من ربي وأعطاني النبوة والرسالة برحمته وفضله ، وقد حجبكم عن الاهتداء إليها جهلكم وغروركم بأموالكم وجاهكم ، فهل يصح أن اكرهكم على اعتناقها وانتم لها كارهون ؟ وانا لا أطلب منكم على هدايتي لكم مالاً ولا جاهاً وإنما أجري على الله .

ويبدو أن خطاب نوح لقومه أثّر فيهم ولكنهم وجدوا أن أتباعه هم من الفقراء والضعفاء ويفصل بين هؤلاء واولئك فوارق ضخمة مالية واجتماعية فاشترطوا عليه كي يؤمنوا به أن يبعدهم عنه ويطردهم من الدعوة .

---

(١) الملأ : الاشراف والزعماء .

(٢) اراذلنا : أي فقراؤنا الادنون منا والضعفاء .

(٣) بادي الرأي : ظاهر الرأي .

فأجابهم نوح : لست بطارد أحداً من الذين آمنوا استجابة لطلبكم وبسبب احتقاركم إياهم ، فهم مقربون عند الله وسيلاقون ربهم يَوم القيامة فيتولى حسابهم وجزاءهم ، أما انتم فإني أراكم قوماً تجهلون ما يتميز به البشر عند الله .

ويا قومي لا يستطيع احد أن ينصرني ويمنع عني عقاب الله إن طردتهم بعد ايمانهم ، افلا تتذكرون بأن لهم رباً ينصرهم ؟!

ثم اني لا اقول لكم ان عندي خزائن الله أتصرف بها كما أشاء . ولا أقول إني أعلم الغيب ، ولا أقول إني ملك من الملائكة حتى تتبعوني فما أنا إلاّ بشر . ولا أقول للذين تحتقرهم اعينكم ان الله لن يؤتيهم خيراً إرضاء لرغباتكم لأن الله وحده يعلم ما في انفسهم من اخلاص. إني إن فعلت ما ترغبونه أكُنْ من زمرة الظالمين .

﴿ قال ياقوم أرأيتم إنْ كُنتُ على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُمّيَتْ عليكم أنلزمكُموها[1] وأنتم لها كارهون . ويا قوم لاأسألكم عليه مالا[2] إن أجري الاّ على الله وما انا بطاردِ الذين آمنوا انهم مُلاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون[3] . ولا أقولُ لكم عندي خزائن الله ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقول: إني ملَكٌ ولا أقول للذين تَزْدري[4] أعينكم: لن يؤتيهم الله خيراً. الله اعلم بما في انفسهم إني إذن لمن الظالمين ﴾ هود : ٢٨ — ٣١ .

العناد القاتل

لم تؤثر كلمات نوح في نفوس القوم بل ردوا عليه في عناد : يا نوح قد خاصمتنا واطلت في ذلك فإن كنت صادقاً في دعوتك فهات ما تهددنا به من

---

(١) انلزمكموها : أي انكرهكم على الاهتداء بها ، هذا اول نص في دين الله يدل على انه لا يصح أن يكون الدين بالاكراه .

(٢) لا أسألكم عليه مالا : لا أطالبكم بأجر ، وفي ترفع نوح عن اخذ الاجر على دعوته ناحية سامية جديرة بإمعان النظر ، وهي علامة من علامات صدقه وتجرده وتفانيه في خدمة ربه ، وهذا هو الشأن في كل انبياء الله وكل المصلحين .

(٣) تذكرون : تتعظون .

(٤) تزدري : تحتقر وتعيب .

العذاب . اجابهم نوح على تحديهم قائلاً : هذا الأمر بيد الله وحده فهو الذي يصيبكم بالعذاب إن شاء لا يمنعه منكم مانع .

كما ان النصح الذي اسديته لكم لا ينفعكم – وإن أردت الخير لكم من ورائه – إذا كان الله يريد ان تظلوا على ضلالكم بسبب فساد نفوسكم التي تأبى قبول الحق ، فالله سبحانه هو ربكم واليه مرجعكم يوم القيامة فيجازيكم على اعمالكم .

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما انتم بمعجزين[1] . ولا ينفعكم نصحي إن اردت أن انصح لكم إن كان الله يريد ان يغويكم[2] هو ربكم واليه تُرجعون ﴾ هود : ٣٢ – ٣٤ .

الشكوى إلى الله

بعد أن ضاق نوح ذرعاً بقومه لجأ الى ربه مستغيثاً به مما يلاقي من قومه من إعراض فقال : يا رب اني دعوت قومي الى الإيمان بك وترك عبادة الأصنام ، وقد حرصت على ايمانهم فلم ادع مناسبة إلاّ وقد دعوتهم فيها سواء في الليل أو النهار فلم يزدهم حرصي ودعوتي لهم الى عبادتك وحدك إلاّ تمرداً وعصياناً ، وإني كلما دعوتهم لعبادتك لتتجاوز عن سيئاتهم وضعوا أطراف اصابعهم في آذانهم كراهة ان يستمعوا دعوتي وبالغوا في الاعراض فتغطوا بثيابهم كي لا يروني ولا يسمعوا الدعوة التي اتيتهم بها ، وقد أصرّوا على اعراضهم عن دعوة الله ، وتكبّروا عن اتباعي والاستجابة لي تكبراً عظيماً .

ثم اني يا رب دعوتهم الى عبادتك مرّة بعد أخرى بأساليب مختلفة فحيناً ادعوهم جهراً في مجتمعاتهم وحيناً انفرد ببعضهم سرّاً ، فكنت اقول لهم : استغفروا ربكم وتوبوا عن الكفر والمعاصي إنه يقبل توبة عباده ويعفو عن السيئات ، وسيجزيكم على توبتكم واستغفاركم فيرسل لكم المطر الغزير الذي يخصب ارضكم بعد جدبها ويرزقكم أموالاً تتنعمون بها ويمنحكم الله بنين

---

(١) بمعجزين : بغالبين لكثرتكم .

(٢) يغويكم : قيل : بمعنى يهلككم ، وقيل بمعنى : يضلكم .

يشدون ازركم وحدائق غناء ترفه عيشكم وانهاراً تضمن الري لأرضكم ، قال تعالى :

﴿ قال : رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دُعائي إلاّ فِراراً . وإني كلما دعوتهم لِتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم[1] وأصرّوا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّارا . يُرسِلِ السماء عليكم مدرارا[2] . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات[3] ويجعل لكم أنهاراً ﴾ نوح : ٥ — ١٢ .

لَفْتِهِ الأنظار إلى قدرة الله

بعد ان بيّن نوح لقومه فائدة الاستغفار وما يترتب عليه من السعادة الدنيوية وجّه انظارهم الى قدرة الله لعلهم يؤمنون، فقال لهم: كيف لا تخافون عظمة الله وسلطانه وقد خلقكم طوراً بعد طور بطريقة التدرج من نطفة الى علقة الى مضغة ثم كسا هذه المضغة عظاماً ولحماً .

﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خَلَقَكُم أطوارا ﴾

ثم تابع نوح مخاطبتهم لافتاً انظارهم الى قدرة الله فوقهم ، فقد خلق الكواكب السيارة وجعل القمر يسير في مداراتها لينير لكم الأرض ليلاً ، وجعل الشمس سراج النهار ، وأنشأكم إنشاء من الأرض بأن غذاكم من النبات المتولد منها ثم يعيدكم فيها بالدفن بعد الموت ، ثم يبعثكم يوم القيامة للحساب ، كما خلق لكم الأرض ممهدة سهلة لتتخذوا فيها طرقاً واسعة لتحصيل رزقكم وبلوغ مآربكم . قال تعالى :

﴿ الم تَرَوا كيف خَلَقَ الله سبع سماوات[4] طباقا[5] وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سِراجاً . والله انبتكم من الأرض نباتا . ثم يُعيدكم فيها

---

(١) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها .
(٢) مدراراً : متتابعاً .
(٣) جنات : بساتين .
(٤) السماء : هي كل ما علا الإنسان فأظله وما يحيط بالأرض من الفضاء الواسع .
(٥) طباقاً : طابق طباقاً مطابقة : قارب خطوه او جعله على حذو واحد .

ويخرجكم إخرَاجا . والله جعل لكم الأرض بِساطا . لتسلكوا منها سُبُلاً فِجاجاً [1] ﴾ نوح : ١٥ ـ ٢٠ .

تهديد نوح

لم تترك دعوة نوح في قومه إلاّ اثراً ضئيلاً كما صرّح القرآن :

﴿ وما آمن معه إلاّ قليل ﴾

أما الاكثرون فقد تبرّموا من دعوته وكذّبوه ، ووصموه بالجنون ، وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته بأنواع التخويف والأذى ، قال تعالى :

﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجر ﴾[2] القمر : ٩ .

كما هددوه بالرجم ﴿ قالوا : لئن لم تنته يا نوح لتكونَنّ مِنَ المرجومين ﴾

ولكن نوحاً لم يبال بهذا التهديد ، بل جابههم بإيمانه الراسخ قائلاً لهم :

يا قوم إن كان وجودي فيكم لتبليغ رسالة ربي قد اصبح شديداً عليكم فإني مستمر مثابر على دعوتي متوكل على الله فاحزموا امركم وافعلوا بي ما بدا لكم مستعينين بشركائكم الذين يؤمنون بالآلهة الباطلة ، ولا يكن في عدائكم لي وايذائي أي خفاء ، بل كاشفوني به ولا تمهلوني فيما تريدون بي من سوء ، إن كنتم تقدرون على ايذائي ، ولكنكم لن تقدروا على تنفيذ غايتكم لأن ربي يرعاني برحمته ، فإن اعرضتم عن دعوتي فإن ذلك لن يضيرني لأني لم أقم بهذا الأمر لأتقاضى اجراً ، إنما أجْري على الله وحده وقد امرني ان اكون خاضعاً له وحده ، قال تعالى :

﴿واتلُ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كَبُرَ[3] عليكم مقامي[4] وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة[5] ، ثم اقضوا إليّ ولا تُنْظِرون[6]. فإن توليتم فما سألتكم عليه من أجْرٍ إن أجري إلاّ على الله وأمرت ان اكون من المسلمين ﴾ يونس : ٧١ ، ٧٢ .

---

(١) فجاجاً : واسعة ، واحدها فج ، وهو الطريق الواسع . (٢) ازدجر : انتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم
(٣) كبر : عظم وشق . (٤) مقامي : اقامتي بين ظهرانيكم .
(٥) غمة : مستوراً . (٦) اقضوا الي ولا تنظرون : امضوا الي ولا تؤخرون .

الفصل الثاني

الطوفان

الدعاء على المكذبين – صنع سفينة النجاة – بدء الطوفان – حصول الطوفان – غرق ابن نوح – نوح يطلب النجاة لابنه – انتهاء الطوفان – النزول من السفينة – اكتشاف آثار للطوفان في العراق .

الدعاء على المكذبين

بعد أن بذل نوح غاية جهده في سبيل هداية قومه، وبعد أن ضاقت في وجهه كل السبل لإصلاحهم، عندئذ لجأ الى ربه يشكو قومه :

﴿ قال : رب ان قومي كذّبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ الشعراء : ١١٨ ، ١١٩ .

كما دعا على قومه بالهلاك :

﴿ ربِّ لا تَذَر على الأرض من الكافرين ديّارا[١] . إنك إن تذرهم يُضِلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا ﴾ .

دعا نوح ربه ان لا يترك على الأرض احداً من الكافرين . لأنه سبحانه وتعالى إن ترك الكافرين متمادين في ضلالهم أضلوا غيرهم عن الحق ونشروا آثامهم وانتقل فسادهم الى ذريتهم بالوراثة فهم لا يلدون إلاّ من كان على شاكلتهم في الكفر والفجور .

صنع سفينة النجاة

استجاب الله لدعاء نوح ، وأراد سبحانه قبل ان يُهلك قومه المكذبين أن يهيء له وللمؤمنين برسالته اسباب النجاة فأوحى اليه انه لن يؤمن أحد سوى

---

(١) ديارا : أي من يسكن داراً

من آمن وأمره بأن لا يحزن بسبب تكذيب الكافرين له وإيذائهم إياه لأن الله سيغرقهم اجمعين .

أمر الله نوحاً ان يصنع سفينة النجاة، وأعلمه انه سيكون أثناء صنعها محاطاً بعنايته مشمولاً برعايته، ونهاه أن يدعو للكفار بالنجاة بعد ان أصروا على كفرهم لأنه حكم عليهم بالغرق .

شرع نوح في صنع السفينة وكان تحوله من داعٍ الى الله الى نجّـار سبباً في تعجب الكفار منه والسخرية به .

وكان نوح إزاء سخريتهم يقول لهم : إن كنتم تهزأون بي وبمن معي من الذين آمنوا فإننا سنهزأ بكم عمّا قريب لأني اعلم ما سيحل بكم مِنَ عذاب وهلاك ، وسوف تعلمون من سيأتيه عذاب يذله في الدنيا ، كما سيحل عليه في الآخرة عذاب دائم خالد . قال تعالى :

﴿ وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس[1] بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا[2] وَوَحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون . ويصنع الفلك وكلما مَرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منـّا فإنـّا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه[3] ويحل عليه عَذَابٌ مقيم[4] ﴾ هود : ٣٦ ـ ٣٩ .

بدء الطوفان

أتم نوح صنع السفينة وظهرت علامات بدء العذاب وهي تفجّر الماء من الأرض فأمر الله نوحاً ان يجمع من كل صنف من الأحياء والحيوانات زوجين : ذكراً وأنثى ليحملهما معه في السفينة لأجل ان تبقى بعد غرق سائر الأحيـاء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض .

---

(١) ابتأس : اشتد بؤسه وحزنه .

(٢) بأعيننا : برعايتنا .

(٣) تأمل تعبير القرآن الدقيق (عذاب يخزيه) لأن من العذاب ما يرفع صاحبه الى المعالي وهو عذاب الرسل والمجاهدين في سبيل الحق على يد الطغاة ، وهو عذاب مستعذب مشرف لصاحبه يتبعه نعيم دائم في الآخرة، اما العذاب الذي يصيب الظالمين فهو عذاب مخز يفضحهم في الدنيا، ويتبعه عذاب أشد يوم القيامة .

(٤) مقيم : دائم .

كذلك أمر الله نوحاً ان يحمل معه في السفينة جميع أهله وأقاربه باستثناء اثنين منهم كفرا بالله هما إحدى زوجاته وأحد أبنائه ، كما أمره ان يحمل معه في السفينة المؤمنين من غير أقاربه وهم قليلون .

أعد نوح الفلك وقال للذين آمنوا اركبوا فيها متيمنين بذكر اسم الله تعالى وقت سيرها ووقت وقوفها ، لأن السفينة ليست سبباً لحصول النجاة بل يجب عليهم ان تتجه قلوبهم الى الله فإنه هو المجري والمرسي للسفينة ، كما ذكّرهم بأن الله واسع المغفرة رحيم بعباده المؤمنين حيث انجاهم من الهلاك ، ثم سارت السفينة بعد ان علا الماء وسط موج بلغ مِن الضخامة والعلو ضخامة الجبال وعلوها .

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور[1] ، قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلَكَ الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلاّ قليل . وقال: اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ هود : ٤٠ — ٤٢ .

حصول الطوفان

واخبرنا القرآن ان نوحاً دعا ربه بأن ينتقم من قومه فاستجاب الله دعاءه فأرسل من السماء مطراً غزيراً لم تعهده الأرض من قبل ، وأمر الأرض بأن تتفجر منها المياه من سائر أرجائها ، فاجتمع ماء السماء وماء الأرض ليحصل من جراء ذلك الطوفانُ العظيم الذي قدّره الله لهلاك الكافرين بدعوة نبيه ، مهيئاً سبيل النجاة لنوح ومن آمن معه على السفينة التي سارت بحفظ الله ورعايته ، وهذا ما ذكره الله سبحانه :

﴿ فدعا ربّه أني مغلوبٌ فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر[2] . وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماءُ على أمر قد قُدر . وحملناه على ذات ألواح وَدُسُر[3] . تجري بأعيُنِنا[4] جزاءً لمن كان كفر ﴾ القمر : ٩ — ١٤ .

---

(١) فار التنور : الفور والفوران الارتفاع القوي ، يقال هذا في الماء إذا نبع وجرى وارتفع ، والتنور هو وجه الأرض ، أي نبعت الأرض من سائر ارجائها .

(٢) ماء منهمر : مطر كثير متدفق .

(٣) ذات الواح ودسر : أراد بذلك السفينة ، والدسر جمع دسار وهو المسمار وقيل الدسر أضلاع السفينة .

(٤) تجري بأعيننا : تجري فوق الماء في حفظنا ورعايتنا .

غرق ابن نوح

وتذكر نوح في بدء الطوفان ابنه ودفعته عاطفة الأبوة ان يناديه ليركب في السفينة مع سائر أهله وقد كان بعيداً عنها بسبب إصراره على الكفر فقال له : يا بني اركب معنا لتنجو من الغرق ، ولا تكن مع الكافرين الجاحدين بدين الله ، ولكن الولد لم يستجب لنداء أبيه ، وأصر على عصيانه ، وظن ان ما يجري عوارض طبيعية عادية ، وكان يأمل ان ينجو بدون ركوب السفينة ، فقال لأبيه : سألجأ الى جبل لا يصل الماء اليه فأنجو من الغرق ، فرد عليه ابوه : ليس هناك أية قوة تحول بين أحَدٍ وبين الغرق الذي قدّره الله جزاء للكافرين ، وأبى الابن ان يستجيب لنداء أبيه ، وظن ان محاولته لبلوغ قمة الجبل تنجيه من الغرق ، ولكن قوة المياه وهياج الأمواج جرفت الابن الضال الكافر :

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في مَعْزِلٍ يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين[1]. قال: سآوي الى جبل يعصمني من الماء، قال: لاعاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ هود : ٤٢ – ٤٤ .

نوح يطلب النجاة لابنه

ثارت الشفقة في قلب نوح على ابنه فسأل ربه ضارعاً ان ينجي ابنه، ألم يعده ربه من قبل بأنه سينجيه مع اهله؟ وابنه من اهله، والله إذا وعد وفى وهو اعدل الحاكمين .

فأجابَ الله نوحاً: بأن ابنه الكافر ليس من أهله الذين وعدهم بالنجاة لأنه لم يؤمن بل أصر على الكفر ، وقد عمل أعمالاً غير صالحة ، ونهى الله نوحاً ان يطلب طلباً إلاّ إذا كان على يقين انه حق وصواب ، كما نهاه ان يكون من زمرة الظالمين الذين يشفعون في عقاب الله ولو كان المجرم ابنه ، ويدعون شفقة الأبوة تتغلب على حكم الله .

ندم نوح على ما صدر منه واعترف بذنبه قائلاً : إني اعتصم بك يا رب

---

(١) قيل: إن نوحاً لم يكن عالماً بكفر ابنه لأنه لم يكن مجاهراً بذلك وإلا لما قال لابنه: لا تكن مع الكافرين .

واحتمي بك أن اسألك بعد الآن ما لا يرضيك وإن لم تتفضل عليّ بمغفرتك وترحمني بفضلك اكن في عداد الخاسرين .

﴿ ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابني من اهلي وإن وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من اهلك إنه عمل غير صالح[1] فلا تسألن ما ليس لك به علم إني اعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب اني أعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين ﴾ هود : ٤٥ ـ ٤٧.

انتهاء الطوفان

ولما هلك الكفار من تأثير الطوفان أمر الله الأرض بأن تبلع ماءها ، وأمر السماء بأن تقلع وتكف عن المطر ، فانحسر الماء عن الأرض بعد ان قضى الله بهلاك الظالمين واستوت السفينة راسية عند الجبل المسمى بالجودي ، عندئذ نودي على الكفار الهالكين بلسان القدرة الإلهيّة : بُعداً لهؤلاء الظالمين عن رحمة الله ومغفرته ، قال تعالى في وصف ذلك :

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء وقُضِيَ الأمر واستوت على الجودي[2] وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾ هود . ٤٤ .

النزول من السفينة

وبعد ان رست السفينة على الجبل وابتلعت الأرض مياه الطوفان أمر الله نوحاً ان ينزل من السفينة الى الأرض . فهبط بأرض الموصل محفوفاً ببركات مِنَ الله هو ومن آمن معه وذرياتهم ممن سيكونون أمماً مؤمنة ، وبعضهم سيكونون أمماً يستمتعون بالدنيا وخيراتها ، ولكن لن ينالوا بركة الله لأنهم سينحرفون عن جادة الحق وسيغويهم الشيطان ويؤدي بهم الى عذاب الله في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممّن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منّا عذاب أليم ﴾

---

(١) إنه عمل غير صالح : هذا جواب الله على دعاء نوح لابنه بالنجاة وفيه إيماء أنه لا يجوز في الدعاء طلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه ولا بطلب ما هو محرم شرعاً .

(٢) الجودي : جبل بالموصل كان معروفاً في القديم .

مجمل القصة : وفي نهاية القصة وجه الله خطابه الى محمد ﷺ قائلاً : تلك القصة التي قصصناها عليك عن نوح وقومه هي من أخبار الغيب، ما كنت تعلمها انت ولا قومك على هذا الوجه من الدقة والتفصيل من قبل هذا الوحي الذي اوحينا به اليك ، فاصبر على إيذاء قومك كما صبر نوح من قبلك فإن عاقبتك الفوز مثل نوح ، والعاقبة الطيبة دائماً للمتقين .

﴿ تِلكَ من أنباءِ الغيب نوحيها اليك ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة[1] للمتقين ﴾

وقد صدق الله وعده ونصر الله رسوله محمداً على أعدائه، كما نصر نوحاً من قبل، وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن وحي الهي، وأن بعثة محمد حق و صدق لأن الله اخبر عن أمور غيبية ستحصل وقد حصلت فعلاً ، ولا يعلم الغيب إلاّ الله .

اكتشاف آثار للطوفان في العراق

الظاهر في القرآن والحديث الشريف يدل على أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح فقط وهذا لا يقتضي ان يكون الطوفان عاماً للأرض ، إذ لا دليل على أن البشر كانوا يقطنون الأرض كلها بل كانوا منحصرين في منطقة معينة وهي التي عمها الطوفان .

ولم يجرؤ أحد من العلماء على تصوّر أنه مِنَ الممكن العثور على دليل مادي يثبت وقوع الطوفان فعلاً، فقد كان يبدو أن اكتشاف آثار تاريخية تثبت حدوث الطوفان العظيم من المستحيلات .

وعندما قصد السير ليونارد وولي الى العراق في أوائل سنة ١٩٢٠ وهو يرأس البعثة التي اشترك فيها المتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا الأميركية لم يكن بالتأكيد يفكر في الطوفان ، فقد كان الغرض من البعثة التنقيب عن آثار جزء من التاريخ من الماضي .

وقد أدت الحفريات التي قام بها في الروابي التي تقع على أربعة أميال شمالي (اور) في مكان يُعرف باسم (تل العبيد) والحفريات التي قام بها في مدينة

---

(١) العاقبة : أي الظفر بالدنيا والفوز بالآخرة .

(اور) في المكان الذي كانت فيه المقابر الملكية ، أدّت هذه الحفريات الى اكتشاف طبقات من الطمي على عمق كبير طمرت فيها كميات من الأواني الفخارية والأدوات الصوانية مما كان يُستعمل في العصر الحجري ، وكذلك تماثيل من الفخار واجزاء من الملاط لا تزال منطبعة عليها آثار أعواد البوص التي كان مضغوطاً عليها .

وقد دل الفحص المجهري على أن المياه هي التي رسبت هذا الطمي، وأنه يتكون من مواد جرفتها المياه من المنطقة الوسطى لنهر الفرات ، وهذا كله دليل لا ينقض على وجود طوفان غمر تلك المناطق من زمن بعيد .

وقد دلت بحوث السير ليونارد على ان ارتفاع الفيضان لم يكن أقل من خمس وعشرين قدماً، وكان ارتفاع الطوفان كما ورد في التوراة ستاً وعشرين قدماً .

وكان من رأي السير ليونارد أن الطوفان لم يشمل الدنيا كلها، ولكنه كان سيلاً عرماً طغى على وادي دجلة والفرات واغرق كل المنطقة المأهولة الواقعة بين الجبال والصحراء ، وكانت هذه المنطقة بالنسبة لسكانها هي الدنيا بأسرها .

وقد سجل سكان الوادي بعد الطوفان قصة الطوفان على اثني عشر لوحاً ذكروا فيها غرق سكان هذه المنطقة باستثناء رجل ورع بنى سفينة ركب فيها وأخذ معه افراد أسرته وبعض الحيوانات والدواب ، وهؤلاء وحدهم هم الذين كُتبت لهم النجاة[1] .

---

(١) نقلاً عن كتاب (الأرض التي نعيش عليها) تأليف : روث مور – ترجمة اسماعيل حقي ، ص ٢٦ – ٣٥ .

الفصل الثالث

دروس وعبر

بلاغة القرآن في وصف الطوفان – من حقائق القرآن العلمية – التوفيق بين الطبقات – درس في قوة العزيمة – الثورة على القرابات الفاسدة .

بلاغة القرآن في وصف الطوفان

ان طوفان نوح من أبرز الحوادث التاريخية وأشدها وقعاً في النفس الإنسانية من حيث انه من أقسى العقوبات التي عاقب الله بها الكفار ، كما انه من امارات قدرة الله العظيمة .

﴿ وقوم نوح لمّا كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذاباً اليما ﴾ الفرقان : ٣٧ .

والمتأمل في الآيات القرآنية التي وصفت بدء الطوفان وانتهاءه يراها في أعلى منزلة من الفصاحة والبيان مما يشهد ان القرآن وحيٌ الهي فوق مستوى البشر .

تأمل هذه الآيات التي وصفت بدء الطوفان :

﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر[١]. فدعا ربه أني مغلوبٌ فانتصر . ففتحنا ابواب السماء بماءٍ منهمر . وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِر . وحملناه على ذات الواح ودسُر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر ﴾ القمر : ٩ ــ ١٤ .

ما أروع هذه الصورة التي رسمها القرآن للطوفان ، مطر من السماء ولكن ليس كالمطر بل ماء غزير يحدث السيول الجارفة . والأرض ينبع منها الماء ولكن ليس من مكان واحد أو أمكنة متفرقة ، بل الأرض كلها تتفجر عيوناً . فلو قال القرآن : وفجّرنا عيون الأرض لم تعط المعنى المراد وهو أن الأرض كلها

---

(١) ازدجر : طرده وصاح به .

صارت عيوناً . ثم ها هو ماء الأرض وماء السماء يلتقيان ليحصل من جرّاء ذلك الطوفان العظيم ، ووسط هذا الطوفان تسير السفينة بمن فيها من المؤمنين بأمان الله ورعايته .

ثم تأمل أيها القارىء أسلوب هذه الآيات وما تحمله من إيقاع موسيقي وكيف يتحدّر الكلام فيها بسهولة لفظ وعذوبة سبك ، وتأمل اطراد الفاصلة[1] في آخر الآيات على نسق مُعيّن مما يعطي القرآن قوّة في التعبير وتأثيراً في النفس .

ويصف الله انتهاء الطوفان بهذه الآية التي ترتقي الى أعظم مراقي البلاغة .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾ هود : ٤٤ .

المتأمل في هذه الآية يراها تصفُ الطوفان بأوجز لفظ وأبلغه فترى فيها حُسن النسق[2] حيث أتى الله بجملها معطوفة على بعضها بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة، فقد بدأ سبحانه بذكر الأهم وهو إطلاق اهل السفينة الى البرّ، ولا يحصل ذلك إلاّ بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك أمر الله الارض بأن تبلع ماءها بقوله تعالى : ﴿ ابلعي ماءك ﴾[3] .

ثم إن الأرض لو ابتلعت الماء ولم تنقطع الأمطار المنهمرة لتأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها ، وربما كان ما ينزل من السماء معوضاً لما تبتلعه الأرض من الماء لذلك أمر الله السماء بقوله : ﴿ ويا سماء اقلعي ﴾[4] . أي امسكي عن إرسال المطر .

ثم تأمل التجانس والإيقاع الموسيقي بين (ابلعي) و (اقلعي) ، كما ان القرآن اختار لفظ (ابلعي) على (ابتلعي) لكونه مختصراً واكثر تجانساً مع (اقلعي) .

---

(١) الفاصلة : هي اصطلاح اطلق على الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن، فمكانتها في الآية مكانة القافية في الشعر ولها أثرها الموسيقي في نظم الكلام .

(٢) حسن النسق: عبارة عن أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والابيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً لا معيباً ولا مستهجناً .

(٣) ابلعي ماءك: انظر كيف اضاف القرآن الماء الى الأرض لاتصال الماء بالأرض، ولأن أصله من الأرض تبخره الشمس فيصير غيوماً ثم يهطل مطراً الى الأرض .

(٤) يا سماء اقلعي : هذا ما يعرف في علم البلاغة بالمجاز وحقيقة القول : يا مطر السماء اقلع .

وتأمل كيف ان القرآن لم يقل : (يا أرض ابلعي فبلعت ، ويا سماء اقلعي فأقلعت) لأن ذلك يوهم إمكان المخالفة والتمرّد على العظمة الإلهية ، بل قال فقط : (يا أرض ابلعي ، ويا سماء اقلعي) لأن الأمر الإلهي لا يُرد والكون كله خاضع لكلمته (كن فيكون) .

ثم أشار الله الى النتيجة التي ترتبت على ذلك بقوله : (وغيض الماء)[1] أي ذهب الماء، فإن غيض تشير الى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء .

ثم بيّن الله الغاية التي توخّاها من الطوفان بقوله: (وقُضِيَ الأمر)[2] وحقيقة معناها : هلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من قدّر له النجاة . وجملة (قضي الأمر) تشعر بأن الإهلاك والإنجاء كانا بأمر مطاع ، وقضاء من لا يُرد قضاؤه .

كذلك يصف القرآن استقرار السفينة على جبل الجودي بلفظ (استوت) دون استقرت لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة ، فبهذا الاستواء تسكن قلوب اهل السفينة ويسهل خروجهم منها بدون خوف ، بخلاف معنى استقرت فإنه يحمل معنى الزيغ والميل .

وأخيراً يُنْهي القرآنُ الآيَةَ بقوله : (وقيل بُعداً للقوم الظالمين) وهذا دعاء على الهالكين ، ووصفهم بالظلم ليعلم الذين من بعدهم ان جميع من هَلك كان مستحقاً للهلاك ، احتراساً لما قد يتوهم ان الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب .

من حقائق القرآن العلمية

إن القرآن في وصفه قدرة الله في هذا الكون يسبغ على الوصف المراد تعبيراً دقيقاً فهمه العرب منذ أربعة عشر قرناً فهماً ينسجم مع ما وصلت اليه عقولهم من الإدراك ، كما يفهمه الرجل المتمدن اليوم فهماً جديداً بما تسلح به من علم ومعرفة ، وبما توصل اليه من مكتشفات علمية في مجال هذا الكون . والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن ، ولكن هنا سنقتصر على مثالين وردا في قصة نوح .

---

(١) يعرف هذا في علم البلاغة بفن (الاشارة) وهو ان يكون اللفظ القليل دالا على المعنى الكثير

(٢) هذا ما يعرف بعلم البلاغة باسم (الارداف) وهو ان يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع بل يعبر عنه بلفظ هو ردف المعنى وتابعه .

جاء في القرآن :

﴿ وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشمس سراجا ﴾

فالله سبحانه يُعلن بأن الشمس تشبه السراج الوهاج : اي السراج المضيء المتقد بلهب وهو الذي يضاء بالزيت او الكحول ، والسراج له ضوء ذاتي .

وقد بيّن العلم ان الشمس كتلة غازية ملتهبة ، وأنها تستمد طاقتها من تفاعلات وانفجارات نووية ، فاتفق العلم مع القرآن من حيث أن الشمس مكونة من لهب وان هذا اللهب يستمد طاقته من مركزها الداخلي .

كما وصف القرآن القمر بأنه (نور) فهو إذن كتلة مظلمة ، وضوءه مكتسب ومعكوس منه ، وهذا ما اثبته العلم من أن القمر جرم مظلم يستمد نوره من الشمس .

وجاء في القرآن على لسان نوح ﴿ والله انبتكم من الأرض نباتا ﴾ فهذه الآية تعلن بأن الله سوّانا من النبات ، وان استمرار حياتنا يتوقف على النبات .

ومن المدهش ان هذه الآية هي حقيقة علمية فقد جاء في كتاب (الماء معجزة الطبيعة[1]) : قرر علماء الاحياء انه لا بد لجميع الحيوانات ، وضمنها أنا وأنت ايها القارىء ، وكذلك جميع البكتيريا ان تعيش عن طريق اكل النباتات او المنتجات النباتية او الحيوانات التي اكلت هذه النباتات ، فقد نأكل سمكة كانت تعيش على اكل اسماك أصغر ، وهذه بدورها كانت تعيش على اسماك ما زالت اصغر او على ديدان او غيرها من الحيوانات ، ولكن إذا تتبعنا هذه السلسلة حلقة حلقة ، فلا بد ان نجد نباتات في نهايتها ... فالنباتات إذن هي قاعدة واساس هرم الحياة الذي يحتل الجنس البشري قمته) .

وهكذا نرى ان القرآن أوجز وصف غذاء الإنسان والعناصر التي يعيش منها كما قرره العلم حديثاً .

التوفيق بين الطبقات

من عهد نوح يعرض القرآن لطبيعة المجتمع الإنساني الذي ينقسم الى طبقتين :

---

(١) تأليف طومسون كينج

طبقة الأشراف والأغنياء ، وهم يُعرفون حالياً باسم : الاقطاعيين والبورجوازيين، وطبقة العمال والفقراء، وهم يعرفون باسم طبقة : البروليتاريا .

فالقرآن يصوّر لنا في قصة نوح أن الطبقة الفقيرة العاملة هي التي تستجيب لدعوة الرسُل لما فيها من عدالة ومساواة ورحمة . تسوي بينهم وبين الأغنياء وتنصفهم من ظالميهم ومستغليهم .

ولكن طَبقة الأشراف والاغنياء تمرّدت على دعوة نوح وخاطبته بهذا الكلام وأمثاله ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ هذا القول يَصفُ نسق تفكيرهم الذي امتزج بالكبرياء والبطر ، كما يخاطبون الطبقة الفقيرة : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ أي أنهم أفضل منهم فلا مجال لأن يلتقوا معهم عند أي معتقد أو كفاح مشترك، ويظهر أن طبقة الأشراف قد وعدت نوحاً بأن تجتمع به وتتقبل دعوته إذا طرد هؤلاء العمال والفقراء من مجلسه ومعيتــه . ولكن نوحاً أبى ذلك وجابهم قائلاً : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني اراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون ﴾ .

ثم يتابع نوح تفنيد مزاعمهم : ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ .

فالقرآن منذ أربعة عشر قرناً عمل على تحطيم هَذَا التفاوت الاجتماعي بما جاء فيه من آياتٍ تحث على المساواة بين الناس .

لقد أراد الله أن يبين في قصّة نوح أن ليس للأغنياء والأشراف أي امتياز عَلى غيرهم، فالمجتمع الإنساني الذي يُريده الله هو مجتمع المسَاواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، وجعل التفاضل بينهم على أساس من العلم والتقوى وما يقدّمه كل فرد من خير لمجتمعه . جاء في القرآن : ﴿ إن اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

فالقرآن يرى أنه لو أصغى رجال المال الى صوت الحق لما كان هناك صراع بين الطبقات .

درسٌ في قوة العزيمة

من الصفات الكريمة التي يتحلى بها الإنسان العزيمة القوية التي بها يتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ومشقات .

ونبي الله نوح يضرب لنا مثلاً أعلى في قوة العزيمة ومضائها واستمرارها عبر دعوته التي استمرت زمناً طويلاً دون أن تهن له إرادة او تتزعزع له عقيدة.

ومن الصور البارزة التي يعرضها القرآن لمضاء عزيمته هو ذلك الاستمرار المتواصل لدعوة قومه الى الله سواء بالليل او النهار ، بالسرّ والعلانية ولكن هؤلاء القوم رفضوا دعوته جملة وتفصيلاً حتى أنهم رفضوا الاستماع والنظر اليه وهذا نهاية الاعراض عنه والإيذاء لشعوره .

أضف الى هذا وصمهم إياه بالجنون ﴿ إن هو إلاّ رجل به جنّة فتربصوا به حتى حين ﴾ المؤمنون : ٢٥ .

ونمشي قدماً فتتراءى لنا صورة من مضاء عزيمته وذلك انه كان يتلقى تهديدهم بشجاعة فلا ينثني عن دعوته ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ . ولكن نوحاً امام هذا التهديد لم يتراجع بل لجأ الى ربه ﴿ قال رب إن قومي كذّبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ .

وحيناً نرى صورة من قوة عزيمته حيث انه كان يتقبل سخرية قومه وهو يصنع السفينة بصدر رحب ونفس مطمئنة الى نصر الله .

﴿ ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

ولكن ما مبعث هذه العزيمة القوية وما ركائزها في نفس نبي الله نوح ؟

لقد كان مبعثها إيمانه القوي بربه واعتماده عليه في كل ما يصادفه من صِعَاب وأذى .

الثورة على القرابات الفاسدة

كانت رابطة القربى وما تزال من اهم الحوافز التي ينقاد اليها الإنسان ويخصها بقسط كبير من تضحيته وميله الشخصي .

والإسلام اعطى لصلة القرابة حظاً كبيراً من العناية والرعاية لأن طبيعة الإنسان ومصلحته تقوم على مراعاتها والقيام بواجباتها .

ولكن مراعاة القربى لها شرط أساسي للقيام بحقها ألا وهو الإيمان بالله والسير بموجب شرعته ، فالمسلم عليه ان لا يخص بالود من يكفر بالله ويعصيه ولو كان من أقرب الناس اليه نسباً ، جاء في القرآن :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ[1] الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ المجادلة : ٢٢ .

وفي قصة نوح يعرض لنا القرآن مثلاً حياً على ذلك ، فنوح تأخذه عاطفة الشفقة على ولده فيطلب من ربه ان ينجي ابنه من الهلاك، فيعاتبه الله على ذلك ويعتبر عمله من الجهل الذي لا يليق ان يتصف به .

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين. قال : يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلاتسألنِ ما ليس لك به علم إني اعظك ان تكون من الجاهلين ﴾ .

والذي ينشده القرآن من وراء ذلك توجيه الإنسان الى أن اعماله الصالحة هي المعوّل عليها في نيل السعادة في الآخرة ، وانه ليس لشفاعات والقرابات أي تأثير في نجاته من عذاب الله إن كان عاصياً ، وهذا ما أكده القرآن ايضاً .

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ .

ففي هلاك امرأة نوح وامرأة لوط بسبب بغيهما وانحرافهما عن الطريق المستقيم عظة قرآنية بليغة هي : ان القرابة مهما اشتدت لا يمكن ان تغني الإنسان شيئاً إذا كان سيء العمل .

---

(١) حاد الله : عصى الله .

وكثيراً ما ضل البشر في مفهوم طريق النجاة، فظنوا ان النجاة تكون في محاباة رجال الدين والزلفى اليهم بالهدايا والطاعة العمياء لهم، غير عابئين باصلاح نفوسهم ومحاسبة ضمائرهم، فأدى هذا المفهوم الخاطىء الى الإساءة الى الدين وجعله سبباً من أسباب التأخر والجمود والفساد، بدلاً من أن يكون من أهم الدوافع للإصلاح والرقي والسموّ .

البَابُ الرَّابع

هود عليه السلام

صَالح عليه السلام

١ - قِصَّة هُود

٢ - قِصَّة صَالح

٣ - دُرُوسٌ وَعِبَر

تمهيد

اتفق الرواة وأهل الأخبار على تقسيم العرب من حيث القدم الى طبقات ثلاث : عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة . فالعرب البائدة اقوام كثيرون منهم عاد ، وثمود . أما قوم عاد فإنهم من نسل (عاد بن عوص بن إرم) . وأما قوم ثمود فإنهم من نسل (ثمود بن جاثر بن إرم) و (إرم) هو ابن سام بن نوح، وسبب تسميتهم بالعرب البائدة لأنهم بادوا أي هلكوا ولم يبقَ على وجه الأرض احد من نسلهم. كما سمي عاد وثمود بالعرب العاربة بمعنى الرسوخ في العروبة .

وذهب الرواة الى وجود طبقتين لقوم عاد هما: عاد الأولى، وعاد الثانية، وكانت عاد الأولى من اعظم الأمم بطشاً وقوة، وكانت مؤلفة من بطون كثيرة تزيد على الألف ، والقرآن يشير الى ذلك بأن الله ﴿ أهلك عاداً الأولى، وثمود فما أبقى ﴾ النجم : ٥٠ ، ٥١ .

وقد بعث الله في قوم عاد نبياً منهم اسمه (هود) وهو من نسب (عبد الله ابن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم) ، والخلود إحدى قبائل عاد التي يرى بعض أهل الاخبار انها احدى عشرة قبيلة .

كما قد بعث الله في ثمود نبياً منهم اسمه (صالح) وهو من نسب (صالح ابن عبيد بن اسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جاثر بن إرم) .

الفصل الأوّل

قِصَّةُ هُودٍ

مساكن عاد وآلهتهم – الدعوة الى الله – التذكير بنعم الله – محاورة الوثنيين – دعوة الى التوبة – نجاة المؤمنين وهلاك الكفرة .

مساكن عاد وآلهتهم

يُفهم من القرآن أن مساكن (عاد) كانت بالأحقاف ، قال الله تعالى : ﴿ واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ الاحقاف : ٢١ . والاحقاف جمع حقف وهي الرمال ، ولم يعين القرآن موقعها ، إلاّ ان الإخباريين يقولون : ان موقعها بين اليمن وعُمان الى حضرموت والشحر .

وقد بنت (عاد) مدينة اسمها (إرم)[1] وهي التي جاء ذكرها في القرآن :

﴿ ألَمْ تَرَ كيف فَعَلَ ربُّك بعاد ، إرم ذات العماد ﴾ الفجر : ٦ ، ٧ . ويرجح علماء الآثار بناء على تنقيبات كثيرة ان موضع إرم هو جبل (رم) ويقع على مسافة ٢٥ ميلاً الى الشرق من العقبة ، وقد وجدت في جانب الجبل آثار جاهلية قديمة .

وقد ذكر الإخباريون أن عاداً عبدوا أصناماً ثلاثة يقال لأحدها : صداء وللآخر : صمود ، وللثالث : الهباء[2]

هذه لمحة موجزة عن عاد ذكرناها لنجعلها مدخلاً للكلام عن نبي الله هود.

---

(١) يرى العلامة ابن خلدون في تاريخه انه ليس هناك مدينة اسمها ارم وإنما هذا من خرافات القصاص، وينقله ضعفاء المفسرين وأما إرم المذكورة في قوله تعالى : (ارم ذات العماد) فتعني القبيلة لا البلد .

(٢) تاريخ الطبري جـ ١ .

الدعوة الى الله

دعا هود قومه الى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام لأن ذلك سبيل لاتقاء العذاب يوم القيامة .

﴿ والى عاد اخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره أفلا تتقون ﴾ الاعراف : ٦٥ .

﴿ واذكُر أخا عَادٍ إذْ أنْذَرَ قومه بالأحقاف وَقَدْ خَلَتِ النُّذُر مِنْ بَيْنِ يديه ومن خلفه ألاّ تعبدوا إلاّ الله إنّي أخَافُ عليكم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم ﴾ الاحقاف : ٢١ .

هذا وقد كانت (عاد) تعتقد أن الأصنام شركاء لله، وأنها تشفع لهم عند الله فقال لهم هود : انتم كاذبون في هذا الادعاء لأنه لا يستحق العبادة إلاّ الله وحده .

﴿ والى عَادٍ[1] أخاهم هُوداً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره إن أنتم إلاّ مُفترون ﴾ هود: ٥٠ .

ولكن ماذا كانَ تأثير هذه الدعوة على قبيلة (عاد) ؟ لقد احتقروا هوداً واستصغروا شأنه، ووصفوه بالسفه والطيش والكذب، ولكن هوداً نفى هذه الصفات عن نفسه مؤكداً لهم انه رسول من رب العالمين لا يريد لهم غير النصح .

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لَنَرَاك في سَفَاهَةٍ وإنّا لنظُنّك من الكاذبين . قال يا قوم ليسَ بي سَفَاهَةٌ[2] ولكني رَسولٌ مِن رَبِّ العالمين . أبلّغكم رسَالاتِ ربي وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾ الاعراف : ٦٦ ــ ٦٨ .

التذكير بنِعَمِ الله

تابع هود مخاطبة قومه محاولاً اقناعهم بالرجوع الى طريق الحق مذكّراً إياهم بنعم الله عليهم ، فقال : هل أثار عجبكم واستغرابكم ان يجيئكم إرشاد من ربكم على لسان رجل منكم لينذركم سوء العاقبة بسبب الضلال الذي انتم

---

(١) أي وأرسلنا الى عاد اخاهم هوداً .

(٢) ليس بي سفاهة : هذا هو رد نبي الله هود على قومه ، وهو رد في غاية الأدب إذ ترك مقابلتهم بالمثل مع علمه ان خصومه أضل الناس واسفههم ، وفي ذلك ما فيه من الخلق العظيم والقدوة الحسنة .

عليه ؟ ألا تذكرون ان الله جعلكم وارثين للأرض من بعد قوم نوح الذين أهلكهم الله بذنوبهم ، وزادكم قوة في الأبدان وقوة في السلطان ، وتلك نعمة تقتضي منكم ان تؤمنوا بالله وتشكروه ، لا أن تكفروا به ، فنصيحتي لكم ان تذكروا فضل الله عليكم لعلكم تفوزون بالسعادة في الدنيا والآخرة .

﴿ أوَعجبتم أن جاءكم ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم ليُنذركم ، واذكروا إذ جعلكم خُلَفاء من بعد قوم نوح وزَادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء اللهِ لعلكم تُفلحون ﴾ الأعراف : ٦٩ .

ولكن قوم هود لم يقوموا بحق الشكر لِنِعَم الله عليهم ، بل انغمسوا في الشهوات ، وتكبّروا في الأرض ، فقال لهم هود : مالكم تقيمون فوق كل ربوة بناء شامخاً للتفاخر والعبث ، وتنشئون قصوراً في منتهى الفخامة شأن الذين يرجون الخلود في الأرض ، وتبطشون بطش الجبابرة ولا ترحمون حين تغضبون ، تفعلون كل ذلك بغلظة المستكبرين ، فاتقوا الله فيما امركم واطيعوني فيما أدعوكم اليه من هُدى . يا قوم اتقوا الله الذي اعطاكم الخيرات الجليلة من بنين وانعـام ، وحدائق ومياه ، فلا تقابلوا نِعَمَ الله بالكفر والبطر والجبروت فيحل عليكم عذابه ويهلككم .

﴿ أتبنون بكل رِيعٍ[1] آية[2] تعبثون . وتتخذون مَصَانع[3] لعلكم تخلدون[4]. وإذا بطشتم بطشتم جبّارين . فاتّقوا الله واطيعونِ . واتقوا الذي امدكم بما تعلمون . امدكم بأنعامٍ وبنين ، وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ الشعراء : ١٢٨ — ١٣٥ .

محاورة الوثنيين

رفضت قبيلة (عاد) الانصياع لدعوة هود وأصرّ زعماؤها على عبادتهم لأوثانهم وخاطبوا هوداً: إنك لم تأتنا بحجة واضحة على صحة ما تدعونا اليه، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا ، وما نحن لك بمصدّقين، وإنّا نرى أن بعض آلهتنا مسّتك بشرٍّ فصرت تهذي بأقوالٍ باطلة .

---

(١) ريع : المكان المرتفع .
(٢) آية : قصراً عالياً مشيداً كأنه علم ، والعلم هو الراية او المنارة او الجبل .
(٣) مصانع : برك الماء ، وقيل الحصون .
(٤) لعلكم تخلدون : راجين ان تخلدوا في الدنيا .

أجابهم هود : أُشْهِدُ الله على صدق ما أقول ، وأشهدكم أني بريء من الشرك الذي انتم فيه ، فتعاونوا انتم وآلهتكم على الكيد لي ثم لا تؤخروا عقابي لحظة إن استطعتم ، إني لا أبالي بما تأتمرون لأني اعتمدت على الله مالك أمري وأمركم ، فما من كائن حي إلا وهو مالك امره ومتصرف فيه ، إن أفعال ربي تجري على سنن الحق والعدل ، فإن اعرضتم عن دعوتي لم يضرني اعراضكم فقد أبلغتكم ما أرسلني الله به اليكم ، والله قادر على اهلاككم والمجيء بقوم آخرين غيركم يخلفونكم في دياركم ، إن ربي مهيمن على كل شيء .

﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إنْ نقولُ إلاّ اعترَاكَ[1] بعض آلهتنا بسوء. قال : إني أُشْهِدُ الله واشهدوا أني بريء مِمّا تشركون . من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون . إني توكلتُ على الله ربي وربكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم . فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به اليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ هود : ٥٣ — ٥٧ .

ثم إن عاداً ضجروا بهود ودعوته وتبرّموا من كثرة نصحه لهم ولم يتركوا عبادة آلهتهم الى عبادة الله الذي يدعوهم اليه ، وتحدوه أن ينفذ فيهم إنذاره ووعيده، عند ذلك قال لهم نبي الله هود: لا بد ان يقع عليكم غضب الله فانتظروا عذاب الله إني معكم من المنتظرين .

﴿ قالوا : أجئتنا لِنَعبد الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كُنت من الصادقين . قال قد وَقَعَ عليكم من ربكم رجسٌ وغَضَبٌ . أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سُلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ الاعراف : ٧٠ — ٧١ .

في هذا النص القرآني ايضاً نرى الاستعباد الروحي يسيطر على قوم هود حيث تقليد الآباء سلبهم حرية النظر والتفكير ، كما نرى قوة حجة هود حين حوّل آلهتهم الى مجرد أسماء كأن ليس لها مسمّيات في عالم الحقيقة ، ولا تبلغ ان تكون شيئاً وراء الأسماء التي تطلق عليها ، هذه الأصنام لا دليل فيها على ألوهيتها ولا تتضمن قوة تثبت بها وجودها .

---

(١) اعتراك : مسك .

دَعوة الى التوبة

وانحبس المطر عن قوم هود سنين ثلاثاً بعد دعوتهم الى الهدى واعراضهم عنه، وكان ذلك انذاراً بقرب حلول العذاب عليهم، وفي هذه الأثناء كان هود لا يفتأ يعظ قومه ويقول لهم : ادعوا خالقكم ان يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم ، ثم ارجعوا اليه بالتوبة ، إنكم إن فعلتم ذلك يرسل لكم المطر متتابعاً ، فتكثر خيراتكم كما انه يزيدكم قوة الى قوتكم ، وإياكم ان تعرضوا عما أدعوكم اليه وتصروا على الكفر والإجرام .

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يُرسِلِ السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ هود : ٥٢ .

نجاة المؤمنين وهلاك الكفرة

بعد انحباس المطر ثلاث سنين جاء أمر الله بإنزال العذاب بقوم هود بعد أن جحدوا رسالة نبيهم واستمروا على كفرهم وطغيانهم ، فنجى الله هوداً والذين آمنوا معه من ذلك العذاب وأهلَكَ القوم المجرمين .

﴿ ولما جاء أمرُنا[١] نجَّينا هُوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ مِنّا ونجيناهم من عَذَابٍ غليظ ﴾ هود : ٥٨ .

أمّا كيفية نجاته فإن القرآن لم يبين لنا ذلك ، ويرى بعض المؤرخين أن نجاة هود كانت باعتزال قومه بعد يأسه من قبول دعوته وذهابه مع من آمن به الى مكة وهناك عاش فيها امداً ثم مات هناك ودفن .[٢]

اما عاد فقد سلّط الله عليهم ريحاً عاصفة تتابعت سبع ليال وثمانية أيام فهلكوا وتناثرت جثثهم على الأرض . كما يطرح النخل الخاوي المنتزع من جذوره واستؤصلوا جميعاً ، ولم يبق منهم احد ، واصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم ، قال تعالى :

﴿ وأمَّا عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صرصر[٣] عاتية[٤] . سَخَّرها عليهم سبع

(١) أمرنا : أي امر الله بحلول العذاب .
(٢) اخبار مكة للازرقي ١ / ٣٠ .
(٣) الريح الصرصر : الشديدة الحر او الشديدة البرد .
(٤) عاتية : بالغة الغاية في الشدة .

ليالٍ وثمانية أيام حُسوما[1]. فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعْجازُ[2] نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ الحاقة : ٦ — ٨ .

ويقول تعالى :

﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء إلاّ جعلته كالرميم[3] ﴾ الذاريات : ٤١ .

(١) حسوماً : متتابعة مستأصلة .

(٢) اعجاز : اصول وجذوع .

(٣) الرميم : الجاف المتفتت كالنبات الهشيم .

الفصل الثاني

قصة صالح

مساكن ثمود وآلهتهم – الدعوة الى عبادة الله – الاسراف المهلك – ثمود تطلب معجزة – تفجر العداوة – عقر الناقة – التآمر على قتل صالح – هلاك ثمود .

مساكن ثمود وآلهتهم

لم يعيّن القرآن مساكن ثمود، وإنما يظهر من قول الله تعالى: ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر[1] بالواد ﴾ أن مساكنهم كانت في مناطق جبلية ، او في هضاب صخرية ، وأن (الواد) في الآية هو (وادي القرى) فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن ، وقد عيّن اكثر الرواة قرية (الحجر) على أنها المكان الذي كانت فيه ديار ثمود ، وذكروا ان بها بئراً تسمى بئر ثمود ، وقد نزل بها الرسول ﷺ مع اصحابه في غزوة تبوك ونهى اصحابه عن شرب مائها ودخول منازلها .

وقد كانت ثمود تتعبد لأصنام كثيرة منها الصنم (ود) و (جد – هد) و (شمس) و (مناف) و (مناة) و (اللات) وغيرها[2].

الدعوة الى عبادة الله

أرسل الله نبيه صالحاً الى قومه ثمود ليدعوهم الى عبادته وترك عبادة الأصنام وكان مما قاله هذا النبي : يا قوم اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا معه أحداً فهو الذي خلقكم من الأرض ، وهو الذي جعلكم تعمرونها ، كما هيأ لكم اسباب العمران ، وإذا كان الله هو صاحب هذا الفضل العظيم عليكم ، فحري بكم وواجب عليكم ان تستغفروه مما بدر منكم من سيئات وتتوبوا اليه

---

(١) جابوا الصخر : قطعوا صخور الجبال واتخذوا منها بيوتاً .

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ للدكتور جواد علي .

انه قريب منكم يجيب دعاء الداعي ويغفر ذنب التائب إن كان مؤمناً به مخلصاً في دعائه .

﴿ والى[1] ثمود اخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه إن ربي قريب مجيب ﴾ هود : ٦١ .

الإسْرافُ المهلك

كذبت ثمود نبيها المرسل من الله تعالى وأبت أن تستجيب الى عبادة الله وتوحيده وتقواه مع أنه رسول أمين لا يبتغي على رسالته اجراً ولا جزاء .

وكان من عادة قبيلة ثمود الافراط في اللذات الحسية من مأكل ومشرب ومساكن فخمة ، فأنكر عليهم نبيهم صالح ما هم عليه وقال لهم : هل تظنون ان الله سيترككم فيما انتم تتمتعون به من هذا النعيم ، آمنين على أنفسكم من حلول عذاب الله بكم، فتنعمون كما تشاؤون بجنات وعيون، وزروع ونخل حلو ناضج ، وتنحتون من الجبال بيوتاً ومساكن ناعمين فرحين بها ، ثم لا تشكرون الله على هذه النعم العظيمة، فاتقوا الله وأطيعوني فيما أرشدكم اليه ، ولا تطيعوا امر المسرفين الذين اسرفوا على أنفسهم بالكفر والمعصية ، الذين يعيثون في الأرض فساداً ولا يعرفون الى الصلاح سبيلا .

﴿كذّبت ثمود المرسَلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسُول أمين . فاتقوا الله واطيعون . وما أسألكم عليه من اجر إن اجري إلاّ على ربّ العالمين . اتُترَكون في ما هاهنا آمنين . في جنّات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم[2] . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين[3] . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين[4] . الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون ﴾ الشعراء : ١٤١ ــ ١٥٢ .

---

(١) أي وارسلنا الى ثمود اخاهم صالحاً .

(٢) طلعها هضيم : ثمرها لين ناضج .

(٣) فارهين : حاذقين ، بطرين .

(٤) ولا تطيعوا امر المسرفين : في هذا الأمر اشارة الى أن الأفضل الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف وعدم التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها .

وكان مما قاله صالح لهم ايضاً :

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء[1] الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ الاعراف : ٧٤ .

ثمود تَطلبُ معجزة

لم يؤمن الثموديون بما نصحهم به صالح ، ولم يسيروا في طريق الحق كما أرشدهم ، بل راحوا يتهمونه بالهذيان وان السحر سيطر على عقله فسوّل له أنه رسول من عند الله ، وطلبوا منه ان يأتيهم بمعجزة تدل على انه رسول الله حقاً ، فأتاهم بالناقة التي خلقها الله على غير المألوف[2] وأمرهم ألاّ يمسوها بسوء ، فلا تُعذّب ولا تطرد ولا تركب ولا تذبح ، وجعل الله لها شرباً في يوم معلوم، وجعل لهم شرباً في يوم غيره، وأوعدهم بالعذاب إن هم اعتدوا عليها بسوء ، وان سلامتهم مقرونة بسلامتها :

﴿ قالوا انما أنت من المسحّرين . ما أنت إلاّ بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين . قال : هذه ناقة لها شِرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ الشعراء : ١٥٣ ــ ١٥٦ .

وقال تعالى : ﴿ إنّا مُرسِلو الناقة فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب مُحْتَضَر[3] ﴾ القمر : ٢٧ ، ٢٨ .

تَفجّر العدَاوة

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل من نبات الأرض ، ترد الماء يوماً وتصد عنه يوماً آخر ، ولا ريب أن قيامها على هذه الحال قد استمال اليه كثيراً من قوم صالح إذ رأوا فيها آية على صدق نبوته فأفزع هذا الأمر طبقة الأشراف فخافوا على دولتهم ان تبيد ، وعلى سلطانهم ان يزول ، فبيّتوا في أنفسهم شراً نحو الناقة، ووقفوا من صالح ومن آمن معه موقف العداوة والخصام .

---

(١) آلاء الله : نعم الله .

(٢) قيل : خرجت الناقة من صخرة .

(٣) كل شرب محتضر : لكل نصيب من الماء يحضر لشربه صاحبه في اليوم الذي خصص له .

وقد احس صالح بما يبيتون من شر فقال لهم : يا قوم لِمَ تستعجلون العذاب الذي توعدون به قبل التوبة، هلاّ طلبتم المغفرة من ربكم ليرحمكم !! ولكن القوم أجابوه : تشاءمنا بك وبمن آمن معك وقد أصابنا القحط بعد أن جئتنا بدعوتك فقال لهم صالح : ليس هناك شيء يتشاءم منه فأسباب الخير والشر هي من عند الله . والله سبحانه يختبركم بهذه الشدة التي أنتم عليها لعلكم تؤمنون .

﴿ قال: يا قوم، لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون . قالوا: اطيّرنا[1] بك وبمن معك، قال: طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتنون[2] ﴾ النمل : ٤٦ ، ٤٧ .

وكان الأشراف المتكبرون يلومون المؤمنين على إيمانهم . فيؤكد لهم هؤلاء المؤمنون المستضعفون بأنهم مؤمنون برسالة صالح .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مُرسل من ربه، قالوا إنّا بما أُرسلَ به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ الاعراف : ٧٥ — ٧٦ .

عَقْرُ الناقة

لم يطق الاشراف احتمال هؤلاء المؤمنين ، ولا وجود الناقة بينهم ، ولعلها كانت ضخمة الجسم فأرهبت أنعامهم ، ولعلها حالت بينهم وبين الماء حين اشتداد الحاجة اليه ، ولعلهم أفزعهم ان يكثُر المؤمنون بسبب هذه الناقة ، ولعل هذا كله دفعهم الى قتلها بالرغم من تحذير نبيهم بالعذاب وتوعده إياهم بالهلاك إن مسوها بسوء ، ولكنهم أقدموا على ذبح الناقة غير مبالين، وطلبوا من نبيهم ان يعجّل لهم العذاب الذي هددهم به ، ليثبت لهم أنه رسول من الله .

أمام هذا التحدي لأمر الله اخبرهم صالح بأن عذاب الله واقع بهم بعد ثلاثة ايام : ﴿ فعقروا الناقة وعَتَوْا عن أمْرِ ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ من المرسلين ﴾ الاعراف : ٧٧ .

(١) أطيرنا : تشاءمنا .

(٢) تفتنون : تختبرون .

﴿ فعقروها[1] فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وَعْدٌ غير مكذوب ﴾ هود: ٦٥.

التآمر على قتل صالح

وكان في ثمود تسعة رجال هم أشد الناس كفراً وفساداً في الأرض فأتمروا فيما بينهم على قتل صالح، واقسموا بالله على مباغتته وأهله وقتلهم سرّاً، فإذا جاء انصاره واقرباؤه ليبحثوا عن قتلته ويطالبوا بدمه انكروا تهمة الجريمة مؤكدين لهم القول بأنهم لم يشهدوا قتله ولم يشتركوا فيه.

وخطط هؤلاء مؤامرتهم للفتك بصالح واهله، والله من ورائهم قد أراد النجاة لنبيه وأهله، والهلاك لهؤلاء المتآمرين من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون:

﴿ وكان في المدينة تسعَةُ رَهْط يُفْسدون في الأرض ولا يُصلحون. قالوا: تقاسموا[2] بالله لَنُبيتَنَّه[3] وأهْلَهُ ثم لَنَقولَنَّ لوليّه: ما شهدنا مَهْلِكَ أهله وإنّا لصادقون. ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم اجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. إن في ذلك لآيةً لقوم يعلمون ﴾ النمل: ٤٨ ـ ٥٢.

هلاك ثمود

وكان هلاك ثمود بالصاعقة كما قال تعالى: ﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾.

فالصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين سالبة وموجبة، فإذا دنت سحابة ذات كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل بالكهربائية السالبة في الأرض

---

(١) اسند الله العقر الى اولئك المستكبرين الكافرين، والمتعاطي له واحد منهم لأن القرآن يقول في موضع آخر: (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) لأن هؤلاء الكافرين بتواطئهم ورضاهم عن هذا العمل هم شركاء في الجرم. ومن ذلك نأخذ عبرة بأن الأمة متضامنة متكافلة في الخير والشر، وانها متى سكتت عن منكر وكان في استطاعتها مجابهته عاقبها الله على ذلك السكوت بالعقاب الشامل، ولهذا جاء في القرآن: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة).

(٢) تقاسموا بالله: حلفوا اليمين.

(٣) لنبيتنه: لنباغتنه ليلا.

ويكون الاستفراغ او الاتحاد في جسم ما على الأرض فيحترق إذا كان شجراً او انساناً ويتفتت إن كان صخراً ويتهدم إن كان بناء ، ومبلغ ما تدمره الصاعقة منوط بمقدار كمية الاستفراغ ومبلغ قوة الكهربائيتين .

وقد عبر القرآن عن الصاعقة ايضاً بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة ﴿ فأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

لأن الصاعقة تحدث صوتاً عظيماً فذلك المراد بتسميتها بالصيحة ، وقد تكون مصحوبة برجفة اشبه بالزلزال ترجف الأفئدة من وقعها ، وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل الى مكان آخر .

فما وصفه القرآن للصاعقة بتعابير شتى هو تعبير دقيق يصف آثارها وعواملها ومظاهرها .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

الاعتدال في المعيشة – دعوة للثورة على الجبابرة – درس في الجرأة – الاستعلاء في الأرض عاقبته الهلاك – الاستغفار والتوبة وآثارها .

الإعتدال في المعيشة

من روائع توجيهات القرآن لبناء أمة متماسكة سليمة هو دعوته الى الاعتدال في المعيشة ، والنهي عن الإسراف والبطر ، وذلك بما ورد على لسان هود :

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ .

فنبي الله هود يقول لقومه : لماذا هذا الإسراف في بناء القصور الفخمة في الأماكن المرتفعة أليُعرف بذلك غناكم كأنكم ترجون الخلود في الأرض ؟

فالنبي هود يعيب على قومه الإسراف في البنـــاء الفخم ، فهم لم يبنوا منازلهم طلباً للسكنى والراحة ، ولو فعلوا ذلك لما عاب عليهم عملهم وإنما بنوها رغبة في المباهاة والتيه وهذا عبث واسراف مذموم ، وهم يرجون من وراء ذلك الخلود في الأرض ، مع أن الخلود مستحيل ومتاع الدنيا قليل .

وهذا نبيّ الله صالح يذكّر قومه بِنِعَمِ الله عليهم فيما آتاهم من الحذق في اتخاذ البيوت ينحتونها من الجبال ، وينعى عليهم كفرانهم بتلك النعمة إذ يسيئون استعمالها بالتعالي في تلك البيوت اشراً وبطراً ، وقد جمع الله ذلك المعنى الرائع كله في لفظة واحدة ، وهي (فارهين) .

﴿ اتُتركون في ماهاهنا آمنين . في جنّاتٍ وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين[١] . فاتقوا الله واطيعون ﴾ .

---

(١) فارهين : في التعبير باسم الفاعل (فارهين) اعجاز معنوي لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه ، فره من باب كرم معناه : حذق . ومن باب فرح معناه : اشر وبطر ، كما في القاموس ، واسم الفاعل يدل على المعنيين جميعاً .

ما اكثر الذين يبنون للعبث والرياء والفخر في زماننا هذا ، وما أضيع المال بين أيدي هؤلاء المسرفين ، وما أحوجهم الى أوصياء يحجرون على أموالهم ويحولون بينهم وبين ذلك الاسراف .

ما فائدة الأمة من ذلك القصر الفخم الذي أُنفق على بنائه الملايين من الأموال ليتمتع بسكناه رجل ثري وحوله الألوف من الناس : عمّال وصناع لا يجدون ما يأكلون ولا السكن الذي اليه يأوون ؟!

أما كان الأحرى به ان يسكن ذلك الثري في بيت متوسط التكاليف ويوفّر هذه الأموال الطائلة ويضعها في مرافق الأمة لتنشيط زراعتها وصناعتها وحاجاتها الملحة ؟

فالاسلام يوحي بهذا المفهوم الاجتماعي العادل في نفوس اتباعه ليقوم المجتمع الإسلامي على أسس سليمة من العدالة الاجتماعية ، وليكون حكامه بالمرصاد أمام كل فرد او جماعة تسخر أموال الأمة لملذاتها وعبثها ولهوها، فمال الغني — في نظر القرآن — وإن كانت ملكيته خاصة فإن منفعته عامة للأمة ، لأن وصية الله للمؤمنين تقول :

﴿ ولا تؤتوا السفهاء[1] أموالكم التي جَعَلَ الله لكم قياماً [2]﴾ .

دعوة للثورة على الجبابرة

يذم الله قوم هود لأنهم اتبعوا أوامر جبابرتهم والتي بسببها استحقوا الهلاك والطرد من رحمة الله .

﴿ وتلك عَادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رُسُله واتّبعوا أمر كل جبار[3] عنيد[4] . وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ هود : ٥٩ .

دعوة للتحرر من سلطان الجبابرة يطلقها القرآن داوية على اسماع اتباعه ليتحرروا من سلطان كل متسلط غاشم ، ومن كل معاند لا يقر بحق .

(١) السفهاء : هم المسرفون المبذرون اموالهم في غير الوجوه الصحيحة إما لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم او لسوء تدبيرهم .
(٢) قياماً : ان الأموال جعلها الله لتقوم بها معايشكم وتبنى عليها مصالحكم .
(٣) جبار : المتكبر والمتعالي عن قبول الحق والاذعان له ،وقيل : انه الذي يقتل ويضرب على الغضب.
(٤) عنيد : المعاند للحق المباهي بما عنده .

وتعبير القرآن الكريم دقيق ، جمع الله فيه للمتسلط صفتين : صفة جبّار ، وصفة عنيد ، لأن الجبار هو المتكبر الغليظ القلب الذي من ابرز صفاته العناد في الباطل والتمادي فيه .

فالاسلام لا يرضى لأتباعه ان يكونوا منقادين لجبابرة يستعبدونهم ويذيقونهم ألوان العذاب ويسخرونهم لمآربهم واهوائهم ، بل الإسلام يهيب بأتباعه ان يثوروا عليهم ، ولا يرضخوا لسلطانهم ، لأن اتباع رغبات الجبابرة أمر ينافي الإيمان الصحيح، فالإيمان يسبغ على النفس الكرامة، والتحرر من كل سلطة غاشمة ، فليس للمؤمنين عذر ان يكونوا مغلوبين على أمرهم لأنهم كثرة والمتجبرون قلة ، ولو أراد المؤمنون التحرر لضحوا في سبيله ولنالوه . هذا وقد بشّر الله المؤمنين في القرآن ان مآل الجبابرة هو الخسران والهلاك ﴿ وخاب[1] كل جبّار عنيد ﴾ .

لقد هلكت عاد لأنها اتبعت أمر كل جبار عنيد ، هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا والآخرة وسيهلك كل من يرضخ لرغبات كل جبار عنيد .

درسٌ في الجرأة

وفي قصة هود درس في الجرأة والاستماتة في سبيل العقيدة ، هذا الدرس نبراس لكل مصلح نذر نفسه في سبيل عقيدته .

فالنبي هود يخاطب قومه :

﴿ إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مِمَّا تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنْظِرون ﴾ .

تأمل قوله ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ فهو يريد ان يلقي في اسماعهم انه لا يبالي بكيدهم مجتمعين، ولا يخاف أذاهم على الرغم أنهم الأقوياء الأكثرون ؛ هذه سمة من سمات أصحاب العقيدة الذين غمر الإيمان قلوبهم وسيطر حب الإصلاح على مشاعرهم ، فلا رهبة ، ولا وجل من أنصار الباطل، فللمؤمنين من عقيدتهم ما يستسهلون بها كل خطر وضيم .

سرّ هذه الجرأة في هود انه متوكل على ربه فهو يقول لقومه : ﴿ إني متوكل

(١) خاب : خسر وهلك .

على الله ربي وربكم ﴾ وجدير بمن يتوكل على ربه ، ويلجأ الى خالقه مصدر كل قوة في الوجود أن يبدّل خوفه أمناً ، وضعفه قوة . وما أحوج المصلح والداعي الى ربه الى ذلك التوكل الذي يسبغ على النفس اليقين والصبر والرضا بكل تضحية في سبيل مرضاة ربه .

الاستعلاء في الأرض عاقبته الهلاك

وفي قصة هود بيان للعاقبة الوخيمة التي تنتظر الأمم المستكبرة الطاغية . فالقرآن يصف قبيلة عاد بقوله :

﴿ فأما عَادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشدّ مِنّا قوة ، أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نَحِسَاتٍ لنذيقهم عذاب الخِزْي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون ﴾ فصلت : ١٥، ١٦ .

فقبيلة عاد استكبرت في الأرض وغرّتها قوتها فأعرضت عن هدي الله وطريق الحق فأصابها الله بالذل والهلاك .

عبرة يضعها القرآن أمام انظارنا لنأخذ منها أبلغ الدروس .

وإن ما كانت تدعيه (عاد) تدعيه الآن الدول الكبرى التي ركبها غرور العلم والمدنية ، وما وصلت اليه من ثراء وقوة، فأعرضت عن سبيل الحق واستعبدت الشعوب الصغيرة المغلوبة على امرها واستغلت ثرواتها وسلكت في السيطرة عليها كل الطرق الدنيئة من اشعال الفتن وشراء الضمائر وتفرقة الجماعات في سبيل مغانمها ومصالحها الاستعمارية ولسان حالها يقول : ﴿ من أشد منّا قوة ﴾ .

ولكن مهلاً ... ونظرة الى التاريخ القريب الذي يحمل أبلغ العبر .

ألم يتعظوا في عاقبة المانيا الهتلرية التي أطلقت شعارات القوة والاستعلاء في الأرض وقالت (المانيا فوق الجميع) فكان مآلها بعد ذلك الدمار وهلاك اكثر شبابها واصابتها بالذل من جانب المنتصرين عليها .

الاستغفار وَالتوبة وآثارهما

إن الله جعل في عالم المادة نواميس تسير بموجبها ، وكذلك جعل في عالم

الاجتماع قوانين ونواميس تسير في نظام محكم .

من ذلك ما صرّح به القرآن : إن الذنوب والمعاصي إذا انتشرت في أمة كان ذلك سبباً في شقائها وهلاكها كما حصل لقوم هود وصالح .

ولهذا أمر الله الناس عبر الأجيال بواسطة أنبيائه ان يقلعوا عن المعاصي ويطلبوا الغفران من الله على ما اقترفوه ويتوبوا اليه حتى يحصلوا على نعمه وينالوا رحمته ويتجنبوا غضبه .

فها هو نبي الله هود يعظ قومه بما ذكره القرآن إرشاداً لنا :

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يُرسِل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ﴾ هود : ٥٢ .

والمعنى : اطلبوا من خالقكم ان يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم ، ثم ارجعوا اليه . إنكم ان فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم كثيراً متتابعاً ، فتكثر خيراتكم ، ويزدكم قوة الى قوتكم .

ويذكر القرآن كيف وعظ النبي صالح قومه :

﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون ﴾ .

أي هلا استغفرتم ربكم حتى تنالوا رحمته .

ويقول ايضاً : ﴿ واستغفروا ربكم إنه قريب مجيب ﴾ أي ان الاستغفار وسيلة لاستجابة الدعاء .

فالذنوب ليست محرمة إلا أنها ضارة بالجسم والعقل والنظام الاجتماعي ، وهي اكثر ما تكون ضرراً مع اصرار فاعلها ، فإذا بادر المذنب الى طلب الغفران من الله على ما اقترف من سوء ، وندم على ما فات ، امتنع ذلك الفساد ، وزال أثره ، وترتب على ذلك صلاح الفرد والمجتمع .

هذه سُنّة الله في خلقه تظهر جلية لكل دارس لتاريخ الدول وأسباب سقوطها وانهيارها ، فالدول التي تصر على الظلم والفساد يهلكها الله في الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران ، فتزول منعتها ويتمزق شملها ، ويستولي عليها من يطمع فيها فيذيقها الهوان والذل .

الباب الخامس

ابراهيم عليه السلام
لوط عليه السلام
اسماعيل عليه السلام

١ - ابراهيم وعبادة الأصنام

٢ - إيمان ابراهيم

٣ - قصة اسماعيل

٤ - فضائل ابراهيم

٥ - دروس وعبر

٦ - قصة لوط

٧ - دروس وعبر

ابراهيم : ابو الأنبياء

ابراهيم عليه السلام له منزلة عظيمة عند معتنقي الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والاسلام ، فاسمه يذكر دائماً مقروناً بالإكرام والدعاء والاجلال ، فهو من أولي العزم من الرسل فقد جاهد في سبيل الدعــوة الى عبادة الله ووحدانيته وعرّض نفسه للهلاك في سبيل العقيدة التي آمن بها ، وكانت حياته سلسلة تضحيات لربه فضرب بعمله مثلاً حياً لكافة الأمم من بعده على الاخلاص والتفاني في محبة الله .

كما ان منزلة ابراهيم ورفعة شأنه تكمن ايضاً في انه ابو الأنبياء، « فكل كتاب أُنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد ابراهيم فمن ذريته وشيعته »[1] وهذه مرتبة لابراهيم لا يعلو عليها أي رتبة .

فابراهيم كان له ولدان اصطفاهما الله بالنبوة وهما : اسماعيل واسحق، فإسماعيل هو جد النبي محمد[2] عليه السلام وجد عرب الحجاز ، اذ يرجع نسب عرب الحجاز الى ولدي اسماعيل : نابت وقيذار[3] .

وقد أشار القرآن الى أبوة ابراهيم للعرب . قال تعالى مخاطباً المؤمنين العرب : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج مِلّة ابيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل ﴾ الحج : ٧٨ .

أما اسحق فقد رُزق بولد اسمه يعقوب، وهو الذي يلقّب بإسرائيل واليه ينتسب سائر اسباط بني اسرائيل ، وكان في هؤلاء الأسباط كثير من الأنبياء خُتموا بعيسى بن مريم الذي قال لإتباعه كما يروي الإنجيل : « ابراهيم ابوكم ابتهج حتّى يرى يومي فرأى وفرح »[4] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) اجمع النسابون ان نسب الرسول ينتهي الى عدنان بن أدد وعدنان ينتهي نسبه الى اسماعيل بن ابراهيم .

(٣) تاريخ الطبري جـ ١ ص ٢٢١ .

(٤) يوحنا ٨ : ٥٦ .

وقد اشار القرآن الى ابوة ابراهيم للأنبياء الذين جاءوا بعده، قال تعالى في شأنه : ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب كُلاًّ هدينْا ، ونوحاً هدينا مِنْ قَبْلُ ، ومن ذرّيته داود وسليمان ، وايوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين .وزكريا ويحي وعيسى والياس كلّ من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً[1] وكُلاّ فضّلنا على العالمين ﴾ الانعام : ٨٤ – ٨٦ .

يتبين لنا من هذا النص القرآني ان ابراهيم هو جد اليهود ، والنصارى ، والمسلمين، وأن أنبياء هذه الأديان الثلاثة يلتقون في النسب، فهم من أرومة واحدة ، ويسعون الى غاية واحدة هي : العمل بوصايا الله الّتي انزلها عليهم والّتي تدعو قبل كل شيء الى عبادة الله وحده .

(١) كان لوط ابن اخ ابراهيم لذا فقد دخل في الذرية تغليباً .

الفصل الأول

ابراهيم وعبادة الأصنام

نشأة إبراهيم في أرض بابل – إبراهيم وآلهـة بابل – إبراهيم يدعو أباه إلى ترك عبادة الأصنام – إبراهيم يحطم الأصنام – محاكمة إبراهيم – فتح علمي للقرآن .

نشأة ابراهيم في أرض بابل

من المقارنة بين ما ورد في سفر التكوين وما اكتشفه علماء الآثار يُستدل ان عهد ابراهيم لا يعود الى الألف الثاني قبل المسيح كما كان يُظن لسنين خلت بل إلى القرن التاسع عشر او بالأحرى الى القرن السابع عشر[١]، وأن بلدة اور الكلدانية هي مهد ابراهيم،وهي اليوم تُعرف باسم مُغير ، وتقع ما بين نهري دجلة والفرات في السهل الى الجنوب ، ثم يخبرنا سفر التكوين ان ابراهيم رحل مع والده الى جوار مدينة حاران في اقصى ما بين النهرين غرباً .

والمصادر العربية تذكر ان مولد ابراهيم كان في بابل[٢] ويصف المؤرخ ياقوت[٣] ارض بابل فيقول : انها بين دجلة والفرات وهي التي يقال لهـا : السواد . وكان مولد ابراهيم في عهد الملك نمرود بن كنعان بن كوش .

والتاريخ يثبت انه في الزمن الذي عاش فيه ابراهيم في العراق كانت حضارة بابل هي المسيطرة في العراق .

ابراهيم وآلهة بابل

ولكن ما هي معتقدات اهل بابل ؟ ان معرفتها تساعدنا على تفهم الآيات القرآنية التي وصفت معتقدات قوم ابراهيم .

---

(١) دائرة المعارف – البستاني – مادة ابراهيم .

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ١٦٢ .

(٣) معجم البلدان (بابل) .

«كان لأهل بابل كثير من الآلهة ... ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها، وقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدها وتخلص لها، وإن كانت تخضع رسمياً للإله الأعظم، ثم قلَّ عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد ان فُسِّرت الآلهة الصغرى بأنها صُوَرٌ او صفات للآلهة الكبرى، وعلى هذا النحو أصبح (مردك) إله بابل كبير الآلهة البابلية.

وكان الملوك يشعرون بشدّة حاجتهم الى غفران الآلهة فشادوا لها الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام والنبيذ»[1]

في هذه البيئة التي سيطر عليها تعدّد الآلهة ونُصبت فيها التماثيل لعبادتها أعطى الله الرشد والحقيقة العظمى لابراهيم، فعرف بصائب رأيه ووحي ربه أن الله واحد وانه المهيمن وحده على هذا الكون، لذلك عزم على هداية قومه وتخليصهم من هذه الأباطيل فتوجّه اليهم بالنصح، وَنهاهم عمّا هم فيه، وهذا ما يذكره الله لنا بقوله:

﴿ولقد آتينا ابراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكنّا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون[2]. قالوا وَجَدنا آباءنا لها عابدين. قال: لَقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضَلالٍ مُبين. قالوا: أجِئتَنا بالحق أم أنت مِن اللاعبين. قال: بل ربكم رَبّ السموات وَالأرض الذي فطرَهُنّ[3] وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ الأنبياء: ٥١ – ٥٦.

كان تعليل هؤلاء القوم لعبادتهم الأصنام هو أنهم وجدوا آباءهم عابدين لها فاقتدوا بهم.

هذه هي الحجة الواهية التي يُبرزها المفسدون في وجوه المصلحين في كلّ زمانٍ وما أوهاها من حجّة يعطلون بها عقولهم ويصبحون مُنقادين لسلفهم كالبهائم.

فابراهيم أراد أن يحرّر قومه من عبادة الأصنام، وما يستتبع ذلك من الاعتقاد بالخرافات والاساطير، ليوصلهم الى الحقيقة العظمى التي يجب أن

---

(١) قصة الحضارة – ول ديورانت – ج ٢ ص ٢١١ وما بعدها.

(٢) عاكفون: مقبلون عليها بمواظبة.

(٣) فطرهن: خلقهن.

ينشدها كل إنسان على هذه الأرض ، ألا وهي عبادة الله وحده ، وهذا ما يخاطب به ابراهيم قومه :

﴿ قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، انتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوٌّ لي إلاّ رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدينِ . والذي هو يُطعمني ويَسقينِ . وإذا مَرِضْتُ فهو يشفينِ . والذي يميتني ثم يحيينِ . والذي أطمَعُ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ الشعراء : ٧٥ ـ ٨٢ .

هذا هو إيمان ابراهيم ، إنه ايمان المستسلم لربه في كل جارحة من جوارحه ، إنه الإيمان الذي ينزع من النفس همومَها وأحزانَها ويُسبغُ عليها طمأنينة وسعادة ، إنه الإيمان الذي يخلّص النفس من الاستسلام للخرافات والركون إلى الأوهام ، فلا رازق ، ولا شافي ، ولا محيي ، ولا مميت ، ولا غافر للذنب إلاّ الله رب العالمين .

ابراهيم يدعو أباه الى ترك عبادة الأصنام

كان والد ابراهيم في مقدمة عابدي الأصنام ، بل كان ممن ينحتها ويبيعها ، وقد عزّ على ابراهيم فعل والده وهو اقرب الناس الى قلبه ، فرأى من واجبه ان يخصه بالنصيحة ويحذره عاقبة كفره .

ولكن بأي اسلوب خاطب ابراهيم أباه ؟ لقد خاطبه بلهجة تسيل أدباً ورقة مبيّناً بالبرهان العقلي بطلان عبادته للأصنام ، قال تعالى : ﴿ واذكُرْ في الكتاب ابراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك شيئاً . يا أبتِ ، إني قد جاءني من العِلم ما لم يأتك فاتّبعني أهْدِكَ صِراطاً سويّاً . يا أبتِ لا تعبُد الشيطانَ ، إنّ الشيطان كان للرحمٰن عصيّاً . يا أبتِ ، إني أخافُ ان يمسَّكَ عذابٌ من الرحمٰن فتكون للشيطان وليّاً . قال : أراغبٌ أنت عن آلهتي يا ابرهيم ؟ لئن لم تنتهِ لأرجُمنَّكَ واهجُرْني مَليّاً . قال : سلامٌ عليك ، سأستغفرُ لك ربي إنه كان بي حفيّاً . وأعتزِلُكُم وما تَدعُونَ من دون الله وأدعو ربي ، عسى ألاّ اكون بدعاء ربي شقيّاً ﴾ مريم : ٤١ ـ ٤٩ .

هذا كلام يهز أعطاف السامعين . انظر كيف استهلّ ابراهيم كلامه عند كل نصيحة بقوله :(يا أبتِ) توسلاً اليه واستعطافاً لقلبه مع استعمال الأدب الجم.

يبدأ إبراهيم بتقديم البرهان العقلي لوالده بقوله: لِمَ تعبد جماداً لا يسمع ولا يبصر، وليس له قدرة على اصابتك بخير أو شر، ثم يتابع ابراهيم وعظه بدعوة ابيه الى الحق مترفقاً به، فلم يصف أباه بالجهل المطلق خوفاً من ان يعتبر ذلك امتهاناً لرأيه فينصرف عنه، ولم يصف ابراهيم نفسه بالعلم الفائق حتى لا يظهر العلو على والده فينفر منه، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وقد جاءني هذا العلم من الله ولا يمكن ان يأتيك مثله فاتبع نصائحي فإني أدلُّكَ على الطريق الصحيح، وإن الشيطان الذي عصى ربه هو عدوك الذي ورطك في هذه الضلالة التي تؤدي بك الى عذاب الله. ولكن اباه ابتدره قائلاً: يا للعجب أمعرض ومنصرف أنت عن عبادة الأصنام يا إبراهيم؟ لئن لم ترجع عما انت عليه من النهي عن عبادة الأصنام لأرجمنّك بالحجارة، فاغرب عن وجهي وابعد عني طويلاً استبقاء لحياتك ان كنت تريد النجاة.

لم يقابل ابراهيم تهديد والده وطرده إلاّ بقوله: (سلام عليك) أي لن يصلك مني مكروه ولن ينالك مني أذى بل انت سالم من ناحيتي، وسأدعو الله ان يغفر لك فلا يعاقبك، وقد عودني ربي ان يكرمني فيجيب دعائي، وإذا كانت دعوتي لك الى الايمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك واعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة لأعبد الله وحده، عسى ألاّ اكون بعبادته خائباً ضائع السعي مثلكم في عبادتكم تلك الآلهة.

هذا وقد استغفر ابراهيم لأبيه كما وعده ولكن قبل يأسه من ايمانه، أما بعد ان تبين له انه عدوّ لله لا يريد ان يترك عبادة الأصنام فقد تبرأ منه ابراهيم كما جاء في القرآن:

﴿ وما كان إستغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه، فلما تبيّن له انه عدوّ لله تبرّأ منه إن ابراهيم لأوّاه حليم ﴾ التوبة: ١١٤.

ابراهيم يحطّم الأصنام

اضمر ابراهيم في نفسه الهَدْمَ للأصنام التي كان يعبدها قومه، فأقسم على تحطيمها، وهي طريقة عملية اراد إظهارها لقومه ليقيم لهم الحجة على انها لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع إلحاق الأذى بمن يصيبها بضرر. فالبرهان العملي له في النفس وَقْعٌ كبيرٌ أشد أثراً من الوعظ والإرشاد.

تحيَّنَ ابراهيم الفرصة المناسبة لتحقيق مأربه الى ان كان يوم عيد عندهم فقال له ابوه : يا ابراهيم : اليوم عيد فلو خرجت معنا وشاركتنا في الاحتفال به لدخل السرور الى قلبك ، فخرج معهم إبراهيم، ثم لاح له عذر يستطيع به التخلف فنظر نظرة في النجوم وقال: إني قرأت في طالعها بأني مشرف على مرض الطاعون فخاف القوم من ان تصيبهم العدوى فتركوه، ورجع أدراجه نحو المكان الذي فيه اصنامهم وقد صمم على تحطيمها .

وصل ابراهيم الى الهيكل الذي اقيمت فيه أصنامهم ، وكان بعضها الى جانب بعض يتصدرها كبيرها ، ورأى امامها ما تركه القوم قرباناً لها من الطعام والشراب لتأكله في زعمهم . فخاطبها إبراهيم ساخراً : ألا تأكلون !! فلما لم يجبه احد قال : مالكم لا تنطقون ؟ ثم أنحى عليها ضرباً بيده اليمنى فكسرها كلها بفأس وجعلها قطعاً صغيرة ، وابقى على الصنم الكبير – وهو اكبر الآلهة عندهم – وعلّقَ الفأس بيده ثم غادر الهيكلَ . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وإنَّ مِنْ شيعته[1] لابراهيمَ . إذ جاء ربّهُ بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أئفكاً آلهةً دُونَ الله تُريدون . فما ظنّكم برب العالمين . فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مُدبرين[2] . فَراغَ[3] الى آلهتهم فقال : ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فَرَاغَ عليهم ضرباً باليمين ﴾ الصافات : ٨٣ – ٩٣ .

وجاء في القرآن :

﴿ وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولوا مُدْبرين . فجعلهم جُذاذاً[4] إلاّ كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون ﴾ الأنبياء : ٥٧ – ٥٨ .

فابراهيم بتحطيمه الأصنام اقام دليلاً حسياً لقومه على بطلان عبادة الأصنام ، فلو كانت آلهة حقيقية لدافعت عن نفسها واصابت بالضرر من أرادها بسوء، وهذه الحقيقة التي فطن لها الأمبراطور (هيديوشي) أمبراطور اليابان .

---

(١) الضمير في شيعته راجع الى نوح ، اي ممن شايع نوحاً في التوحيد وجرى على منهاجه هو : ابراهيم.
(٢) فتولوا عنه مدبرين : انصرفوا عنه هاربين .
(٣) فراغ الى الهتهم : أي ذهب اليها مسرعاً مستخفياً .
(٤) جذاذاً : قطعاً صغيرة .

فقد شيد هذا الامبراطور تمثالاً ضخماً لبوذا ... ولم يكد يتم بناؤه حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشيماً ...

ويُروى في اليابان أن (هيديوشي) رمى الصنم المحطم بسهم قائلاً له في ازدراء: لقد اقمتك هاهنا بباهظ النفقات فلم تستطع حتى حماية معبدك[1].

محاكمة ابراهيم

رجع القوم بعد أن احتفلوا بعيدهم فرأوا ما حل بأصنامهم فراعهم ذلك. وتساءلوا فيما بينهم عن الفاعل الظالم الذي نال من مقدساتهم، فقال بعضهم: سمعنا فتى يذكر هذه الأصنام بسوء يُقال له ابراهيم، كان من عادته ان يعيبها ويستهزىء بها، وهو الذي نظنه فعل بها هذا الفعل.

وصل الى الحكام نبأ الاعتداء على الأصنام فقالوا لجندهم: إئتوا بابراهيم لنحاكمه على مَشهدٍ من الناس، وليتقدم للشهادة الذين سمعوه يعيب الأصنام ويتوعدها بالشرّ.

جيء بابراهيم فسأله الحكام: (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم)؟

ويشعر ابراهيم بأن الفرصة قد سنحت له ليبلغ مأربه وليصل الى الحقيقة التي اراد ان يقروا بها، فبأسلوب حكيم يجيبهم على سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم وان الشاهد على فعله هو بقية الأصنام، وتابع قوله: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فقد غضب الصنم الكبير من ان تعبدوا هذه الأصنام الصغيرة وهو اكبر منها فكسرها.

وبلا وعي ولا تفكير ينزلق القوم في هذا المزلق الذي دفعهم اليه ابراهيم فيقول بعضهم لبعض: أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق، وأنتم الظالمون باتهام ابراهيم، ولكن الحقيقة تصدمهم بعد ذلك فإذا بهم يطرقون برؤوسهم من الخجل ثم يعودون الى مجادلة ابراهيم قائلين: انك تعلم ان هذه الأصنام لا تقدر ان تنطق فكيف تطلب منا ان نسألها؟... حينئذٍ برزت حجة ابراهيم داوية مجلجلة تقرع آذانهم وتفحم ألسنتهم بهذا الجواب البليغ:

﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم افٍّ لكم ولِما

---

(١) قصة الحضارة – ول ديورانت جـ ٥ ص ١٣٣.

تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

هذه الآية تعرض على الاسماع في كل عصر تفاهة الذين يقدسون الأصنام ويعبدونها من دون الله .

ولكن الجهل اذا استحكم في النفوس ، والتعصب الاعمى إذالامس القلوب ، جعل النفوس تصل الى مستوى حقير في الحكم على صحة الاشياء ، لهذا لما رأوا أنهم غُـلِبوا على امرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجة، عدلوا عن الجدل والمناظرة ، وعمدوا الى القوة يسترون بها فضيحتهم، فأصدروا حكمهم عليه بالموت حرقاً، ولكن الله نَـجّاه منها بقدرته فقال للنار : ﴿كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ﴾ فكانت برداً وسلاماً بأمر الله ، قال تعالى :

﴿ قالوا : فأتوا به على أعين الناس، لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟ قال : بل فَعَلَهُ كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى انفسهم ، فقالوا: إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رؤوسهم لقد علِمْتَ ما هؤلاء ينطقون . قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم ؟ أفّ لكم ولِمَا تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون ؟ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قُلنا : يا نارُ كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ﴾ الأنبياء : ٦١ — ٧٠ .

وقال تعالى في وصف محاكمة ابراهيم ولكن بايجاز بليغ :

﴿ فأقبلوا اليه يزفّون[1] . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ الصافات : ٩٤ — ٩٨ .

قف قليلاً ايها القارىء عند هذه الآية ﴿ قال: أتعبدون ما تنحتون ﴾ فبإيجاز مدهش وبيان واضح بيّن القرآن بطلان عبادة الأصنام، وهي كما ترى لا يمكن لأي أديب أو بليغ ان يرتقي الى هذا البيان المعجز الذي هو من خصائص القرآن وحده .

لقد قيل في هذا المعنى قولٌ، وهو من الأمثال الصينية المشهورة: (ليس من صانعي التماثيل من يعبد الآلهة فإنهم يعرفون من أي مادة تُصنع)، ولكن

---

(١) يزفون : يسرعون .

شتان بين بلاغة القرآن وبلاغة المثل الصيني فالقرآن أوضح المعنى ذاته بإيجازه المعجز الذي هو آية على كونه وحياً إلهياً .

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ والله خَلَقَكُم وما تعملون ﴾ أي ان الله خلقهم وما يعملونه من الأصنام ، فهو الذي خلق في الانسان الاستعداد والقدرة للعمل، كما انه خلق المادة التي عُملت منها الأصنام ، فكيف يعبد الانسان المخلوق لله مخلوقاً مثله وهو الاصنام ؟.. اما كان أجدر به ان يعبد الله الخالق لا الصم المخلوق ! !

فتح علمي للقرآن

المتأمل في الآيات القرآنية — التي ذكرناها من قبل — يراها تتعرض لوقائع تاريخية صحيحة توصل العلم الى الاقرار بحقيقتها .

فمثلاً يذكر القرآن ان ابراهيم تطلع إلى السماء ﴿ فنظر نظرة في النجوم، فقال إني سقيم ﴾ أي نظر ابراهيم في النجوم فرأى في طالعها بأنه مشرف على على المرض . فهذه الآية يُفهم منها ان قوم ابراهيم كانوا يشتغلون بالتنجيم فجاءهم ابراهيم بعذر من حيث يعتقدون . يقول (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة(١) : « فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على مسير القوافل والسفن، بل درسوها اكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين اكثر منهم فلكيين ... واضحت الجهود التي تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين » .

ويتحدث القرآن عن عادات قوم ابراهيم في تقديم القرابين من الطعام لآلهتهم: ﴿ فَراغَ (٢) الى آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ فهذه الآية تذكر ان ابراهيم لما وصل الى المعبد الذي فيه آلهة قومه ورأى عندها طعاماً، فعرض عليها أن تأكل .

يقول (ول ديورانت) في كتابه السابق: « وكان الملوك يشعرون بشدة

---

(١) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٢١١ وما بعدها .
(٢) راغ : مال اليها سراً .

حاجتهم الى غفران الآلهة فشادوا لها الهياكل وامـــدوها بالاثاث والطعام ... وكان الطعام والشراب اكثر ما يقرّب من القرابين ...[1]»

ويذكر القرآن عن ابراهيم بأنه حطم الأصنام إلا كبيرها ﴿ فجعلهم جذاذاً إلاّ كبيراً لهم ﴾ .

يفهم من هذا النص القرآني انه كان لقوم ابراهيم آلهة كثيرة ، وانه كان بجانب هذه الآلهة اله كبير وهو الذي ابقـــى عليه ابراهيم فلم يحطمه . ويذكر (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة : « بأن مردك كان يعتبر كبير الآلهة عند اهل بابل وانه كان بجانب هذا الاله كثير من الآلهة » .

ان هذه الحقائق التي ذكرها القرآن وحده والتي اعترف بها العلم من قريب لهي نصر علمي للقرآن فهي لم تكن معلومة في عصر محمد ﷺ وفي بيئته ، ولم يُكشف عن اسرارها إلاّ منذ امد قريب وذلك بعد ان قام العلماء بالحفريات بأرض بابل وعثروا على الألواح التي كتب عليها باللغة المسمارية معتقدات اهل بابل آنذاك ثم فكوا رموزها وفهموا محتوياتها .

---

(١) نفس المصدر .

الفصل الثاني

إيمان ابراهيم

حجة إبراهيم في بطلان تعدد الآلهة – البرهان على ربوبية الله وحده – قدرة الله في إحياء الموتى .

حجة ابراهيم في بطلان تعدد الآلهة

أظهرت الدراسات التاريخية انه في الزمن والبيئة التي عاش فيهما ابراهيم كان الناس يؤلهون الشمس والقمر والكواكب .

وابراهيم عليه السلام الذي آمن بالله وحده كان لا يترك فرصة إلاّ ويحاور فيها قومه ويجادلهم في معبوداتهم، من ذلك تلك المحاورة التي اراد بها بيان بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، واظهار ان المعبود بحق هو الله وحده، قال تعالى :

﴿ وكذلك نُري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكباً قال: هذا ربي فلما أفل قال لا أُحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي، هذا اكبر فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مِمَّا تُشركون . إني وجَّهْتُ وَجْهي للذي فَطَرَ السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ الانعام : ٧٥ – ٧٩ .

معنى هذه الآيات : ان الله اظهر لابراهيم بعض أسرار ملكوته الدالة على ربوبيته ليكون من اهل اليقين الراسخين في الايمان وليقيم بذلك الحجة على قومه الوثنيين ؛ واليكم ما جرى :

ها هو الليل بدأ يرخي سدوله وابراهيم بين جماعة من قومه يتحدثون ويتسامرون فيلمح ابراهيم احد الكواكب السيارة مما كان يعبده هؤلاء القوم يلمع في السماء فيقول ابراهيم على مسمع من الحاضرين: (هذا ربي) مجاراةً

لهم وايهاماً انه على رأيهم .

ولكن هذا الكوكب لم يلبث ان احتجب نهاراً عن الأنظار وغاب، عندئذ قال ابراهيم لصحبه بأنه لا يؤمن بمعبود يظهر ثم يغيب .

أسلوب حكيم اختاره ابراهيم فهو لم يحقّر معبوداتهم، ويسفه معتقداتهم في بادىء أمره فينفروا منه ويخاصموه ويصمّوا آذانهم عن سماع حجته، بل جاراهم في معتقداتهم لينال ثقتهم وليكون لكلامه وقع في نفوسهم يستطيع به بعد ذلك أن ينفذ الى قلوبهم ويبين موضع الخطأ في معتقداتهم الذي يتمثل في ان ظهور الكوكب الذي اعقبه احتجاب يقتضي الحدوث، والحدوث ينافي الألوهية .

ويجتمع ابراهيم بصحبه في مجلس آخر ويرى القمر يطلع من وراء افق يشق بنوره ظلمة الليل فيقول ابراهيم : (هذا ربي) مجاراةً لهم ايضاً في معتقداتهم . ولكن القمر لم يلبث ان غاب عن الأنظار، عندئذ يقول ابراهيم لئن لم يهدني ربي الذي خلقني لأكونن من القوم الضالين، فهو في هذا الاعتراف يرمي الى هدفين : اولاً ـ نقض عبادة القمر، وثانياً ـ ان هناك معبوداً آخر هو الله وحده الذي يهدي النفوس ويحول بينها وبين تسرّب الحيرة والشك إلى أعماقها .

وفي اليوم التالي تشرق الشمس وتبرز في كبد السماء وهاجة فيقول ابراهيم لمن حوله: (هذا ربي هذا اكبر) انها اكبر من الكوكب والقمر وذلك استدراج لهم حتى يجاروه في الاستماع له بعد ذلك التعريض السابق بها ونكران ألوهيتها، ولكن عند غياب الشمس يعلن ابراهيم النتيجة التي كان يتوخاها وهي: التبرؤ من معبوداتهم ، فهذه الكواكب التي تظهر ثم تختفي لا بد لها من خالق وهو الله سبحانه .

وبعد أن تبرأ ابراهيم من معبوداتهم خاطبهم قائلاً : إني وجهت قصدي الى عبادة الله وحده الذي خلـــق السموات والأرض متجنباً الضلال تاركاً معبوداتكم الباطلة وما أنا من المشركين مع الله أي معبود آخر .

ثم ان المتمعن في الآيات السابقة يرى حقيقة علميّة للقرآن ، فالقرآن يحكي عن المعبودات التي كانت في عصر ابراهيم وهي الكواكب والقمر والشمس

وهي معبودات قديمة أقر العلم بوجودها بعد ان سبر تاريخ الأمم الماضية بواسطة الحفريات والآثار التي حصل عليها .

ففي عصر ابراهيم وُجدت عبادة القمر في مدينة اور بلد ابراهيم وكان يطلق على القمر اسم (نانار) ، كما عُبدت الشمس واطلق عليها (شماس)، كما وجدت عبادة الكواكب واشهرها كوكب الزهرة التي اطلق عليها (عشتار)، وكوكب المريخ (مردوخ) .[1]

فالقرآن – كما نرى – يشير الى حقائق تاريخية صحيحة على لسان النبي ابراهيم ؛ وهذه الحقائق التاريخية تعتبر من الأنباء الغيبية التي جاء بها محمد ﷺ وهي تشهد للقرآن بأنه وحي إلهي .

البرهان على ربوبية الله وحده

كان نمرود ملكاً على عهد ابراهيم، وكان يدّعي الألوهية، فبلغته دعوة ابراهيم التي تقوم على عبادة الله وحده ونبذ أي معبود دون الله، فبعث الملك في طلبه ودار بينهما هذا الحوار الذي يقصه علينا القرآن الكريم :

﴿ الم ترَ الى الذي حاجَّ ابراهيم في ربه أنْ آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال: أنا أُحْيي وأُميت ، قال ابراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فَبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ البقرة : ٢٥٨ .

والمعنى : ألم ترَ الى من عمي عن أدلة الايمان وجادل ابراهيم في الوهية ربه ووحدانيته، وسبب ذلك الجدال هو ان الله اعطى هذا الملك السلطان الدنيوي فكان ذلك داعيةً لغروره، وسبباً لكبريائه ، واعجابه بقدرته .

سأل هذا الملك ابراهيم عن صفات ربه الذي يدعو الى عبادته فأجابه بأن ربه هو الذي (يحيي ويميت) فهو سبحانه منشىء الحياة وموجدها، وهو الذي (يميت) اي يسلب الحياة فعلاً ، ولكن الملك المغتر بقوته يجيب ابراهيم: (انا احيي واميت) قال ابراهيم : وكيف ذلك ؟ قال الملك: آخذ رجلين قد استحقا

---

(١) ابراهيم ابو الانبياء للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٦٨ ، ١٦٩ – وقصة الحضارة – ول ديورانت – جـ ٢ ص ٢١٤ .

القتل فأقتل احدهما فأكون قد أمتُّه، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييتُهُ .

لا ريب ان كلام الملك فيه مغالطة وافتراء على الحقيقة لأن الإحياء الحقيقي لا يكون إلاّ بإيجاد مخلوق حي من العدم، لهذا نرى ابراهيم لا يجادل الملك في قوله الذي يعوزه المنطق ؛ وحسماً للمجادلة اختار طريقاً آخر اجدى واردع يستطيع به إفحامه : ﴿ قال ابراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ﴾ .

لقد ادعى هذا الملك انه شريك لله والشركة تقتضي المساواة في القدرة فليبرز هذا الملك المدّعي للألوهية قدرته في تغيير مسير الشمس . ولكن هذا الملك اضطرب ولم ينطق جواباً .

* * *

ان النص القرآني السابق الذي يذكر صراحة ادعاء الملك للألوهية هو فتح علمي للقرآن، ففي متحف اشمول بانجلترا اسماء الأسر التي حكمت بابل بعد الطوفان، وقد جاء في الألواح التي حفظت وعثر عليها في الحفريات هناك، ان هؤلاء الملوك قد هبطوا من السماء على الأرض لحكمها بعد ان طهرها الله وعاقبها من الفساد فهم ارباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا ، ومعلوم ان ابراهيم عاش في أيام احد ملوك بابل .

ان هذا ولا ريب فتح علمي للقرآن إذ لم يكن معروفاً في البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ منذ اربعة عشر قرناً بأن ابراهيم عاش في بيئة يدّعي ملوكها الألوهية . وهذا دليل واضح على ان القرآن وحي إلهي .

قدرَة الله تعَالى عَلى إحياء الموتى

الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء على الخير والشر وإحياء الله تعالى للموتى يومئذ ، هذه القضايا كانت ولا تزال أهم قضايا الإيمان .

وقد أثار الماديون شكوكاً حول هذا الاعتقاد تؤدي بضعاف الايمان الى إنكار الأديان ، والقرآنُ في مواضع كثيرة يرد على المرتابين ــ الذين يستبعدون حدوث اليوم الآخر ــ بأن الله لا يعجزه شيء فهو القادر على كل شيء، فكما انه خلق الانسان في البدء فهو قادر على إحيائه يوم القيامة، جاء في القرآن في وصف قدرة الله : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) .

وابراهيم عليه السلام كان مؤمناً بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى يوم القيامة ولكنه طلب من ربه مثالاً محسوساً على ذلك ليطمئن قلبه، وقد اجاب الله طلبه وأراه قدرته وهذا ما يقصه علينا القرآن:

﴿وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلَمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال: فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنّ اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم ان الله عزيز حكيم﴾ البقرة : ٢٦٠ .

المتأمل في هذا القول الالهي يرى ان ابراهيم لم يكن مرتاباً في الايمان بقدرة الله وبعث الأموات يوم القيامة ولكنه طلب صورة من صُوَر اليقين فسأل ربه (كيف تحيي) ولم يسأل (هل تحيي) فسؤاله كان سؤال إنسان يريد ان يطمئن في قرارة نفسه وان لا يدع للريب مجالاً .

إنّه سؤال عقل يريد أن يشبع نهمه في استجلاء الحقيقة سافرة ، فهو في ذلك يسأل ربه باسم العقل ويتلقى الجواب باسم العقل .

ولكن ماذا كان جواب ربه عليه ؟ لقد قال له : خذ أربعة من الطير الحي فضمهنّ اليك لتعرفهن جداً ، ثم جزئهن بعد ذبحهن، واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءاً منهن، ثم نادهن فسيأتينك مسرعات طيراناً ومشياً وفيهن الحياة كما كن، واعلم ان اللّه لا يعجز عن شيء، وهو ذو حكمة بالغة في كل أمر .

يعلق الفخر الرازي على هذه القصّة قائلاً: والغرض منها ذكر مثال محسوس في عودة الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة .

الفصل الثالث

قصة اسماعيل

هجرة إبراهيم إلى مصر – إبراهيم يرزق بإسماعيل – هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل إلى وادي مكة – نبع ماء زمزم – التضحية بإسماعيل – إبراهيم وزوجة إسماعيل – إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة .

نبوة اسماعيل

نص الله على نبوة اسماعيل بقوله :

﴿ واذكُرْ في الكتاب اسماعيل انه كان صادِقَ الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾

وقد كانت دعوة اسماعيل بين القبائل العربية التي عاش بينها .

وقد اكتنفت حياة اسماعيل وولادته بعض الوقائع المثيرة نمهد لها بما يلي :

هجرة ابراهيم الى مصر

اقام ابراهيم مدة في بلدة حرّان تزوج اثناءها بابنة عمه ساره ، ولكنه ضاق ذرعاً بهذه البلدة لعدم استجابة اهلها لدعوته باستثناء لوط ونفر قليل فعزم على الهجرة منها ، والقرآن الكريم يشير الى هذه الحادثة : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر الى ربي إنه هو العزيز الحكيم ﴾ .

وسبب هذه الهجرة العداوةُ الشديدة التي حصلت بين ابراهيم ومن آمن معه وبين عبدة الأصنام الذين أبوا الاستجابة لدعوة الإيمان فتبرأ ابراهيم منهم واعرض عنهم .

هذا الموقف الذي وقفه ابراهيم من قومه مدحه الله عليه في القرآن الكريم وحث المؤمنين على الاقتداء به : ﴿ قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا

بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ الممتحنة : ٤ .

توجه ابراهيم ومن آمن معه الى ارض الشام التي كان يطلق عليها ارض كنعان فلبث فيها زمناً غير طويل ، ثم نزلت بأرض الشام ضائقة شديدة هددتها بالمجاعة فنزح كثير من اهلها سعياً للرزق أو طلباً للكلأ والمرعى لقطعانهم ، وكان ان نزح ابراهيم وقصد مصر .

إبراهيم يُرزَق بإسماعيل

وعاد ابراهيم من مصر الى فلسطين ومعه زوجه وجارية لها تُدعى هاجر .

وكانت نفس ابراهيم ترغب في ولد فدعا الله أن يهبه ولداً صالحاً : ﴿ ربِّ هب لي من الصالحين ﴾ .

وكأن زوجه ساره شعرت بما يجول في خاطره فقالت له : إن الرب حرمني الولد فأرى ان تتزوج جاريتي هاجر لعل الله يرزقك منها ولداً ، وكانت سارة قد تقدمت في السن ، وكانت عقيماً لا يُرجَى ان تُرزق بولد .

تزوج ابراهيم هاجر فولدت له اسماعيل الذي وصفه سفر التكوين : (وأما اسماعيل فقد سمعت قولك فيه وهاءنذا أباركه وانميه واكثره جداً جداً ويلد اثني عشر رئيساً وأجعله أمة عظيمة)[1] .

هذه بشارة بأمة محمد ، فإن محمداً من نسل اسماعيل وكذلك عرب الحجاز ولم يتحقق هذا الوعد في ذريـــة اسماعيل إلاّ على يد محمد عليه السلام وأمته .

هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل إلى وَادي مكة

بعد ان رُزِق ابراهيم باسماعيل من هاجر بدأت هذه تتيه عجباً وتعتز بهذا الولد مما أثار الحسرة والغيرة في نفس ساره فطلبت من ابراهيم اقصاءهما عن وجهها لأن حياتها مع هاجر أصبحت لا تطاق .

واستجاب ابراهيم لرغبتها لأمر يريده الله فأوحى الى ابراهيم أن يأخذ هاجر واسماعيل ويذهب بهما الى مكة ، وكان اسماعيل يومئذ رضيعاً .

اصطحب ابراهيم الغلام وأمه وسار ترشده إرادة الله ، وطال به السير الى

---

(١) الفصل ١٧ آية ٢٠ .

ان امره الله بالتوقف في أرض خلاء بعيدة عن العمران في المكان الذي سيُبنى فيه البيت الحرام .

أنزل ابراهيم هاجر وطفلها في هذا المكان المقفر الذي ليس فيه ماء ثم تركهما وقفل راجعاً فتبعته هاجر ملتاعة وقالت له : الى اين تذهب ؟ ولمن تتركنا بهذا الوادي الموحش المقفر ؟ قالت له ذلك مراراً مستعطفةً وهو يمضي في سبيله ، عندئذ قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا الله ، ثم رجعت الى المكان الذي وضعها ابراهيم فيه مع ولدها .

انطلق ابراهيم وقلبه منفطر أسىً على فراق زوجته وولده ، ولكن إرادة الله غلبت ارادته فاستسلم لربه وقفل راجعاً وهو يبتهل لربه ويدعوه بهذه الكلمات التي يقصها علينا القرآن :

﴿ ربنا إني اسكنت من ذرّيتي بوَادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نُخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ ابراهيم : ٣٧ ، ٣٨ .

والمعنى : يا ربنا إني اسكنت بعض ذريتي في وادي مكة الذي لا زرع فيه عند بيتك الذي سأبنيه لك والذي ستحرّم التعرض له والتهاون بشأنه .. يا ربنا إني ما أسكنتهم هذا الوادي إلاّ ليقيموا الصلاة عند بيتك وليؤدوا واجب العبادة لك وحدك ، فاجعل يا رب قلوب بعض الناس تميل اليهم وتعطف عليهم وارزقهم في هذا المكان النائي بعض انواع الثمرات ليشكروا لك نعمك . ربنا إنك تعلم سرنا وعلانيتنا وتعلم ما أضمره من الحزن على فراق اهلي وذريتي ، وما يخفى عليك من شيء مهما كان صغيراً سواء كان في الأرض أو في السماء .

نبع ماء زمزم

امتثلت هاجر لأمر الله وتحلت بالصبر ، ومكثت تأكل من الزاد ، وتشرب من الماء الذي تركه لهما ابراهيم الى ان نفد فعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه وهو يتلوى من الظمأ ، فلم تحتمل هذا المشهد المؤلم فهبت قائمة وسارت هائمة على وجهها تعدو وتهرول ، وتكاد تفقد وعيها .

صعدت هاجر مكاناً مرتفعاً يعرف بـ (الصفا) فنظرت لعلها ترى ماء فلم

تر شيئاً ، فهبطت وسعت سعي الانسان المرهق حتّى أتت مكاناً مرتفعاً آخر يعُرف بـ (المروة) فنظرت فلم تـرَ شيئاً ، ثم رجعت الى « الصفا » فنظرت فلم تـرَ شيئاً ؛ فعلت ذلك سبع مرات[١]

ثم لما أشرفت اخيراً على (المروة) سمعت صوتاً فتلفتت فإذا بملك من الملائكة عند موضع زمزم فبحث بجناحه حتّى ظهر الماء[٢] .

رأت هاجر هذا المشهد المثير فغمرها الفرح والسرور ، ثم جعلت تغرف من الماء تسقي ولدها وتروي نفسها .

ولما نبع الماء اجتذب الطير اليه ، وكان قوم من قبيلة جُرهم يسيرون قُرب هذا المكان فرأوا الطير تحوم حوله فسأل بعضهم بعضاً : انّ هذا الطير ليحلق على ماء فهل علمتم أنّ بهذا الوادي ماءً ؟ قالوا : لا ، فأرسلوا أحدهم يستطلع الخبر فرجع يزفّ اليهم بشرى وجود الماء ، فجاءوا الى هاجر فقالوا : لو شئت كنا معك نؤانسك والماء ماؤك فرحبت بهم ؛ فاستوطنوا بجوارها حتّى شب اسماعيل وتزوج امرأة جرهمية ، وتعلم العَربيّة منهم .

التضحيَة بإسماعيل

ترك ابراهيم ولده اسماعيل في مكة ولكنه لم ينسه ، او يغفل عنه بل كان يزوره من حين الى آخر .

وفي إحدى هذه الزيارات رأى ابراهيم في منامه ان الله يأمره بذبح ولده اسماعيل . ورؤيا الأنبياء حق لأنها بمثابة الوحي من الله ، لذلك عزم ابراهيم على تنفيذ امر الله ، ولم يثنه عن عزمه أن اسماعيل ابنه الوحيد ، وانه اصبح في سن الشيخوخة . وهذا ما يقصه علينا القرآن :

﴿ وقال : إني ذَاهِبٌ الى ربي سيهدين . رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصالحين . فبشّرناه بغُلام ٍ حَليم . فلما بَلَغَ معه السَّعْيَ قال : يا بُنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أَبَتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا

---

(١) قال الرسول : فلذلك سعى الناس بينهما (اي بالحج) .

(٢) وقيل : ان اسماعيل كان يفحص الأرض بقدميه او بيديه فنبع الماء من تحتها .

إنّا كذلك نجري المحسنين . إن هذا لهو البلاءُ المبين . وفَدَيناهُ بِذِبحٍ عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سَلام على ابراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنَّه من عبادنا المؤمنين . وبَشَّرناه باسحُق نبيّاً من الصالحين ﴾ الصافات : ٩٩ – ١١٢ .

في هذه الآيات يذكر الله عن ابراهيم انه لما هاجر من أرض قومه سأل ربه ان يهبه ولداً صالحاً فاستجاب له ربه وبشّرَهُ بغلام حليم[١] هو اسماعيل أول ولد له .

فلما نشأ وترعرع واصبح في سن يستطيع معها ان يسعى ويعمل رأى ابراهيم في المنام ان الله يأمره بذبح ولده اسماعيل وكان وحيده آنذاك ، عرض ابراهيم الأمر على ولده ليمتحن إيمانه وليكون ذلك اطيب لقلبه وأهون عليه من ان يذبحه قهراً . اجاب اسماعيل عليه السلام : يا ابت افعل ما أمرك الله به وستجدني إن شاء الله من الصابرين الراضين بمشيئة الله .

فلما استسلما لقضاء الله وعزما على تنفيذ أمره القى ابراهيم ابنه على وجهه ليذبحه من قفاه ، لئلا يشاهد وجهه حال ذبحه ، وأمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع ، عند ذلك ناداه الله : يا ابراهيم كف عن ذبح ابنك فقد حصل المقصود من اختبارك ، وقد وجدنا فيك طاعة ومبادرة الى تنفيذ أمر ربك ، فهذا هو الاختبار العظيم الظاهر البيّن الذي امتحنا به ايمانك فكنت من الفائزين ، فخذ هذا الكبش واذبحه فداء لابنك .

من الذبيح ؟ : القرآن ينص على ان الذبيح هو اسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم بشّر الله ابراهيم بولد آخر اسمه اسحق ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ﴾ فالإتيان بالبشرى باسحق بعد ذكر قصة الذبح صريح في ان إسحق غير الغلام الذي ابتلي ابراهيم بذبحه .

اما اليهود فيدّعون ان الذبيح هو اسحق ، فسفر التكوين يذكر الذبيح ويستهل ذلك بذكر هويته بما قاله الرب لابراهيم (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب الى ارض مورية[٢]) .

---

(١) حليم : الحلم ضد الطيش والجهل والسفه ، والحلم ايضاً هو الصبر والأناة والسكون مع القدرة والقوة .

(٢) الفصل ٢٢ آية ٢ .

وقد ردّ الامام ابن كثير على هذا الادعاء فقال :

(فلفظ اسحق هنا مقحمة ... لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وانما ذاك هو اسماعيل، وانما حمل اليهود على هذا حسد العرب، فإن اسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول الله، واسحق والد يعقوب وهو اسرائيل الذي ينتسبون إليه، فأرادوا ان يجروا هذا الشرف اليهم فحرّفوا[1] كلام الله وزادوا فيه)[2] .

إبراهيم وزوجة إسماعيل

قَدِمَ ابراهيم يوماً الى مكة وأتى بيت اسماعيل فلم يجده، ووجد امرأته ـ وكانت تجهل انه والد زوجها ـ فسألها ابراهيم عن اسماعيل، فأخبرته انه خرج يصطاد ثم سألها عن حالهم فقالت : نحن في شدة وضيق ، وشكت اليه سوء الحال ، ثم قال لها ابراهيم : هل عندك ضيافة ؟ هل عندك طعام وشراب ؟ قالت : ليس عندي ، وما عندي أحد .

لم تَرُقْ هذه المرأة في عين ابراهيم لما رأى منها من عدم الرضى بما قسم الله لها ولتبرمها بالحياة مع زوجها ، ولما لقي منها من بخل دفعها ان لا تكرم وفادته، فقال لها ابراهيم: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بـــابه .

انطلق ابراهيم وجاء اسماعيل وكأنه آنس أن أمراً حدث خلال غيابه فقال : هل جاءك احد ؟ فقالت : نعم ، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا وسألني عنك فأخبرته بالواقع . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم أمرني ان أقرأ عليك السلام وطلب مني ان اقول لك : غيّر عتبة بابك . قال اسماعيل : ذاك هو ابي وقد امرني ان افارقك فالحقي بأهلك ، فطلقها وتزوج امرأة أخرى .

غاب ابراهيم عن اسماعيل بعض الزمن ، ثم أتاه فلم يجده كذلك ووجد امرأته الجديدة فاستقبلته ورحبت به ، فسألها ابراهيم : هل عندك ضيافة ؟ قالت: نعم ، فضيّفته وأكرمت وفادته ثم سألها عن حالهم ، فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله، فقال لها ابراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له : ان

---

(١) يذكر القرآن في كثير من آياته تحريف اليهود لكتاب الله .

(٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ١٥٩ .

يثبت عتبة بابه ، ثم انصرف .

رجع اسماعيل الى منزله في المساء فأخبرته زوجته بمجيء شيخ في غيبته ووصفت له هيأته واخبرته بوصيته له ، فقال لها اسماعيل : انه ابي وقد امرني ان احتفظ بك وألاّ أفارقك ، فلازمها اسماعيل طوال حياته وكانت ام ابنائه .

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة

لبث ابراهيم بعيداً عن ابنه مدة طويلة ثم جاءه لأمر جلل فقد أمره الله ببناء الكعبة في مكة لتكون اول بيت يقام لعبادة الله .

تفقد ابراهيم ابنه اسماعيل فوجده يبري نبلاً له قريباً من زمزم فأقبل عليه فخف اسماعيل لاستقباله ، فتعانقا وبث كل واحد منهما للآخر لواعج محبته وعظم سروره .

وبعد ان طاب المقام لابراهيم بلقيا ابنه افضى اليه بأن الله أمره ان يبني بيتاً لعبادته في هذا الموضع ، واشار الى مكانه وهو على اكمة مرتفعة عما حولها قريبة منهما . فقال اسما عيل: افعل ما أمرك ربك وأنا أعينك في هذا الأمر الجليل، « فجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ، ثم قال ابراهيم لاسماعيل : ائتني بحجر حسن اضعه على الركن فيكون للناس علماً ... فأخبره جبريل بالحجر الاسود فأخذه ووضعه في موضعه ، وكانا كلما بنيا دعوا الله : ﴿ ربنا تقبَّل مِنّا إنك انت السميع العليم ﴾ فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم »[1] وكلما أتمّ ناحية من الجدار انتقل الى ناحية أخرى وهو واقف عليه، وكلما فرغ من جدار نقل الحجر الى سواه وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة . وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة من قديم الزمان الى ايام عمر بن الخطاب الذي أخّره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده .

ويشير القرآن الى بناء الكعبة بهذه الآيات البينات :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا مِنْ مَقامِ ابراهيم مُصلّى وعهِدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طَهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع

---

(١) ابن الأثير جـ ١ ص ٤٦ .

السجود . وإذ قال ابراهيم: رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا انك انت السميع العليم ﴾ البقرة : ١٢٥ ـ ١٢٧

في هذه الآيات يذكّر الله العرب المسلمين بهذه النعمة وهي جعل البيت الحرام (مثابة)[١] أي مرجعاً للناس يقصدونه للعبادة ، كما جعله الله مأمناً لكل خائف ، فالداخل الى الحرم لا يمسه أحد بأذى ، وهذا امر اصطلح عليه منذ القديم مما يجعل له قدسية لا يجوز لاحد ان يتعدى عليها .

و (مقام ابراهيم) الذي امر الله باتخاذ موضعه مكاناً للصلاة قيل انه الحجر الذي قام عليه ابراهيم لبناء الكعبة وقيل انه الحرم كله الذي هو حول الكعبة .

ويشير الله الى وصيته لابراهيم واسماعيل بتطهير البيت من الدنس الحسي كالقاذورات ، والدنس المعنوي كالشرك وعبادة الأصنام ليكون طاهراً للطائفين حوله ، والمعتكفين أي المقيمين فيه للعبادة ، والراكعين الساجدين لله .

كما يشير القرآن الى دعاء ابراهيم الذي دعا به ربه ان يجعل البلد الذي سينشأ فيه البيت بلداً آمناً ، وان يرزق اهله المؤمنين بالله واليوم الآخر من ثمرات الأرض وخيراتها ، وقد استجاب الله دعاءه واخبره أنه لن يضن على من كفر بالرزق في هذه الدنيا ولكن سيلجئه يوم القيامة الى عذاب جهنم وبئس المصير .

نعم استجاب الله دعاء ابراهيم فجعل مكة بلداً آمناً ، ومن تعدى عليها اهلكه الله . كما استجاب له ايضاً بأن أفاض الرزق عليها ، فجميع انواع الثمار تجبى اليها من جميع الأقطار .

ثم يشير الله اخيراً الى بناء ابراهيم واسماعيل البيت ورفعهما قواعده وهما يبتهلان الى الله بأن يتقبّل منهما هذا العمل العظيم .

---

(١) (مثابة) لفظ يحمل معنى القصد والمزار مع الرجوع اليه ، فكونه مثابة للناس امر معروف يصدق برجوع زائريه اليه واشتياق ارواحهم له وحنين غيرهم وتمنيهم زيارته .

الفَصْلُ الرَّابِع

فَضَائِلُ ابْرَاهِيم

منزلة ابراهيم – من دعـاء ابراهيم – ابراهـيم المسلم الحنيف – كرم ابراهيم .

مقارنة بين التوراة والقرآن في عرض قصة إبراهيم

من يقارن بين ورود قصة ابراهيم عليه السلام في العهد القديم وبين ورودها في القرآن الكريم يـرَ بينهما فارقاً كبيراً . فبينما نرى العهد القديم يحرص على على ذكر حياة ابراهيم وما فيها من ترحال واحداث ووعد من الله له ولذريته بالاستخلاف في الأرض ، إذا بنا نجد القرآن الكريم يشير الى حياة ابراهيم عليه السلام الخاصة اشارات موجزة ، لكنه حين يفعل ذلك يبرز نواحي اخرى اكثر اهمية ، فيتحدث عن منزلة ابراهيم عند ربه وجهاده في سبيله ، ويحلل نفسيته وما فيها من خلق سام وتضحية ، ويتحدث عن رسالة التوحيد التي دعا اليها ، وعن الحجج العقلية التي ذكرها في بطلان عبادة الأصنام ، كما يتحدث عن تقوى ابراهيم وابتهاله لربه وعمق ايمانه واخلاصه له بما لا نجده في العهد القديم ، وهذه ميزة اختص بها القرآن في الحديث عن حياة ابراهيم مما يجعل له مكانة خاصة لا يبلغها غيره من الكتب السماوية .

منزلة إبراهيم

والى القارىء بعض صفات ابراهيم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والتي يرسم الله فيها ابراهيم نموذجاً للهداية والطاعة والشكر . قال تعالى :

﴿ ان ابراهيم كان أُمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ النحل : ١٢٠ – ١٢٢ .

يصف الله ابراهيم بأنه كان (أمة) أي انه كان وحده أمة من الأمم لكونه جامعاً لكل الفضائل الطيبة ، فهذه الكلمة بمثابة مقال مسهب في مدح ابراهيم، فكل ما تفرق في الناس من خلال طيبة وخلق طاهر قد جمعه الله لنبيه ابراهيم وبذلك صار إماماً يُقتدى به .

ويصفه الله بأنه كان ﴿ حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ أي موحداً له ومخلصاً له العبادة ولم يك مشركاً به احداً من خلقه . وهو ايضاً (قانت الله) أي خاشع مطيع له قائم بما أمره به، كما انه كان ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر نِعَمِ الله عليه، ولذلك استحق هذه المنزلة ﴿ اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ﴾ أي اختاره الله لحمل رسالته ووفقه لسلوك طريق الحق المستقيم الموصل الى رضى الله ، الى ان قال سبحانه وتعالى : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي جعل الله له ذكراً حسناً في الدنيا وسيكون في الآخرة من زمرة الصالحين المنعَّمين بجنات الله ورضوانه .

ومما وصف الله به إبراهيم في القرآن :

﴿ وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلماتٍ فأتمهنَّ قال : إني جاعِلُكَ للناس إماماً ، قال : ومن ذريّتي ، قال : لا ينالُ عهدي الظالمين ﴾ البقرة : ١٢٤ .

يرينا الله انه اختبر ابراهيم بتكاليف شرعية واوامر ونواه فأتمها وقام بواجبها حق القيام، فقال له ربه: إني جاعلك للناس إماماً يتبعونك ويقتدون بك ، عندئذ طلب ابراهيم من ربه ان يجعل بعض ذريته أئمة كذلك ، فأجابه بأن هذه الإمامة لن ينالها الظالمون . وفي هذا القول اشارة الى أنه سيكون من ذريته الأبرار والفجار . وتأمل كيف اخبر الله ابراهيم بأن الإمامة لا ينالها الظالمون لأنهم ليسوا اهلاً لأن يُقتدى بهم ، كما اراد الله تنفير سائر الناس من الظالمين ، وعدم توليتهم امورهم ، والظلم في نظر القرآن هو التعدي على حدود الله وعدم الأخذ بتعاليمه قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وقال تعالى في ابراهيم عليه السلام :

﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً ﴾ .

والمعنى : اي اذكر يا محمد لقومك قصة ابراهيم لعلهم يعتبرون بها ، هذا النبي الذي وُصف بـ (الصدّيق) وهو المبالغة والإغْراق في الصدق، وقد استحق

ابراهيم هذا اللقب لفرط صدقه ، وتأمل كيف وصفه الله بالصدق قبل ان يصفه بالنبوة ليُرِيَنَا قيمةَ الصدق وانه من الدعائم التي تقوم عليها النبوة .

ووصف الله ابراهيم في القرآن بقوله : ﴿ وابراهيم الذي وفّى ﴾ أي وفى بجميع ما أمره به ربه من خصال الإيمان وشعبه، فكان لايشغله امر جليل عن آخر مشكور ، ولا شأن كبير عن آخر صغير .

ويذكر الله منزلة ابراهيم بقوله : ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ قيل في معنى الخليل: هو المحب الذي لا خلل في محبته، وقيل: الخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، والله يحب الأصفياء من عباده ، وقد كان ابراهيم كامل الحب لله ولذلك عادى أباه وقومه في سبيل ربه ، فأحبه الله لذلك واتخذه خليلاً .

من دعاء إبراهيم

عُرِف الدعاء في الإسلام بأنه (مُخ العبادة) فكما ان مخ الانسان يقوم عليه الانسان فكذلك الدعاء تقوم عليه العبادة .

فالدعاء هو المظهر الأول لإيمان الانسان وعبوديته لله وانقياده لأمره ، وعلى نوعية الدعاء تنكشف حقيقة الانسان من طلبه مغانم مادية او منزلة روحية .

والقرآن يذكر لنا بعض الأدعية التي جرت على لسان ابراهيم مما يستبين منها القارىء سمو روح ابراهيم والمنزلة التي تبوأها والتي جعلته محبوباً من ربه ، فهو في ادعيته لا يطلب عرضاً من اعراض الدنيا ، إنه دعاء المؤمن الذي عرف الله فصغر عنده ما عداه ، والذي ذاق طعم الإيمان فهو يطلب المزيد منه .

والى القارىء بعض أدعية ابراهيم وهي أمثولة رائعة للسمو الروحي :

﴿ ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولاتُخزني يوم يُبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ الشعراء : ٨٣ — ٨٩ .

فابراهيم في هذه الآيات دعا ربه ان يهبه حكمة ليعرف بها القيم الصحيحة من القيم الزائفة ، او هو دعا ربه ان يكون حكماً بين الناس بالحق . كما طلب من ربه ان يوفقه للعمل الصالح لينتظم في سلك الصالحين ، ويجعل له ذكراً

حسناً بعد مماته ، ويكون ممن ينالون رضاه في الآخرة فينال جنة النعيم ، وأن يغفر لوالده ما كان عليه من كفر وضلال . كما أن ابراهيم طلب من ربه ان لا يُلحق به ذُلاً ولا هواناً يوم يُبعث الناس من قبورهم للحساب ، يوم لا ينفع المذنب ما جمع من مال لأنه لن يقيه من عذاب الله كما لا ينفعـــه ابناؤه ولو كانوا صالحين ، ولا ينجي الإنسان إلاّ ملاقاة ربه بقلب سليم من الكفر والنفاق والخصال المذمومة .

ويدعو ابراهيم واسماعيل ربهما :

﴿ ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذرّيتنا أمّةً مُسلمة لك وَأَرِنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التوّاب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك انت العزيز الحكيم ﴾ البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

والمعنى : اللهم وفقنا لأن نكون مخلصين لك خاضعين لأمرك ، واجعل من ذريتنا جماعة مخلصة لك، وعلمنا طريقة عبادتنا لك، وتب علينا انك تتوب على المخطئين التائبين لأنك رحيم بخلقك . ربنا وابعث في ذريتنا رسولاً منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وجودك ووحدانيتك وعظيم شأنك ويعلمهم ما توحي اليه من كتاب فيه شريعة لهم ، كما يعلمهم الحكمة وهي اسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وما فيها من نفع وخير ، ويطهر نفوسهم من العادات الرديئة والصفات الذميمة .

هذا وقد استجاب الله لدعوة ابراهيم واسماعيل، فبعث في ذريتهما رسولاً منهم وهو محمد عليه السلام الذي صرّح قائلا : (انا دعوة ابراهيم وبشـــارة عيسى)[1] .

فمحمد هو الذي طهّر نفوس العرب من الخصال الذميمة وعلمهم الكتاب وهو القرآن ، وعلمهم الحكمة وهي السنة النبوية ، كما جعل منهم في سنين معدودات أمة موحدة متآلفة تنشر الخير والفضائل في ارجاء العالم ، بعد ان كانوا أمة ترتع في حمأة الرذيلة وتصول في ميادين الشر .

---

(١) رواه احمد في مسنده .

ومن ادعية ابراهيم :

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم ﴾ الممتحنة ٥ ، ٦ .

والمعنى : يا ربنا فوضنا اليك امورنا ، ورجعنا اليك وحدك في العبادة إذ المصير اليك يوم القيامة . ربنا لا تجعلنا فتنة واختباراً للذين كفروا يصيبوننا بأذى او يصرفوننا عن سبيلك ، او نكون نحن فتنة لهم بالقدوة السيئة وسبباً لإضلالهم عما يجب ان يكونوا عليه من الحق والهدى ، واغفر لنا يا رب ما فرطنا من ذنب انك انت العزيز الحكيم .

إبراهيم : المسلم الحنيف

في مفهوم كثير من الناس ان الاسلام هو اسم اطلقه محمد على دينه، وأنه أول من استحدث هذا الاسم ، وهذا بلا ريب خطأ ، فالحقيقة التي اعلنها القرآن ان انبياء الله جميعهم مسلمون[1] وفي طليعتهم ابراهيم الذي ارتضى هذا الاسم لدينه واطلقه على اتباعه ووصى به ذريته . فالعرب الذين آمنوا برسالة محمد واعتنقوا الاسلام يخاطبهم القرآن : ﴿ وما جعل عليكم في الدّين من حرجٍ ملّة أبيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل ﴾ الحج : ٧٨ .

ومحمد كان مأموراً باتباع ملة ابراهيم التي تقوم على عبادة الله وحده ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً : ﴿ ثم أوحينا اليك ان اتبع مِلّة ابراهيم حنيفاً[2] وما كان من المشركين ﴾ النحل : ١٢٣ .

معنى الإسلام : ولكن ما هو الاسلام ؟ وما حقيقة معناه الذي أخذ بمفهومه جميع انبياء الله ؟ يقول ابن تيمية في تعريفه : (الاسلام هو ان يستسلم الإنسان لله لا لغيره ، فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً ، ويتوكل عليه وحده ، ويرجوه ويخافه وحده ، ويحب الله المحبّة التامّة لا يحب مخلوقاً كحبه لله ، بل يحب لله ويبغض لله ، ويوالي لله ويعادي لله ، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً ، ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلماً)[3] .

---

(١) راجع بحثنا (معنى الاسلام) في كتاب روح الدين الإسلامي .
(٢) حنيفاً : اي مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق .
(٣) كتاب النبوات : ص ٨٧ .

هذا هو الاسلام وهذا هو معناه، ولا غرابة في ان يثني الله على الآخذين بهذا المعنى المتحلين به متبعين في ذلك جدهم ابراهيم عليه السلام :

﴿ ومن احسن ديناً ممن أسلَمَ وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ النساء : ١٢٥ .

فالذي يسلم وجهه لله هو الذي يخلص عبادته لله، ويبتغي بعمله وجه الله، والمحسن هو الذي يحسن عمله فيعمل الحسنات ، والحسنات هي العمل الصالح .

فالاسلام هو عهد وميثاق يضع الانسان روحه ونفسه وقلبه وقوله ورغائبه وغضبه ورضاه في ميزان الله .

فابراهيم يقول لقومه : ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ويقول ايضاً : ﴿ إني وجّهتُ وجهي[١] للذي فَطَرَ السموات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين ﴾ الأنعام : ٧٩ . هكذا كان اسلام ابراهيم عليه السلام لهذا اصطفاه الله بسبب اسلامه ، فقال سبحانه :

﴿ ولقد اصطفيناه في الدُنيا وإنه في الآخرة لَمِنَ الصالحين . إذ قال له ربّه أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ البقرة : ١٣٠ .

كرم إبراهيم

قضت مشيئة الله بأن يهلك قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة الّتي لم يسبقهم اليها احد من عالم زمانهم ، فقد كان الرجال مصابين بالشذوذ الجنسي (اللواط) ولهذا حق عليهم العذاب من الله فأرسل ملائكة لانزال الهلاك بهم ، ولكنهم أُمروا قبل ذلك ان ينزلوا ضيوفاً على ابراهيم بصورة فتيان .

وكان ابراهيم مشهوراً بالكرم والحدب على الضيف لذا ضاق صدره عندما انقطع الضيوف عنه خمس عشرة ليلة ، فلما رآهم سُرَّ بهم فخرج الى اهله فجاء بعجل سمين قد شواه بالنار الّتي جعلت لونه أحمر من آثار النضج ثم قدمه إليهم .

ولكن ايدي هؤلاء الضيوف لم تمتد الى العجل ، ولم يرَ ابراهيم بِهم رغبة في الطعام فارتاب بشأنهم، واوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من العجل ،

---

(١) المراد بذلك وجه القلب لأن الوجه إنما يتوجه الى حيث توجه القلب .

فخاطبهم في هذا الشأن ، فأخبروه بأنهم ملائكة ارسلهم الله للانتقام من اهل سدوم وعامورة ، وهم المعبّر عنهم في القرآن بقوم لوط .

ضحكت ساره امرأة ابراهيم لما عرفت حقيقة هؤلاء الضيوف الذين ما لبثوا أن بشروها بأن الله سيهبها ولداً اسمه اسحق وان اسحق سيرزق هو الآخر بابن هو يعقوب .

تعجبت ساره من هذه البشرى وقالت لهم : أألد وقد اصبحت عجوزاً ؟ وهذا زوجي ابراهيم قد اصبح شيخاً ؟ فأجابتها الملائكة : اتعجبين من هذه البشرى ؟ إنها قدرة الله التي لا يعجزها شيء ، اختصكم بها برحمته وبركاته عليكم آل ابراهيم .

فلما اطمأن ابراهيم الى حقيقة هؤلاء الضيوف مصحوبة بالبشرى باسحق ابنه ويعقوب حفيده اخذ يجادل ربه في شأن قوم لوط رجاء ان ينظر الله اليهم نظرة رحمة، وهذه المجادلة اشار اليها القرآن، وجاء تفصيلها في سفر التكوين، قال تعالى :

﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى . قالوا سلاماً ، قال : سلام فما لَبِثَ أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا : لا تخف إنّا أُرسلنا الى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب . قالت : يا ويلتا أألدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيد . فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البُشرى يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه مُنيب . يا ابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمْــرُ ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ هود : ٦٩ ــ ٧٦ .

الفصل الخامس

دروس وعبر

ابراهيم صاحب القلب الكبير – درس في الشجاعة – التضحية بالنفس والولد في سبيل الله – عبادة الأصنام وأشباهها .

إبراهيم صاحب القلب الكبير

ابراهيم هو المنار الذي استرشد به أنبياء الله والمؤمنون في كل عصر ، بل هو الامثولة الطيبة السامية التي جعلها الله لبني الإنسان جميعاً .

وإذا أردنا ان نطلق على ابراهيم وصفاً لا نجد تعبيراً أدق وأفضل من وصفه بصفة صاحب القلب الكبير ، هذا القلب الذي كان آية في الرقة والعطف والحنان والسلامة من الحقد والخصال الذميمة . وكيف لا يحمل ابراهيم مثل هذا القلب وهو الداعي الى سلامة القلب ، القائل عن مصير الانسان يوم القيامة :

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَليم ﴾ .

قول رائع لا ترتقي الى سموه أيةُ نظريةٍ فلسفيةٍ ، ولا يسمو عليه أي مذهب اخلاقي ، لأنه يحدد لبني الانسان الغاية التي يجب ان يضعوها نصب اعينهم في سبيل السمو الانساني والسعادة الأبدية ألا وهي الاعتناء بسلامة قلوبهم وتطهيرها من الشرور والآثام .

إن موطن العظمة في ابراهيم هو قلبه الكبير الذي وَسعَ الناسَ جميعاً لأنه نذر نفسه في سبيل إسعادهم ، سواء أكانوا اقرب الناس اليه نسباً ، ام كانوا لا يمتون إليه بصلة القربى ، فهو حريص على ايصال الخير لهم وتخليصهم من عبادة الأصنام التي فشت فيهم ، تلك العبادة التي كبلت عقولهم وجعلتهم فريسة للخرافات ، تلك العبادة التي ارهقتهم بتكاليف خاسرة تنوء بها استعداداتهم كتقديم القرابين لها من طعام وشراب وذبائح تذهب هدراً ، تلك العبادة التي

تغضب الله الواحد الديان بسبب الانصراف عن عبادته الى عبادة جمادات لا تعي ولا تسمع .

فقلب ابراهيم الكبير لا يطيق رؤية والده يتيه في الضلال وينغمس في عبادة الأصنام فيسعى الى هدايته بالعقل والمنطق، ولكن هذا الوالد الذي تحجر عقله يقابل ابراهيم بالوعيد والتهديد بالرجم فيجيب هذا الابن : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربي ﴾ .

إن استغفار ابراهيم لوالده بعد ان تلقى تهديده يدل على اخلاصه له ، كما ينم عن قلب كبير ينبض بالحب والعطف والحنان .

وقلب ابراهيم الكبير يتجه ايضاً نحو بنيه، فهو يبتهل الى الله ان يجنبهم عبادة الأصنام .

﴿ وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نَعبُد الأصنام ﴾

وقلب ابراهيم الكبير يحنو ايضاً على ذريته التي تربطه بهم رابطة الدم ، فقد احب لهم الرفعة والخير حبّاً ملك عليه مشاعره ، حتى انه حين منحه الله الإمامة لم يقنع ان يستأثر بهذه المزية وحده فدعا ربــه ان ينعم بها كذلك على ذريتــه .

﴿ قال إنيَ جاعِلُكَ للناس إماماً قال : ومن ذرّيتي ﴾

وقلب ابراهيم الكبير يدفعه ان يسأل الله ان يجعله مقيم الصلاة ، وهي اهم ما يتقرب به الانسان الى ربه ، ثم لا يكتفي بذلك بل يشرك معه أيضاً ذريته في الدعاء :

﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبّل دعاء ﴾ .

وقلب ابراهيم الكبير يحنو على قومه على الرغم مما لحقه منهم من اذى وهجران ، فهو لا يطلب لمن يعصيه الهلاك ولا يستعجل لهم العذاب إنما يكلهم الى غفران الله ورحمته : ﴿ رب انهن اضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك رؤوف رحيم ﴾ .

وقلب ابراهيم الكبير لا يحتمل ان يقع العذاب على احد ولو كان ممن يستحق ذلك ، فها هم الملائكة يأتون لينزلوا العذاب بقوم لوط فتهتز لذلك اوتار قلب

ابراهيم لما سيصيب القوم فيجادل ربه لعله يحظى بالرحمة منه لهؤلاء العصاة ، قال تعالى :

﴿ يجادلنا في قوم لوط . إن ابراهيم لحليم[1] اواه[2] منيب[3] ﴾ .

درس في الشجاعة :

ان في حياة ابراهيم درساً في الشجاعة والاقدام والاستماتة في سبيل المبدأ والعقيدة ، فابراهيم يقف وجهاً لوجه امام قومه الذين فشت فيهم عبادة الأصنام ، يسفه معتقداتهم ويدعوهم بالحجة والبرهان الى ترك عبادتها ، ولكن ما أشقها دعوةً ، فإنه لا شيء اصعب على الانسان من تغيير معتقداته الموروثة التي حلت في نفسه مكان التقديس والإجلال ، ولا شيء يثير غضبه اكثر من تسفيه معتقداته ، ولهذا كانت مهمة ابراهيم شاقة تحتاج الى شجاعة وأناة وصبر لتلقي نقمة قومه التي كانت اول بوادرها من والده الذي قال له : ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليّاً ﴾ .

لم يجد ابراهيم من قومه آذاناً صاغية لدعوته بل وجد إعراضاً وعداوةً وهجراناً ، فلم يثنه ذلك عن قصده ولم يدخل الوهن الى قلبه بل شهر في وجوه قومه سلاحاً أمضى واقوى ، سلاحاً يدمّر معتقداتهم ويزلزل بنيان مقدساتهم ، إنه سلاح مقاومة الباطل باليد وهو أشد اثراً من مقاومة الباطل بالقول الذي لم يجدِ معهم نفعاً ، انه السلاح العملي الذي حطم به أصنامهم .

ان نتيجة هذا العمل واضحة للعيان : إما موته المحقق ، وإما إقناع قومه بترك عبادة الأصنام .

أسلوب عملي إرتآه ابراهيم ليظهر لقومه ان معبوداتهم لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تدافع عنهم او تصيبهم بالخير والشر – كما يعتقدون – ! !

طريقة فذة اراد ان يُظهر بها ابراهيم لقومه ان معبوداتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ، فعندما سُئِل ابراهيم عن الفاعل أجاب : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

---

(١) حليم : لا يحب تعجيل العقاب .

(٢) أواه : كثير التأوه والتوجع للسوء الذي يصيب غيره .

(٣) منيب : يرجع الى الله في كل أمر .

لقد فجّر هذا العمل نقمة قومه فحاكموه واصدروا حكمهم عليه بالموت حرقاً ، ولكن ابراهيم لم يجزع ولم يصب بانهيار يفقده وعيه بل وقف امام الجمع الهادر من قومه مطمئناً الى مصيره تغمره الثقة بالله .

درس ما أجله لدعاة الاصلاح ، يقوي نفوسهم ، ويصهر مواطن الترّدد والخوف والوهن فيهم ليحيلها الى نفوس أجرأ واقوى .

التضحية بالنفس والولد في سبيل الله

التضحية التي أمر الله بها ابراهيم وهي ذبح ابنه اسماعيل ، واستجابة ابراهيم واسماعيل لهذا الامر الالهي عن رضا وطيب نفس هما من اعظم الحوادث وأجلها في تاريخ التضحيات وبالأخص إذا نظرنا اليهما من الزوايا التي احيطت بها هذه التضحية . فابراهيم الحريص على الذرية والذي رُزِق بعد لأي بولد وهو في سن الشيخوخة . هذا الولد الذي هو مهجة قلبه ، وامل حياته ، ووارث اسمه ، يأمره الله ان يضحي به ليمتحن إيمانه ويرى مبلغ استجابته لأمره ، ودرجة طاعته . حدّث ابراهيم ابنه في هذا الشأن الخطر ويكاد قلبه ينخلع من الحزن فيجيبه اسماعيل بقوله : ﴿ يا ابتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ان القلم ليعجز عن وصف مضمون هذا القول الذي يتمثل فيه الرضى التام بتضحية النفس في سبيل الله .

تضحية من وجهين : تضحية الوالد بولده ، وتضحية الابن بنفسه .

هذه هي ارفع صور الايمان واجلها في تاريخ الانسانية ، فليس الايمان إدعاءات تلوكها الألسن ، وليس الإيمان تسلية للأحزان لفترة ما ، وليس الايمان نظرية من النظريات يغوص العقل في كشف خفاياها ، بل الإيمان هو الاندماج الكلي في ارادة الله التي تتركز في العمل بوصاياه وأوامره والتضحية بكل غال ونفيس في سبيله .

ما أحوجنا الى هذا الدرس في هذا الزمن الذي اصبح فيه المال والولد والمرأة يستأثرون بحب الانسان الذي يؤثرهم على كل شيء حتى اصبحوا معبودات له من دون الله . وما احقر الانسان إذا تعلق بزينة الحياة الدنيا الفانية وترك الحقيقة الخالدة التي هي سبب وجوده ومصدر استمرار حياته .

عبادة الأصنام واشباهها

صيحة اهتزت لها بابل اطلقها ابراهيم منذ سبعة وثلاثين قرناً تقريباً على عبادة الأصنام ، صيحة لا يزال يرن صداها في كل عصر وفي كل بيئة ، لأن عبادة الأصنام تلك العبادة الحقيرة التي فيها امتهان للعقل البشري والتي هي وليدة الخرافات والأوهام والأباطيل لا تزال آثارها عالقـة في النفس في القرن العشرين عصر العلم والنور .

فلا تزال بعض الديانات في العالم تقيم الأصنام رمزاً لمقدساتها الكثيرة ابتداء من الاجرام السماوية الى حيوانات الحقل وطيور السماء وانتهاء بالقردة والأفاعي والفيلة والبقر .

ولكن ما هو تعليل استمرار عبادة الأصنام الى هذا الزمن الذي بلغ العقل الانساني فيه رشده ؟

إذا اردنا ان نكشف عن الاسباب الكامنة والدوافع التي تملي على الانسان عبادة الأصنام نرى ذلك يرجع الى عامل التقليد للآباء، والقرآن يثبت ذلك في صراحة منذ ثلاثة عشر قرناً عندما يتحدث عن عصر ابراهيم الذي فشت فيه عبادة الأصنام وعن ما يتعلل به القوم آنذاك لعبادتهم لها ، قال تعالى :

﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ او ينفعونكم او يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ الشعراء : ٦٩ – ٧٤ .

إن جواب قوم ابراهيم بأن عبادتهم للأصنام إنما هي بداعي التقليد للآباء لا لسبب آخر هو اعتراف ضمني بأنّ اصنامهم لا تنفع ولا تضر .

ويذكر القرآن تعليلاً آخر لعبادتهم الأصنام :

﴿ وقال : انما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ العنكبوت : ٢٦ .

فابراهيم يقول لقومه : إنما اتخذتم الأوثان من دون الله لا اعتقاداً ولا اقتناعاً بل مجاملة بعضكم لبعض استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق ، وان هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد .

والانسان المتمدن اليوم قد استحدث انواعاً من الأصنام الرمزية توجه اليها بالعبادة من دون الله ، من هذه الأصنام : (عبادة الشخصية) ... وهم الزعماء والرؤساء الذين صاغتهم القوة والسلطة والدعاية معبودات دون الله ونسجت حولهم اوهاماً واساطير جعلتهم في مصاف الاله وجعلت كلامهم حقائق لا مجال لنقضها .

ومن الأصنام التي صنعها الانسان: (عبادة الأمة) كما فعل النازيون عندما اعتبروا الأمة مصدراً مطلقاً للقيم واعطوا لها الولاء الأول ، واتخذوا لها شعاراً منافياً للحق والعدالة الانسانية (المانيا فوق الجميع) مما سبب الحرب العالمية الثانية التي ذهب ضحيتها ما يقارب سبعين مليوناً من البشر .

فللوطن قيمته ، ولكن لا الى حد التقديس المطلق والغاية القصوى . فالهدف الأسمى الذي يجب ان يسعى اليه الانسان هو عبادة الله وحده والوقوف عند وصاياه التي تأمر باحترام الانسان ومحبته ومعاملته بالعدل والحق بصرف النظر عن جنسيته ولونه .

الفَصْلُ السَّادِسُ

قِصَّةُ لُوطٍ

فساد قوم لوط – رسالة لوط – الملائكة في طريقها الى سدوم – الملائكة في ضيافة لوط – عقاب الله لقوم لوط .

فساد قوم لوط

ذكرنا فيما سبق ان ابراهيم عليه السلام هاجر من مدينة حرّان الواقعة شمالي بلاد ما بين النهرين ، وجاء الى فلسطين بصحبة زوجته ومن آمن معه وفي مقدمتهم ابن اخيه لوط بن هاران .

ثم توجّه ابراهيم ومعه لوط الى مصر بعد أن فشت المجاعة في فلسطين ، وبعد ان خفت وطأة المجاعة رجعا من مصر ومعهما ماشية كثيرة اغدقها عليهما ملك مصر .

ولما كانت المراعي ضيقة لا تتسع لماشيتهما الكثيرة ، وكانت تحدث بسبب ذلك خصومات عديدة بين رعاة ابراهيم ورعاة لوط ، رأى ابراهيم ان يتقاسم الأرض مع لوط دفعاً للخلاف ، فعرض على لوط ان يختار الموضع الذي يروق له فاختار بقعة الأردن التي تقوم عليها مدينتا سدوم وعموره وضواحيهما واقام بمدينة سدوم .

وكان اهل مدينة سدوم من أفجر الناس واكفرهم ، وأسوأهم طوية وسلوكاً ، يقطعون الطرق للسلب ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم اليها احد من بني آدم وهي : اللواط ، فأرسل الله نبيه لوطاً بالرسالة الالهية لهدايتهم وتحذيرهم سوء افعالهم .

رسالة لوط

دعا لوط قومه الى الإيمان بالله وخوّفهم عذابه ، وحثهم على ترك ما فيه

من المعاصي والمنكرات ، وقال لهم : إني رسول الله اليكم ، أمين على تبليغ رسالته فاحذروا عذاب الله ، وامتثلوا امري فيما ادعوكم اليه ، وما اطلب منكم أجراً على ما أدعوكم اليه من الهُدى والرشاد ، فما جزائي إلاّ على الله مالك العالمين ومربّيهم ، فلا ينبغي لكم أن تُفسدوا طبائعكم وتخالفوا نظام الحياة الطبيعي فتفعلوا الفاحشة بالذكور من الناس ، وتتركوا ما خلق الله لكم من النساء زوجاتكم ، لأن الطبيعة تقضي بأن يتصل الذكر بالانثى ، فكيف فسدت أمزجتكم ففعلتم ذلك المنكر ؟ إنكم قد تجاوزتم الحدّ بارتكاب هذه المعصية .

ولكن القوم بدل أن يستجيبوا لنبيهم لوط هددوه قائلين : إن لم تكف عن توبيخنا فسنخرجك من بلادنا . فأجابهم لوط : إني مُنكرٌ لما تفعلون ، مبغضٌ لما تعملون ، قال تعالى :

﴿كذّبت قومُ لوط المرسلين ، إذْ قال لهم أخوهم لُوطٌ : ألاَ تتّقون ؟ اني لكم رسُولٌ أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما أسألكم عليه من أجْرٍ ، إن أجْريَ إلاّ على رب العالمين . أتأتون الذُكران من العالمين ، وتَذَرُون ما خلَقَ لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قومٌ عادون[1] . قالوا : لَئِن لم تنتهِ يا لوط لتكونَنّ من المُخْرَجين . قال : إني لِعَمَلِكم من القالين[2]﴾ الشعراء : ١٦٠ ــ ١٦٩ .

وبجانب جريمة اللواط هناك جرائم اخرى كانوا يقترفونها، ذلك أنهم كانوا يأتون القبائح علانية في أنديتهم ، ويقطعون الطرق على المسافرين فيسلبونهم أموالهم ثم يعتدون عليهم بالفاحشة ، هذه الفواحش استنكرها لوط من قومه وحذّرهم من عقاب الله عليها، ولكن القوم تمرّدوا واستكبروا وقالوا للوط : إنْ كنت صادقاً فيما تهدّدنا به من العذاب ، فعجّل وائتنا به . قال تعالى :

﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنّكم لتأتون الفاحشة ما سبَقكم بها من أحَدٍ منَ العالمين . أئنّكم لتأتون الرجال وتقطعون السَّبيل ، وتأتون في ناديكمَ المنكر . فما كان جواب قومه إلاّ أنْ قالوا ائتنا بِعَذاب الله إن كُنتَ مِن الصادقين﴾ العنكبوت : ٢٨ ، ٢٩ .

---

(١) عادون : معتدون متجاوزون لحدود الله .

(٢) القالين : المبغضين .

الملائكة في طريقها الى سدوم

ذكرنا فيما سبق في قصة ابراهيم ان الملائكة نزلوا ضيوفاً عليه متنكرين بصورة فتيان وكان مما اخبروه به أنهم ذاهبون لإهلاك قوم لوط بسبب تماديهم في الفحش . انزعج ابراهيم حين عرف من الملائكة انهم سيهلكون اهل قرية سدوم ، لأن فيها ابن اخيه لوطاً وقال للملائكة : إن فيها لوطاً . فأجاب الملائكة : نحن نعلم ان فيها لوطاً وأنّ الهلاك لا يقع إلاّ على الكافرين الذين لم يؤمنوا بالله ، أما لوط وأهله والذين آمنوا معه فإنهم ناجون جميعاً ما عدا امرأته سيصيبها ما سيصيب الكافرين من الهلاك ولا ينجيها كونها امرأة لوط لأنها ساء عملها ، وخانت زوجها ، وأصرّت على العناد والكفر . قال تعالى :

﴿ ولما جاءت رُسُلنا[1] ابراهيم بالبُشرى[2] ، قالوا : إنّا مهلكو أهْل هـٰذه القرية إنّ أهلها كانوا ظالمين . قال : إنّ فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلمُ بمن فيها لننَجينّه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين[3] ﴾ العنكبوت : ٣٠، ٣١

الملائكة في ضيافة لوط

ترك الملائكة ابراهيم وتوجّهوا الى قرية سدوم ، وحلوا ضيوفاً على لوط وهو يجهل حقيقتهم ، فتضايق أشد الضيق من مجيئهم ، وذلك لأنهم كانوا حِسان الوجوه وخاف عليهم من اعتداء قومه ، وواجب الضيافة يحتّم عليه ان يحميهم من كل أذى ويرد عنهم كل مكروه ، ومرّت على خاطره الأخطار التي ستصادفه من جراء استضافتهم له ، فقال في نفسه : هذا يوم شديد المكاره والآلام .

انتشر بين القوم نبأ نزول ضيوف حِسان على لوط ، فأسرعوا الى بيته ، وتجمهروا حوله يبتغون الفاحشة من ضيوفه .

ولما رأى لوط هؤلاء القوم وقد تجمعوا حول منزله عرف غايتهم الرديئة فعرض على رؤسائهم بناته للزواج منهن — عرض مجاملة — بدلاً من اقتراف

---

(١) رسلنا : ملائكتنا .
(٢) البشرى : المراد بها تبشير ابراهيم بولد اسمه اسحق .
(٣) الغابرين : من الباقين المستحقين للعذاب .

الفاحشة مع ضيوفه ، وتمنّى ان يكون بينهم رجل عاقل يهتدي الى الحق ويرعوي عن الباطل فيساعده على ردّ القوم عن غيهم .

لم يرضَ القوم بكلام لوط بل أجابوه : إنك لتعلم أننا ليس لنا في الزواج من بناتك أية رغبة ، وإنك – دون ريب – تعلم ما نريد .

كاشف لوط ضيوفه بالخطر المحدق بهم وقال لهم : لو أن وجودكم معي يزيدني قوة استطيع بها أن أقاوم هؤلاء الناس لفعلت دفاعاً عنكم ، ولو أن عندي من الأنصار والأقارب جماعة أقوياء ألجأ اليهم لاستعنت بهم على حمايتكم ، ولكن لا حيلة لي بمقاومتهم للدفاع عنكم ، قال تعالى :

﴿ ولما جاءت رُسُلنا لوطاً سيء بهم[(١)] وضَاقَ بهم ذَرْعا[(٢)] وقال : هَذا يومٌ عصيب . وجاءه قومه يُهرعون[(٣)] اليه ومن قبْلُ كانوا يعملون السيئات قال: يا قوم هَؤلاءِ بناتي[(٤)] هُنَّ اطهر لكم[(٥)] فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي[(٦)] أَليَسْ منكم رجُلٌ رشيد ؟ قالوا: لقد علِمْتَ مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال : لو ان لي بكم قوة أو آوي الى رُكن شديد[(٧)] ﴾ هود : ٧٧ – ٨٠ .

عقاب الله لقوم لوط

ولما اشتد الهرج أمام بيته ، ولم يفلح لوط في اقناع قومه بالعدول عما عزموا عليه عندئذ ضربتهم الملائكة بالعمى بعد أن أوشكوا ان ينالوا بغيتهم المحرمة ، فتبدّد شملهم ورجعوا من حيث أتوا أذلاء خاسئين ، قال تعالى :

---

(١) سيء بهم : أي احدث مجيئهم المساءة للوط لظنه أنهم اناس، وهم بالحقيقة ملائكة .

(٢) ضاق بهم ذرعاً : يقال ضقت بالأمر ذرعاً إذا لم تطقه ولم تقو عليه .

(٣) يهرعون : يسرعون .

(٤) هؤلاء بناتي : يتساءل البعض كيف سمحت نفس لوط بعرض بناته على هؤلاء الفسقة للزواج منهن ، وقد أجيب على ذلك : بأن لوطاً عرض على القوم بناته عرض مجاملة لا يقصد به الجد لعلهم يخجلون فيكفوا عن ضيوفه، وقيل إن المراد ببناته نساء امته لأن كل نبي أب لأمته .

(٥) هن اطهر لكم: أي الزواج منهن أطهر من اقتراف اللواط .

(٦) لا تخزون في ضيفي : لا تفضحوني في شأنهم .

(٧) آوي الى ركن شديد : أي انضم الى قوي انتصر به ، وقد استغرب الرسول محمد هذا القول من لوط فقد روى البخاري ان الرسول قال : (يغفر الله للوط انه كان ليأوي الى ركن شديد وهو ربه وخالقه) .

﴿ ولقد راودوه عَنْ ضيفه فطمسْنا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُرِ ﴾ القمر : ٣٧ .

ثم لم يطل تنكر الملائكة بل كشفوا عن حقيقتهم للوط واخبروه عن سبب مجيئهم وهو إهلاك قومه بعد طمس أعينهم كي لا يستطيعوا النجاة ، ثم تخليصه من شرهم ، فقالوا له : لن يستطيعوا ان يؤذوك في نفسك ، ولا أن يفضحوك فينا ، فَسِرْ انت واهلك ليلاً واخرج بهم من هذه القريــة ولا يلتفت احدكم خلفه لكي لا يرى هول العذاب فيُصاب منه بشر ، أما امرأتك التي خانتك فلا تكن من الخارجين معك إذ لا بد ان يصيبها ما قدّر ان يصيب القوم من الهلاك ، وإن موعد هلاكهم هو الصبح ، وهو موعد قريب .

ولما حلّ العذاب الذي قدّره الله وقضاه ، جعل عالي القرية التي كان يعيش بها قوم لوط سافلها ، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجر صلب ، كانت تنهال عليهم متتابعة منتظمة تعذيباً من الله لهم ، وعذاب الله ليس ببعيد عن الظالمين الفاسقين . قال تعالى :

﴿ قالوا : يا لوط إنّا رُسُلُ ربّك لَنْ يَصلوا اليك فأسْرِ[١] بأهْلك بقطع من الليل[٢] ، ولا يلتفت منكم احد إلاّ امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ، إنّ موعدهم الصبح ، اليس الصبحُ بقريب . فلما جاء أمرنا[٣] جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حِجارةً من سجّيل منضود[٤] مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ هود : ٨٠ ـ ٧٣ .

والبقعة التي أصابها العذاب هي البقعة التي تُعرف اليوم بالبحر الميت او بحيرة لوط ، ويرى بعض العلماء ان البحر الميت لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث ، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت اخفض من سطح البحر بنحو اربعمائة متر . وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت[٥] .

---

(١) سرى : سار اول الليل .
(٢) بقطع من الليل : بطائفة من ظلمته .
(٣) جاء امرنا : اي عذاب الله .
(٤) منضود : أي يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً .
(٥) قصص الأنبياء ، للأستاذ عبد الوهاب النجار .

الفصل السابع

دروس وعبر

التحذير من اللواط – مضار اللواط الصحية – عقاب الله للوطيين – الدفاع عن الضيف .

التحذير من اللواط

وفي قصة لوط استهجان لجريمة اللواط ، ووعيد من الله بالعذاب الشديد لمرتكبها في الدنيا والآخرة .

واللواط من أقبح واشنع الفواحش ، فهو يدل على فساد ومرض في المزاج الإنساني ، خطره جسيم على المجتمع الإنساني ، فهو انحدار بالإنسان الى ما دون الحيوانية البهيمية .

ومما يسجل للقرآن أنه أولى هذه الجريمة كثيراً من الأهمية ، وذمها في عدة مواضع منه، فقوم لوط الذين فشا فيهم اللواط وصفهم القرآن بالعديد من الصفات الذميمة .

وصفهم الله بالعدوان : ﴿ اتأتون الذُكران من العالمين ، وتَذَرُونَ ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل انتم قوم عادون ﴾ .

أي انهم تعدوا على حدود الشريعة الالهية ، وتعدوا على قيم الحق والخير فأصبحوا من المجرمين الذين يجب كبح اجرامهم بالعقاب الذي يردعهم .

ووصفهم الله بالجهل : ﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون ﴾ .

والجهل يشمل الجهل الذي هو ضد العلم، كما يشمل الجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش ، والسفيه الطائش لا يُترك له المجال لأن يصول ويجول ، بل يجب الحجر على تصرفاته ، ومعاقبته على سفهه وطيشه .

ووصفهم الله بالإسراف : ﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مُسرفون ﴾ .

أي اسرفوا في الشهوات ، وفي تجاوز الحدود التي رسمها الله لعباده ، والمسرفون هم قرناء الشيطان الذين يفسدون مجتمعهم فيجب الوقوف في وجوههم والحؤول دون اسرافهم .

عندما نجد استنكار القرآن الكريم لهذه الفاحشة ثم نسمع ونرى ان الإنسان المتمدن في الثلث الأخير من القرن العشرين بدأ يزاول هذه الفاحشة علناً في بعض الدول الغربية متعللاً بالحرية الشخصية ومستغلاً تساهل السلطة التشريعية فيها يأخذنا العجب والاستغراب .

هل الحرية الشخصية تعني إباحة هذه الشهوة التي تفسد النساء بسبب انصراف الرجال عنهن والتي تقضي على نظام الأسرة التي عمادهـا المسؤولية والعطف والرحمة ؟!!

هل الحرية الشخصية تعني تعطيل النسل الذي سنّه الله لعمارة الكون وترك الشهوات بلا ضابط ، مما يقضي قضاء تاماً على تماسك المجتمع وسلامته ؟!!

مضار اللواط الصحيَّة

واللواط بجانب مضاره الاجتماعية له آثار سيئة في صحة الإنسان ، فاللواط ينقل الى الإنسان ما ينقله الزنا من الأمراض : كالزهري ، والسيلان ، والقرحة الرخوة ، وأمراض الجلد كالجرب وسواه . هذا وإن اللواط يحدث بالشرج علامات منها : ضعف العضلة العاصرة حتى أنها قد تفقد السيطرة على عملية التبرز فيحدث عن غير ارادة ، ومنها: تمزق الشرج وزوال الانسجة حوله ، فيغور ويشبه القمع شكلاً ، والشرج مليء بالميكروبات التي قد تنتقل الى عضو الجاني فتحدث فيه التهابات في مجرى البول ، وقد يصبح المجني عليه مخنثاً إذا لازمته هذه العادة منذ صغره ، وقد يظهر على العكس رجولة اكثر ليغطي النقص الذي عنده .

وهكذا يظهر لنا ان الله لم يأمر الإنسان إلاّ بما فيه سلامته وسعادته ، ولم يحرّم عليه إلا ما فيه ضرره .

عقاب الله للوطيين

والجدير بالذكر ان القرآن بيّن العقاب الشديد الذي أصاب مرتكب هذه الفاحشة وذلك لتحذر الأمم خطرها ، وتتوقى شرها . فسدوم تلك القرية التي انتشرت فيها هذه الفاحشة بيّن القرآن ما اصابها من عقاب :

﴿ وجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل ﴾ الحجر : ٧٥ .

ويحذّر القرآن جميع الشعوب من اقتراف هذه الرذيلة والسكوت عنها حتى لا يصيبهم مثل ما اصاب قوم لوط ، فالقرآن عندما ذكر قوم لوط وما حلّ بهم من العذاب عقّب على ذلك بقوله : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أي ان العذاب ليس بعيداً عمن يعمل عمل قوم لوط ، بل العقاب الالهي سيحلّ بمن يعمل عملهم .

هذا التحذير الالهي يسري مداه على مرّ العصور لتحذر الأمم عاقبة الفساد وإن في ما اصاب اخيراً بعض أمم العالم من ويلات حربين عالميتين لاتزال اهوالهما ماثلة في الأذهان ، وما اصابهم من كوارث طبيعية لعبرة لمن اعتبر .

اللواط وعقوبته في الاسلام : ومما يسجل في هذا المقام أن الإسلام شدّد العقوبة لمن يفعل اللواط ، فقد ذهب بعض العلماء الى ان اللائط يرجم سواء أكان محصناً ام لا ، نص على ذلك الشافعي واحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة ، واستدلوا بما رواه الإمام احمد وأهل السنن عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ قال : (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) وذهب الإمام ابو حنيفة الى ان اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فُعِلَ بقوم لوط لقوله تعالى : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

الدفاع عن الضيف

وفي قصة لوط درس في اكرام الضيف والذود عنه بكل وسيلة ممكنة .

فالضيف هو أخ لنا في الإنسانية التجأ إلينا مؤقتاً يبتغي سكناً يرتاح إليه من عناء السفر ، او يطلب وجبة طعام يسد بها جوعه ، او يروم حماية من عدوان عليه ، هو أخ لنا في الإنسانية القى مقاليده ومتاعبه بين ايدينا فهل من المروءة والرحمة طرده وغلق الأبواب في وجهه ؟! !

فنبي الله لوط تبرز في شخصيته فضيلة إكرام الضيف والذود عنه والتضحية بأثمن ما يمكن في سبيله ، فهو عندما رأى ضيوفه – وهم من الملائكة بصورة فتيان – شعر بالمتاعب التي ستأتيه بسببهم ، فقد كان بإمكانه غلق باب منزله في وجوههم وتجنب ما يمكن ان يحدث له من مشاكل هو في غنى عنها ، ولكننا نراه بالرغم من ذلك يستقبل ضيوفه ونفسه تعتلج بالقلق وترقب ويلات كثيرة وهو يقول في نفسه : ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ .

ويسرع قومه الى بيته يبغون الاعتداء الفاحش على ضيوفه فينبري مدافعاً عنهم مضحياً في ذلك بفلذات كبده وهو أن يزوجهم بناته عوضاً عن اقتراف الفاحشة مع ضيوفه ، ثم لما رأى إصرارهم على عزمهم السيء اخذ يفكر بالدفاع عنهم بالقوة ، فيستعرض قواه منفرداً ومع ضيوفه ويقابلها مع قوة خصومه فيرى عجزه ويتمنى لو انه يملك قوة اكبر يدافع بها عن ضيوفه ﴿ لو ان لي بكم قوة او آوي الى ركن شديد ﴾ .

وفي هذا درس لنا في اكرام الضيف والذود عنه ، وفي هذا المقام نذكر أن الرسول محمداً ﷺ شدد على اكرام الضيف فقال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) .

الباب السادس

إسحق عليه السلام
يعقوب عليه السلام
يوسف عليه السلام

١ ـ قصة إسحق ويعقوب

٢ ـ يوسف وكيد إخوته

٣ ـ يوسف وغواية المرأة

٤ ـ يوسف في السجن

٥ ـ يوسف وزير الملك

٦ ـ تعرف يوسف على إخوته

٧ ـ لقاء يعقوب ويوسف

٨ ـ دروس وعبر

الفصل الأول

قصة اسحق ويعقوب

نبوة اسحق ويعقوب – نبذة عن حياة اسحاق ويعقوب – الاسباط – نبوة يوسف .

نبوة اسحق ويعقوب

اسحق عليه السلام هو ابن ابراهيم عليه السلام من زوجته ساره، ومن نسله جاء انبياء بني اسرائيل وفي طليعتهم ابنه يعقوب عليه السلام .

فالنبوة كانت في ذرية ابراهيم من ولديه اسماعيل واسحق كما قال تعالى :

﴿ وجعلنا في ذرّيته النبوّة والكتاب ﴾ .

والقرآن نص على نبوة اسحق وانه من الصالحين وأن الله خصّه ببركته كما خص أباه وأن الملائكة بشرت أباه ابراهيم بذلك :

﴿ وبَشَّرناه باسْحق نبياً مِنَ الصَّالحين . وباركنا عليه وعلى اسحق ومِنْ ذرّيتهما محسنٌ وظالم لنفسه مبين ﴾ . الصافات : ١١٢، ١١٣ .

كما ان الله نص على نبوة يعقوب بقوله مخاطباً رسوله محمداً :

﴿ إنّا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ .

واثنى الله على ابراهيم واسحاق ويعقوب بقوله :

﴿ واذكُر عِبَادنا ابراهيم واسْحق ويعقوب أولي الأيدي والابصار . إنّا أخلصناهم بخالصةٍ ذِكْرى الدّار . وإنّهم عِندنا لَمِنَ المصْطَفين الأخيار ﴾ . ص : ٤٥ ــ ٤٧ .

---

(١) ويقال له يصحك بالعبرانية ومعناها يضحك، وسمي بذلك لأن أمه ضحكت في نفسها حينما بشرتها الملائكة بأنها سيكون لها ابن ، وكانت قد شاخت وتجاوزت سن الولادة فقد كان عمرها آنذاك تسعين سنة وعمر زوجها مئة سنة .

فالله سبحانه يأمر نبيه محمداً ان يذكر عباده ابراهيم واسحٰق ويعقوب وما كانوا عليه من القوة في الطاعة والنعم التي أسداها الله تعالى اليهم من النبوة، وقد استخلصهم الله واصطفاهم بسبب خصلة جليلة الشأن هي تذكرهم دائماً الدار الآخرة وتذكير الناس بها ، ولذلك كانوا من المختارين عند الله من بين أبناء جنسهم .

وفي هذا النص القرآني درس للمؤمن بأن تكون الآخرة هي مطمح انظاره فيعمل لها الأعمال الصالحة لينال جوار الله والفوز برضوانه .

نبذة عن حياة اسحٰق ويعقوب

لم يذكر القرآن شيئاً عن حياة اسحق الخاصة ولا عن حياة ابنه يعقوب سوى ما ذكره عن فقدان ابنه يوسف وما جرى في ذلك من احداث سنذكرها كلها في قصة يوسف عليه السلام ، أما هنا فنذكر ملخصاً لما ذكره أهل الكتاب عن اسحٰق ويعقوب :

لما شعر ابراهيم عليه السلام بدنو أجله لم يكن اسحق بعد قد تزوج ولم يكن ابوه يريد ان يزوجه من امرأة كنعانية تجهل الله وتكون غريبة في العشيرة لهذا كلف ابراهيم خادماً له كان قيّم بيته وموضع ثقته بأن يذهب الى (حاران) في العراق ويأتيه بفتاة من عشيرته .

سار الخادم والعناية الالهية تصحبه حتى وصل الى (حاران) ووقع اختياره على رفقه بنت بتوئيل بن ناحور اخي ابراهيم عليه السلام، فتكون رفقه بنت ابن شقيق ابراهيم فعاد بها حيث اقترن بها اسحق .

وبعد عشرين سنة من زواجه رُزِقَ اسحق ولدين توأمين أولهما سموه: (عيسو) ، وهو الذي تسميه العرب (العيص) ، والثاني خرج وهو آخذ بعقب اخيه فسموه : (يعقوب) ويطلق عليه ايضاً اسم اسرائيل[1] .

وكان اسحق يحب (العيص) اكثر من يعقوب لأنه بكره بينما امهما رفقة

---

(١) اسرائيل : مركب من (اسرا) وهو عبد ، او صفوة ، او انسان ، او مهاجر ، ومن (ايل) وهو الله فيكون معناه : عبد الله ، او صفوة الله ، وقيل معناه : محارب او جندي الله وقيل معناه : الأمير المجاهد مع الله .

كانت تحب (يعقوب) أكثر لأنه الأصغر ، وحدث ان اشتهى اسحق طعاماً وطلب من (العيص) ان يأتيه به فأتى له به يعقوب بالاتفاق مع امه قبل (العيص) فأكله اسحق ودعا له ، وعرف ذلك (العيص) فغضب على اخيه وتوعده فلما علمت بذلك امهما اشارت على يعقوب ان يذهب لزيارة اخيها (لابان) بأرض حاران في العراق وان يكون عنده الى أن يهدأ غضب أخيه وأن يتزوج من بناته وطلبت الى زوجها اسحق ان يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له فخرج يعقوب وقدم على خاله (لابان) وأقام عنده يخدمه نظير تزويجه بابنته (راحيل) ، ولكن خاله زف اليه ابنته الكبرى (ليئه)، فلما أصبح كلّمه في ذلك وقال له : إنما خطبت اليك (راحيل) وكانت أحسنهما وأجملهما ، فقال له له خاله : ليس من سنتنا ان نزوّج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت اختهـا فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين وادخلها عليه مع اختها وكان ذلك سائغاً في ملتهم .

وقد وهب (لابان) لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب لليئة جارية اسمها (زلفا)، ووهب لراحيل جارية اسمها (بلهة)، ثم وهبت كل واحدة منهما بعد ذلك جاريتها ليعقوب، وبذلك صار ليعقوب أربع زوجات رُزق منهن باثني عشر ولداً :

فمن زوجته (ليئة) رُزق : (رأوبين) و (شمعون) و (لاوي) و (يهوذا) و (يساكر) و (زبولون) .

ومن زوجته (راحيل) : (يوسف و (بنيامين) .

ومن زوجته (بلهة) : (دان) و (نفتالي) .

ومن زوجته (زلفا) : (جاد) و (اشير) .

وبعد مضي عشرين سنة على إقامة يعقوب عند خاله (لابان) طلب منه ان يعود الى أهله فأذن له ، فلما اقترب يعقوب من أرض (كنعان) أي فلسطين علم بأن أخاه (عيسو) قد استعد لملاقاته بأربعمائة رجل فتخوف يعقوب ودعا له ، وأعد لأخيه هدية عظيمة أرسلها مع رجاله ، فلان قلب عيسو عند رؤية ما أتاه به اخوه من هدايا فترك المكان لأخيه وذهب الى جبال سعير . اما يعقوب فقد جاء الى ابيه اسحق فأقام عنده ببلدة حبرون وهي التي يطلق عليها بلدة الخليل .

وقد عاش اسحق (١٨٠) سنة ودفن في المغارة التي دفن فيها ابوه ابراهيم عليه السلام في بلدة الخليل .

الاسباط

هم اولاد يعقوب الاثنـــا عشر او حفدته ذراري أبنائه ، والواحد سبط وهو الولد او ولد الولد .

والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب ، وهم الذين يرجعون الى اب واحد، وقد أصبح كل واحد من أولاد يعقوب أباً لسبط من اسباط بني اسرائيل . فجميع بني اسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب الاثني عشر .

وقد ظهرت في هذه الاسباط النبوة على الشكل الآتي :

سبط لاوى ظهرت فيهم النبوة في : (موسى ، وهارون ، والياس ، واليسع) .

سبط يهوذا ظهرت فيهم النبوة في : (داود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيي ، وعيسى) .

سبط بنيامين ظهرت فيهم النبوة في : (يونس) .

نبوة يوسف

ومن أولاد يعقوب خص الله يوسف بالنبوة ، فقد جاء في القرآن على لسان احد المؤمنين وهو يعظ قومه :

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مِمّا جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ .

وقد سمى الله في القرآن سورة باسم (سورة يوسف) فيها بيان لحياته ومحنته مع اخوته ، ومحنته مع امرأة العزيز ، ودخوله السجن ودعوته الى الله ، ثم خروجه من السجن ، وتعبيره الرؤيا للملك ، واستلامه وزارة المال ، ثم مجيء إخوته الى مصر بسبب القحط ثم التعرّف على اخوته الى غير ما هنالك مِمّا سنفصله فيما يلي :

الفصل الثاني

يوسف وكيد اخوته

رؤيا يوسف – تدبير المؤامرة على يوسف – يوسف في البئر – إنقاذ يوسف وبيعه الى وزير الملك .

رؤيا يوسف

كان يعقوب عليه السلام يؤثر ابنيه يوسف وبنيامين بمحبته ويفضلهما على اخوتهما . ويقص علينا القرآن الكريم ان يوسف رأى في منامه احد عشر كوكباً والشمس والقمر قد سجدوا له خاضعين . فلما أصبح قص على ابيه عجيب ما رأى ، فأدرك يعقوب من هذه الرؤيا ان ابنه سيكون له شأن عند الله والناس ، لكنه خشي عليه من حسد اخوته ، فأوصاه أن لا يقصص على اخوته رؤياه ، لئلا يغريهم الشيطان بتدبير المؤامرات للايقاع به ، ثم بيّن له بأنه سيكون في مستقبل أيامه سيداً مطاعاً ، وان الله سيصطفيه بالنبوة ، ويعلّمه تفسير الرؤى ، وسيتم نعمته عليه بالخير والرحمة والبركات وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابراهيم واسحق من قبل . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ إذ قالَ يوسُفُ لأبيه : يا أبَتِ إني رأيتُ أحَدَ عشر كوكباً والشمس والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين . قال يا بُنَيّ لا تقصُص رُؤياك على إخوتكَ فيكيدوا لَكَ كيداً إنّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين . وكذلك يجتبيك رَبّكَ ويعلّمُكَ من تأويل الأحاديثِ[1] ويُتمُّ نِعمتَهُ عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل ابراهيم واسحٰق إنّ ربك عليمٌ حكيمٌ . لقد كان في يُوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين ﴾[2] .

(١) تأويل الأحاديث : التأويل بيان السبب والعلة . والأحاديث تشمل ما يحدث في اليقظة او في المنام ، اما في اليقظة فيشمل تفهم مرامي الكتب السماوية وكلام الناس والشرائع والقوانين .

(٢) آيات للسائلين : أي لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها وما تحمل من عبر وعظات .

تدبير المؤامرة على يوسف

رأى أبناء يعقوب من ايثار ومحبة ابيهم ليوسف واخيه الشقيق بنيامين ما لم يكن لواحد منهم غاظهم ذلك ، وهم حسب زعمهم عصبة قوية تقدم من الخير والمنفعة لأبيها اكثر منهما ، فأبوهم نتيجة لذلك – حسب زعمهم – في خطأ وبُعد عن الحق والصواب بإيثاره يوسف وأخاه .

اضمروا ليوسف الشر وائتمروا فيما بينهم للخلاص منه ، إمّا بقتله او بالقائه في أرض بعيدة بحيث لا يهتدي للعودة الى ابيه سبيلا ، هذا إن سلم فيها من الهلاك ، وظنوا انهم بهذا العمل يستأثرون بحب والدهم خالصاً من المنافسة ثم يتوبون بعد عملهم هذا ويكونون قوماً صالحين ، فيقبل الله توبتهم ، كما يقبل أبوهم اعتذارهم .

أشار احد الاخوة بأن لا يقتلوا يوسف بل يلقوه بعيداً عن العيون في أغوار بئر ، فلعل قافلة تلتقطه منه وتحمله معها ، وبذلك يتحقق لهم غرضهم من اقصائه عن ابيه ، وينجون من إثم القتل ، وعلى هذا استقر رأيهم .

ذهبوا الى ابيهم وراحوا يحتالون لأخذ يوسف معهم بعد أن شعروا أن اباه يبعده عنهم ، فقالوا له : يا أبانا ما الذي رابك منا حتّى تبعد يوسف عنا ولا تشعر بالطمأنينة إذا كان معنا ؟ نحن نؤكد لك أننا نحبه ونشفق عليه ، أرسله معنا الى المراعي غداً ليلعب ويمرح ويتمتع بالأكل والشرب مثلنا ، واننا لحريصون على المحافظة عليه حرصنا على انفسنا ؛ فأجابهم والدهم المفرط في حب ولده بأنه يحزنه ان يبتعد عنه يوسف ويخاف إذا أمنهم عليه أن يأكله الذئب وهم في غفلة عنه ؛ فأقسموا لأبيهم بأنه لن يحصل له ما يكره ، واي مكروه يحدث له يصيبهم عاره ، ولذلك فهم حريصون على يوسف حرص ابيه عليه إن لم يكن أشد حتّى لا يظهروا أمام الناس بمظهر الجماعة الفاشلة الخائبة .
قال الله تعالى :

﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوهُ أحَبّ الى ابينا مِنّا ونحن عصبة[1] إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسُفَ أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وَجْهُ أبيكم وتكونوا من بعدِه قوماً صالحين . قال قائلٌ منهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه

(١) عصبة : جماعة .

في غيابة الجُبّ يلتقطهُ بعض السيّارة[1] إن كنتم فاعلين. قالوا: يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون[2]، أرسِلْهُ معنا غداً يرتعْ[3] ويلعبْ وإنّا له لحافظون. قال: إني ليحزُنني أن تذهبوا به وأخاف ان يأكُلهُ الذئب وأنتم عنه غافِلون. قالوا: لئن اكلَهُ الذئبُ ونحن عُصبة إنّا إذاً لخاسرون ﴾.

يوسف في البئر

أذن يعقوب لاولاده باصطحاب يوسف معهم، وخرجوا به فألقوه في البئر حسب الخطة المرسومة التي اتفقوا عليها فيما بينهم، وحينئذ قذف الله في روعه بأنه سيخلصه مما هو فيه، وسيأتي يوم يخبر فيه اخوته بما فعلوه به وهم ماثلون أمامه محتاجون له لا يخطر ببالهم انه يوسف لعلو شأنه.

رجع إخوة يوسف في المساء يظهرون الحزن ويرفعون أصواتهم بالبكاء. فقالوا: يا أبانا مضينا نتسابق في الرمي والجري وتركنا يوسف عند متاعنا ليحرسه فأكله الذئب، ونحن بعيدون عنه. وانك لن تؤمن بصدق اقوالنا لاتّهامك ايانا بكرهه ولو كان ما نقوله الحق والصدق؛ وأبرزوا له قميص يوسف وقد تلوث بالدم، ولكن عند معاينته تبين له كذبهم، وأن هذا الدم ليس من ولده لعدم تمزق القميص، أو لعل فراسته فيهم كشفت له كذبهم فقال لهم: لقد سهلت لكم انفسكم أمراً خطيراً فأقدمتم عليه، وإني على فراقه لصابر صَبراً جميلاً لا يصحبه جزع ولا يأس. والله وحده اطلب منه العون على كشف حقيقة ما تصفون، وتحمل البلاء على فراقه، قال تعالى:

﴿ فلمّا ذهبوا بـه وأجمعوا ان يجعلوه في غيابَةِ الجُبّ وأوحينا إليه لتُنبِئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وجاءوا أباهُمْ عِشاءً يبكون. قالوا: يا أبانا إنّا ذهبنا نستَبِقُ وتركنا يوسُف عِندَ متاعِنا فأكَلَهُ الذئبُ وما أنت بمؤمِنٍ لنا ولو كُنّا صادقين. وجاءوا على قميصه بدم كذب، قال: بل سوَّلَتْ لكم أنفسكم امْـراً فصبرٌ جميلٌ، والله المُسْتعانُ على ما تصفون ﴾.

---

(١) السيارة: الذين يسيرون في الطريق.

(٢) نصحت له: اخلصت له العمل والقول.

(٣) يرتع: يتوسع في الأكل والشرب والتنعم.

انقاذ يوسف وبيعه الى وزير الملك

ومرّت أمام البئر قافلة تقصد مصر فأرسلوا أحدهم ليأتي لهم بالماء من البئر فلما أدلى دلوه تعلق به يوسف حتى خرج من البئر . فرح به هذا الرجل فرحاً شديداً وأتى به الى رفقائه يُعلن ابتهاجه قائلاً : يا للخبر السار هذا غلام . فأخفاه هؤلاء بين أمتعتهم وجعلوه من بضائعهم التي يرغبون في بيعها .

باع أصحاب القافلة يوسف في مصر بدراهم قليلة للتخلص منه خشية ان يدركهم أهله فينتزعوه منهم ، وكان الذي اشتراه وزير الملك[1] فأرسله الى بيته وأوصى امرأته زليخا به خيراً وقال لها : احسني معاملته واكرميه حتى تطيب له الاقامة معنا لعله ينفعنا أو نتبناه ونتخذه ولداً .

وكما جعل الله ليوسف مقاماً كريماً في منـــزل وزير الملك ، جعل الله له أيضاً تصرفاً في ممتلكات الوزير ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، وألهمه تفسير الرؤى ، والله قادر على تنفيذ كل أمر يريده ولكن اكثر الناس لا يعلمون خفايا حكمته .

ولما ترعرع يوسف وبلغ اقصى قوته وهي مرحلة الشباب ، اعطاه الله حكماً صائباً وعلماً نافعـــاً ، ومثل هذا الجزاء يثيب الله به المحسنين . إقرأوا هذه الآيات :

﴿ وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلْوَه . قال : يا بُشرى هذا غلامٌ واسرّوه[2] بِضَاعةً والله عليم بما يَعملون . وَشَرَوْهُ[3] بِثَمَنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراهُ من مِصرَ لامرأتِه أكرمي مثواهُ[4] عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكّنّا ليوسفَ في الارض ولنعلّمَهُ من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكن اكثر الناسِ لا يعلمون . ولما بَلَغَ اشدّهُ واستوى آتيناهُ حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

---

(١) المسمى « فوطيفار » وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر في عهد احد ملوك الهكسوس .

(٢) اسروه : اخفوه .

(٣) شروه : باعوه، ضد اشتروه . قال تعالى : (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) أي باعوها . وقال تعالى : (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) اي يبيعها ويبذلها في الجهاد .

(٤) المثوى : المقام والمأوى والمنزل ، واكرمي مثواه : اجعلي منزله ومقامه كريماً عندنا .

الفَصْلُ الثَالِث

يُوسُفُ وَغِوَايَةُ المرأة

امرأة العزيز تغري يوسف – يوسف والنسوة .

امرأة العزيز تغري يوسف

كانت منّة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع سبباً لمحنته، وذلك ان زليخا امرأة العزيز (وزير الملك) رأت بعين الأنثى جمال يوسف فخفق قلبها واضطرمت مشاعرها ، ولما كان هو فتاها ورهين اشارتها هان عليها ما ينتابها من الشوق والحب ، وقد كانت غادة في مقتبل العمر جميلة الطلعة .

لبثت وقتاً تتردد في اظهار شعورها نحو يوسف الى ان غلب الحب عواطفها واستحوذ الضعف الطبيعي على مشاعرها ، فانتهزت فرصة وجوده في بيتها يوماً ، وأخذت تغريه بنفسها ليبادلها الحب فعرضت عليه محاسنها ومفاتنها – بعد أن أوصدت الأبواب – وقالت له : اقبل عليّ فقد هيأت لك نفسي ، فنفر منها يوسف نفرة الغضوب واستنكر منها ذلك الأمر قائلاً : إني لجأ الى الله ليحميني من الإثم ، وكيف ارتكبه وزوجك العزيز سيدي أكرمني واحسن وفادتي انه لا يفوز من يقابل الاحسان بالغدر والخيانة .

ولكن الله اعمى قلبها فلم تبالِ بما قال وأصرت ان تخالطه ، ونازعته نفسه اليها ، لولا ان رأى نور الله الحق فاستضاء به فلم يَطاوع ميل النفس وامتنع عن المعصية ، وهكذا صَرف الله عنه سوء الزنى والخيانة لأنه من عباد الله الذين اخلصوا له .

أسرع يوسف الى الباب يريد الافلات منها ، وأسرعت وراءه لتحول دون خروجه وجذبت قميصه من الخلف لتمنعه من الخروج فتمزق ، لكنه تمكن من الخروج ، وفي هذه الحال وجدا عند الباب زوجها فبادرته باتهام يوسف بمحاولة اغتصابها وحرضته على سجنه .

ولكن يوسف دفع التهمة عن نفسه قائلاً : بأنها هي التي حاولت ان تخون زوجها وانه امتنع عن الاستجابة لها ، وفيما هما يتبادلان الاتهام حضر الجدال قريب لها فحكم قائلاً : إن كان قميصه شق من أمام فقد صدقت في ادعائها لأن هذا يعني انه كان مندفعاً نحوها وهي تدافع عن نفسها وإن كان قميصه شق من خلف فهذا يعني انه كان يحاول الفرار ، فقد كذبت في قولها وهو من الصادقين . فلما رأى الزوج ان قميص يوسف شق من خلف قال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ، وان مكرهن عظيم .

لكن الزوج رغب في ستر الفضيحة فقال ليوسف : تناس ما جرى لك واكتمه ، وقال لامرأته : استغفري الله لذنبك وتوبي اليه عن الإثم الذي اقترفته انك كنت من الآثمين في عملك هذا . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وراودتْهُ التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت: هَيْتَ لَكَ قال : مَعَاذَ الله إنّه ربي[1] أحْسَنَ مثواي إنّهُ لا يفلحُ الظالمون . ولقد همّتْ بِهِ وهَمَّ[2] بها لولا أن رأى بُرهانَ ربه كذلك لنصْرِفَ عنه السُوء والفحشاءَ إنهُ من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدَّت قميصَهُ من دُبُرٍ وألفيا سيّدها لدى الباب ، قالت : ما جزاءُ من أرادَ بأهلِكَ سوءاً إلاّ أن يُسجَنَ او عذابٌ أليم . قال : هي راودتني عن نفسي ، وشَهِدَ شاهِدٌ من أهْلِها إن كان قميصُهُ قُدّ من قُبُلٍ فَصَدَقَت وهو مِنَ الكاذبين ، وإن كان قميصُهُ قُدّ من دُبُرٍ فكَذَبَتْ وهو من الصادقين . فلمّا رأى قميصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ قال : إنه من كيدِكُنَّ ، إنّ كَيْدَكُنَّ عظيم . يوسف أعْرِضْ عن هذا واستغفري لِذَنبكِ إنّكِ كُنتِ من الخاطئين﴾

(١) انه ربي : قيل فيها تفسيران : الأول انه سيده وهو عزيز مصر ، وقيل المقصود بذلك الله تعالى .

(٢) ولقد همت به وهم بها : للعلماء في هذا الموضوع آراء منها : اي لقد همت به ليفعل بها ولولا إن رأى برهان ربه وتذكر جلاله وأمره ومراقبته له لهم بها وفعل، أي رؤية البرهان منعت الهم . والرأي الآخر : انه همَّ بدواعي الطبيعة ثم جاء الكف والمنع من وقوع المعصية برؤية البرهان . والمراد ببرهان ربه اي مراقبة الله تعالى وتجليه عليه بالعصمة . ويقول الشيخ محيى الدين بن العربي : (همت به) جلباً (وهم بها) دفعاً . ويقول العلامة ابن حزم (همت به) قتلا (وهم بها) كذلك .

يوسف والنسوة

سرى نبأ حادثة الاغراء الى جماعة من النساء في المدينة وتناقلنه في مجتمعاتهن قائلات : إن امرأة العزيز أغرت خادمها وراودته عن نفسه ليطيعها فيما تريده منه ، وقد خالط حبه شغاف قلبها حتى وصل الى صميمه ، إنها بمسلكها معه في ضَلالٍ وبُعدٍ عن الصواب .

وصل الى سمع امرأة العزيز اغتياب هؤلاء النسوة وسوء كلامهن فقررت ان تريهن يوسف ليلتمسن العذر لها في هواها ، فاستضافتهن يوماً ، وهيأت لهن مكاناً وثيراً يجلسن فيه متكئات على الوسائد زيادة في الرفاهية والاكرام كما هي عادة المترفين . وبعد ان استقرّ المقام بالمدعوات أمرت جواريها بإعداد الطعام واعطت كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتقطع بها جرياً على العادة من وضع السكاكين على المائدة لقطع اللحم والفاكهة، ثم شرعن يأكلن وانشأن يتبادلن الأحاديث في سرور وضحك ، وفي هذه الأثناء أمرت يوسف ان يخرج اليهن فكان صدمة لهن إذ بهرهن جماله الرائع فجرحن ايديهن من فرط الدهشة والذهول من مرآه وهن يقطعن طعامهن ، وانشغلن بارتشاف حسنه عن ألم جراحهن ، فأكبرن هذا الجمال الذي هو فوق مستوى البشر وقلن: ما هذا بشر إن هو إلاّ ملك كريم بجمال ذاته وكمال صفاته .

ولما رأت امرأة العزيز ان المدعوات شاركنها في اعجابها به حينئذ باحت لهن بمكنون فؤادها قائلة : هذا هو الفتى الذي عاتبتمنني في حبه ، لقد بهركن حسنه وأذهلكن عن انفسكن حتى حصل لُكنّ ما حصل . هذا هو الفتى الذي حاولت اغراءه فامتنع ،.وأقسم لكن إن لم يفعل ما آمره ليعاقبن بالسجن ليكون من الأذلاء المهينين .

ولكن يوسف أمام هذا التهديد والوعيد لم يلن ، كما انه لم يلق أذناً صاغية لنصح النسوة فلجأ الى ربه مناجياً إياه بأنه يفضل السجن على معصيته . ثم دعا ربه ان يصرف عنه شر مكرهن وكيدهن لئلاّ يميل الى رغباتهن ويكون من السفهاء الطائشين ، فاستجاب الله له فصرف عنه المعصية إنه وحده السميع لدعوات الملتجئين اليه . قال تعالى :

﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأةُ العزيز تُرَاوِدُ فتَاها عن نفسه ، قد

شغفَـهَا حباً[1] إنّا لنراها في ضلال مبين . فلما سَمِعت بمكرِهِنَّ أرسلَتْ إليهنَّ وأعتدت[2] لهُنَّ متكئاً وآتت كُلّ واحدة منهن سكيناً ، وقالت : أخرُج عليهنّ ، فلما رأيْنهُ اكبرْنهُ وقطّعْنَ أيديهن وقُلْنَ : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا إلاّ ملَكٌ كريم . قالت : فذلِكُنّ الذي لمُتُنّني فيه ، ولقد راودتهُ عن نفسه فاستعصم[3]، ولئِن لم يفعل ما آمُرُه ليُسجنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين[4] . قال: ربّ ، السجنُ أحبّ اليَّ مِمّا يدعونني إليه ، وإلاّ تصرف عنـي كيدهُنَّ أصبُ اليهِنَّ واكُنْ من الجاهلين . فاستجاب له ربُهُ فصَرفَ عنه كيدَهن ، إنه هو السميعُ العليم ﴾ .

(١) شغفها حباً : اي خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد .
(٢) اعتدت : هيأت .
(٣) استعصم : امتنع طالباً العصمة .
(٤) الصاغرين : الأذلاء .

الفصل الرابع

يوسف في السجن

إلصاق التهمة بيوسف وسجنه – يوسف يدعو الى عبادة الله وحده
يوسف يفسر منامي صاحبيه .

الصاق التهمة بيوسف وسجنه

ولما فشت أخبار امرأة العزيز مع يوسف في أرجاء المدينة ، رأى العزيز وآله انه لا يخلصهم من العار ولا يكف ألسنة السوء عنهم إلاّ زج يوسف في السجن لإلصاق التهمة به ، رغم انه اتضحت لهم براءته وأمانته وعفته .

وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الحزن والفرح ، فأما الحزن فلأنه سُجِنَ ظلماً وما سينجم عن ذلك من سمعة سيئة عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وأمّا فرحه فلخروجه من بيت سيده العزيز وابتعاده عن المكر والفتنة . ولكن السجن كان فاتحة خير له (ورب محنة ضمنها منحة) فقد صادف أن دخل معه الى السجن فتيان من خدم الملك وهما : رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين « ملحب » بتهمة المؤامرة على الملك . وبعد زمن رأى كل منهما رؤيا قصها على يوسف ، فقال الأول : لقد رأيت في منامي أني اعصر عنباً لأصنعه خمراً ، وقال الآخر : لقد حلمت اني احمل فوق رأسي خبزاً تأكل منه الطير .

طلب هذان الفتيان من يوسف تفسير هذين الحلمين وذلك بعد أن لمسا فيه العلم بتفسير الرؤى وما اتصف به من التقى والاحسان .

فقال لهما يوسف مؤكداً نعمة تعبير الرؤى التي خصه الله بها ومعترفاً بنعمة اخرى هي علم المغيبات بما يوحي الله إليه ، فهو مثلاً يستطيع ان يخبرهما بنوع الطعام الذي سيحمل اليهما في السجن ليطعماه ، فهذه الأمور الغيبية خصه الله بها لأنه أخلص له العبـــادة ورفض ان يشرك به ، ولأنه تجنب دين القوم

الذين لا يؤمنون بوجود الله ويكفرون باليوم الآخر . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ ثُمَّ بَدَا لهم من بَعدِ ما رَأوا الآيات : لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين . وَدَخَلَ مَعَهُ السجنَ فَتَيان ، قال أحَدُهُما : إني أراني أعْصُر خمراً ، وقال الآخرُ : إني أراني أحْمِلُ فوق رأسي خُبْزاً تأكلُ الطير مِنهُ نبّئنا بتأويله إنّا نَرَاكَ من المحسنين . قال : لا يأتيكُما طعامٌ تُرزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيَكُمَا ، ذلكُما مِمّا علمني ربي ، إني تركتُ مِلّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرةِ هم كافرون ﴾ .

يوسف يدعو إلى عبادة الله وحده

اغتنم يوسف فرصة اعجاب السجناء به ، واحترامهم له لما ينبئهم من تأويل الرؤى ، وما يعلمهم به من بعض أنباء الغيب ، فراح يكشف لهم عن هويته بأنه عريق النسب ، وأخذ يَعِظهم ويدعوهم الى دين الله الواحد الأحد مبيناً بطلان الاشراك الذي لا يرتكز على دليل او برهان .

أخذ يوسف يقول لهم : إني لم ابتدع ديناً وانما اتبعت ملة آبائي واجدادي ابراهيم واسحق ويعقوب الذين هداهم الله الى العقيدة الصحيحة ألا وهي عبادة الله وحده ، وهذا ما تفضّل به الله علينا وتفضّل على الناس حين ارسلنا اليهم لنهديهم الى الدين الصحيح ولكن اكثر الناس لا يتلقون هذا الفضل بالشكر والإيمان بل بالكفر والجحود .

ثم استمر يوسف في مخاطبة صاحبيه قائلاً : أأرباب شتى يخضع المرء لكل واحد منها خير ام الواحد الذي لا يغالب ؟ ما تعبدون غير الله إلاّ اسماء اطلقتموها انتم وآباؤكم على أوهام وخيالات لا وجود لها ، وليس لكم في عبادتها حجة او برهان عقلي يطمئن اليه من يعبدها من دون الله ، والحكم الفصل فيمن هو الإله الحق وما يصح ان يُعبد ، ليس إلاّ لله وحده ، أمَرَ ألاّ تخضعوا لغيره ، هذا هو الدين الحق القويم الذي تهدي اليه الأدلة والبراهين ، ولكن اكثر الناس لا يسترشدون بهذه الأدلة ، ولا يعلمون هذه الحقيقة الساطعة. قال تعالى :

﴿ واتبعتُ مِلّة آبائي : إبراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نُشرِكَ بالله من شيء ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الله علينا وعلى الناس ولكن أكثرَ الناس

لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان[1] إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

يُوسف يفسّر مَنامي صَاحبيه

لما أتم يوسف عظته لصاحبيه، طفق يجيبهما عما سألاه من تفسير حلميهما ، فقال : اما أحدكما وهو انت يا رئيس السقاة فطب نفساً وقر عيناً فإني أزف لك البشرى بابقاء الملك على حياتك ، لظهور براءة ساحتك من المؤامرة التي اتهمت بها ، فإنه سيفرج عنك وترجع ساقي الملك كما كنت سابقاً .

واما انت يا رئيس الخبازين فاعذرني إن صارحتك في تعبير رؤياك لتكون على بيّنة من أمرك إذ سيحكم عليك الملك بإزهاق روحك ، وستصلب وتأتي الطير لتأكل من رأسك ، ذلك لأنه سيتبين اشتراكك في المؤامرة على حياة الملك . ثم تابع يوسف كلامه لهما : هكذا قضى الله امره على الوجه الذي بينته فهو أمر لا مندوحة ان يقع ، فإني لا أرمي القول جزافاً ولكني اتكلم كما ألهمني ربي تفسير حلميكما .

وقد صدق يوسف في تفسير حلميهما وكل ما أخبرهما به قد تحقق بعد أيام قليلة .

ولما كان رئيس السقاة على وشك الخروج من السجن والمثول بين يدي الملك أدلى يوسف برجائه اليه أن يذكر قصته عند الملك ، وما وقع له من حيف وظلم عسى أن يعيد التحقيق في أمره لتظهر له براءته الثابتة فيرفع عنه ما لحق به من ظلم وحيف بغير حق .

ولكن الفرح الذي لا يوصف لرئيس السقاة ومشاغله أنسته ان يذكر يوسف عند الملك ، وهذه طبيعة في كثير من الناس إذ ينسون اصدقاءهم عند حلول الرخاء والغنى ، وكان من جراء هذا النسيان ان مكث يوسف في السجن سنين لا تقل عن ثلاث . اقرأوا هذه الآيات :

(١) السلطان : الحجة والبينة والبرهان .

﴿يا صاحبيِ السجن أمّا احدُكما فيسقي ربّهُ خمراً ، وأمّا الآخر فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ مِنْ رأسه ، قُضِيَ الأمْرُ الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظنّ انه ناجٍ منهما : اذكرني عند ربّك ، فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ ربه فَلَبِثَ في السجن بِضع[1] سنين﴾ .

---

(١) بضع : ما بين ثلاث الى تسع سنين .

الفَصْلُ الخَامِسُ

يُوسُفُ وَزِيرُ المَلِكِ

رؤيا الملك – رئيس السقاة عند يوسف – يوسف يفسر رؤيا الملك – التحقيق في المؤامرة – إنعام الملك على يوسف بوزارة المال .

رؤيا الملك

بعد تلك السنين التي قضاها يوسف في السجن شاءت العناية الالهية ان يخرج يوسف من سجنه ، ويتربع في اعلى المناصب الدنيوية ، وإذا اراد الله شيئاً هيأ له الأسباب .

فقد رأى الملك[1] في منامه رؤيا أثارت اضطرابه واوجس منها خيفة فجمع الملك الكهنة والحكماء وقال لهم : إني رأيت في منامي سبع بقرات سمينات تأكلهن سبع بقرات هزيلات نحيلات ، ورأيت ايضاً سبع سنابل خضراء وسبع سنابل يابسة ، فيا أيها القوم بينوا لي تأويل تلك الرؤيا إن كنتم تستطيعون تفسيرها وبيان ما ترمي اليه .

فوجىء القوم برؤيا الملك وظهر ارتباكهم ، وتشاوروا فيما بينهم ثم اجابوه إجابة يتنصلون بها من جهلهم بأن هذه الرؤيا لا يُعوّل عليها في تصاريف الأيام بل هي اخلاط أحلام باطلة ، أثارتها هواجس الملك، وهي لا تدل على شيء ، ثم انهم فوق ذلك لا علم لهم بتأويل الأحلام .

اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وقال الملكُ : إنّي أرى سَبْعَ بقراتٍ سِمان يأكُلُهنّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ . يا أيّها الملأ افتوني في رؤياي إن

(١) هذا الملك من الأجانب الذين غزوا مصر والذين أطلق عليهم اسم الهكسوس ومعناه (الملوك الرعاة) ، فبعض المؤرخين يعتبّرهم عرباً ، والبعض الآخر يعتبرهم فينيقيين .

كنتم للرؤيا تَعْبُرون . قالوا : أضغاثُ أحلامٍ ، وما نحنُ بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ .

رئيس السقاة عند يوسف

سمع رئيس السقاة سؤال الملك وجواب الكهنة والحاشية الذي يم عن جهل بتفسير الرؤى ، وأثار هذا المشهد ذكريات الماضي في نفسه وإذا صورة يوسف تتراءى امام عينيه وإذا براعة يوسف في تفسير الرؤى تنجلي تلقاء خاطره فانبرى امام هذا الجمع قائلاً : انا استطيع ان انبئكم بتعبير هذه الرؤيا ، فإن في السجن فتى يُقال له يوسف ، كنا سجينين معه أنا ورئيس الخبازين ، وكان كلانا قد رأى حلماً فسّره لنا يوسف وصدق في تفسيره وتحقق تماماً ، فإن رأى جلالة الملك ان يُرسلني اليه فسآتيه بالنبأ اليقين عن تفسير هذه الرؤيا ، فوافق الملك ومن حوله على طلبه وارسلوه الى يوسف .

ذهب رئيس السقاة إلى يوسف في سجنه واجتمع به بعد هذه المدة الطويلة من فراقه للسجن ، وكأني به وقد اخبره بما جرى له من احداث ادت الى نسيانه إثارة قضيته امام الملك ، ثم طفق يبين له الغاية من الاجتماع به قائلاً : ايها الصادق في كل ما حدثتني به فيما مضى فسّر لي حلماً رآه أناس وهو : ان سبع بقرات سمان يأكلهن سبع هزيلات ، وسبع سنابل خضراء تجاور سبعاً يابسة ، افتني يا يوسف بحقيقة هـــذه الرؤيا لأخبرها لأصحـــابها لعلهم يعلمون فضلك ومكانتك من العلم .

﴿ وقال الذي نجا منهما وادّكَرَ بعد أُمّة [١] : أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصدّيق ، أفتنا في سبع بقرات سِمان يأكلُهن سبعٌ عِجافٌ [٢] وسَبْع سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ لعلي أرجعُ الى الناس لعلهم يعلمون ﴾.

يوسف يفسّر رؤيا الملك

شرع يوسف في تفسير رؤيا الملك وكانت تحمل في طياتها نزول الكوارث والفواجع فلم يكتفِ بما تدل عليه الرؤيا من كوارث ستقع بل وصف الحلول

---

(١) ادكر بعد امة : تذكر بعد مدة طويلة .

(٢) عجاف : جمع عجفاء والعجف الهزال الذي ليس بعده .

الناجعة للخروج من الأزمة الخانقة التي ستعانيها مصر. فهذا هو يوسف يقول لرئيس السقاة: إن مصر سيأتي عليها سبع سنوات خصبة فعليكم ان تزرعوا أرضكم قمحاً وشعيراً وتواظبوا على زرعها عاماً بعد عام فما تحصدونه ادخروه في سنابله ولا تفرطوا فيه وقتروا على أنفسكم فلا تخرجوا منه إلاّ القليل مما يقيم اودكم، ثم تأتي بعد هذه السنوات المخصبة سبع سنين مجدبة تستهلكون فيها ما ادخرتم ولا تبقون منه إلاّ القليل ليكون بذراً لما تزرعونه. وبعد هذه السنين المجدبة تأتي سنة خصبة يُغاث فيها الناس بالمطر وتجود الأرض بالغلات الوفيرة مما يتخذ زاداً، وعصيراً كالعنب والزيتون. قال تعالى:

﴿قال: تزرعونَ سَبْعَ سنين دأباً فما حصدتم فَذَرُوه في سُنُبله[1]، إلاّ قليلاً مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلكَ سَبْعٌ شِدادٌ يأكُلْنَ ما قَدَّمتم لَهُنَّ إلاّ قليلاً مِمّا تُحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصِرون﴾.

التحقيق في المؤامرة

نقل رئيس السقاة الى الملك تفسير الرؤيا فسرّ بها وعلم أن تأويلها ينسجم مع رؤياه مما يدل على رجاحة عقل مفسرها، فأمر باستدعائه ليستوضحه بعض التفاصيل، فذهب الرسول الى يوسف يبلغه رغبة الملك، فلم يتلهف للخروج، بل أصرّ على البقاء في السجن حتى ترتفع عنه التهمة التي أُلصقت به ظلماً، وطلب من الرسول ان يعود الى الملك ويطلب منه التحقيق في المؤامرة التي حيكت ضده. ويستجوب النسوة اللاتي حضرن وليمة امرأة العزيز وجرحن أيديهن في تلك الوليمة عن أسباب سجنه ليكن شاهدات في قضيته.

بَلّغَ رسول الملك رسالة يوسف اليه، فلم يتردّد في تحقيق ما طلب. فأرسل مندوبه اليهن وجمعهن واستوضحهن حقيقة ما يعلمن عن يوسف بحضور امرأة العزيز. فقال لهن: ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟

(١) فذروه في سنبله: تتفق هذه الآية مع ما وصل اليه العلم الحديث من ان ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة. من اين لمحمد هذه الحقائق العلمية التي جاء بها عن ربه؟ فلم تذكرها التوراة حتى يقال انه اقتبسها منها، إنها لمعجزة علميّة للقرآن تدل على صدق نبوته.

هل وجدتن منه ميلاً اليكن ؟ هل تبسّم ، وهـل داعبكن حتى اقدمتن على مراودته وتجرأتن على مطالبته بما لا ينبغي لامثالكن ؟ فقال النسوة : معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) . عند ذلك رأت زليخا أن مِنَ الحكمة والتعقل ان تعترف بالواقع لأنها اذا بقيت مصممة على انكارها شهد عليها هؤلاء النسوة بما اعترفت لهن سابقاً بما جرى لها مع يوسف ، او لعل ضميرها قد استيقظ بعد هذا الاجماع من النسوة على الشهادة بطهره وعفافه فلم تجد بداً أمام هذا الموقف من ان تعترف بالحقيقة بأنها هي التي حاولت اغراءه ، ولكنه صمد أمام إغرائها ، وانه لصادق في اتهامه لها . وعلّلت هذا الاعتراف بأنها ارادت ان تُعلم يوسف بأنها لم تشأ ان تستغل غيبته في السجن لاستمرار التهمة عالقة وخيانته لأن الله لا ينجح تدبير الخائنين . ثم أرادت الاعتذار عما كان منها بأن النفس تواقة الى الشر إلاّ من حفظها الله ورعاها والله غفور للتائبين . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وقال المَلِكُ : ائتوني به ، فلمّا جاءهُ الرسولُ قال : ارجع الى ربك ، فاسْألْه : ما بالُ النسوةِ اللاتي قطّعن أيديهن ؟ ان ربي بكيدهنّ عليم . قال : ما خطبُكُنّ[1] إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه ؟ قُلن : حاشا الله ، ما علمنا عليه من سُوءٍ ، قالت امرأة العزيز : الآن حَصْحَصَ[2] الحق ، انا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك لِيَعْلَمَ أنّي لم أخُنْهُ بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرىءُ نفسي ، إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

إنعام الملك على يوسف بوزارة المال

وقف الملك على صحة براءة يوسف وعفته فازداد ثقة به وميلاً اليه خصوصاً وقد آنس منه قبلاً ذكاء وفهماً حين أوّل رؤياه ، والتدبير الذي اقترحه للخروج من الضائقة الاقتصادية التي ستعانيها مصر ، ورأى الملك وهو الاسيوي الجنس انه يوجد بينــه وبين يوسف صلة قربى من ناحية الجنس ، كل ذلك ترك اثراً قوياً في نفس الملك حببه فيه حباً جماً فرغب في

---

(١) ما خطبكن : ما شأنكن .

(٢) حصحص : ظهر وبرز واستقر .

استخلاصه لنفسه ، فأرسل رسوله للإتيان به .

ذهب الرسول يبلغ يوسف نتيجة التحقيق واعتراف زليخا ببراءته ورغبة الملك في المثول بين يديه للإنعام عليه ، فلم يتردد يوسف من تلبية رغبة الملك ، فمثل بين يديه وكلمه بما جعله يزداد به اعجاباً وتعلقاً . عندئذ قال له الملك بلسان الوعد والتطمين: انك يا يوسف ستكون ذا مكانة ومنزلة كريمة عندنا مؤتمناً على كل شيء..

شعر يوسف بهذه المنزلة الكريمة التي اولاه إياها الملك وتصور، كل ما سيجري على المصريين في سني القحط، فخاف ان يغدر الأقوياء بالضعفاء كما غُدِرَ به ، ويهانوا كما اهين، فأحب ان يتولى شؤونهم المستقبلة بنفسه، وان يكون هو القائم بخدمتهم ليمنع عنهم الظلم ، فطلب من الملك ان يجعله اميناً على خزائنه لكي يتولى الاشراف على تخزين الغلات وتوفيرها لسني القحط ، لأن هذا الاشراف يحتاج إلى أمانة ودراية وعلم، وهذه الأشياء متوفرة لديه وقد لمسها الملك منه .

وافق الملك على ذلك، وتولى يوسف امور مصر الاقتصادية كلها وجعل له سلطة في ارض مصر يتصرف فيها كما يريد ، وهذا شأن الله في عباده الصالحين يهب نعمته لمن يختاره منهم، ويثيبهم في الدنيا على الاحسان الذي صنعوه ، ثم ان ثواب الله في الآخرة خير من ثواب الدنيا للذين آمنوا وكانوا يتقون ربهم . اقرأوا هذه الآيات :

﴿وقال الملكُ ائتوني به أستخلِصْهُ لنفسي ، فلمّا كلّمه قال : إنك اليوم لدينا مكينٌ امين . قال : اجعلني على خزائنِ الأرض إنّي حفيظٌ عليم . وكذلك مكـّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيثُ يشاءُ، نصيب برحمتنا مَنْ نشاء ولا نضيعُ أجْرَ المحسنين . ولأجْرُ الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

الفصل السادس

تعرف يوسف على اخوته

اخوة يوسف في مصر – رجوع الأخوة الى والدهم يعقوب – يوسف يحتجز أخاه بنيامين – استرحام يوسف .

اخوة يوسف في مصر

تحقق تأويل يوسف لرؤيا الملك بمجيء السنوات السبع الخصبة فرعاها يوسف بتدبيره وخزن الفائض من الغلات ، وجاءت السنون السبع الأخرى المجدبة فحصل جوع وقحط لا سيما في البلاد المجاورة كفلسطين لعدم استعداد اهلها لمثل هذه السنة .

وقد أصاب يعقوب واولاده كما اصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود الخير والرزق في مصر ، فطلب من اولاده – باستثناء بنيامين – ان يذهبوا اليها على أن يأخذوا معهم ما عندهم من بضاعة وفضة وغيرها ليستبدلوا بها القمح والشعير .

وصل اخوة يوسف الى مصر فرأتهم العيون المرصدة ، قادمين بشكل وعدد يلفت النظر ويثير الريبة، فأخذوهم الى يوسف وأُدخلوا عليه في قصره ، فعرفهم بملامحهم وكلامهم وازيائهم الخاصة بفلسطين ، اما هم فلم يعرفوه لبعد الشقة وطول مدة الفرقة وتغير شكله ، يضاف الى هذا وجوده في وزارة المال ولباسه الخاص، وتكلمه معهم باللغة المصرية القديمة، وتغير اسمه لأن مليك مصر اطلق على يوسف اسم « صفنات فعينع »(١) .

(١) «صفنات فعينع»: كلمتان مصريتان معناهما « طعام الحياة » او « قوت الأحياء » وفسرهما آخر: «بمخلص العالم» ، والمعنى على التفسيرين ان يوسف كان علة قوت الأحياء او طعامهم وانقاذهم من الموت بما فعله من خزن الحنطة الى زمن القحط .

أنزل يوسف اخوته ضيوفاً عليه وكال لهم القمح والشعير كيلاً زائداً عن حقهم واعطاهم زاداً للطريق وما يحتاج اليه المسافر ، ولما تأهبوا للرحيل قال لهم : ﴿ ائتوني بأخ لكم من ابيكم ﴾[1] فإن لم تحضروا اخاكم فسوف اعرقل مساعيكم ، ولا كيل لكم عندي حينما تعودون لمصر ثانية ، كما إني احذركم ان تدخلوا بلادي غير منفذين ما طلبته منكم .

حينما طلب يوسف من اخوته ذلك . وحذرهم نتيجة عدم اتيانهم بأخيهم من أبيهم خاطبوه قائلين : سنحتال على ابينا لينزل عن ارادته ويسمح لنا بإحضاره الى مصر ، ونؤكد لك أننا سننفذ ما تطلبه منا .

ولما هموا بالرحيل أمر يوسف خدمه بأن يدسوا الثمن الذي احضروه معهم ويضعوه في امتعتهم دون أن يشعروا . اراد يوسف بهذا العمل ان يحمل اخوته – متى رجعوا الى فلسطين وعرفوا حسن صنيعه – على حسن الظن به ، وانه بلغ من الكرم والجود حداً بعيداً ، فيوسف أتى ذلك العمل ليشجع اخوته على الرجوع اليه وليعرفوا انه يعطف عليهم وانهم يتوقعون منه الكثير من الخير . قال الله تعالى :

﴿ وجَاءَ إِخْوَةُ يوسُفَ فدخلوا عليه فعرفهم وهُم له مُنكرون . ولما جَهَّزَهُم بجهَازِهم قال : ائتوني بأخٍ لكم من ابيكم ، ألا تَرَوْنَ أنّي أوفي[2] الكيل وأنا خَيْرُ المُنزلين[3]؟ فإن لم تأتوني به فلا كيْلَ لكم عندي ولا تَقْربونِ . قالوا: سنُراودُ عنه أباه وإنّا لفاعلون. وقال لفتيانه: اجعلوا بِضَاعتَهُم في رِحالِهِمْ لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يَرجِعون ﴾ .

---

(١) هذه الجملة متى نقلت لابيهم اوقعته في استغراب وجعلته يظن ان لهذا الرجل المصري المتولي على خزائن مصر مغزى في هذا الطلب ، وإلا فمن أعلمه ان لهم اخاً من ابيهم؟ وما هي علاقته به؟ وما هي الاسباب التي تدفعه لهذا الطلب؟ فكأن هذا الطلب من يوسف ما هو إلا برقية (شفرة) من يوسف لابيه او لغز لا يحله إلا يعقوب ، يضاف إلى ذلك تجهيز يوسف اخوته بما يلزم لهم في سفرهم وزيادة الكيل لهم بدون ثمن . فيعقوب فهم من هذه الرموز ان ابنه يوسف بمصر بدليل أنه قال لأولاده عند زيارتهم لمصر للمرة الثالثة : (يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه) .

(٢) اوفي : اكثره ، ازيده .

(٣) المنزلين : المضيفين .

رجوع الاخوة الى والدهم يعقوب

عاد اخوة يوسف الى ابيهم بما معهم من مؤن وطعام فقصوا عليه ما جرى لهم مع وزير المال ، وما لقوا منه من حفاوة واكرام ، وكيف انه أنذرهم بمنع الكيل لهم إذا عادوا ثانية الى مصر ولم يكن معهم اخوهم بنيامين ، فطلبوا من ابيهم ان يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في الرحلة الثانية للحصول على القوت الذي هم بحاجة اليه ، واكدوا لأبيهم انهم سيرعونه ويحافظون عليه .

ثارت في نفس يعقوب ذكريات الماضي فأجابهم والحسرة تنهش قلبه : هل يكون ائتمانكم على بنيامين كائتمانكم على اخيه يوسف من قبل ، وعدم وفائكم بما تعهدتم به ؟ فالله حسبي في حماية ابني فهو اقوى حافظ وهو ارحم الراحمين .

وكان اخوة يوسف يجهلون ما فعل وزير المال من وضع اموالهم في حقائبهم ، فلما فتحوها وجدوا الأموال ، فتذرعوا بها لاستمالة ابيهم للموافقة على ارسال بنيامين معهم لجلب المؤن من مصر ، وطمأنوه بأنهم سيحرصون على العناية به ، وفوق ذلك يزداد قوتهم حمل بعير ، لأن وزير المال رسم ان يُعطي الرجل حمل بعير ولا يزيد على ذلك .

لكن يعقوب اشترط على اولاده حين ارسل بنيامين معهم ان يُعاهدوا الله ان يعيدوه اليه ولا يمنعهم عن ردّه مانع إلاّ ان يهلكوا ، او يحيط بهم عدو يغلبهم عليه ، فاستجابوا له واقسموا بالله على المحافظة عليه .

إطمأن يعقوب الى عهد ابنائه بعد ان رأى الاخلاص ظاهراً في كلامهم فوافق على ارسال بنيامين معهم، ثم دفعته الشفقة ان يوصيهم عند دخولهم مصر بأن يدخلوا من ابواب متفرقة لكيلا يلفتوا الانظار عند دخولهم ، ولا ترّقبهم الاعين، وقد يكون في ذلك ما يسوءهم فهو ليس في قدرته دفع الأذى عنهم، فالدافع للأذى هو الله وحده. اقرأوا هذه الآيات :

﴿ فلمّا رجعوا إلى ابيهم قالوا: يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيل فأرسِلْ مَعَنا أخانا نكْتَلْ وإنّا لَهُ لحافظون . قال : هل آمَنُكُمْ عليه إلاّ كما أَمِنْتُكُم على اخيه من قبلُ ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. ولما فتحوا مَتَاعَهُم وجدوا بِضَاعَتَهُم رُدّت اليهم قالوا: يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتُنا رُدّت

الينا ونميرُ أهلَنا[1] ونَحْفَظُ أخانا ونزداد كيْلَ بعير ذلك كيْلٌ يسير . قال : لن أرسلَهُ معكم حتى تؤتون موْثِقاً مِنَ الله لتأتُنَّني به إلاَّ أن يُحاط بكم، فلما آتوْهُ مَوْثِقهم قال: الله على ما نقول وكيل. وقال: يا بَنِيّ لا تدخلوا من بَاب واحد وادخلوا من أبوابٍ متفرّقة وما أُغني عنكم من الله من شيء إن الحُكْمُ إلاّ لِلّه عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمَرَهُمْ أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شــيء إلاّ حاجة في نفسِ يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علّمناه، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

يوسف يحتجز أخاه بنيامين

وصل الإخوة الى مصر ودخلوا على يوسف في ديوانه وبرفقتهم اخوهم بنيامين فاستضافهم، ثم انفرد بأخيه في عزلة عن باقي اخوته وصارحه بأنه هو يوسف –شقيقه المفقود– ولا تسل عن فرحهما وابتهاجهما بهذا اللقاء المثير . ثم استعرضا الماضي وما كانا يقاسيانه من حقد ومكر اخوتهما ، فقال يوسف لأخيه : لا تحزن ولا تتذ مر على ما كانوا يعملونه معنا ، فقد انعم الله عليّ بالسلطة والجاه وها أنت الآن في كنفي ورعايتي . ثم اظهر يوسف رغبته لأخيه في استبقائه عنده كتمهيد لإحضار والديه الى مصر ، وان الطريقة التي ارتآها هي نسبة السرقة اليه وأخذه رقيقاً ليكون بجانبه وآنس لوحدته ، فقبل بنيامين بهذه التهمة إرضاء لأخيه ، وفي اتهام بنيامين بالسرقة اتهام لهم جميعاً بحيث يذلهم ويخفض من زهوهم تأديباً لهم . كما انه في عمله هذا يوقعهم في مأزق حرج مع ابيهم . ويدخل عليهم الكرب والهم انتقاماً منهم على عملهم السابق معه ، فجازى مكرهم بمكر .

جهّز يوسف اخوته بمثل ما جهزهم به في المرة الأولى وزادهم حملاً لأخيه بنيامين، وأخذ بنفسه المكيال الرسمي الذي كانوا يكيلون به ووضعه بين بضاعة اخيه بنيامين .

تفقّد أعوان يوسف المكيال فلم يجدوه، فهم لم يكيلوا في ذلك الوقت إلاّ لهؤلاء الاخوة، فلم يترددوا في اتهامهم بسرقة المكيال، فنادى أحد أعوان يوسف : أيها الركب قفوا انكم سارقون.

---

(١) نمير أهلنا : نجلب لأهلنا الطعام .

سمع الاخوة النداء فارتاعوا واتجهوا الى المنادين يسألونهم ماذا فقدوا ، قال لهم المنادي: نبحث عن المكيال الرسمي ، وقد وضعت مكافأة لمن يجده وهي حمل جمل من الطعام .

اقسم اخوة يوسف على براءتهم من السرقة والفساد ، فقال اعوان يوسف : ما هي عقوبة من اقترف جريمة السرقة ؟ ولوثوق أبناء يعقوب من براءتهم قالوا: إن جزاء من اخذ المكيال ان يؤخذ رقيقاً، فهو الجزاء العادل للمذنب الذي اقترف جريمة السرقة ممن أحسن اليه . وقد كان هذا جزاء السارق في شريعة آل يعقوب .

اخذ يوسف وأعوانه يفتشون امتعة الأخوة قبل بنيامين حتى لا يظهر أن امر السرقة مدبّر، ثم فتشوا امتعة بنيامين واستخرجوا المكيال منها .

رأى الاخوة المكيال فأجفلوا وبهتوا، وكان وقع ذلك عليهم وقوع الصاعقة ، وبذلك نجحت حيلة يوسف، وحق له بفتوى اخوته ان يحتجز بنيامين ، وهكذا دبّر الله الأمر ليوسف لأنه ما كان في استطاعته اخذ اخيه بموجب شريعة مصر التي تعاقب السارق بعقوبة أخرى ، ولكن الله وفقه الى ترتيب الاسباب ليحفظ اخاه عنده، وهكذا فإن الله يرفع من يشاء في العلم والحكمة والتدبير كما رفع يوسف، وفوق كل ذي علم من هو اوسع منه علماً وحكمة، فلا يغتر الإنسان بما عنده من علم . قال تعالى :

﴿ ولمّا دَخَلوا على يوسف آوى اليه أخاه ، قال : إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهّزهم بجَهَازِهم جعل السقاية في رحْلِ اخيه، ثُمَّ أذّن مُؤذّنٌ : أيتُها العيرُ إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم: ماذا تفقِدون ؟ قالوا : نفقِدُ صُواع الملِكِ ولِمَنْ جاء به حِمْلُ بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كُنّا سارقين . قالوا : فما جزاؤهُ إن كنتم كاذبين؟ قالوا : جزاؤهُ : مَنْ وُجِدَ في رحْلِه فهو جزاؤُهُ كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وِعاءِ أخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه ، كذلك كِدْنا ليوسف[1] ما كان ليأخُذَ أخاه في دينِ المَلِكِ إلاّ أنْ يشاء الله ، نرفَعُ درجاتٍ من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

---

(١) كدنا ليوسف : في مقابلة كيدهم ليوسف جازاهم الله على كيدهم بكيد مثله .

استرحام يوسف

إن اخراج المكيال الرسمي من امتعة بنيامين اخجلت اخوته فتنصلوا باعتذار يبرىء جماعتهم دونه ويطعنه هو ويوسف فقالوا له : انه ليس عجيباً ان يسرق فقد سرق أخ[1] له شقيق من قبل . فطن يوسف الى طعنهم الخفي فساءه وقال في سره : انتم أسوأ منزلة وأقل قدراً بافترائكم الكذب، والله اعلم بكذب ما تدعون .

أليسوا هم السارقين الذين سرقوه من ابيه وألقوه في البئر ؟

ولم يكن بد من محاولة لتخليص بنيامين او افتدائه تنفيذاً للعهد الذي قطعوه على انفسهم امام والدهم يعقوب ، فراحوا يسترحمون قلب يوسف قائلين : إن لهذا الفتى أباً طاعناً في السن وهو متعلق به ، وإذا عدنا دونه فسيكون وقع ذلك اليماً عليه ، وقد عاهدنا الله ان نحافظ عليه فخذ واحداً منا يحل محله واطلق سراحه فما رأينا منك غير الاكرام والإحسان .

فقال يوسف : اعوذ بالله ان أظلم البريء وحاشا لي ان اخالف الحكم الذي تقره شريعتكم بالاسترقاق ، ثم إن شريعة الملك في مصر لا تبيح ان أعاقب بريئاً بجريرة آخر ، ولو فعلت ذلك لكنت من الظالمين .

فلما يئس الاخوة من اقناع يوسف اختلوا بأنفسهم واخذوا يتشاورون في موقفهم مع أبيهم فانتهى الرأي الى اخيهم الأكبر رأوبين الذي قال : ما ينبغي ان تنسوا ما عاهدتم الله عليه امام والدكم من انكم ستحافظون على بنيامين وترجعوه اليه سالماً . هذا وقد فرطتم في يوسف من قبل ففجعتم اباكم في أعز اولاده عليه ، امام هذا الأمر المخجل فإني سأبقى في مصر ولن أفارقها إلا إذا فهم ابي الوضع على حقيقته وسمح لي بالرجوع اليه ، او قضى الله لي بالرجوع الكريم وهو اعدل الحاكمين . ثم تابع قائلاً : عودوا الى ابيكم من

---

(١) قيل : ان راحيل والدة يوسف لما ارتحلت مع يعقوب من بلاد ما بين النهرين قاصدين فلسطين اخذت معها تمثالاً صغيراً من ذهب هو خاص بأبيها (لابان) فافتقده أبوها وفتش عنه فلم يجده معها ولا مع غيرها لأنها خبأته في كور الجمل الذي كانت راكبة عليه . ولما وصل يعقوب بأهله الى فلسطين كان ذلك التمثال في يد يوسف يلعب به لأنه يشبه الدمية التي يلعب بها الصبيان فقيل انه سرقه من بيت جده لأمه ، ولكن الحقيقة انه لم يفعل شيئاً من ذلك .

دوني واخبروه حقيقة ما حدث واعلموه ان ابنه بنيامين سرق المكيال الرسمي فنُفـّذ به حكم الاسترقاق، وقد رأينا ذلك كله رأي العين، ولو كنا نعلم الغيب بأن ذلك سيحصل لما اخذناه معنا. وقولوا له: إن كنت في شك مما بلغناك فأرسل رسلاً يأتوك بشهادة من اهل مصر، واستجوب انت بنفسك رفاقنا الذين عدنا معهم في القافلة ليظهر صدق قولنا. اقرأوا هذه الآيات:

﴿ قالوا: إنْ يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ لهُ من قَبْلُ، فأسرّها يوسف في نفسه ولَمْ يُبْدها لَهُم، قال: أنتم شَرّ مكاناً واللهُ أعْلَمُ بما تصفون. قالوا: يا أيها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فَخُذْ أحَدَنَا مكانَهُ، إنّا نَراكَ من المحسنين. قال: معاذ الله أن نأخُذَ إلاّ من وَجَدْنا متاعنا عنده إنّا إذن لظالمون. فلما استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نجيّاً[1]، قال كبيرهُم: ألمْ تعلموا أنّ أباكُم قد أخَذَ عليكم موْثِقاً مِنَ الله، ومِنْ قَبْلُ ما فرّطتُم في يوسُفَ فلن أبْرَحَ الأرضَ حتى يأذَنَ لي ابي او يحكُمَ الله لي، وهو خير الحاكمين. ارجعوا الى ابيكم فقولوا: يا أبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما عَلِمْنا وما كُنّا للغيب حافظين. واسأل القرية[2] التي كُنّا فيها والعير[3] التي اقبلنا فيها وإنّا لصادقون ﴾.

---

(١) تأمل بلاغة هذه الجملة (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً) فاستيأسوا معناها استحكم اليأس في انفسهم، وخلصوا معناها اعتزلوا وانفردوا عن الناس، ونجياً أي مناجين بعضهم بعضاً. فهذه الجملة في منتهى البلاغة واعجاز الايجاز فبكلمات قليلة صورت حالة الأخوة وقد تملكهم اليأس واعتزالهم الناس وتقليبهم الرأي ظهراً لبطن وتدبير الموقف الذي سيجابهون به والدهم. فكلمات هذه الجملة هي كالجوهرة التي لا نظير لها تدل على عظم فصاحة القرآن وجزالة منطقه، وقل ان تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة كهذه الجملة القرآنية.

(٢) القرية: اي سكان القرية، فإن العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه.

(٣) العير: اي أصحاب العير، والعير هي القافلة من الأبل.

الفصل السابع

لقاء يعقوب ويوسف

يعقوب فريسة الأحزان – الأخوة يتعرفون على يوسف – يعقوب يتلقى خبر سلامة يوسف – اللقاء المثير وتحقق رؤيا يوسف.

يعقوب فريسة الاحزان

رجع بقية أبناء يعقوب الى ابيهم وأخبروه ما حدث فهيج الخبر احزانه وضاعف آلامه لفقد ابنه الثاني ، ولم يصدقهم لأن من عُهِدَ منه الكذب لا يصدّق ولو تكلم بالصدق، وهو المفجوع بما صنعوا من قبل في يوسف، وصرّح باتّهامهم قائلاً : إن انفسكم زيّنت لكم ان تتخلصوا من بنيامين كما تخلصتم من اخيه من قبل ، والاّ فما أدرى ذلك الوزير ان السارق يسترق لولا فتواكم ومؤامرتكم على اخيكم ، وتابع قائلاً : امام هذا الأمر لا حيلة لي إلاّ ان اصبر صبراً جميلاً آملاً من الله ان يردّ عليّ جميع ابنائي فهو الذي يحيط علمه بكل شيء وله في كل شيء حكمة .

اعرض يعقوب عن اولاده وقد غمره الحزن ، والأسى يبعث الاسى الدفين ، فمصيبته ببنيامين ذكرته مصيبته بيوسف فقال : يا حسرتي ويا مصيبتي بيوسف ، وذهب سواد عينيه من شدة الحزن وهو مفعم بالغيظ على اولاده ولكن دون ان يُظهر لهم ما يسوءهم .

وتوالت الأيام ويعقوب مسترسل في احزانه، فخشي ابناؤه عليه فقالوا له: إن ذكرى يوسف لتزيد من آلامك واوجاعك الى أن يذيبك الغم فنشرف على الموت .

لم يؤثر قولهم فيه ، فردهم قائلاً : ما شكوت لكم ، انما اشكو ما انا فيه من الحزن والهم الى الله واتضرع اليه وحده، واعلم من الله ما لا تعلمون من سعة رحمته .

والثقة في الله تحيي الأمل، ولذلك لم يذهب الغم برجاء يعقوب في عودة ولديه اليه، وألقي في روعه أنهما من الأحياء، فأمر بنيه بأن يرجعوا الى مصر وينضموا الى اخيهم الكبير باحثين عن يوسف وأخيه ولا يقنطوا من رحمة الله ، لأنه لا يقنط من رحمة الله غير الجاحدين ، اقرأوا هذه الآيات :

﴿ قال : بَلْ سوَّلت[١] لكم أنفُسُكُمْ أمْراً فصبْرٌ جميلٌ ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم . وتولّى عنهم وقال: يا أسَفَا على يوسف وابيضت عيناهُ من الحُزْنِ[٢] فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسُفَ حتى تكونَ حَرَضاً[٣] او تكون مِنَ الهالكين . قال : إنّما اشكو بَثّي[٤] وحُزني الى الله[٥] واعلم من الله ما لا تعلمون. يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله[٦] إنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

الإخوة يتعرفون على يوسف

استجاب الاخوة لطلب ابيهم في البحث عن يوسف واخيه فعادوا الى مصر للبحث عنهما وللحصول على القوت الذي هم بحاجة اليه .

دخلوا على يوسف في ديوانه لاسترحامه في سبيل اخلاء بنيامين فمهدوا طلبهم بعرض ما هم عليه من فاقة وبؤس حتى يرق قلبه لهم ويحصلوا على مبتغاهم، **فقالوا له**: ايها الامير قد أصابنا واصاب اهلنا ضرٌّ شديد من الجوع والفقر ، وحملنا ما عندنا من بضاعة قليلة ثمناً لما نطلبه من الطعام وهي تُرد

---

(١) سولت : زينت وسهلت .

(٢) وابيضت عيناه من الحزن : ينشأ عن الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين وتحدث الجلوكوما ، او ما يسمى عرفاً « بالمياه الزرقاء » فيزول صفاء القرنية وبريقها ، ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء ، فانظر كيف وصف القرآن حالة يعقوب بما يؤيده العلم ، وما ذلك إلاّ لأنه وحي إلهي لا من صنع بشر .

(٣) حرضاً : مشرفاً على الهلاك .

(٤) البث : اصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فينشره بين الناس .

(٥) (انما اشكو بثي وحزني الى الله) : انظر انسجام كلمات هذه الآية من سهولة نظمها وعذوبة ألفاظها مما يجعل وقعها على النفوس كبيراً وتأثيرها في القلوب بما لا مزيد بعده

(٦) روح الله : فرج الله .

لقلتها ورداءتها وما زلنا نطمع في كرمك بأن توفي لنا الكيل ، وتجعل الزائد عن حقنا صدقة علينا ، ان الله تعالى يثيب المتصدقين بأحسن الثواب .

رأى يوسف ان اخوته قد اشتكوا اليه بشكوى تنم عن رقة الحال وشظف العيش ، وانه قد استحالت نفوسهم الصلبة الى نفوس اخرى غيرها لا صلة لها بها ، نفوس وديعة رقيقة ، فتأثر من بؤسهم واعتزم على اظهار نفسه لهم حتى يضمهم واهليهم الى معيته ليعيشوا عيشة الرغد والسعة ، فبعث في طلب اخيه بنيامين ، ثم توجه نحوهم قائلاً : هل علمتم عظم ما ارتكبتم في حق يوسف واخيه وقبح عملكم الذي ينم عن جهالة وسفه ؟ هل تذكرون انكم شردتم يوسف عن ابيه وألقيتموه في دامس الجب ؟ واما بنيامين فقد احزنتم قلبه على فقد شقيقه وسلبتم منه لذة الحياة حتى صار شريكه في هذا المصاب .

سمع الأخوة كلام اخيهم يوسف فأنعموا فكرهم في مغزى خطابه ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته فانتقلوا من دور الانكار له وعدم معرفتهم به الى دور (الشك) اي شكهم في ان الذي يكلمهم هو يوسف أم لا، فقالوا له وهم مضطربو الحواس : هل أنت يوسف ؟ فأجابهم يوسف مصدقاً : انا يوسف وهذا أخي، واشار الى بنيامين ، قد انعم الله علينا بالسلامة من المهالك، ومنّ عليّ بالكرامة والسلطان والغنى ، وكان ذلك جزاء من الله على تقواي وصبري والله لا يضيع اجر من احسن عملا .

ما كاد يوسف يتم كلامه حتى تحققوا انه بنفسه اخوهم المفقود ، فأسقط في ايديهم وقد علت وجوههم صفرة الوجل فنكسوا رؤوسهم خجلاً منه ، ثم ارادوا ان ينتحلوا عذراً يبرئون به ساحتهم ويتخلصون به من عقاب اخيهم فلم يجدوا ما يعتذرون به إلاّ الاعتراف الصحيح ، فقالوا له : تالله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين وبالمنصب الرفيع بينما نحن آثمون لم نتق ولم نصبر، خاطئون في اقوالنا واعمالنا نحوك، فمعذرة الى الله واليك فارفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدة ، فرد عليهم يوسف قائلاً : لا لوم عليكم اليوم ولا تأنيب على أفعالكم ، وأطلب لكم من الله الغفران والرحمة وهو ارحم الراحمين .

وبعد ان استفسر يوسف عن والده وعلم أنه فقد بصره لشدة حزنه عليه اعطاهم قميصه وامرهم بأن يطرحوه على وجهه فيرتد اليه بصره ودعاهم أن

يأتوا بعد ذلك الى مصر مع أهلهم اجمعين . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة[1] فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين . قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون؟ قالوا: أئنك لأنت يوسف قال : أنا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. قال لا تثريب[2] عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا بقميصي[3] هذا فألقوه على وجه ابي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم اجمعين ﴾ .

يعقوب يتلقّى خبر سلامة يوسف

صدع إخوة يوسف بأمر اخيهم وانصاعوا لاشارته وركبوا دوابهم وساروا سيراً حثيثاً ميممين وجوههم شطر ابيهم في فلسطين، وهم يحملون قميص يوسف وبشرى اسناد «وزارة المال» اليه، وحين تجاوزت قافلتهم ارض مصر شعر يعقوب شعوراً خفياً بقرب اجتماعه بيوسف فأخبر اهله واحفاده بذلك قائلاً : إني اشعر برائحة يوسف المحبوبة تغمرني ولولا خشية ان تتهموني في قولي لأنبأتكم عن يوسف بأكثر من ذلك ألا وهو أنه حي وقد قرب موعد لقائه .

ما كاد يعقوب يتفوه بقوله هذا امام احفاده حتّى بادروا مؤنبين له حالفين بالله بأنه لا يزال بعيداً عن صوابه هائماً في خياله بسبب افراطه في حبه يوسف ولهجه بذكراه على الدوام . وكأن يعقوب وقد صعب عليه انتقادهم فتغاضى عن لهجتهم الجافة واستقبل جفاءهم بالغض والاحتمال فلم يعلق اهمية على كلمتهم بل سكت وفي سكوته ما يغني عن الجواب .

---

(١) مزجاة : رديئة .

(٢) لا تثريب : لا تأنيب ولا عتب .

(٣) هناك تفسير آخر تؤيده اللغة لقميصي : فقد فسر القميص على المنصب الجليل الذي ناله يوسف من (وزارة المال) والوكالة عن مليك مصر . يقولون : من (قمصك هذا القميص) أي من جعلك في هذه الدرجة والرتبة العالية . والمراد (فألقوه على وجه أبي) : أي أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي واحيطوه علماً بما انا فيه. ومعنى بصير – كما جاء في كتب اللغة – ما كان برؤية القلب او بمعنى العلم، أي انه يصبح بصيراً بحال ولده يوسف .

استمر يعقوب على هذا الشعور الطيب الممزوج بالأمل والترقب للقاء ابنه الى ان أتاه من يحمل القميص ويبشره بسلامة يوسف، فحين طُرِحَ القميص على وجهه غمرته الفرحة ودبت في روحه حياة جديدة، فعاد اليه بصره باذن الله، ثم اخبره البشير عن احوال يوسف وانه يطلب منه الارتحال مع اهله وأحفاده الى مصر، عندئذ اتجه يعقوب الى من حوله يذكرهم بصدق نبوءته وحقيقة شعوره من انه يدرك من رحمة الله وفضله ما لا يدركون، فأقبلوا عليه معتذرين عما كان منهم، راجين منه أن يسأل الله ان يغفر لهم ذنوبهم التي ارتكبوها فوعدهم يعقوب بأنه سيطلب العفو لهم من الله عن سيئاتهم لأنه وحده صاحب المغفرة والرحمة الدائمة. قال الله تعالى:

﴿ ولما فَصَلَتِ العيرُ[١] قال أبوهم: إني لأجِدُ ريح[٢] يوسف لولا أن تُفنّدون[٣]. قالوا: تالله إنك لفي ضلالك القديم. فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً، قال: ألم أقُل لكم إني أعلمُ من الله ما لا تعلمون. قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كُنّا خاطئين. قال سَوْفَ استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم ﴾.

اللقاء المثير وتحقق رؤيا يوسف

أمر يعقوب اولاده بتحضير وسائل السفر تسرّعاً وشوقاً للقيا ولده يوسف فلذلك تهيأوا واستعدوا للرحلة هم وأهلوهم البالغ عددهم سبعين شخصاً، ولما علم يوسف بمقدمهم سار ووجوه القوم لاستقبالهم عند حدود مصر.

وصلت اسرة يعقوب الى مصر فرأوا يوسف في استقبالهم، ولا نستطيع ان نصف مبلغ فرح وغبطة يعقوب بلقاء ابنه فذلك فوق مقدور الكاتب ان يسطره ويوفيه حقه وخصوصاً بعد هذا الفراق الطويل وما حصل عليه يوسف من سلطة وجاه وغنى.

ضم يوسف اليه والديه وانزلهما منزلة كريمة وطلب منهما ومن اهله ان يقيموا في مصر آمنين سالمين بإذن الله.

---

(١) فصلت العير: أي خرجت من مصر، يقال: فصل القوم عن المكان وانفصلوا عنه بمعنى فارقوه.

(٢) ريح: تأتي بمعنى القوة والمنصب والدولة والغلبة.

(٣) تفندون: تسفهون، وتكذبون، والتفنيد النسبة الى الخرف.

ثم سار الركب داخل مصر حتى بلغ دار الحكومة فدخلوها واجلس يوسف والديه بقربه على سرير الحكم زيادة في تكريمهما ، وغمر يعقوب واولاده شعور بجليل ما هيأ الله لهم على يدي يوسف من التكريم فحيوه تحية مألوفة عندهم من الانحناء له على عادة اهل زمانهم بما يحيون به الرؤساء الحاكمين . فأثار ذلك في نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير وقال لأبيه : هذا تفسير ما قصصت عليك من رؤيا حين رأيت في المنام احد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين لي قد حققه ربي ، كما اكرمني واحسن إليّ فأظهر براءتي وخلصني من السجن وأتى بكم من البادية لنلتقي في مصر من بعد ان افسد الشيطان بيني وبين اخوتي وما كان يتم هذا كله بغير ارادة الله فهو رفيق بعباده ، وهو المحيط علماً بكل شيء ، الحكيم في كل ما يصرفه من شؤون خلقه .

وبعد ان انتهى يوسف من حديثه في بيان ما أنعم الله عليه ، اتجه الى ربه شاكراً فقال : يا رب كم أنا مدين لك ، ومعترف لك بالجميل لقد منحتني من السلطة والحكم ما أحمدك عليه ، يا خالق السموات والأرض على غير مثال سبق انت مالك امري وولي نعمتي في الدنيا والآخرة توفني اليك على ما ارتضيت لانبيائك وعبادك الصالحين من الخضوع لك وحدك ، وادخلني في زمرة من هديتهم الى الصلاح من عبادك المخلصين . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ فلما دخلوا علىٰ يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع ابويه[1] على العرش وخرّوا له سُجّدا ، وقال : يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قَبْلُ قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحْسَنَ بي إذ اخرجني مِن السجن وجاء بكم من البدْو[2] مِنْ بَعْدِ أنْ نَزَغَ[3] الشيطان بيني وبين اخوتي إن ربي لطيف لما يشاءُ انه هو العليم الحكيم[4] . رب قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطِرَ السموات والأرض انت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مُسْلماً وألحقني بالصالحين ﴾ .

---

(١) ابويه: اي امه وأبيه . ولكن من هي ام يوسف التي حضرت لمصر ، قيل: هي أمه راحيل، ولكن ورد في سفر التكوين أن راحيل توفيت وعمريوسف عشر سنين ، فقيل: ان المراد من أمه التي حضرت لمصر (بلهه) جارية امه ومربيته حال حياة امه وبعد وفاتها ، والمربية في – عرف العرب – تدعى أماً لقيامها مقام الأم .

(٢) البدو : البادية .

(٣) نزغ : افسد وأغوى .

(٤) بهذه الآية اختصر القرآن القصة التي سبقت وأشار الى أهم الاحداث التي وقعت .

الفصل الثامن

دروس وعبر من قصة يوسف

درس في الإيمان من يعقوب – البرهان على وحدانية الله – اختلاط الجنسين ومضاره – درس في العفة – عاقبة الصبر – فائدة الإحسان – السمعة الطيبة – العفو عند المقدرة – العدل بين الأبناء .

درسٌ في الإيمان من يعقوب :

الايمان بالله له اكبر الأثر في النفس الانسانية ، فهو يمدها بالعزاء عند حلول المصائب ، وهو يهبها الطمأنينة لتصمد بها امام ما يصادفها من كوارث واهوال .

وهذا ما يتمثل لنا في تصرفات يعقوب في سلسلة متلاحقة من تاريخ حياته وفي توجيهه لأولاده .

فها هو يعقوب يتلقى نبأ فقدان يوسف – أحب اولاده اليه – وان الذئب قد افترسه .

تصوّر وقع هذه المصيبة عليه وما تحدثه فيه من انفعالات وجروح في نفسه . ولكن ماذا كان رد الفعل في نفس يعقوب ؟

لقد رأينا يعقوب يظهر بمظهر المستعين بالله على هذه المصيبة . صابراً على هذا البلاء ، ولكن بأي صورة من الصبر ؟ انه الصبر الجميل الذي لا يخالطه جزع ولا شكوى ، فنراه ينطق بهذا القول الرائع ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

وها هو يعقوب نراه مؤمناً ايماناً عميقاً بلطف العناية الالهية ، مستسلماً لها بثقة ويقين وخاصة عندما طلب اولاده منه ان يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في رحلتهم الى مصر ، وهو المصاب من غدرهم ، والمرتاب من تصرفاتهم ، والحزين على فراق يوسف . ماذا كان جواب يعقوب أمام هذا الطلب ؟

لقد كان جوابه بهذه الكلمات التي يشع منها الايمان القوي بلطف الله والثقة بعدله ورحمته بعد موافقته على ارسال بنيامين معهم ﴿ فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين ﴾ .

وها هو يعقوب نراه بصورة المتوكل على الله وما يستتبع ذلك من راحة وطمأنينة نفسية لأمر الله ، وهذا ما نراه عندما يوصي أولاده بدخول مصر في الرحلة الثانية بأن لا يدخلوها من باب واحد بل من ابواب متفرقة لئلاّ يلفتوا الأنظار ويكونوا موضع ريبة من الحرس فيكون في ذلك ما يسوءهم ولا سيما لأنهم من أهل فلسطين الذين كان بينهم وبين اهل مصر عداء .

علل يعقوب هذا التدبير والاحتراس بأنه لا يدفع عنهم ما قدّر الله عليهم ﴿ وما أُغني عنكم مِنَ الله من شيء ﴾ إذ لو أراد الله بهم سوءاً لم ينفعهم هذا التدبير . ثم تابع يعقوب نصيحته لأولاده بهذه الجملة التي تفيض بالإيمان والاستسلام لإرادة الله ﴿ إن الحُكْمُ إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ .

فيعقوب يعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب ان يصاحبه الأخذ بالأسباب ، والحيطة والحذر من الأضرار ، فللطبيعة في سيرها نظام تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب ، والمؤمن هو الذي يأخذ بأسباب النجاة مع الثقة والاطمئنان لِمـَا قدّر الله .

فالاحتراس والحيطة والحذر تُعطي النفس الانسانية قوة وعزاء عند وقوع المصاب .

فنصيحة يعقوب لأولاده أدخلت الطمأنينة الى نفسه وجعلته في وضع لا يتحسر كثيراً ، ولا يأسف أسفاً يائساً إذا أصابت أولاده صدمة من صدمات القدر ولا سيما لم يصدر قصور منه ولا تقصير ، فهو حين عمل بالواجب سيهون عليه وقع المصاب إذا وقع .

وها هو يعقوب ايضاً يتلقى صدمة قاسية وهي استرقاق ولده بنيامين فهذه المصيبة ذكّرته بيوسف ففاضت أحزانه ، فعندما لامه أهله على استرساله في الحزن نراه يقول لهم : ﴿ انما اشكو بثي وحزني الى الله ﴾ هذه الجملة تتركز فيها أعمق معاني الإيمان والصمود امام المصائب التي تُذْهبُ عادة بصواب

الانسان او تؤدي به الى الانهيار . فيعقوب يقول لهم :﴿ انما اشكو بثي ﴾ – أي همي العظيم – الى الله وهو الرحيم القادرعلى كشف غمّي ، ولا اشكو الى العباد الذين لا حول لهم ولا قوة امام تصاريف الدهر .

واخيراً نرى يعقوب بصورة المؤمن المتفائل المفعم بالأمل عندما يُوصي اولاده بالبحث عن يوسف وبنيامين فيقول لهم : ﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون ﴾ يحدد يعقوب بهذه الآية نفسية المؤمن بأنه لا ييأس من رحمة الله، فاليأس كفر بنعمة الحياة وخالقها ، لأنه يشل حياة الانسان وارادته ، ويجعله عاجزاً عن السير في ركابها ، بينما الإيمان عدو اليأس اللدود ، إذ هو الأمل والرجاء برحمة الله مهما ادلهمت الخطوب ، واكفهر الزمان ، فإن مع العسر يسرا ، وإن وراء الضيق فرجاً .

البرهان على وحدانية الله

وحدانية الله هي الهدف الأول والأسمى الذي جاء لأجله الاسلام ، فمن يدرس القرآن دراسة شاملة يلفت نظره تنوع الدلائل عن وحدانية الله ، ونقدها لمختلف المعتقدات البشرية التي خالطها الاشراك ، والتي للخيال والأوهام نصيب كبير فيها .

ولا يكتفي القرآن بنقد هذه المعتقدات ، بل يعطي الحجة والبرهان على دعواه بدلائل عقلية منطقية لا يجد العقل مناصاً دون التسليم بها .

والقرآن الكريم حينما يحدثنا عن سيرة الانبياء والرسل الذين ارسلهم الله لهداية الخلق ، يقص علينا على لسانهم ماوعظوا به قومهم من الدعوة الى وحدانية الله ، وترك الإشراك به وعرض الدلائل النيّرة التي تشهد بوجوده . وهكذا كانت القصص في القرآن وسيلة لغرس فكرة التوحيد في النفوس ونزع ما ينافيها من معتقدات أخرى .

وها نحن نقدّم انموذجاً لما جاء على لسان يوسف عندما وعظ السجينين :

﴿ واتبعت ملّة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من

دونه إلاّ اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيّم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

إن يوسف يقول : إنه لم يبتدع ديناً وانما سار على ملّة آبائه واجداده الذين هداهم الله الى العقيدة الصحيحة ألا وهي وحدانية الله . وهذه العقيدة لا تختلف من عصر الى عصر ، إذ لا يعقل ان يوحي الله الى انبيائه عقيدة تتناقض من رسول الى رسول . فوحدانية الله دعوة اشترك في التأكيد عليها جميع الأنبياء وكل عقيدة تناقضها دخيلة على الأديان .

ثم نرى يوسف يقول : هل الشرك بما فيه من متناقضات وأرباب متعددة خير ، أم التوحيد وعبادة الواحد الأحد ؟

فتعدّد الآلهة تشوش عقل الانسان وترميه في متاهات الخرافات والشعائر الوهمية ، كما تفرق شمل الجماعة الانسانية من جراء تأليه كل طائفة آلهة تختلف عن آلهة الطائفة الأخرى ، بينما وحدانية الله تحرّر الانسان من ربقة الخرافات وتوحّد بين ميول الجماعات ، وتسمو بها الى غاية واحدة ، وهي الاخلاص لله وحده وما يستدعي ذلك من العمل الصالح .

ثم يتابع يوسف قوله : إن الاصنام وما الهتموه من مظاهر الطبيعة ومـا خصصتموها به من افعال وسلطة هي جميعها من بنات افكاركم وتسمياتكم ، فكيف تؤلهون أشياء انتم ابتدعتموها لا تقوم على حجة ، ولا تستند الى برهان ، فالإله المعبود بحق هو الله وحده ، وافراده وحده بالعبادة هو السبيل القويم الذي يجب ان يسلكه كافة البشر ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة بسبب جهلهم واضلالهم من قِبَلِ القيّمين على افكارهم .

اختلاط الجنسين ومضاره

وفي قصة يوسف صورة لغواية المرأة للرجل ودأبها المتواصل المستمر للحصول على مبتغاها .

فالمرأة ذلك المخلوق الضعيف ولكنها بفتنتها واغرائها للرجل تصبح ذلك القوي الذي لا يقهر .

ولكن ما هي الأسباب التي أدت الى غواية امرأة العزيز ليوسف ؟ لقد كان اختلاطها معه ووجوده المستمر في القصر بجانبها من الدواعي التي أدت الى اضرام

شعلة الحب في قلبها ، ولهذا نراها تصبو اليه وتتعرض له بالاغراء ، وتطلب منه ما هو محظور عليه وعليها فيأبى ذلك عزة وشرفاً وخيفة من الله .

فانفراد الرجل بالمرأة بعيداً عن رقابة الأهل والمجتمع يؤدي الى اضرار لا تحمد عقباها ، ويؤثر التأثير السيء على مستقبل الرجل والمرأة ، ولهذا حذر الاسلام من انفرادهما بدون وجود قريب للمرأة كالأب والعم والخال .

درسٌ في العفّة

وإن في قصة يوسف وصموده أمام الإغراء درساً في العفة وفي مغالبة الشهوة والانتصار عليها مما يعتبر اعظم مثل يمكن ان يقتدي به الكثيرون الذين يبتغون السمو الإنساني .

فشهوة الجنس هي تلك القوة العارمة التي خضع وركع أمامها عظماء التاريخ من ملوك وقواد الجيوش ، ولكن الانتصار عليها هو مفتاح العظمة الحقيقية ولا سيما إذا لابستها تلك الظروف والاغراءات والتهديدات التي حصلت ليوسف عليه السلام .

فها هي امرأة وزير الملك تختلي بيوسف وهي على قسط وافر من الجمال تعرض عليه مفاتنها واغراءها ، وتطلب منه الاستجابة لرغبتها . إن الوضع الذي كان عليه يوسف يستدعي مطاوعتها وتلبية رغباتها بلهفة واندفاع ، وذلك لأن يوسف في ريعان الشباب وفي وقت تتفتح فيه النفس على الحب وتضطرم فيه الشهوة ، وفوق هذا فهو في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى – ان لم يطاوعها – اذاها فاجتمع لديه داعيا الرغبة والرهبة ، وهو ايضاً لا يخشى ان تنمّ عليه فإنها هي الطالبة الراغبة وقد غلقت الأبواب وابعدت الرقباء . وزيادة على ذلك فإنه كان مملوكاً لها يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه أحد ذلك ، وهذا مما يزيد الأنس والود وهو من اقوى الدواعي لمطاوعتها في رغبتها ، ولكن أمام هذه الأمور جميعها اعرض عنها بدافع من واجب الشرف والاخلاص والوفاء لزوجها من ان يخونه لذا قال لها : ﴿ معاذ الله إنه ربي احسن مثواي ﴾ .

وحافز الوفاء كان مقروناً بالرقابة الإلهية ، هذه الرقابة جعلت نفسية يوسف ترفع عن هذا الاثم مع امرأة سيده .

وموقف آخر يرفع من منزلة يوسف وهو عندما تآمرت سيدته عليه مع صاحباتها لاستمالته، ثم تهديده بالسجن في حال رفضه، فماذا كان موقف يوسف امام هذا التهديد والوعيد؟ لقد اعرض عنهن بترفع وأنفة، وفضّل حياة السجن المحفوفة بالذلة والهــوان والعذاب على العيش في كنف الترف والانغماس في الشهوات قائلاً مناجياً ربه: ﴿رب، السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه﴾.

عاقبة الصبر

وان في قصة يوسف درساً لنا في التحلي بالصبر، وكيف يجب أن يكون زاد الانسان في رحلة العمر لما فيه من العاقبة الحسنة.

فالإنسان يخلق وتخلق معه متاعبه من مصائب وآلام وفقر ومرض، وفقد حبيب الى خيبة امل وخسران، كل هذه الأمور ونحوها تحتاج الى الصبر للتغلب عليها، وبالتالي للوصول الى النجاح والسعادة المرجوّة.

وان حياة يوسف سلسلة مِنَ المتاعب التي انتهت بالفوز والمكانة المرموقة والحياة الطيبة.

تبتدىء حياة يوسف بانسلاخه عن اهله والقائه في البئر ثم انقاذه والعيش بعيداً عن اهله مع ما في ذلك من ألم مكبوت على فراق أهله وكيد اخوته، ثم تأتي مرحلة قاسية عليه وهي زجه في السجن ظلماً وعدواناً جزاء امانته.

هذه الأمور يمكن ان تلقي في النفوس اليأس والكفر بقيم الحق والعدالة وتحثه على الارتماء في احضان الشر والرذيلة ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بل ظل يوسف صامداً على مبادئه، صابراً على بلوائه، مترقباً رحمة ربه منتظراً انفراج الأزمة التي وقع فيها ظلماً وعدواناً، مؤمناً بالله وعدله، داعياً الى عبادته وحده وهو في ظلمات السجن، فلم تزحزحه هذه المصائب عن إيمانه وثقته بالله، فكان جزاؤه ان مَنّ الله عليه بموهبة تفسير الرؤى التي بواسطتها نجا من السجن وتربع في أرفع المناصب الدنيوية ونال الجاه والسلطان وطيّبات الحياة، وقد بين يوسف عاقبة الصبر الذي تحلّى به بقوله: ﴿إنه من يتقِ ويصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين﴾.

فائدة الإحسان :

وفي قصة يوسف ترغيب بفضيلة الاحسان وبيان آثارها في نيل سعادة الدنيا والآخرة . ولكن ما هو الإحسان ؟ وما معناه ؟

فالإحسان : من أحسن ضد أساء ، ويأتي بمعنى إتقان العمل .

أول ما يطالعنا من فائدة الإحسان في القصة قوله تعالى في يوسف : ﴿ ولما بلغ أشُدّه واستوى آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

فيوسف لم يؤت العلم والحكمة محاباة بل لسابق إحسانه . ونعمة العلم والحكمة افضل نِعَم الحياة على ذوي النفوس الكبيرة ، ولا تقاس بهما نعمة المـال .

وماذا اعطى الله يوسف ؟ لقد أعطاه الله السلطة والنفوذ والجاه جزاء إحسانه . اقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد مَكنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ .

فهذه الآية وعد إلهي بأن من كان محسناً مكنه الله في الأرض واصابه برحمته فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ولكنه مرتبط بالوصف .

وتأمل قوله تعالى في الآية : ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ . فما أحلى وقعها على النفس فهي بلسَمٌ لأصحاب النفوس السامية المحسنة وحافز لهم للاستمرار في كفاحهم في سبيل الإحسان .

فالأفعال الحسنة التي يقدمها الإنسان لمجتمعه تكسبه علو المقام وحسن الذكر وعرفان الجميل ممن يصيبهم إحسانه .

وكل من احسن عمله أي اتقنه نال الجزاء الأوفر من إقبال الناس على صناعته وثقتهم به وتقديرهم له ، وهل جزاء الإحسان إلاّ الاحسان ؟

هذه هي فائدة الإحسان في الدنيا ، أمَّا ثواب الإحسان في الآخرة ، فيبينه قوله تعالى في تتمة الآية السابقة : ﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ فثواب الآخرة أجل وأعظم من ثواب الدنيا .

السُمعة الطيّبَـة

وفي قصة يوسف درس في المحافظة على السُمعة الطيّبة والدفاع عن الشرف

من أن يمس بسوء .

فيوسف ذلك المضطهد المظلوم الملقى في ظلمات السجن مدة طويلة بدون ذنب اقترفه لما جاءه أمر الإفراج عنه ودعوته لمقابلة الملك لم يتلهف للخروج ولم يغتبط لهذه البشرى بل رفض الخروج من السجن حتى يبرئ ساحته من تهمة الاجرام، فقال لمندوب الملك: اني لن اخرج إلا بعد التحقيق في قضيتي وما نسب الي زوراً وبهتاناً .

وهذا ما ذكره القرآن ﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن ﴾ .

فلما أجرى الملك التحقيق مع النسوة وامرأة العزيز وظهرت له براءته ونقاوة صفحته رضي يوسف الخروج من السجن مرفوع الرأس موفور الكرامة حتى لا يقال عنه انه سجن لجرم اقترفه وان خروجه من السجن كان منة وعفواً من الملك .

هذا وقد كشف التحقيق عن السمو الخلقي الذي تحلى به يوسف حتى أثار اعجاب الملك ، ففي طلب الملك ليوسف في المرة الأولى عندما بلغه علمه في تأويل الرؤيا وتدبير الأمور الصعبة قال: ﴿ ائتوني به ﴾ اما عندما تحقق من براءته ونزاهته قال الملك : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ .

فالملك رغب في اسناد الوزارة الى يوسف بعد ان لمس منه علماً ونزاهة وعفـــة .

العفو عند المقدرة

وفي القصة درس في التسامح والعفو عن المسيء ومقابلته بالإحسان فيوسف كان باستطاعته عندما تعرّف على اخوته ان ينتحل اي تهمة ضدهم ليزج بهم في السجن ويذيقهم ألواناً من العذاب جزاء كيدهم له ، ولكن سمو نفسه وكرم عنصره وترفّعه عن الانتقام جعله يأبى ان ينزلق الى هذا المنزلق الذي ينغمس فيه عادة الأشخاص العاديون .

لقد كانت السلطة والحكم بيد يوسف ، وكانت حياة الذين اساءوا اليه رهن كلمة منه ولكنه قابل الاساءة بالإحسان فزاد كيلهم ورد ثمن البضاعة لهم ، فعل

ذلك وهو متنكر ، لا يعرفون انه اخوهم . وعندما كشف يوسف عن هويته وادرك اخوته انه وزير الملك شعروا عندئذ وهم في هذا الموقف الرهيب بفداحة الجرم الذي اقترفوه في حقه فاعترفوا بخطئهم نحوه قائلين : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ فأجابهم يوسف بهذا الجواب المفعم بالعطف الأخوي والمسامحة عما أجرموا نحوه قائلاً : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ .

العَدل بَينَ الأبناء

وفي قصة يوسف درس في كيفية معاملة الأبناء بالعدل والمساواة . فالطفل في طبيعته غيور ، حسود ، محتاج الى عطف وحنو والديه فأي اهمال له ، وانحراف في مراعاة شعوره يولّد فيه حقداً دفيناً نحو إخوته .

والغيرة سريعة الحدوث بين الإخوة ، فقد يؤدي إيثار الوالدين لأحد الأبناء على الآخرين إلى إذكاء العداوة بينهم ، التي تتأجج على طول الزمن ، مما تؤدي الى قطع الروابط بين الأسر .

فهذا يوسف قريب من قلب والده يعقوب لأنه توسّم فيه امارات النبوة ، لذا آثره على إخوته ، فأثار ذلك حفيظتهم وبغضاءهم وظهرت امارات ذلك عليهم مما دفع يعقوب إلى تحذير يوسف عندما قص عليه رؤياه وما تحمل من إرهاصات في رفعته وعلوّ شأنه بأن قال له : ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتِك فيكيدوا لك كيداً ﴾ .

الباب السابع

شعيب عليه السلام
أيوب عليه السلام
ذو الكفل عليه السلام

الفَصْلُ الأوّل

قِصَّةُ شُعَيْبٍ

ضلال أهل مدين – استهزاء القوم – تهديد شعيب – هلاك أهل مدين – أصحاب الأيكة .

شعيب هو احد اربعة انبياء عرب هم : هود ، وصالح ، وشعيب ، ومحمد ﷺ وقد روي عن شعيب انه كان يسمى خطيب الأنبياء لفصاحته وبلاغته وحسن تأتيه في دعوة قومه إلى الإيمان برسالته .

وقومه هم أهالي مدين وهي قرية تقع في ارض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريباً من بحيرة لوط ، وهم عرب ينتسبون الى مدين بن ابراهيم الخليل .

وقد كانوا يحترفون التجارة لأن مدينتهم كانت محطة للقوافل التجارية .

ضلال أهل مدين

وكان أهل مدين لا يؤمنون بالله، ويعبدون سواه ، وكانوا من اسوأ الناس معاملة ، ينقصون الكيل والميزان إذا باعوا ، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسوله شعيب عليه السلام فدعاهم الى عبادة الله وحده، وأيده الله بالمعجزات، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة ، وأمرهم بالعدل وحذرهم عاقبة الظلم مؤكداً لهم ان ما يبقى من المال الحلال الذي رزقهم به الله خير لهم من المال الذي يجمعونه من حرام إن كانوا مصدقين مقالته ، وليس باستطاعته هو ان يحفظهم من القبائح فما هو إلاّ ناصح امين .

﴿ والى مَدْيَنَ اخاهم شُعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره ولا تنقصوا المِكيال والميزان إني أراكم بخير وإني اخاف عليكم عذاب يوم مُحيط . ويا قوم أوْفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تَبخسوا الناس اشياءهم

ولا تَعثَوا في الأرض مفسدين . بقيّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ هود : ٨٤ – ٨٦ .

وقال سبحانه :

﴿ والى مَديَنَ اخاهم شُعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٓه غيره قد جاءتكم بيّنة[١] من ربكم فأوْفُوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إنْ كُنتم مؤمنين ﴾ الاعراف : ٨٥ .

ومن ضلالهم انهم كانوا يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون الى شعيب ليصدّوهم عن سبيل الله ، وكانوا يعيبون رسالته ، ويهددون المؤمنين ، فكان شعيب يستنكر منهم ذلك ، ويذكرهم بنعم الله عليهم ، فقد جعلهم كثيرين بعد قلة وأغناهم بعد فقر ، لافتاً أنظارهم الى الاعتبار بما عاقب الله به المفسدين قبلهم .

ثم عرض عليهم رأيه قائلاً : انكم انقسمتم الى مؤمنين بالله ، مصدّقين بدعوتي ، والى كافرين بالله ، مكذبين بدعوتي وإني احتكم الى الله سبحانه ليقضي بيننا فيما اختلفنا فيه وهو خير الحاكمين . قال تعالى :

﴿ ولا تَقعُدوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُون وتَصدُّون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عِوَجاً واذكروا إذْ كنتم قليلاً فكثّركم وانظروا كيف كان عاقِبَةُ المفسدين . وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بِالذي أُرسِلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكُمَ اللهُ بيننا وهو خَيْرُ الحاكمين ﴾ الاعراف : ٨٦ ، ٨٧ .

استهزاء القوم

استهزأ القوم بكلام شعيب وتهكموا به قائلين : هلاّ صلاتك هي التي أثرت في نفسك فجعلتك مرشداً لنا تدعونا الى ترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام وتحثنا على الامتناع عن التصرف في أموالنا كما نُريد ، كيف يصدر منك ذلك وأنت الموصوف عندنا بالحلم والرشد ؟!

---

(١) بينة : المراد بالبينة هنا المعجزة ، فقد حصلت لشعيب معجزة دالة على صدقه ولكن القرآن لم يبين لنا ماهيتها .

أجابهم شعيب قائلاً : يا قومي اخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي ورزقني رزقاً حسناً تفضلاً منه فهل يسعني مع هذا الإنعام أن أخونه واخالفه في أمره ونهيه ؟ إني ما أريد بموعظتي ونصيحتي إلاّ الإصلاح ما استطعت وما وُفّقت لإصابة الحق إلاّ بمعونة الله وتأييده ، فعليه وحده اعتمد واليه وحده ارجع .

وتابع قوله : يا قوم لا يحملنكم الخلاف الذي بيني وبينكم على العناد والإصرار على الكفر فيصيبكم ما أصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح ، وما عهد قوم لوط ومكانهم وهلاكهم ببعيد عنكم فاعتبروا بهم حتى لا يصيبكم ما أصابهم واطلبوا من الله ان يغفر لكم ذنوبكم ، ثم ارجعوا اليه نادمين مستغفرين لما صدر منكم من ذنب إن ربي واسع الرحمة والمغفرة لعبادة التائبين .

﴿ قالوا يا شُعيب أصلاتك تأمُرُكَ أن نَتْرُكَ ما يعبد آباؤنا أو أن نَفْعَلَ في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد. قال: يا قوم أرأيتم إن كُنْتُ على بيّنة من ربي ورزقني منه رِزْقاً حَسَناً وما أريدُ ان أُخالفكم الى ما أنهاكم عنه إن أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت واليه أُنيب . ويا قوم لا يَجْرِمَنّكم[١] شِقاقي[٢] أن يصيبكم مِثْلُ ما أصَاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قومُ لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيم ودود ﴾ هود : ٨٧ ــ ٩٠ .

تهديد شعيب

كان هذا شأن شعيب في دعوته قومه ، أما اكابر القوم فقد هدّدوه قائلين : إنّا سنخرجك ومن آمن معك من قريتنا ونطردكم منها لا محالة ، ولن نتوقف عن عزمنا هذا إلاّ إذا عُدتم الى ديننا الذي هجرتموه .

رد عليهم شعيب قائلاً : أنعود في ملتكم ونحن كارهون لها لفسادها ؟ إن ذلك لن يكون ابداً ؛ إننا إذا عدنا إلى ملتكم نكون قد اختلقنا على الله كذباً وافترينا عليه ما لم يأمر به، بعد أن هدانا الى الصراط المستقيم، ولا ينبغي لنا ان نعود الى ملتكم بمحض اختيارنا ورغبتنا إلاّ ان يشاء الله عودتنا الى ملتكم

---

(١) لا يجرمنكم : لا يكسبنكم .

(٢) شقاقي : معاداتي .

وهيهات ذلك لأن ربنا العليم بنا لا يرضى رجوعنا الى باطلكم فهو سبحانه وسع كل شيء علماً ، ونحن ندعوه سبحانه ان يقضي بيننا وبينكم قضاء عادلاً وهو أعدل الحاكمين .

﴿ قال الملأُ الذين استكبروا من قومه : لنُخرِجنَّك يا شُعَيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعُودُنّ في مِلّتنا قال: أولو كُنّا كارهين. قد افترينا على الله كذباً إنْ عُدْنا في ملّتكم بعد إذ نجّانا الله منها ، وما يكون لنا ان نَعُودَ فيها إلاّ ان يشاء اللهُ ربُّنَا ، وَسِعَ ربنا كل شيء عِلْماً ، على الله توكّلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خَيْرُ الفاتحين ﴾ الاعراف : ٨٨ ، ٨٩ .

وعاد قومه يهددونه بالرجم وانهم لم يمنعهم من ذلك حتى الآن إلاّ مجاملة عشيرته ، وهو ليس ذا عزة ومنعة تحول بينهم وبين ان يقتلوه وإنما هي المجاملة وحدها ، فيرد عليهم شعيب : أعشيرتي احق بالمجاملة من الله الذي نبذتم وصاياه وراء ظهوركم ؟ إن ربي يعلم كل شيء ويجازي كل إنسان بعمله .

﴿ قالوا يا شُعَيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مِمّا تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهْطُكَ لرجمناك وما أنت علينا بعزيز. قال: يا قوم أرهْطي أعَزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيّاً إن ربي بما تعملون محيط ﴾ هود : ٩١ ، ٩٢ .

هلاك أهل مدين

جاء الأمر الإلهي بهلاك أهل مدين جزاء عصيانهم فنجى الله شعيباً والذين آمنوا معه رحمة منه ، وأهلك الذين كفروا فأخذتهم صاعقة شديدة صاحبتها زلزلة قوية جعلتهم منكبين على وجوههم صرعى ، وانتهى أمرهم وزالت آثارهم حتى كأنهم لم يقيموا في ديارهم .

ألا هلاكاً لمدين وبعداً لها عن رحمة الله كما بعدت ثمود من قبلها .

﴿ ولما جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحْمة مِنّا وأخذت الذين ظَلَموا الصَّيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يَغْنَوْا فيها ألاَ بُعداً لِمَدْيَنَ كما بَعِدَت ثمود ﴾ هود : ٩٤ ، ٩٥ .

رأى شعيب ما نزل بقومه من الهلاك فأعرض عنهم وقال مبرئا نفسه من

التقصير معهم : لقد أبلغتكم رسالات ربكم فلو عملتم بها لأدّت الى سعادتكم ، وبالغت في اسداء النصح لكم ، ولكنكم بقيتم على ضلالكم فكيف أحزن عليكم واغتم من اجلكم بعد اصراركم على الكفر والعصيان ؟ !

﴿ فتَولّى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ الاعراف : ٩٣ .

أصْحَاب الأيكة

وبعد أن اهلك الله أهل مدين ونجّا شعيباً والذين آمنوا معه، أرسله الله الى أصحاب الايكة وهي بقاع خصبة ، فيها شجر كثير ، وماء متدفق قرب مدين ، وقد أقام بها جماعة من الناس كانوا على طريقة أهل مدين في اقتراف المعاصي فقال لهم شعيب : إني مرسل من رب العالمين لهدايتكم وإرشادكم ، وإني امين على توصيل رسالته إليكم فاحذروا عقوبة الله واطيعوني باتباع أوامر الله ، إني لا أطلب منكم اجراً على إرشادي لكم فما جزائي إلاّ على رب العالمين .

وكان مما وعظهم به : ان اعطوا الكيل وافياً وزنوا بين الناس بالميزان الحق ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم ، ولا تبالغوا في الفساد في الأرض ، واحذروا عقوبة الله الذي خلقكم وخلق الأمم القوية قبلكم .

لم تؤثر هذه الموعظة في نفوس القوم بل أجابوا شعيباً :

ما أنت إلاّ واحد من الذين اصابهم السحر فأخذت تهذي بهذا القول ، وما أنت إلاّ واحد منا مساو لنا في البشرية فكيف تتميز علينا بالرسالة ؟ ما نظنك إلاّ كاذباً فيما ادعيت غير صادق فيما تدعونا اليه ، فإن كنت صادقاً حقاً فيما تدعونا اليه فادع الله ان يسقط علينا عذاباً من السماء .

فأجابهم شعيب : إن ربي هو اعلم بما تعملون من المعاصي وبما تستحقونه من العذاب ينزله عليكم في وقته المقدر .

واستمر هؤلاء القوم في تكذيب شعيب فأرسل الله عليهم العذاب ؛ سلّط الله عليهم الحر الشديد فضاقت به انفاسهم فخرجوا الى البرية لعلهم يستروحون نسائم منعشة، فأظلتهم سحابة فاستبشروا خيراً واجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فراحت ترميهم بشهب وصواعق حتّى اهلكتهم ، وكان يوماً شديد العذاب شديد الهول .

﴿كَذَّبَ أصحاب الأيْكة[1] المرسَلين، إذ قال لهم شعيبٌ: ألا تتّقون؟ إنّي لكم رسولٌ أمينٌ. فاتقوا الله واطيعون. وما أسألكم عليه من أجْرٍ إنْ أجْري إلاّ على رب العالمين. أوْفوا الكيل ولا تكونوا من المُخْسِرين[2]. وزِنوا بالقِسطاسِ المستقيم. ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تَعْثَوا في الأرض مُفْسِدين. واتقوا الذي خلقكم والجبلّة[3] الأولين. قالوا: إنّما أنْتَ مِنَ المُسَحّرين. وما أنت إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وإن نَظُنّك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كِسَفاً[4] من السماء إن كُنْتَ من الصادقين. قال: ربي أعلم بما تعملون. فكَذّبوه فأخذهم عذاب يَوْمِ الظُلّة إنه كان عذاب يوم عظيم. إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ الشعراء: ١٧٦ – ١٩١.

---

(١) الأيك: الشجر الملتف الكثير، الواحدة أيكة.

(٢) المخسرين: المنقصين للكيل.

(٣) الجبلة: الخليقة.

(٤) كسفاً: قطعاً.

الفصل الثاني

دروس وعبر

الإصلاح و أسسه – أثر الصلاة – الحض على الأمانة .

الإصلاح واسسه

في قصة شعيب يوضح لنا القرآن الطريقة التي يجب أن يسلكها المصلح ليكون ذا أثر فعال في إصلاح مجتمعه ، قال تعالى حكاية على لسان شعيب :

﴿ وما أريدُ ان أُخالِفكم الى مَا أنهاكم عنه إن أريدُ إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا باللهِ عليه توكلت واليه انيب ﴾ .

قف قليلاً عند قوله: ﴿ وما أريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم عنه ﴾ يؤكد شعيب لقومه في هذا القول أنه لا يفعل ما ينهاهم عنه ، فهنا درس للمصلح بأن عليه أن يُراعي في سلوكه اشد المراعاة كل كلمة وتصرف يصدر منه ، فالسلوك يؤثر اكثر من الكلمات ، فمهما صدر من المصلح من خطب ، وحكم ، ومواعظ بليغة تستهوي العقول فلن يكون لها الأثر الفعال في نفوس مستمعيها إذا لم يكن قائلها هو أول العاملين بمضمونها وأول المؤتمرين بأوامرها ونواهيها ، ولهذا ذم الله قوماً أمروا الناس بالبرّ ولم يلزموا انفسهم به فقال : ﴿ اتأمرون الناس بالبِرّ وتنسَوْن أنفُسَكم ﴾ .

ثم ننتقل الى الشطر الثاني من الآية في قول شعيب ﴿ إن اريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾ فرغبة شعيب في الإصلاح هي رغبة مجردة لوجه الله بعيدة عن أي غرض مادي او منفعة ذاتية ، وهكذا كانت أهداف الأنبياء في مراحل التاريخ ، وهذا ما جعل الفوز حليفها ، وهذه هي الطريق التي يجب ان يسلكها المصلح ليصل الى النجاح وإرضاء ما يؤمن به من مُثل عليا .

فالإصلاح المجرّد من أي غاية وهوى النفس هو الذي يكتب له في النهاية

النجاح والفوز لأن ذلك هو رسالة الحق ، والحق دائماً هو المنتصر ، وأمـــا الغايات والأهواء الخاصة فكثيراً ما تفضح نفسها فتنكفىء ويكون الخسران مآلهـــا .

وكيف لا تنتصر الحقيقة وهي التي مصدرها خالق الكون ومدبره وهذا ما أشارت اليه الآية في ختامها ﴿ وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت واليه أنيب ﴾ .

أثر الصلاة

وفي قصة شعيب بيان لأثر الصلاة في سلوك الإنسان وذلك بما قاله قوم شعيب :

﴿ قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ .

لقد لاحظ قوم شعيب تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه كيف أنها غيّرت أوضاعهم وأدت بهم الى التحرر من عبادة غير الله ، وترك الغش في المكاييل والأوزان فكان أن تهكموا عليه بهذا القول ، لأنهم في قرارة أنفسهم لايريدون تغيير ما هم فيه .

نعم ، لقد غيّرت الصلاة نفسية أتباع شعيب ، لأن الصلاة تهدف الى صنع ضمير نقي في الإنسان فتحرك فيه مشاعر التقوى والمراقبة، وتذكره على الدوام بيوم الدينونة ﴿ يوم تجد كُلُّ نَفْسٍ ماعملت من خَيْرٍ مُحْضَراً، وما عملت من سوءٍ تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ .

لهذا كانت الصلاة تعصم من الخطايا ، وتنهى عن الفحشاء ، وتنقل الإنسان من هذا العالم المائج بالفتن المفعم بالأوزار الى رحاب الله، لهذا بيّن القرآن أثر الصلاة بقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

ما أحوج المجتمعات البشرية الى الصلاة التي بها يتوجه الإنسان الى عبادة الله وحده فيتحرر من كل المعبودات الباطلة ، ومن كل سلطة طاغية ، ومن كل فساد استشرى وصعب علاجه .

الحض على الأمانة

من التوجيهات التي تطالعنا بها قصة شعيب الدعوة الى الأمانة والاستقامة

في البيع والشراء وترك الغش بالمكاييل والأوزان والافساد في الأرض لأن ذلك يؤدي الى سخط الله والتعرض الى العقوبة الشديدة كما فعل الله بقوم شعيب الذين أهلكهم جزاء فسادهم ، أما حذّر شعيب قومه بقوله :

﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان[1] إني أراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

والجدير بالذكر ان اكثر الدول المتمدنة تحرص اشد الحرص على ضبط المكاييل ومراقبة الأوزان وتعرض المتلاعب بهما للعقوبة الشديدة ، والإسلام كان له السبق دائماً في اقرار الانظمة الصالحة للمجتمعات البشرية .

ولكن لا يكتفي الإسلام بهذا بل يرتقي الى اعلى مرتقى من السمو حين قال : ﴿ ولا تبخسوا الناس اشياءهم ﴾ فالشيء هنا يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان ، كما يشمل المعاني المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطياتهم وتضحياتهم للمجتمع ، ووضع كل فرد في المنصب الذي هو مؤهل له حسب كفاءاته ومؤهلاته العلمية .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ وصية من الله تجمع الخير من اطرافه – وتجري مجرى الأمثال – ما أحرانا ان نرددها دائماً ونسير حسب توجيهاتها لنجني ما تحمله من خير وصلاح للمجتمع .

---

(١) مما يندرج تحت أنواع الغش بالأوزان مادرج عليه بعض الباعة اليوم من بيع صناديق الفاكهة والخضار جاعلين أحسن أصنافها على مرأى من الشاري وجاعلين في الأسفل الأصناف الرديئة الفاسدة مما يلحق غبناً بالمشتري ، فما أحرى بالحكومات أن تضرب بيد من حديد على هذا النوع من الغش الذي بدأ ينتشر ويصبح عادة متبعة ، ويشين سمعة البلد ، ويؤدي إلى غضب الله .

الفَصْلُ الثالِثُ

قِصَّةُ أيُّوبَ

بلاء أيوب – أيوب في القرآن – دروس من أيوب

بلاء أيّوب

ايوب[1] هو من الأنبياء الذين ذكر القرآن نبوتهم ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ :

﴿ إنَّا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ﴾ النساء : ١٦٣ .

وكان ايوب عظيم التقوى رحيماً بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف وكان يدعو قومه الى عبادة الله وحده .

ويروي علماء التفسير والتاريخ أن ايوب كان كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه: من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران ... وكان له اولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتُلي في جسده بأنواع البلاء ، ولم يبقَ منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بهما وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر لله في ليله ونهاره وصباحه ومسائه ، وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأُخرج من بلده والقي على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ولم يبقَ احد يحنو عليه سوى زوجته التي كانت ترعى له حقه وتعرف قديم احسانه اليها ، وشفقته عليها

---

(١) هو من ذرية إبراهيم عليه السلام، وأمه بنت لوط عليه السلام، وامرأته هي ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افرائيم وقيل منشا بن يوسف بن يعقوب ، وقد ذكر ابن جرير الطبري : أن أيوب لما توفي كان عمره ثلاثاً و تسعين سنة وقيل إنه عاش أكثر من ذلك ، وقال ابن عباس : سمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال .

فكانت تتردد اليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته، وضعف حالها وقل مالها حتّى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده ... وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة ... ولم يزد هذا كله ايوب عليه السلام إلاّ صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتّى ان المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل ايضاً بما حصل له من أنواع البلايا)[1]

وقد اختلف العلماء في مدة بلواه ؛ قيل ثلاث سنين، وقيل سبع سنين واشهراً، وقيل: ثماني عشرة سنة.

وروي ان امرأته قالت: يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك، فقال: عشتُ سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله ان اصبر له سبعين سنة.

وروي أنه كان يقول كلما اصابته مصيبة: ﴿ اللهم أنت أخذت وأنت اعطيت ﴾

هذا ويروي المؤرخون عن ايوب حكايات كثيرة اخذوا مادتّها من سفر ايوب ومن تفسير اليهود للتوراة المسمى (هجاده) وهي مما لا يأخذ بها علماء الإسلام الثقات لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل.

وقد انتقد بعض المفسرين نوع البلاء الذي الصق بأيوب فيقول المراغي في تفسيره[2]:

(وما روي من مقدار ما لحقه من الضر في نفسه حتّى وصل الى حد النفرة منه، وان الناس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامه الى ظاهر المدينة في موضع الكناسة ولم يكن يتصل به إلاّ امرأته التي تذهب اليه بالزاد والقوت فكل ذلك من الاسرائيليات التي يجب الاعتقاد بكذبها لأنه ليس من سند صحيح يؤيدها، ولأن من شروط النبوة ألاّ يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ للشرائع والأحكام).

أيوب في القرآن

اما القرآن فيصرح ان أيوب ابتلي بالضر في جسده وانه نادى ربه فاستجاب

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير جـ ١.
(٢) تفسير المراغي، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي.

له وكشف ما اصابه من ضر ورد عليه أهله .

﴿ وأيُّوب إذ نادى ربَّهُ أَني مَسَّنيَ الضُرُّ[1] وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهلَهُ ومِثْلَهُم مَعَهم[2] رحمة من عندنا وذِكرى للعابدين ﴾ الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤ .

﴿ واذكُر عبدنا أيوب إذ نادى ربَّهُ أنّي مَسَّنيَ الشيطانُ بِنُصْب[3] وعَذاب . اركض برجلك هذا مُغتسَلٌ بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلَهم معهم رحمة مِنّا وذِكرى لأولي الألباب . وخُذْ بيدك ضِغْثاً[4] فاضرب به ولا تحنث إنّا وجدناه صابراً نعم العبدُ إنه أوّاب[5] ﴾ ص : ٤١ — ٤٤ .

والمراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب ما كان يوسوس به اليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من رحمه الله، والجزع مما أصابه، فالتجأ الى الله ان يكفيه ذلك بكشف البلاء او بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل .

وكيفية شفائه يوضحها قوله تعالى : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ أي اضرب يا ايوب برجلك الأرض، فامتثل لما امره به فأنبع الله عيناً باردة من الماء ، وأمَرَه ان يغتسل فيها ، ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً .

يقول المراغي في تفسيره :

(وفي هذا إيماء الى نوع المرض الذي كان به وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالاكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتّال ... كما ان في ذلك إيماء الى ان الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجعة في تلك الأمراض ، وهي كما تفيد بالاستعمال الظاهري تفيد بالشرب

---

(١) الضر بالضم : هو ما في النفس من مرض وهزال ونحوهما .

(٢) وآتيناه أهله ومثلهم معهم : قيل كان أهل أيوب قد ماتوا إلا امرأته فأحياهم الله عز وجل، وولد له مثلهم معهم ، وقيل: آجره الله فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا .

(٣) بنصب : بتعب ومشقة .

(٤) ضغثا : حزمة صغيرة من حشيش او ريحان .

(٥) أواب: كثير الرجوع إلى الله، وقد أثنى الله على ايوب بقوله (نعم العبد) بسبب انه كان موصوفاً بصفة أواب، وهذا الثناء ينطبق على كل مؤمن كثير الرجوع إلى الله .

ايضاً ، كما نرى في العيون التي في البلاد التي انشئت فيها الحمامات في اوروبا ومصر وغيرها واستعملت مشاتي ومصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية) .

الحنث باليمين : حلف ايوب في مرضه ليضربن امرأته مائة سوط إذا برىء لأنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت عليه ، ولما كانت حسنة الخدمة له فقد حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، وذلك بأن أمره بأخذ حزمة صغيرة من حشيش او ريحان او غير ذلك ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا بمنزلة الضرب بمائة سوط فيتحلل من قسمه وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة الصدّيقة البارّة ، وهذا ما أشار الله اليه بقوله :

﴿ وخُذْ بيدك ضِغثاً فاضرِبْ به ولا تحنث ﴾ .

الفَصْلُ الرَّابع

دُرُوسٌ مِنْ أيّوب

الصبر على البلاء – اللجوء إلى الله – التداوي – الرفق بالزوجة .

الصبر على البلاء

وفي قصة ايوب وما أصابه من البلاء وما دعا ربه في كشف ما نزل به ، وما امتن الله به عليه في رفع البلاء ، وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، كل ذلك فيه درس للمؤمنين بأن يكون أيوب قدوة لهم فيما يصيبهم من بلاء ، لأن البلاء لم ينج منه الأنبياء، بل اهم أشد الناس ابتلاء كما يقول الرسول ﷺ :

(اشد الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه)[1] .

فيظهر لنا ان البلاء لا يدل على الشقاء ، فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها ، لأن الدنيا ليست دار جزاء ، بل هي دار امتحان ومزرعة للآخرة ، وان عاقبة الصبر هي توفية الأجر ، ومضاعفة البر ، فإن ايوب لما امتحن بما فقد من ارزاقه واهله ، وما عانى فيه من آلام في جسده ، صبر وشكر ، فكان ان رَحِمَه الله فأعاد له صحته واعطاه أضعاف ما فقده من رزق وولد ، ولذا قال الله عقب قصة ايوب ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر حتّى يثابوا كما اثيب في الدنيا والآخرة ، فإنهم إذا ذكروا بلاء ايوب وصبره ، وهو أفضل أهل زمانه وطنوا انفسهم على الصبر على شدائد الدنيا .

هذا وان الصبر هو خلق الأنبياء وسلاح المتقين والمصلحين ما نجح نبي ولا زعيم ولا مصلح إلاّ به .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

والجدير بالذكر ان القرآن عُني بالصبر ومدحه ، ورفع منزلته وأثنى على المتحلّين به ثناء لا مزيد عليه، وذكره حوالي سبعين مرة ولم تُذْكَرْ فضيلةٌ أخرى في القرآن بهذا المقدار .

والرسول ﷺ أوصى بالصبر فقال (الصبر نصف الايمان) وقال : (ومن يتصبر يصبره الله وما أُعطي احد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) .

ومن الكلمات الجامعة المشهورة عند العرب (الصبر مطيّة النصر) .

اللجوء الى الله

وفي قصة أيوب درس في الالتجاء الى الله الدعاء والابتهال اليه كما ابتهل ايوب والتضرع له وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا حتى يكشف ما يصيبنا من بلاء .

التداوي

ويؤخذ أيضاً من قصة ايوب : وجوب التداوي لأن الله تعالى أمره ان يشرب ويغتسل من الماء الذي نبع تحت رجليه ، وكان بإمكانه تعالى ان يشفيه دون ان يدعوه لاتخاذ هذه الوسيلة للتداوي .

الرفق بالزوجة

ويؤخذ من القصة ايضاً : وجوب حسن معاملة الزوجة ، فإن أيوب كان براً بزوجته في حال غناه وصحته . وقد احسنت زوجته عشرته أيام محنته وقد حصلت منها أخطاء أقسم على إثرها ان يؤدِّبَها لكن الله أمره ان لا يفعل وفاءً لحقها عنده وجعل له رخصة سهلة ليتحلل بها من قسمه .

نبوّة ذي الكِفْل

قال الله تعالى :

﴿ واسماعيل وادريس وذا الكفل كُلٌّ من الصابرين . وأدْخلْناهم في رحمتنا انهم من الصالحين ﴾ الانبياء : ٨٥ ، ٨٦ .

وقوله سبحانه ﴿ واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكُلٌّ من الأخيار ﴾ ص : ٤٨ .

يقول ابن كثير : (الظاهر في ذكره في القرآن بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء انه نبي وهذا هو المشهور) .

اما دعوته ورسالته والقوم الذين أرسل اليهم فلم يتعرض القرآن لشيء من ذلك لا بالاجمال ولا بالتفصيل .

اما اهل التاريخ فيذكرون: انه ابن ايوب عليه السلام، واسمه في الاصل (بشر) وقد بعثه الله بعد أيوب وسمّاه الله (ذا الكفل) لأنه تكفّل ببعض الطاعات فوفى بها .

الباب الثامن

موسى عليه السلام

هارون عليه السلام

١ - سيرة موسى قبل الرسالة

٢ - رسالة موسى وهارون

٣ - كفاح موسى وقومه

٤ - سوء مصير فرعون وقومه

٥ - في الطريق إلى أرض الميعاد

٦ - دروس وعبر من قصة موسى

قصة موسى والعبد الصالح

تمهيد

نبوة موسى وهارون

موسى عليه السلام نبي ومن أولي العزم من الرسل ، قال تعالى :

﴿ واذكُرْ في الكتابِ موسى انه كان مُخلصاً وكان رسولاً نبيّاً ﴾ .

ويلقب بـ (كليم الله) لأن الله كلمه بلا واسطة ، قال تعالى :

﴿ يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فَخُذْ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ .

وهارون عليه السلام اخو موسى بالنسب ارسله الله عضداً ومعيناً لموسى حين أراد ان يبعثه الى فرعون لتبليغه رسالة الله، وكان ذلك بدعوة دعا بها موسى ربه : ﴿ واجْعَلْ لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري وأشْرِكْهُ في امري ﴾ . فاستجاب الله لموسى ووهب له هارون واعطاه النبوة رحمة منه .

﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً ﴾ .

اضطهاد بني اسرائيل

ذكرنا فيما سبق في قصة يوسف كيف انه استقدم أباه واولاده واحفاده للاقامة في مصر ، فطلب يوسف آنذاك من ملك مصر ان يسكنهم ارض جاسان وهي في شمال بلبيس من مدنها سفط الحنة . وكانت العلة في طلب يوسف ذلك لهم انها أرض مراع وهم رعاة ماشية ، وكان ذلك على عهد (الملوك الرعاة) . ثم دار الزمان وجاء أحمس الأول اول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الذين طردوا (ملوك الرعاة) ، ثم جاء رعمسيس الثاني فرأى ان بني اسرائيل يتضاعف عددهم

ويتزايد نسلهم فخاف أن يكونوا عوناً لأعداء مصر، فاستخدمهم في أشق الأعمال لإضعاف قوتهم وامعن في تفريقهم شيعاً وأحزاباً، وقيل: ان الكهنة اخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبني اسرائيل، فأمر بقتل كل ذكر من اولادهم حتّى لا يكثر عددهم، واسرع الموت في الشيوخ الكبار منهم من جراء إرهاقهم في العمل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له: إن الموت وقع في الكبار من بني اسرائيل وأنت تقتل صغارهم فيوشك ان يقع العمل علينا ولا يبقى احد للخدمة غيرنا، فأمر ان يقتل الغلمان سنة ويتركوا سنة حتّى لا يهلك جميع أبناء اسرائيل.

وفي السنة التي لا يقتل فيها احد من الغلمان وُلِدَ هارون فتُرِك وشأنه وتربى في أحضان والديه، وأما موسى فقد صادفت ولادته العام الذي يذبح فيه الأطفال، فلما ولدته أمه خبأته عن العيون فلم يتسرّب خبره الى فرعون.

ويشير الله الى ظلم فرعون لبني اسرائيل وتقتيله لابنائهم بقوله:

﴿نتلو عليك من نبإِ موسى وفرعون[1] بالحق لقوم يؤمنون. انّ فرعون علا في الأرض وجَعَلَ أهلها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذَبّحُ أبناءهم ويستحيي[2] نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ القصص: ٣ — ٥.

---

(١) فرعون: لقب يطلق على كل ملك من ملوك مصر الأقدمين.

(٢) يستحيي نساءهم: يتركهم احياء لاسترقاقهن.

الفصل الأول

سيرة موسى قبل الرسالة

تربية موسى في بلاط فرعون – موسى ينصر احد الإسرائيليين – افتضاح امر موسى وهربه – موسى في ارض مدين – زواج موسى ..

تربية موسى في بلاط فرعون

مكث موسى بعد ولادته عدة اشهر في كنف والدته ، ولما خافت افتضاح امرها ألهمها الله ان تهيء له صندوقاً تضعه فيه ثم تطليه بالقار ، ثم تلقي به في نهر النيل وقد هدّأ الله من روعها ، وبشرها بأنه سيرجعه اليها ، ويجعله من المرسلين .

انتشل بعض آل فرعون الصندوق من الماء وعندما فتحوه ووقعت عين امرأة فرعون على الطفل موسى (١) القى الله محبته في قلبها ، وادركت ان زوجها سيقتله كما قتل جميع اولاد بني اسرائيل ، فقالت له : هذا الولد سيكون مسرّة عين لي ولك لا تقتله عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً بعد أن حُرمنا من الأولاد ، فوافقها فرعون على ذلك واستبقاه لها ، وهكذا نجا موسى من الهلاك المحقق . وكان فرعون ووزيره هامان وجنودهما لا يدرون ما يخبئه القدر لهم من انهم انتشلوا من سيكون لهم عدواً ، ومصدراً لحزنهم ، وسبباً لهلاكهم بسبب كفرهم وطغيانهم .

هذا ما كان من امر موسى ، أما ما كان من أمر أمه فإنها عند القائها لموسى في النهر ، ارسلت اخته تقتفي أثره فرأت انه التقط وأُدخل دار فرعون فأخبرت

---

(١) ورد في اشتقاق كلمة موسى انها اسم مركب من كلمتين (مو : شا) (مو) اسم الماء في اللغة المصرية القديمة و (شا) بمعنى الشجر ، وقد سمي بهذا لأنه وجد حيث القته امه في الماء بين ماء وشجر . وقيل هو من الكلمة المصرية (مس) ومعناها طفل .

أمها بذلك ، فطار عقلها لهذا النبأ من الخوف والجزع ، وصار قلبها خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى ، وكادت للهفتها ان تكشف سرّها ، وتُظهر أمرها ، لولا ان ثبّت الله فؤادها وجعلها من المؤمنين المطمئنين الى وعده بارجاعه اليها .

أتوا لموسى بالمراضع ولكنه عافهن جميعاً ، فتقدمت أخته وعرضت عليهم ان تدعو لهم امرأة ترضعه ، فقبلوا ذلك وبعثوها في طلب المرضعة ، فجاءت بأمه فاستأنس بها الوليد والتقم ثديها دون سائر المراضع ، وهكذا ايقنت ام موسى ان وعد الله حق بعد ان ارجع الله اليها وليدها .

اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وأوْحَيْنا إلى أمّ موسى : أن أرضعيه ، فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليمّ ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنّا رادّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين[1] . فالتَقَطَهُ آلُ فِرعون ليكونَ لهُم عَدُوّاً وحَزَناً ، إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالتِ امرأةُ فِرعونَ : قُرّةُ عينٍ لي ولَكَ ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا او نتخذهُ ولداً ، وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أمّ موسى فارِغاً ، إن كادت لتُبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته : قُصّيه ، فبصُرت به عن جُنُبٍ[2] وهم لا يشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قَبْلُ ، فقالت : هل أدلكم على أهْلِ بيت يكفلونه لكم وَهُمْ له ناصحون ؟ فرددناهُ الى أمّه كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن ، ولِتَعلم أنّ وَعْدَ اللهِ حقّ ، ولكِنّ أكثرهُم لا يعلمون ﴾ القصص : ٧ — ١٢ .

ومن الطبيعي أن تكون أم موسى بعد أن أتمت رضاعته قد أتت به الى بيت فرعون ، وتولى البلاط الفرعوني تربيته ، ولما بلغ من القوة غاية ما يبلغه الشباب منحه الله العلم والحكمة، وبمثل هذا الجزاء يثيب الله المحسنين . قال

---

(١) روى الأصمعي انه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما افصحك ، فقالت : او بعد قوله تعالى فصاحة (واوحينا إلى ام موسى .. إلى .. وجاعلوه من المرسلين) فجمع في آيـة واحدة بين امرين ونهيين وخبرين متضمنين بشارتين .

(٢) عن جنب : عن بعد .

تعالى : ﴿ ولمّا بَلَغَ أشُدَّهُ واستوى آتيناهُ حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ القصص : ١٤ .

موسى ينصر احد الاسرائيليين

شَبَّ موسى في بيت فرعون وكان قوي الجسم ، وافر القوة ، ولم يَخْفَ عليه انه دخيل في بيت فرعون ، وانه اسرائيلي من ذلك الشعب المضطهد ، فكان عوناً للاسرائيليين يدفع عنهم أذى قوم فرعون .

غادر موسى قصر فرعون يوماً ، ودخل المدينة فجأة دُون أن يعلم أحد بذلك ، فوجد رجلين يتشاجران ، احدهما اسرائيلي من قومه ، والآخر فرعوني ، فاستغاث الاسرائيلي بموسى فأخذ بنصرته ، ووكز خصمه وكزة كانت القاضية عليه، فندم على فعلته وعدّها من عمل الشيطان، واستغفر ربه عما ارتكب وتضرع اليه أن يتوب عليه ، وألاّ يجعله مساعداً للمجرمين ، فغفر له وتاب عليه . قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ المدينةَ على حين غَفْلةٍ مِنْ أهلها ، فَوَجَدَ فيها رَجُلَين يقتتلان : هذا مِنْ شيعته ، وهذا من عدوّه ، فاستغاثَهُ الذي من شيعته على الذي من عدوّه ، فَوَكَزَهُ موسى ،فقضى عليه[1] ، قال : هذا من عَمَلِ الشيطانِ ، إنَّهُ عدوّ مُضِلّ مبين . قال : ربّ ، إني ظَلَمْتُ نفسي فاغفر لي ، فغَفَرَ له ؛ إنه هو الغفور الرحيم . قال : ربّ بِمَا أنعمتَ عليَّ فلن أكون ظهيراً[2] للمجرمين ﴾ . القصص : ١٥ — ١٧ .

افتضاح أمر موسَى وهربه

فلما كان اليوم الثاني خرج موسى إلى المدينة وهو يخاف افتضاح أمره ، فوجد ذلك الاسرائيلي الذي نصره بالأمس يقاتل فرعونياً آخر ، فاستغاثه ذلك الاسرائيلي على الفرعوني وطلب نصرته ، فغضب موسى من مشاكسته وميله

(١) فوكزه موسى فقضى عليه : اثار بعض المستشرقين الشبهات على هذه الحادثة بأن موسى ارتكب معصية بقتله نفساً بينما يدّعي الإسلام عصمة الرسل . وللرد عليهم نقول : القرآن اوضح ان موسى وكز الرجل ليمنع عدوانه على إسرائيلي والوكز في اللغة هو الضرب بجمع الكف فقد وكزه موسى ولم يرد قتله. هذا مع العلم بأن موسى لم يكن نبيًا ولا رسولا حين وكز خصمه .

(٢) ظهيراً : معيناً .

للخصام وأنبّه على ذلك ، ثم تدخل بينهما لفض النزاع فخاف الاسرائيلي وظن ان موسى يقصد قتله فخاطبه قائلاً : ﴿ أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ فلم يكد الفرعوني يسمع هذا الاقرار الصريح – وقد كان قومه في حيرة من امر قتيل الأمس لا يعرفون قاتله – حتّى وافاهم واخبرهم بخبر موسى ، فتألب عندئذ القوم وراحوا يبحثون عن موسى للفتك به ، سمع بالأمر رجل مخلص لموسى فجاءه من أقصى المدينة مسرعاً وأعلمه بما يُدبّر له القوم ، ونصحه بأن ينجو بنفسه ويخرج من مصر حتّى لا تمتد اليه ايديهم بسوء . فقبل منه موسى نصيحته . وفر هارباً متوجساً خيفةً داعياً ربه ان ينجيه من القوم الظالمين . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ فأصبَحَ في المدينةِ خائفاً يترقّب ، فإذا الذي استنصَرَهُ بالأمسِ يستصرِخُهُ[1] قال له موسى ؛ إنّكَ لغوي مبين . فلما اراد أن يَبْطِشَ بالذي هو عدُوّ لهما ، قال : يا موسى ، أتُريد ان تقتلني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس ، إن تُريدُ إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض ، وما تُريدُ ان تكون من المصلحين . وجاء رجُلٌ من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى ، إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقّب ، قال : رب نجني من القوم الظالمين ﴾ القصص : ١٨ – ٢١ .

موسَى في أرض مدين

خرج موسى من مصر الى ارض مدين بعد مشقة . ولما قصد ماءها ليروي ظمأه وجد عنده حشداً من الناس قد تزاحموا عليه بشدة ؛ كل منهم يعتمد على قوته في التقدم والمسابقة الى الحوض . ورأى على مقربة من الماء فتاتين تهشان غنمهما لئلا تقترب من الماء ؛ رأى موسى هذا المشهد فعجب لأمرهما ، وتقدم وسألهما عن شأنهما فأجابتاه : اتينا لنسقي غنمنا ، ولكن لشدة الزحام لن نستطيع السقيا حتى ينصرف الرعاة . هذا الجواب يدل على ما في الأنثى من ضعف وحياء يدفعانها الى التخلف في مثل هذه المواقف التي يكثر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء بالرجال ؛ ثم تضيف الفتاتان في تعليل ذلك قولهما : ﴿ وابونا شيخ كبير ﴾ كأنهما بذلك تريدان استثارة الرحمة والشفقة في قلب موسى .

(١) يستصرخه : يستنصر به .

ثارت حمية موسى وسقى لهما غنمهما ، ولم يقدر احد على منعه ، لأنهم رأوا من قوته وصلابته ما منعهم من مقاومته ، ثم اتجه بعد ذلك الى الظل منهوك القوى ليستريح ، شاكراً ربه قائلاً : رب اني فقير لكل ما قدمته إليّ من خير .

وبعد برهة من الزمن جاءته احدى الفتاتين وهي ﴿ تمشي على استحياء ﴾ ، فقالت له : إن أباها يدعوه ليجزيه اجر السقي الذي قام به لهما . وهل يُنتظر من موسى إلاّ ان يجيب على هذه الدعوة بلهفة ؟ فهو الغريب الفقير . إذاً فليطو معها الطريق وليلق الشيخ . وهكذا فعل ، واجتمع به وافضى اليه بمكنون سرّه ، فوقف منه الشيخ موقف الشهم الكريم وطمأنه على نجاته من القوم الظالمين . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ ولمّا توجّه تِلقاء مدين[1] ، قال : عسى ربي أن يهديني سَوَاءَ السبيل[2] . ولمّا ورد ماء مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمّةً من الناس يسقون[3] ، وَوَجد من دونهم امرأتين تذودان[4] قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يُصدِر الرّعاءُ وأبونا شيخ كبير . فسقى[5] لهما ثم تولّى الى الظل فقال : ربّ ، إني لما أنزلتَ إليّ مِنْ خَيْرٍ فقير . فجاءته إحداهما تمشي على استحياء[6] . قالت : إن أبي يدعوك ليجزيَكَ أجْر ما سقيت لنا ؛ فلما جاءهُ وقصّ عليه القصص . قال : لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين ﴾ القصص : ٢٢ — ٢٥ .

---

(١) مدين : هي بلاد واقعة حول خليج العقبة عند نهايته الشمالية .

(٢) عسى ربي أن يهديني سواء السبيل : أرجو الله ان يوفقني إلى الطريق السوي .

(٣ و ٤ و ٥) : في هذه الآية إيجاز ، والإيجاز هو اختصار بعض الألفاظ ليأتي الكلام وجيزاً بليغاً ، وذلك ان يقتص المتكلم قصة بحيث لا يغادر منها شيئاً في الفاظ قليلة بحيث لو اقتصها غيره لم يكن في مثل طبقته من البلاغة بل اتى بها في اكثر من تلك الألفاظ . ومثل ما جاء في هذه الآية من الإيجاز قوله تعالى : (وجد عليه امة من الناس يسقون) اي يسقون اغنامهم ومواشيهم ، والمراد بـ (تذودان) اي تمنعان مواشيهما عن الماء وقوله تعالى : (فسقى لهما) يعني غنمهما .

(٦) (تمشي على استحياء) ألا ما أعذب هذه الجملة وما أخف وقعها على الأسماع : وهي تدل على خير ما في الفتيات من جمال هو جمال الحياء ، والقرآن ذكر هذه الصفة تنويهاً وثناء على الفتيات المتحليات بهذه الصفة .

زواج موسى

وكانَ موسى فتياً نبيلاً لذا أثار في نفس الشيخ وبنتيه عوامل الاعجاب ولهذا قالت احدى ابنتيه : يا أبتِ استأجره لرعي ماشيتنا ليكفينا مؤنة هذا العمل فهو قوي وأمين ، وكأن الشيخ قد فطن الى المراد ، فأسرع الى تحقيق رغبة ابنتيه ، وطلب الى موسى ان يخدمه فيرعى له غنمه ثماني سنوات نظير ان يزوجه بإحداهما وإن زاد المدة سنتين فتلك منّة جليلة ، فقبل موسى طلب الشيخ على انه بالخيار في أي المدتين يخدم ، وتم الاتفاق بينهما على ذلك . قال تعالى :

﴿ قالت إحداهما : يا أبت ، استأجِرْهُ ، إن خير مَنِ استأجرت القويّ الأمين . قال : إني أُريد أن أُنكِحَكَ[1] إحدى ابنتيّ هاتين، على أن تأجُرَني[2] ثماني حِجَجٍ[3] فإن أتممت عشراً فمِنْ عِندكَ وما أُريد أن أشُقّ عليك ، ستجدُني إن شاء الله مِنَ الصالحين . قال : ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قَضَيْتُ فلا عُدوان عليّ والله على ما نقول وكيل ﴾ . القصص : ٢٦ — ٢٨ .

(١) أنكحك : أزوجك .
(٢) تأجرني : تكون أجيراً لي .
(٣) حجج : سنين .

الفصل الثاني

رسالة موسى وهارون

بدء رسالته – امر إلهي لموسى بالذهاب إلى فرعون – موسى وهارون يبلغان رسالة ربهما– محاورة بن موسى وفرعون في ربوبية الله – فرعون يأمر ببناء قصر للصعود إلى السماء .

بدءُ رسالته

امضى موسى السنين المتفق عليها في خدمة الشيخ ، ثم توجه بأهله نحو الجنوب حتّى ادرك طور سيناء ، وفي ليلة مباركة اراد الله ان يخص موسى بكرامته ونبوته وكلامه ، وكان قد اخطأ الطريق وأمسى لا يدرك اين يتوجه ، وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً على بُعْدٍ فقال لأهله : الزموا مكانكم ، هذه نار أراها من بعيد سآتيكم منها بقبس نَستضيء به، او جذوة نصطلي بها ، أو اسأل من عندهم النار عن الطريق فيهدوننا اليه ، فلما قَرُبَ موسى من موضع النار التي أبصرها سمع نِداءً ربانياً يقول له : إني أنا ربك فاخلع نعليك تأدباً وتواضعاً ، إنك في وادي (طوى) الوادي المطهر المقدس. وهناك سمع من ربه الكلام الالهي الذي أنست نفسه به وسكنت روحه اليه : إني قد اصطفيتك يا موسى للنبوة فاستمع لِما يُوحى اليك ، وإني انا الله لا اله غيري فخصني بالعبادة وحدي، واعلم ان يوم القيامة آتٍ لا شك في ذلك حيث تحاسب كل نفسٍ على ما عملت فلا يمنعك عن تذكرها وعن العمل الصالح لأجلها من يكفر في حدوثها ، فتسببَ لنفسك الهلاك . ثم اراه الله بعض معجزاته فهذه عصاه يلقيها على الأرض فتنقلب حية حقيقية تتلوى وتهتز وتتحرك وتلقي الرعب في قلوب الناظرين . وهذه يده يضمها الى جيبه ثم يخرجها فتظهر بيضاء متلألئة لها بياض حسن ، وبهاء جميل ، ثم قال له ربه : اذهب بهاتين المعجزتين الى فرعون لتبلغه الرسالة الالهية ، فقد جاوز الحد في الطغيان والجبروت .

ولما كانت مواجهة فرعون تستدعي الشجاعة ورباطة الجأش فقد سأل موسى

ربه ان يشرح صدره ليحتمل ما يواجهه من صعاب ويسهّل عليه الأمر ، وان يعينه على البيان والافصاح ، وان يجعل اخاه هرون مساعداً له في رسالته الشاقة ، وان يعينه على عبادته ، وقد اجاب الله دعاءه واعطاه كل ما سأل . والى القارىء هذه الآيات القرآنية التي تصف بدء رسالة موسى والتي تستشعر فيها جلال الربوبية لما تحتويه من بيان رائع وتعبير معجز :

﴿ وهَلْ أتاكَ حديثُ موسى . إذ رأى ناراً ، فقال لأهله : امكثوا إني آنستُ ناراً ، لعلي آتيكم منها بقَبَسٍ أو أجِدُ على النار هُدى . فلما أتاها نُودي : يا موسى إني أنا ربّكَ ، فاخلَع نعليك ، إنك بالواد المقدس طُوى . وأنا اختَرتُكَ فاستمع لِمَا يُوحى . إنني انا الله ، لا إله إلاّ انا ، فاعبُدني وأقِم الصلاة لِذكري . إنّ الساعة[1] آتيةٌ أكاد[2] أخفيها لتُجْزَى كُلَّ نفسٍ بما تسعى . فلا يصُدَّنّكَ عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتَرْدَى . وما تلكَ بيمينك يا موسى؟ قال: هي عصاي ، أتوكأ عليها وأهُشُّ بها على غنمي ، ولي فيهـا مآرب أخرى . قال : ألقِهَـا يا موسى . فألقـاها فإذا هي حيّةٌ تسعى . قال : خُذها ولا تخف ، سنُعيدها سيرتَها الأولى . واضمم يَدَكَ الى جناحِكَ تخرج بيضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيةً أُخرى . لنُريَكَ من آياتنا الكُبرى ، إذهب الى فرعون إنّه طغى . قال : رب اشرح لي صدري ويسّر لي امري واحلُل عُقْدَةً من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً[3] من اهلي : هارون اخي . اشدُد به أزري[4] . وأشْرِكهُ في امري كي نُسبّحك كثيراً ونَذْكُرك كثيراً . إنك كُنْتَ بِنا بصيرا . قال : قد أُوتيت سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ طه : ٩ – ٣٦ .

أمرٌ الهي لموسى بالذهاب الى فرعون

أعدّ الله موسى لرسالته وأجابه الى ما سأل فبعث معه أخاه هارون وأمره ان يذهب هو واخوه الى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات ، ونهاهما عن الفتور والتقصير في ذكر الله وتبليغ رسالته، وأمرهما أن يقصدا فرعون بالذات

(١) الساعة : يوم القيامة .
(٢) أكاد أخفيها : لا اريد أن أظهرها .
(٣) وزيراً : معيناً .
(٤) اشدد به ازري : قو به ظهري .

لأنه هو الذي طغى ، وأوصاهما ان يلينا له القول لعل ذلك يلين من طبيعة طغيانه ويصلا إلى قلبه بحسن الكلام فيخشى الله . فقال موسى وهارون : اننا نخاف جبروت فرعون وقسوته إذا بلغناه هذه الرسالة فربما حمله الغضب على البطش بنا او التعجيل بعقابنا ، فقال الله لهما : لا تخافا ان يصيبكما ما توهمتماه منه فإني معكما اسمع وأرى فسأحفظكما من بغيه . ثم امرهما الله ان يقولا لفرعون : إننا رسولان من عند الله الذي انت عبد من عبيده ولستَ إلهاً كما تدّعي ، فلا يحق لك أن تأسر بني اسرائيل وتسلبهم الحرية فأَطْلِقْ سَرَاحَهُمْ ليكون لهم الحرية في الانطلاق معنا إذا شاءوا وليس لك ان تعذبهم باستخدامهم في اشق الاعمال ، ونحن لدينا البينة على اننا مكلفون ان نبلغك ذلك ، والسلام والسعادة لمن اتبع الحق وآمن بالله . قال تعالى :

﴿ اذهب أنت واخوك بآياتي ، ولا تَنيا في ذكري . إذهبا الى فرعون إنهُ طغى . فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّرُ او يخشى . قالا : ربنا إنّنا نخافُ ان يفرُطَ علينا او ان يطغى . قال : لا تخافا ، انني معكما اسْمَعُ وأرى . فأتياه ، فقولا : إنّا رسولا ربك ، فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذّبهم قد جئناك بآيةٍ من ربّك ، والسلام على من اتبع الهدى ﴾ طه : ٤٢ ـ ٤٧ .

موسَى وهارون يُبلّغان رسَالة ربهما

لبى موسى وهارون امر ربهما وذهبا الى فرعون وبلّغاه الرسالة ، وكان فيما بلّغه موسى لفرعون ان لا يقول على الله إلاّ الحق ، وقد أيده بمعجزات تشهد بأنه رسول الله حقاً ، وطلب منه ان يسمح بخروج بني اسرائيل معه الى فلسطين . قال الله تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ مِنْ رب العالمين. حقيق[1] على أن لا اقول على الله إلاّ الحق قد جئتكم ببيّنة من ربكم فأرسل مَعيَ بني اسرائيل ﴾ الاعراف : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

استغرب فرعون كلام موسى ربيبه السابق ، وشرع يمنّ ويظهر فضله عليه بأنه تربى في بيته ، وهذا يقتضي ان يكون وفيّاً له، بعيداً عن كل ما يغيظه ، ثم ذكّره فرعون بما اقترفه من قتل الرجل الفرعوني وان من ارتكب جريمة قتل كان آثماً بعيداً عن رحمة ربه وليس جديراً به ان يدعي حمل رسالته ،

---

(١) حقيق : اي جدير .

فرد موسى على هذه المسألة بأنه لم يقصد قتل الفرعوني بل وكزه وكزة وهو جاهل بأنها ستؤدي به الى الموت، وأضاف قائلاً: وقد خفتُ أن تعاقبوني على قتل لم اقصده فخرجت من مصر فراراً منكم فوهب لي ربي بعد ذلك حكمة واصطفاني لنبوته. ولم ينس ان يرد على فرعون ما امتنّ عليه به فأجابه: ولكن أي نعمة تمنها عليّ؟ هل تربيتك لي وأنا طفل تعدها نعمة علي وانت قد استعبدت بني اسرائيل؟ فإن كنت قد اسديت اليّ نعمة فقد لاقى قومي منك الذل والهوان فإني اتألم لآلامهم، واشفق لحالهم. قال تعالى:

﴿ قال ألَمْ نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتكَ التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذاً وأنا مِنَ الضالين. ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تـَمـُنـّها عليّ أن عبّدت بني اسرائيل ﴾ الشعراء: ١٨ — ٢٢.

محاورة بين موسى وفرعون في ربوبيه الله

استغرب فرعون رسالة موسى فشرع يجادله في ربوبية الله ويسأله: (ما رب العالمين) فقال موسى لفرعون وحاشيته: رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم تدركون سرّ القدرة الالهية فيهما، فالتفت فرعون الى من حوله من اتباعه مظهراً العجب قائلاً: (ألا تستمعون)؟ وتابع موسى كلامه قائلاً: (ربكم ورب آبائكم الأولين) اي حين لم يكن فرعون موجوداً. فرد على ذلك فرعون: بأن موسى لمجنون لأنه يتكلم في امـــور غريبة، فاستمر موسى قائلاً: (رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) والى هذا يشير القرآن:

﴿ قال فـرعونُ: وما ربّ العالمين. قال: رب السموات والارض وما بينهما إن كـُنتـُم موقنين. قال لِمَن حوله: ألا تستمعون. قال: ربكم ورب آبائـِكـُمُ الأولين. قال: إن رسولـَكـُمُ الذي أُرسِلَ اليكم لمجنون. قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كـُنتم تعقلون ﴾ الشعراء: ٢٣ — ٢٨.

ولما رأى موسى وهارون عدم استجابة فرعون لهما حذراه بأن الله أوحى لهما بأن العذاب سيصيب من يرفض دعوتهما، فسألهما فرعون عندئذ عن حقيقة ربهما فأفهماه بأنه هو الذي خلق كل شيء واعطى الحياة لبعض مخلوقاته ثم هداها الى المحافظة على حياتها بما أودع بها من سنن وغرائز خاصة، ثم اراد

فرعون ان يحول الحديث إما لصرف موسى عما جاء لأجله وإما لاستطلاع بعض الأمور الغيبية فسأله : ما حال الأجيال السالفة والأمم الخالية ؟ فأحال موسى ذلك الى علم الله تعالى الذي استأثر بذلك وحده ، فعلمها مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يخطىء الله في حكمه ولا ينسى احداً من عباده في كل زمان ومكان . ثم عدّد موسى بعضاً من دلائل قدرة الله التي هي آيات على وجوده يدركها كل ذي عقل . قال تعالى :

﴿ إنّا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذّب وتولّى . قال : فمن ربكما يا موسى . قال ربّنا الذي اعطى كلّ شيء خَلْقَهُ ثمّ هدى . قال : فما بالُ القرون الأولى . قال : عِلمُها عِندَ ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى . الذي جَعَلَ لكم الأرض مهداً[1] وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنزَلَ مِنَ السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً مِنْ نباتٍ شتّى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ طه : ٤٨ ــ ٥٤ .

فرعون يأمرُ ببناء قصر للصعود الى السماء

الح موسى على فرعون بالدعوة الى الإيمان وهو في ملأ قومه ، ولما كان ذلك يُضعف من هيبته ويحط من قدره ، أصدر امره الى وزيره (هامان) بأن يبني له قصراً عالياً حتّى يطّلع الى آله موسى . ولا نظن ان فرعون كان من الجهل بدرجة أنه يأمل ان ينال السماء ببناء عال ، ولكنه أراد ان يتغفل القوم الذين معه حتّى لا يخامرهم شك في قدرته . ويذكر المفسرون ان (هامان) بنى له الصرح حتّى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء ثم صعد فرعون وصوّب سهماً الى السماء فعاد اليه النصل مخضّباً بالدم[2] فقال لمن حوله : لقد قتلت اله موسى . قال تعالى :

﴿ قال فرعون يا هامان ابْن لي صرحاً لعلي ابلغ الأسباب . أسباب السموات[3] فأطّلع الى إلّه موسى وإني لأظُنّه كاذباً ، وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصَدّ عن السبيل وما كَيْدُ فرعون إلا في تباب[4] ﴾ غافر : ٣٦ ــ ٣٧ .

---

(١) مهداً : مذللة سهلة كالمهد وهو الفراش .
(٢) غمس فرعون السهم بالدم خفية عن القوم .
(٣) اسباب السموات : ابواب السموات والطرق المؤدية اليها (٤) تباب : هلاك وخسران .

الفصل الثالث

كفاح موسى وقومه

معجزات موسى وإيمان السحرة – صمود موسى وأتباعه – مؤمن آل فرعون يحذر قومه – المؤمن يدعو إلى النجاة – تبجح فرعون .

معجزات موسى وايمان السحرة

تطور الجدل بين فرعون وموسى في شأن رسالته الالهية ، فطلب فرعون من موسى دليلاً يشهد بصدقه ، فألقى حينئذ موسى عصاه من يده فإذا هي ثعبان لا شك فيه يتحرك ، واخرج يده من جيبه فإذا هي ناصعة البياض تتلألأ للناظرين .

رأى فرعون وحاشيته ذلك فعمدوا الى التمادي في تكذيب موسى ، واحالوا ذلك منه الى السحر ، وتشاوروا فيما بينهم في شأن موسى مؤكدين انه ساحر عليم بالسحر ، وغايته من ذلك ان يخرجهم من ارض مصر بسحره ليتملك عليها ، ثم سألهم ماذا يشيرون بأمره ؟ فأشار الاشراف على فرعون بأن يمهل موسى وأخاه ويبعث في طلب السحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما أتى به موسى، لأن هذه المعجزة التي أتى بها متى كان في مقدور غيره أن يأتي بمثلها تنهار معجزته وتتلاشى دعوته .

أرسل فرعون اعوانه في انحاء مصر ليأتوه بالسحرة ، فجاءوا بكثيرين منهم ، فطلب السحرة من فرعون الأجر الجزيل إذا تفوقوا على موسى في سحره ، فقبل فرعون ذلك ووعدهم بجعلهم من المقرّبين ، هذا وقد كانت للسحر منزلة عظيمة في ارض مصر يُعنى به الملوك والأمراء ويكافئون عليه وهذا امر كشفت عنه الآثار المصرية حديثاً .

جاء اليوم الموعود لالتقاء السحرة بموسى ، وتدفقت جماهير غفيرة الى

ساحة العرض وكان ذلك في يوم الزينة ويظن انه يوم وفاء النيل ، وكان اعظم اعيادهم .

دخل موسى في حوارمع السحرة هل يلقون سحرهم ، او يلقي هو سحره أوّلاً ؟ فأصر موسى على ان يلقوا سحرهم أولاً ، وكان عتادهم العصي والحبال ، فألقوها فامتلأ مكان العرض حيّات وثعابين ، وخيّل الى موسى والجماهير انها تسعى ، فخاف الناس من هذا المشهد واوقع في قلوبهم الرهب والرعب .

ابتهج فرعون وقومه وأيقنوا بنجاح السحرة ، وان موسى لا يمكنه التفوق عليهم، ولكن الله اوحى لموسى أن يُلقي عصاه ، فألقاها كما أُمِرَ فإذا هي حية تبتلع بسرعة ما يكذبون ويموهون مما عرضوه من السحر .

دهش فرعون وقومه ، وعَلِمَ السحرةُ ان السحر لا يفعل ما فعله موسى ، وانما هي القوة الالهية صنعت هذا ، فخرّوا ساجدين لله قائلين : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

أيقن فرعون انه لم يقهر موسى ولكن موسى هو الذي قهره ، فأراد ان يستر فشله فقال للسحرة : إن موسى هو كبيركم الذي علمكم السحر . ولهذا تفوّق عليكم ، وغلب سحره سحركم ، قال هذا مع علمه بأن موسى لم يعرفهم ، ولم يسبق له ان اجتمع بهم من قبل ، ولكن المقهور يلتمس لنفسه أي عذر . ثم أخذ يظهر جبروته على اولئك السحرة قائلاً : (آمنتم به قبل ان آذن لكم) مدّعياً بأنه المتصرف في وجدانهم، وأنه كان على وشك أن يأذن لهم ، ولكنهم أجرموا بإيمانهم قبل صدور الإذن منه ، وهددهم بقطع الأيدي والأرجل ، والصلب على جذوع النخل ، فلم يثنهم تهديده عن الايمان بل قالوا : إنّا الى ربنا راجعون وما عقابك لنا إلاّ لأننا صدّقنا بموسى واذعنا لآيات ربنا الواضحة الدالة على الحق . ثم توجهوا الى الله ضارعين : يا ربنا افض علينا صبراً عظيماً لنقوى معه على احتمال عذاب فرعون وتوفنا مسلمين .
اقرأوا هذه الآيات :

﴿ قال : إن كُنتَ جئت بآية فأتِ بها ، إن كُنْتَ من الصادقين. فألقى عصاهُ فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونَزَعَ يَدَهُ فإذا هي بيضاءُ للناظرين . قال

الملأ[١] مِن قوم فرعون : إنّ هذا لساحِرٌ عليم ، يُريدُ ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمــرون ؟ قالوا : أرجه[٢] وأخَاهُ ، وارسل في المدائن حاشرين[٣] . يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السَحَرة فرعون ، قالوا : إن لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين ؟. قال : نعم وإنكم لمن المقرّبين . قالوا : يا موسى ، إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا ان نكون نحن الملقين . قال : ألقوا ، فلمّا ألقوا سَحَروا أعيُنَ الناسِ واسترهبوهم وجاءوا بسحر عَظيم . وأوحينا الى موسى : أن ألْقِ عصاك ، فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فَغُلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين[٤] . وأُلقِيَ السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . ربّ موسى وهارون . قال فرعون : آمنتم به قبل ان آذن لكم إن هذا لمكْرٌ[٥] مكرتموه في المدينة لِتُخرجوا منها اهلها فسوف تعلمون . لاقطّعنّ أيديكم وارجُلَكُم مِن خِلاف[٦] ، ثم لأصلبنّكم اجمعين . قالوا : إنّا الى ربنا منقلبون . وما تنقِمُ منّا إلاّ أن آمنّا بآياتِ ربنا لمّا جاءتنا ، ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾[٧] الاعراف : ١٠٦ – ١٢٦ .

صمود موسى وأتباعه

رأى فرعون الآيات التي أتى بها موسى فتمادى في كفره ، وأصرّ على عناده ، ولامه الاشراف على ترك موسى واتباعه يعبدون الله وحده ويتركون عبادته هو وآلهته ، وهذا فساد في الأرض بزعمهم ، فطمأنهم فرعون واعداً إياهم قائلاً : سنقتل ابناءهم وسنترك نساءهم أحياء لاسترقاقهن ، ثم شرع يحقق وعيده السيء .

وطبيعي أن يضج بنو اسرائيل بالشكوى الى موسى مما اصابهم من الظلم

---

(١) الملأ : الأشراف .
(٢) أرجه : اي أخر امره .
(٣) حاشرين : اي من يجمع السحرة .
(٤) انقلبوا صاغرين : رجعوا اذلاء .
(٥) المكر : الخداع .
(٦) من خلاف : من كل ناحية من الجسم طرف ، كاليد اليمنى والرجل اليسرى.
(٧) مسلمين : اسلم الإنسان وجهه إلى الله أخلص نفسه له لا يعرف له رباً ولا معبوداً سواه .

فأوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل والاستعانة بالله على احتماله ، ووعدهم بحسن العاقبة إن اتقوا ، فلم يخفف ذلك من مصيبتهم بل قالوا له : أوذينا قبل أن تأتينا برسالتك كما اوذينا بعد مجيئك لنا بهذه الرسالة، فقال لهم مواسياً : لعل الله يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاءه في الأرض التي وعدكم بها ، ليرى بعد ذلك ما يصدر منكم من عمل سيء او حسن فيجازيكم عليه .

اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتَذَرُ موسى وَقَومَهُ ليفسدوا في الأرض ويَذَرَكَ وآلهتك . قال : سنُقتّل أبناءهم ونستحيي نِساءهم وإنّا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتقين . قالوا : أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال : عسى ربكم ان يُهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ الاعراف : ١٢٧ ـ ١٢٩ .

مؤمن آل فرعون يحذّر قومَه

ضاق فرعون ذرعاً بموسى ، فائتمر وقومه على قتله والخلاص من دعوته ، ومن فساده على زعمهم ، قال الله تعالى :

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليَدْعُ ربّه إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو ان يُظهر في الأرض الفساد ﴾ غافر : ٢٦ .

وبينما هم في أخْذ ورد يقلبون أوجه الرأي في سبيل الإقدام على قتله إذ دفعت المروءةُ رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه ، فدافع عن موسى دفاعاً مجيداً مبيناً لهم انه لا ينبغي ان يقتلوا رجلاً يقول (ربي الله) وبالأخص انه جاءهم بالمعجزات الدالة على صدقه . ولو فرض انه كاذب فيما يقول ما نالهم ضرر من كذبه ، ولو انه كان صادقاً لأصابهم بعض الوعيد الذي توعدهم به . واستمر قائلاً لهم : انتم اليوم ذوو نفوذ وسيطرة في الأرض فمن يستطيع ان يدفع عنا عذاب الله ، اذا جاءنا . فعارضه فرعون فيما رأى وادعى انه يهدي قومه سبيل الرشاد .

ثم اخذ هذا المؤمن يذكرهم بعذاب الله وبطشه في هذه الدنيا كما حصل في الأمم السالفة بسبب اعمالها السيئة ، ثم حذرهم من عذاب الآخرة يوم يحاول

الكافرون الفرار من عذاب الله ولا مفر من هذا العذاب .

ثم ذكرهم بأن الدعوة التي جاء بها موسى اليوم ليست جديدة ، فقد جاء يوسف بالبينات الى آبائهم فارتابوا في صدقه حتى اذا توفي قالوا لن يبعث الله من بعده رسولاً ، ثم أبان لهم ان ذلك الموقف السيء ادى بهم الى الضلال لأنهم حين انصرفوا عن الرشد صرف الله قلوبهم عن الهداية ، اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وقال رجُلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتُمُ إيمانَهُ : أتقتلون رَجُلاً ان يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يَكُ كاذباً فعليه كذبُهُ ، وإن يَكُ صادقاً يُصبْكُم بَعضُ الذي يعِدُكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب . يا قوم لكم المُلْكُ اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصُرُنا من بأسِ[1] الله إنْ جاءنا ؟ قال فِرعونُ : ما أُريكم إلاّ ما أرى ، وما أهديكُم إلاّ سبيل الرشاد . وقال الذي آمن : يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دَأب[2] قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يُريد ظُلماً للعباد . ويا قوم ِ إني أخاف عليكم يوم التناد[3] . يوم تُوَلّون مدبرين[4] مالكم مِنَ الله من عاصم ، ومن يُضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبينات ، فما زلتم في شك مِمّا جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قُلتُم : لن يَبْعَثَ الله من بعده رسولاً كذلك يُضلُّ الله من هو مسرف مرتاب ﴾ غافر : ٢٨ — ٣٤ .

المؤمن يدعو الى النجاة

تمادى فرعون وقومه في الضلال ، وتابع هذا المؤمن دعوتهم الى سبيل الحق والرشاد فنصحهم بعدم الاغترار بهذه الدنيا الفانية ، والعمل للآخرة دار البقاء ، فهناك يُجازي الله السيئة بمثلها ، والحسنات يكافأ عليها المرء بأحسن ما يشتهيه ، ثم لامهم هذا المؤمن على دعوتهم له الى الكفر بينما هو يدعوهم إلى الايمان ، فالآلهة التي يدعونه الى عبادتها لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة ، حيث المرجع الى الله وحده ، ثم نبههم بأنه سيأتي وقت يذكرون

---

(١) البأس : العذاب .

(٢) دأب : جزاء .

(٣) يوم التناد : يوم القيامة .

(٤) تولون مدبرين : تبتعدون محاولين الهرب .

فيه نصحه إياهم ، وأنه يفوض أمره الى الله . ولقد هموا بقتله فوقاه الله سوء عملهم ، وكانت عاقبته السعادة ، وعاقبة آل فرعون الشقاء .

بيّن القرآن هذا النداء الذي وجهه ذلك المؤمن بأسلوب رائع يشع منه الاخلاص والصدق يجعلك تخرج من قراءته باقتناع تام بمصدره الالهي لما يثيره في نفسك من إحساس روحي ورعشة سماوية تصلك بالله . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وقال الذي آمن ، يا قومِ ، اتّبعون أهدِكُم سبيل الرشاد . يا قومِ إنّما هذهِ الحياة الدنيا متاع[1] ، وإن الآخرة هي دارُ القرار[2] . من عَمِلَ سيئة فلا يُجزى إلاّ مثلَها ، ومن عَمِلَ صالحاً من ذكَر أو أُنثى — وهو مؤمن — فأولئك يدْخلون الجنّة ، يُرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ؟ تدعونني لأكفُر بالله ، وأشْرِك به ما ليس لي به علم ، وأنا ادعوكم الى العزيز الغفّار . لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردّنا الى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار[3] . فستذكرون ما أقولُ لكم ، وافوّض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد . فوقاهُ الله سيئات ما مكروا وحاق بآلِ فرعون سُوءُ العذاب ﴾ غافر : ٣٨ — ٤٥ .

تَبجّح فرعون

استمر فرعون في غيه، وأخذته عزة الملك فجمع قومه ونادى فيهم قائلاً : يا قوم ألست ملك مصر وصاحب الأمر والنهي فيها ؟ اليس نهر النيل وفروعه تجري بين قصوري وجنائني ؟ ألست خيراً من هذا الحقير المهين (يقصد موسى عليه السلام) ؟ هذا الذي لا يكاد يستطيع ان يعبّر عمّا يجول في خاطره (لحبسة في لسانه)، ثم تابع قوله: ان هذا الرجل ليس عليه سمة الرياسة ، فكيف تريدون ان تتبعوه دون ان تُلقى عليه اسورة الذهب فيتحلى بها كما

(١) انما هذه الدنيا متاع : اي هذه الدنيا يتمتع بها الناس تمتعاً موقوتاً ينتهي بانتهاء الآجال او بزوال اسباب التمتع كالمال او الصحة مثلا .

(٢) دار القرار : اي دار الاستقرار والاقامة والخلود .

(٣) وان المسرفين هم اصحاب النار : اي ان متجاوزي الحد في الظلم والاشراك هم الذين يدخلهم الله النار .

يتحلى بذلك الملوك ؟ ولماذا لا تأتي معه الملائكة يمشون وراءه صفاً صفاً مقترناً بعضهم ببعض ليكونوا اتباعه واعوانه كما تمشي الحاشية خلف الملك ؟

استهوى فرعون بكلامه الباطل هذا عقولهم فأطاعوه وانقادوا اليه لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ ونادى فرعونُ في قومه ، قال يا قَوْمِ أليسَ لي مُلْكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم انا خير مِنْ هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكاد يُبين ؟ فلولا أُلقي عليه أسورة مِنْ ذَهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ الزخرف : ٥١ ـــ ٥٤ .

الفَصْلُ الرَّابع

مَصِيرُ فِرعَونَ وَقَومِهِ

المصائب التي ابتلاهم الله بها – خروج بني إسرائيل وهلاك فرعون وقومه – مصير آل فرعون في الآخرة.

المَصَائبُ التي ابتلاهم الله بها

لم تنفع فرعون وقومه الموعظة الحسنة من موسى عليه السلام ، بَل ازدادوا علوّاً في الأرض وطغياناً وتعذيباً للمؤمنين ، إزاء هذا دعا موسى ربه قائلاً : يا رب انك اعطيت فرعون والأشراف من قومه زينة الدنيا وبهجتها من الأموال والثياب الفاخرة والقصور والجنائن والسلطان . لكنهم قابلوا هذه النعم بالعناد والكفر وصرفوا الناس عن الإيمان بك ، اللهم امحق اموالهم ، وزد قلوبهم قسوة وعناداً فلا يُوفقوا للإيمان حتّى يـروا العذاب الاليم رأي العين يصيبهم .

بهذا دعا موسى ربه وأمّن على قوله اخوه هارون ، فقال الله لهما : قد أُجيب دعاؤكما فاستمرا على السير في الطريق المستقيم واتركا سبيل اولئك الذين لا يعلمون سبيل الحق الذي وضح لكما . قال تعالى :

﴿ وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأهُ زينة وأموالاً في الحياة الدُنيا ، ربنا ليُضلّوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على اموالهم ، واشدُدْ على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يَرَوا العذاب الأليم . قال : قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعانِ سبيل الذين لا يعلمون ﴾ يونس : ٨٨ — ٨٩ .

استجاب الله دعاء موسى فعاقب فرعون وقومه بالجذب والقحط ونقص من ثمرات الزرع والاشجار رجاء أن ينتبهوا الى ضعفهم، وعجز ملكهم والههم فرعون امام قوة الله فيتعظوا ويستجيبوا لدعوة موسى ، ولكن طبيعتهم تأبى العظة والاعتبار مما يصيبهم ، فإنهم إذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا : نحن

نستحق ذلك لمّا لنا من امتياز على الناس ، وإن اصابهم ما يسوءهم كقحط او مصيبة تنزل بهم يتشاءموا بموسى ومن معه ، ولكن هؤلاء لايعلمون ان الخير الذي يأتيهم او الشر الذي يداهمهم إنما هو مقدّر من عند الله . قال تعالى :

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونَقْصٍ من الثمرات لعلّهم يذّكّرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تُصبهم سيئةٌ يطيّروا بموسى ومن معه ألا إنما طائِرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ الاعراف : ١٣٠ — ١٣١ .

ولكن طبيعة فرعون وقومه الموغلة في السوء أبت الإذعان للآيات الواضحة التي تدل على رسالة موسى ، فاستمروا في إجرامهم حينئذ أصابهم الله بصنوف أخرى من المصائب والنكبات : بالطوفان يغمر ممتلكاتهم ومزارعهم ، وبالجراد يأكل مزروعاتهم ، وبالقمل وهو حشرة تفسد الثمار وتؤذي الإنسان والحيوان . وبالضفادع التي انتشرت في كل مكان فنغصت حياتهم وافسدت صفاء عيشهم ، كما أرسل عليهم آفة جعلت الدم يسيل من انوفهم وافواههم وتلوثت بذلك مياههم فضعفت اجسامهم ، وكانوا كلما حل بهم العذاب يقولون لموسى : لئن كشف الله ما بنا من سوء وعذاب سنؤمن بربك ونرسل معك بني اسرائيل ، ولكن ما إن يكشف الله عنهم العذاب حتى ينكثوا بوعدهم . قال تعالى :

﴿ وقالوا : مهما تأتِنا به من آية لِتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمّل والضفادعِ والدّمَ آياتٍ مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولمّا وقع عليهم الرِّجز[1] ، قالوا : يا موسى ، أدْعُ لنا ربك بما عهد عِندَك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسِلنّ معك بني اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرّجــز الى أجل هم بالِغوه إذا هُم ينكثون ﴾ الاعراف : ١٣٢ — ١٣٥ .

خروج بني اسرائيل وهلاك فرعون وجنوده

جاء الأمر الالهي لموسى بالخروج من مصر ، فانطلق بقومه بني اسرائيل سراً من ارض مصر قاصداً فلسطين ليلاً .

علم فرعون بذلك فأرسل اعوانه في الأقاليم يجمعون الناس بعنف لتجهيز

---

(١) الرجز : العذاب .

جيش كبير ليقتفوا أثَرَ بني اسرائيل وليدركوهم قبل ان يهربوا الى فلسطين ، ولم يرغب فرعون أن يظهر الخوف فأذاع في مصر ان الفارين شرذمة ضئيلة لا يخشى شرها ، وقد اغاظونا بهربهم وأخذهم أموالنا وحلي نسائنا ، وقد كنا دائماً متيقظين لهم نتتبع حركاتهم .

خرج فرعون وجنوده يتبعون موسى وبني اسرائيل وتركوا وراءهم ما كانوا يتمتعون به من بساتين وجنات وكنوز من الذهب ومقام كريم من المساكن الفخمة ، لقد تركوا هذه النعم الى الأبد لأنهم لن يرجعوا ابداً الى وطنهم ، ولكن بني اسرائيل ورثوا مثل هذه النعم في فلسطين .

وصل بنو اسرائيل الى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس عندئذ أيقنوا بالهلاك ، واستولى الذعر على على نفوسهم وقالوا لموسى : لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به فماذا نفعل والبحر أمامنا ؟ قال لهم موسى : لا تخافوا إن ربي معي سيرشدني الى طريق النجاة . عندئذ أوحى الله لموسى بأن يضرب البحر بعصاه ففعل ، فانشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد اسباط بني اسرائيل ووقف الماء بينها كالجبل العالي . سار بنو اسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر . وأشرف في في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبروه فرأى طريقاً في البحر ، فاقتحم هو وجنوده هذا الطريق خلف بني اسرائيل فانطبق الماء على فرعون وجنوده واغرقهم جميعاً ، وأنجى الله موسى ومن معه من بني اسرائيل .

وصف القرآن هلاك فرعون في عدة آيات منه لما يكمن فيه من العِبر ، وبأساليب شتى من البيان والفصاحة وكان الوصف تارة بآيات قصيرة زاخرة بالمعاني التي تتلاحق بسرعة وتارة بآيات طوال للتأمل وإمعان الفكر لما تحتويه من المعاني الرائعة .

وبعض هذه الآيات يعطيك المعنى موجزاً يغنيك عن الشروح الطويلة ، وهي بتنوعها واختلافها زاخرة بالايقاع الموسيقي القريب من الشعر والسجع ولكن لا هو شعر ، ولا هو سجع . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وأوحينا إلى موسى : أن أسْرِ بعبادي إنّكم مُتّبعون . فأرْسَلَ فِرعونُ في المدائنِ حاشرين . إن هؤلاء لشرذمةٌ قليلون . وإنّهم لنا لغائظون .

وإنّا لجميعٌ حاذرون . فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون ، وكنوز ومقامٍ كريم[1] ، كذلك وأورثناها بني اسرائيل . فأتبعوهم مُشرقين . فلما تراءى الجمعان ، قال أصحابُ موسى إنّا لمدركون . قال : كلاّ ! إن ، معي ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى : أن اضرِب بعصاك البحر . فانفلق فكان كلّ فِرْقٍ كالطود العظيم[2] ، وأزلفنا[3] ثَمّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين ﴾ الشعراء : ٥٢ — ٦٧ .

ويصف القرآن الانحدار الأليم لقوم فرعون من النعيم إلى الهلاك بقوله :

﴿ فأسرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتّبعون . واتركِ البحر رَهْواً[4] إنهم جُنْدٌ مُغرقون . كم تركوا من جنّاتٍ وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين[5] . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين[6] . ولقد نجينا بني اسرائيلَ مِن العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ الدخان : ٢٣ — ٣١ .

ويبين القرآن العاقبة الحسنى لبني اسرائيل على صبرهم بقول الله تعالى :

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعفون مَشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمّت كلمةُ ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا . ودمّرنا ما كان يصنع فرعونُ وقومُهُ وما كانوا يعرِشون ﴾[7] الاعراف : ١٣٧ .

ويصف القرآن نفسية فرعون عند الغرق وبقاء حطام جسمه الى الآن :

﴿ وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتْبَعهم فِرعونُ وجنودُهُ بغياً وعدْواً حتى إذا أدركَهُ الغرق قال: آمنت انه لا اله إلاّ الذي آمنت به بنو اسرائيل

(١) مقام كريم : منزل بهي بهيج .
(٢) كل فرق كالطود العظيم : كل جزء كالجبل العظيم .
(٣) وازلفنا ثم الآخرين : وقربنا هنا الفريق الآخر من البحر .
(٤) رهوا : ساكناً .
(٥) نعمة كانوا فيها فاكهين : رغد في العيش كانوا ناعمين فيه متمتعين به .
(٦) وما كانوا منظرين : لم يمهلوا الى وقت آخر .
(٧) يعرشون : يبنون من قصور وغيرها .

وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قَبْلُ وكُنتَ من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خَلْفَكَ آيةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ يونس : ٩٠ — ٩٢ .

تأمل قول الله تعالى: ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ هذه الآية معجزة علمية للقرآن تشهد انه وحي الهي وأن محمداً رسول الله حقاً . فالآية تشير الى ان جسم فرعون سيبقى محفوظاً ليراه الناس ويعتبروا برؤية تلك الجثة لمن كان يعتبر نفسه الهاً والى القارىء توضيح ذلك :

تذكر التوراة ان فرعون مصر الذي اضطهد بني اسرائيل كان يستخدمهم في بناء مدينتين (فيتوم ورعمسيس)[1] وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود هاتين المدينتين اللتين بناهما رعمسيس الثاني .

وتذكر التوراة بعد ذلك (ان ملك مصر مات)[2] .

وكان ذلك عند هرب موسى الى مدين وقبل تلقيه رسالة ربه .

وقد خلف منفتاح بن رعمسيس الثاني أباه في الحكم ، فيكون منفتاح هو فرعون الخروج الذي أرسل الله موسى اليه لإخراج بني اسرائيل من مصر وهو الذي لحق بموسى عند البحر وغرق ، وبقيت جثته الى الآن كما يذكر القرآن وكما تحقق صدقه في سنة ١٩٠٠ بعد الميلاد اي بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن، فقد عُثِرَ على جثته في الحفريات في الاقصر في قبر (امنحتب الثاني) وجثته اليوم بالمتحف المصري . والجدير بالذكر انه قد ظهر من آثار قبر منفتاح انه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله لأن موته لم يكن منتظراً فلم يُهيأ له قبر خاص .

مصيرُ آل فرعون في الآخرة

هكذا كانت عاقبة آل فرعون في الدنيا إغراقهم في البحر . أما في الآخرة فلم يهمل القرآن ذكر ما أعده لهم من العذاب بما فيه تبصرة وعظة لكل مؤمن . قال تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب . النار يُعرَضون عليها غُدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدْخِلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ غافر : ٤٥ — ٤٧

(١) الفصل الأول من سفر الخروج آية ١١ .
(٢) الفصل الثاني من سفر الخروج آية ٢٣ .

الفصل الخامس

في الطريق الى أرض الميعاد

رواسب الوثنية في بني اسرائيل – فضل الله على بني إسرائيل – موعد لموسى مع ربه – عبادة بني اسرائيل للعجل – عقاب لبني اسرائيل ثم عفو عنهم – رفع الجبل فوق بني إسرائيل – إحجام بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة – تيه بني إسرائيل .

رواسبُ الوثنية في بني اسرائيل

لقي موسى الأهوال من بني اسرائيل في سبيل دعوتهم الى عبادة الله وحده، وكانت المعجزات التي ايّده الله بها كافية لأن تنزع منهم كافة رواسب الوثنية، ورغم هذا فقد كانت تعاودهم الوثنية التي ألفوها طوال عهدهم مع المصريين .

فمن مظاهر ذلك انهم عندما جاوزوا البحر مرّوا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى ان يتخذ لهم صنماً يعبدونه مثل هؤلاء الوثنيين، فلامهم موسى على جهلهم واكد لهم أن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام دينهم باطل واعمالهم خاسرة ولذا فإن مصيرهم الهلاك، ثم أبدى عجبه كيف انهم يطلبون معبوداً غير رب العالمين الذي خصهم بإكرامه وفضلهم على الأمم التي كانت في زمانهم بوحيه ورعايته . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وجاوزنا ببني اسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكُفُون[1] على أصنام لهم، قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال: إنكم قومٌ تجهلون . إنّ هؤلاءِ مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال: أغَيْرَ الله أبغيكُم إلهاً وهو فضّلكم على العالَمين ﴾ الاعراف : ١٣٨ – ١٤٠ .

---

(١) يعكفون : العكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم .

فضلُ الله على بني اسرائيل

تابع بنو اسرائيل مسيرهم وجاءوا الى الشاطىء الشرقي فلم يجدوا ماء لشربهم وسقياً لدوابهم ، فشكوا امرهم الى موسى متذمّرين وطلبوا منه الماء ، فأمره الله ان يضرب الحجر بعصاه ، فلما ضربه تفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً [1] ، لكل قبيلة منهم عين ترويها .

ولما وصلوا الى سهول شبه جزيرة سيناء ، والشمس فيها شديدة فلا مساكن يأوون اليها ، ولا شجر يلتمسون تحته الظل ، شكوا الى موسى ما يلقون من عناء فدعا موسى ربه فساق لهم الغمام يقيهم حرارة الشمس .

ولما كان زادهم عرضة للنفاد ، سأل موسى ربه مرة اخرى الطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى . والمن مادة تنزل من الجو كما ينزل الطل ، تنزل على الحجر وورق الشجر طعمها حلو كالعسل . والسلوى طائر السماني يأتي اليهم أسراباً متلاحقة فيكاد يغطي الأرض بكثرته . وبعد أن تفضل الله عليهم بهذه النعم امرهم ان يأكلوا من هذه الطيبات ، ولكنهم كفروا بتلك النعم وطلبوا غيرها ، فكانوا بذلك من الظالمين لانفسهم . اقرأوا هذه الآية :

﴿ وقطّعناهم اثنتي عشرة اسباطاً أُمَماً ، وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه : أن اضرب بعَصَاكَ الحجر فانبجست[2] منه اثنتا عشرة عينا ، قد عَلِمَ كُلَّ أناسٍ مَشْرَبَهُمْ وظلّلنا عليهم الغَمَامَ ، وأنزَلْنَا عَلَيهِمُ المَنَّ والسلوى ، كلوا من طيّبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ، ولكن كانوا انفُسَهُم يظلمون ﴾ الاعراف : ١٦٠ .

مَوعِدٌ لموسَى مع ربه

اخبر موسى بني اسرائيل وهم بمصر ان الله سيهلك فرعون وأنه سينزل عليهم كتاباً من عنده فيه الأوامر والنواهي التي ينبغي ان يسيروا عليها . فلما اهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله ان يقصد سفح جبل الطور الأيمن ويمكث فيه ثلاثين يوماً صائماً متعبداً الله ، فلما أتم موسى ثلاثين

---

(١) هذه العيون بالبر الشرقي من القناة قريبة من مدينة السويس هي شهيرة بـ (عيون موسى) ، وقل اليوم ماء هذه العيون وبعضها طمست آثاره .

(٢) انبجست : انفجرت .

يوماً ، أمره الله باستئناف الصيام عشرة أيام اخرى استكمالاً لعبادته، وكان موسى قبل ان يتوجه لمناجاة ربه قد اوصى هارون قائلاً : كن خليفتي في قومي ، واصلح امرهم واحذر ان تتبع طريق المفسدين .

وبعد تمام الاربعين كلمه ربه بكلامه الازلي فنال بذلك حظوة امتاز بها عن البشر، عندئذ عظم لهفه وغلبه شوقه فطلب من ربه التجلي عليه برؤيته . فقال الله له : لن تراني ، ثم اراد الله ان يعلمه انه انما طلب شيئاً عظيماً لا تتحمله الجبال فقال له: لاتطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو اقوى منكِ واشد فإن استقر وأطاق الصبر لرؤيتي ولهيبتي أمكنك ان تراني وإن لم يُطِق فأحرى بك ألا ترى . فلما تجلى ربه للجبل جعله مفتتاً مستوياً بالأرض وسقط موسى مغشياً عليه لهول ما رأى ، فلما أفاق من غشيته قال : انزهك يا رب تنزيهاً يليق بجلالك وأتوب اليك ، وأنا اول المؤمنين في زماني بعظمتك ، فخاطبه الله بأنه اصطفاه على الناس برسالاته (وهي اسفار التوراة) التي تحتوي على ما يحتاجه بنو اسرائيل من المواعظ والأحكام ، وامره أن يأخذ قومه بأحسنها أي أن يسيروا على افضل ما رسم فيها، فإذا نُص على فعلين احدهما يستدعي ثواباً اعظم فعليهم أن يأخذوا بالأفضل ، ثم حذر الله بني اسرائيل من الخروج عن طاعته لئلا يصيبهم بعذابه كما اصاب غيرهم من الفاسقين .

اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، واتممناها بعشرٍ . فتَمَّ ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : اخلُفني في قومي واصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه ، قال : رب أرِني انظر اليك ، قال : لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعَلَهُ دكّاً وخرّ موسى صعِقاً فلما افاق ، قال : سبحانك تُبْتُ اليك ، وانا أوّلُ المؤمنين . قال : يا موسى إني اصطفيتُك على الناسِ برسالاتي وبكلامي فخُذ ما آتيتُك وكُن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء فخذها بقوّة وأمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها سأُريكم دار الفاسقين ﴾ الاعراف : ١٤٢ ــ ١٤٥ .

عبادة بني إسرائيل للعجل

ذكرنا فيما سبق أن الوثنية كانت متأصلة آثارها في قلوب بني اسرائيل

بسبب ملازمتهم الطويلة للمصريين . ومن مظاهر ذلك عبادة العجل ، فكانت العجول المؤلهة إذا ماتت في مصر حنطوها ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة تسمى (سرابيوم) .

وقد استغل هذه الظاهرة رجل ماكــر من بني اسرائيل سماه القرآن (السامري) فجاءهم بعجل وقال لهم: هذا الهكم وآله موسى وقد نسيه هنا وذهب لملاقاته في هذه الغيبة الطويلة عنكم .

وتفصيل ذلك : ان موسى اخبرهم – قبل ذهابه لمناجاة ربه – ان غيبته عنهم لن تطول اكثر من ثلاثين يوماً ، فلما امر الله موسى أن يستأنف صومه عشرة أيام أخرى وطالت غيبته عن قومه استبطأوه ، وقالوا: ان موسى اخلفنا وعده ، فعندئذ تحركت نزوة الشر في نفس السامري ، فاغتنمها فرصة وأخذ من بني إسرائيل بعض حليهم التي كان نساؤهم قد جلبنها من مصر ، وألقاها في النار وسبك منها عجلاً وصاغه بطريقة هندسية خاصة تجعل الريح اذا دخلته تعطي اصواتاً من فمه كصوت البقر ، ثم امرهم السامري بعبادته .

تصدى لهم هارون وافهمهم انهم فتنوا وجهد في ردهم عن عبادة العجل فلم يفلح واصروا على عبادته حتى يرجع اليهم موسى .

فلما كلم موسى ربه اخبره ان قومه فتنهم السامري عن دينهم واضلهم ، فعاد موسى اليهم وهو في اشد حالات الغضب والحزن ، وقال لهم : ألم يَعِدْكم ربكم وعداً حسناً بأن يعطيكم التوراة التي فيها هدى ونور؟ وقد وفى بوعده ، أم طال بكم عهد مفارقتي لكم فاستبدلتم الكفر بالإيمان ؟ ام اردتم ان تفعلوا فعلاً سيئاً يستوجب غضب ربكم فأخلفتم ما وعدتموني من الثبات على الايمان ؟ فقالوا لموسى لم نخلف وعدنا اياك باختيارنا ورغبتنا ولكن اضلنا السامري وغلبنا على رأينا وقال لنا: إن ما لدينا من ذهب اخذناه من المصريين قد اغضب ربنا وما هو إلاّ اوزار نحملها تؤخر عودتك الينا ، والرأي أن نقذفها في النار ليرضى ربنا وترجع إلينا فصدقناه وقذفنا بالحلي في النار وكذلك فعل السامري فقذف ما معه من حلي ، واخرج لنا من هذه الحلي تمثالاً لعجل وقال لنا : هذا الهكم الذي ينبغي ان تعبدوه ، وهو اله موسى الذي غفل عنه وذهب يطلبه في الطور .

ما أسخف عقول هؤلاء القوم افلا يرون ان هذا التمثال لا يضرّ ولا ينفع ولا يقدر ان يرد عليهم الكلام لأنه جماد صامت ؟!

توجه موسى الى اخيه هارون وقال له في عنف وهو يجذبه من لحيته وشعر رأسه : ما منعك إذ رأيت القوم وقد فُتنوا ومالوا الى عبادة العجل ان تتبعني وتلحق بي لتخبرني بحالهم ؟! فقال هارون : خشيت ان تظن اني فرقت بين بني اسرائيل فجعلت فريقاً يتبعك وفريقاً يتبع السامري ، وخشيت ان تقول لي : إنك تركتهم وقد امرتني بالبقاء معهم فانتظرتك حتى تعود .

ثم اقبل موسى باللوم الشديد على السامري الذي تسبب في اضلالهم، فأجابه السامري قائلاً : عرفت ما لم يعرفه احد من انك لست على حق، وكنت قد اتبعتك واخذت بشيء من دينك ثم تركته وعدت الى عبادة العجل ، وبمثل هذا حدثتني نفسي وحسنته لي ففعلته ، عندئذ قال له موسى : إذهب فإن الله عاقبك بأن تقول في حياتك: « لا مساس » . فكان يتألم من مس اي انسان له، فإذا لقي إنساناً وخشي ان يمسه يقول له: « لا مساس » . ثم ذهب موسى نحو العجل فأحرقه واذرى بقاياه في البحر .

ندم بنو اسرائيل على زلتهم ، واستغفروا ربهم ، فأوحى الله لموسى ان توبتهم تكون بقتل أنفسهم ، اي بكبت شهواتها وتطهيرها من الشرور والآثام وتجريدها من كل مشتهى مرغوب . عندئذ يتوب الله عليهم . قال تعالى :

﴿ قال فإنّا قد فتَنّا قومك من بَعدِك وأضلّهُمُ السامريّ . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً، قال يا قوم ألَمْ يَعِدْكم ربكم وَعْداً حسناً، أفطال عليكم العهد ام أردتم ان يَحلّ عليكم غَضَبٌ من ربكم فأخلفتُم موعدي ؟ قالوا : ما أخلفنا مَوْعِدك بِمَلْكنا[1] ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامريّ . فأخرج لهم عِجْلاً جسداً له خوارٌ فقالوا : هذا إلهكم وإلَه موسى فنسي . افلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل: يا قوم انما فُتِنْتُم به، وإنّ ربّكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري . قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى . قال: يا هرونُ ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتّبِعَنِ ،

---

(١) بملكنا : باختيارنا .

أفعصيْتَ امري ؟ قال : يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيتُ ان تقول : فرّقْتَ بين بني اسرائيل ولم ترقُب قولي . قال : فما خطبُكَ يا سامري ؟ قالَ : بَصُرْتُ بما لم يبصروا به فقبَضْتُ قبضةً من أثَرِ الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي . قال : فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مِساس ، وإن لك موعداً لن تُخْلَفه ، وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنّه ثم لنَنْسفنه في اليمّ نسفاً ﴾ طه : ٩٣ ـ ٩٨ .

ويشير القرآن الى هذا في موضع آخر : ﴿ وإذ قال موسى : لقومه إنكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خيرٌ لكم عند بارئكم[1] ، فتاب عليكم انه هو التوّاب الرحيم ﴾ البقرة : ٥٤ .

عقابٌ لبني إسرائيل ثم عفو عنهم

رأى بنو اسرائيل انهم قد ظلموا انفسهم ، وقارفوا اثماً كبيراً بعبادة العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً للذهاب معه الى جبل الطور ـ الذي اعتاد ان يناجي ربه فيه ـ ليقدّموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا من إثم ، وهناك كلّم الله موسى ، ولكن جماعة منهم لم يؤمنوا ان الله هو الذي يكلم موسى فتمرّدوا وعصوا وقالوا له : لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة بأعيننا لا يحجبه حاجب . على إثر هذا الطلب أخذتهم الصاعقة جميعاً فراحوا يتساقطون على الأرض صرعى ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم بعد أن تضرّع موسى ، وطلب العفو عمّا صدر من سفهائهم وبعد ان دعا ربه ان لا يؤاخذ المجموع بما فعله بعض السفهاء ، فغفر الله لهم ذلك واعادهم الى الحياة ، فطلب موسى عندئذ لقومه الرحمة والمغفرة ، فأخبره ربه بأن ذلك راجع لمشيئته ، كما اخبره أنه كتب رحمته للمتقين الذين يؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآيات الله . قال تعالى :

﴿ واختار مُوسى قومَهُ[2] سبعين رجُلاً لميقاتنا[3] ، فلمّا أخذتهم الرجفة[4] قال : رب ، لو شئتَ أهلكتهم من قَبْلُ وإيّاي ، اتهلكنُا بما فَعَلَ السفهاء مِنّا ؟ إن هي إلاّ فتنتك تُضِلّ بها من تشاءُ وتهدي من تشاءُ ، انت

(١) بارئكم : خالقكم .
(٢) قومه : اي من قومه .
(٣) لميقاتنا : اي للوقت الذي وقته الله ليعتذروا به عما صدر من سفهائهم من عبادة العجل .
(٤) الرجفة : الزلزلة الشديدة ، اي اصابتهم رجفة الجبل بالصعق .

وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدُنيا حَسَنَةً وفي الآخرة إنّا هُدْنا اليك ، قال : عذابي أُصيبُ به من أشاءُ ورحمتي وسِعَتْ كُلَّ شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الاعراف : ١٥٥ ، ١٥٦ .

﴿ وإذ قُلتُم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثمّ بعثناكم مِنْ بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ البقرة : ٥٥،٥٦ .

رَفعُ الجبل فوق بني اسرائيل

استمر موسى في اصلاح بني اسرائيل ولكنه رأى منهم معارضة وقسوة . عندئذ تهدّدهم الله بالسحق بأن رفع جبل الطور فوقهم فارتاعوا وظنوا انه واقع عليهم فتضرعوا الى الله فأمرهم أن يأخذوا حينئذ ما آتاهم من الاحكام بقوة اي بدون تذمر وان يدرسوا ما في الكتاب ولا يغفلوا عنه لعلهم بذلك يصبحون من المتقين ، فلما ازال الله عنهم هذه الغمة أعرضوا عن هدى الله، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لكانوا من الخاسرين . قال تعالى :

﴿ وإذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ البقرة : ٦٣ ، ٦٤ .

إحجام بني إسرائيل عَن دُخول الأرض المقدّسة

أمر الله موسى ان يذهب ببني اسرائيل الى الارض المقدسة فلسطين للإقامة بها، فخاطب موسى قومه مذكراً اياهم بالنعم التي أنعمها الله عليهم: بأن جعل فيهم أنبياء كثيرين لهدايتهم من الضّلال . وأنه جعلهم أحراراً بعد أن كانوا في رق العبودية ، وآتاهم من النعم الكثيرة التي اختصهم بها على عالم زمانهم ، فمن واجبهم ازاء ذلك ان يشكروا الله ويتلقوا ما يأمر به بقبول حسن .

وقبل ان يطلب موسى من قومه دخول الأرض المقدسة أرسل رواداً للاستطلاع وليأتوه بخير أهلها ، فلما رجعوا اخبروه ان قومها أقوياء طوال الهامات ، وأن مدنها حصينة ، فارتاع بنو اسرائيل ولم يمتثلوا لأمر موسى بمباشرة الغزو : بل قالوا له : ان في هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهم فلن ندخلها ما داموا فيها ، فإذا ما خرجوا منها فإنّا نلبي طلبك وندخلها قال تعالى :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ احداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كَتَبَ الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون ﴾ المائدة : ٢٠ ، ٢١ .

تيه بني اسرائيل

وحيث ان كل جماعة لا تخلو من أفراد ذوي مزايا حسنة فقد انبرى رجلان — ممن فَطَرَ الله نفسيهما على التقوى — الى قومهما ناصحين : ادخلوا على القوم في عقر دارهم من باب المدينة عندئذ يدخل الذعر قلوبهم فتنتصروا عليهم ، وتوكلوا على الله إن كنتم تؤمنون به حق الإيمان .

ولكن بني اسرائيل أبوا النصيحة وقالوا لموسى هذه الجملة التي تفوح باللؤم والتمرد والجبن : ﴿ اذهب انت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ .

هكذا كانت نهاية المطاف بموسى ، نهاية الجهد والسفر الطويل : اعراضاً من بني اسرائيل عن دخول الأرض المقدسة .

ماذا يصنع موسى بعد هذا الجهد الجهيد في اصلاح قومه وتمردهم المستمر ؟ هل هناك غير الشكوى لله قائلاً : رب لا سلطان لي إلا على نفسي واخي فاقض بعدلك بيننا وبين هؤلاء الفاسقين . فاستجاب الله له واخبره بأن الأرض المقدسة محرّمة عليهم وانهم سيتيهون في الأرض في صحراء سيناء أربعين سنة ، فلا يأخذه الحزن على هؤلاء الخارجين على طاعة الله ، قال تعالى :

﴿ قال رجُلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا: يا موسى إنّا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون . قال : ربّ إني لا أملك إلاّ نفسي واخي فافرُق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرّمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين ﴾ . المائدة : ٢٣ — ٢٦ .

الفصل السادس

دروس وعبر من قصة موسى

أصلاح الأمم بعد فسادها – عاقبة الكفر والظلم – صمود العقيدة – انتصار الحق على الباطل – حرية الشعوب – الدعوة الى الكفاح – تقويض الطغيان – نجاة المؤمنين – التحرّر من سلطان التقاليد – التحلي بالقول اللين -- الايمان عن طريق العقل – دحض معتقدات المصريين القدماء – تنزيه الله وتقديره حق قدره .

إصلاح الأمم بعد فسادها

ان الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد ، وتُعامل بالظلم والاضطهاد من قِبَل حكامها تَفسُدُ اخلاقها ، وتُذَلّ نفوسها ، فتستسيغ حكم كل طاغ وإذا طال عليها الأمد تصبح هذه الأخلاق موروثة ومن صميم طباعها .

هكذا كان الحال مع بني اسرائيل ، أفسد ظلم الفراعنة فطرتهم في مصر ، وطبعها بطابع المهانة والذل والجبن الى ان جاءهم موسى يدعوهم الى الجهاد لدخول الأرض المقدّسة ، ولكن نفوسهم المهينة التي ألفت الذل والاستعباد لم تطاوعهم على الجهاد ، لهذا يخبرنا القرآن ان الله تركهم يتيهون في الصحراء اربعين سنة ﴿ قال : فإنها محرّمة عليهم[1] أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

تلك هي التربية الإلهية التي أخذهم بها رب العالمين ، وهي أن يتهيوا في الصحراء لتربى فيهم عناصر البأس والقوّة والاعتماد على النفس ، وليذهب الجيل القديم الذي رضخ للطغيان ، واستعذب العبودية ، ولينشأ جيل جديد يجمع بين حرية البداوة وقسوتها ، وعدل الشريعة وهدايتها ، رباهم الله هذه التربية ليمكنهم بعد ذلك من دخول الأرض المقدسة ، فيكون لهم بذلك السيطرة

---

(١) محرمة عليهم : المقصود بذلك بيت المقدس .

على نفوسهم والاستجابة السريعة للواجب ، والحياة الصحيحة ، حياة السيد العزيز لا العبد الذليل . فعلينا ان نعتبر بهذه التربية الالهية ونعلم ان إصلاح الأمم بعد فسادها إنما يكون بانشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة وما فيها من استقلال وخشونة ، وبين العمل بالشريعة الالهية وما فيها من هدى وعدالة .

ونستطرد في هذا المقام قليلاً ونلقي نظرة على مجتمعنا الذي تغلغل فيه الفساد فنجد ان من اهم المؤثرات التي توجّه الاجيال الجديدة هي : الافلام السينمائية ، وبرامج التلفزيون ، والصحف ، والمجلات . فهل من الصواب ان نهمل هذه المؤثرات وندعها لأهواء المنتجين والمخرجين وأصحاب الصحف في سبيل زيادة مواردهم مِنَ المال ، ولو كان ذلك على حساب إفساد الأمة وميوعتها ؟

وهل من الصواب أن نقلد الأفلام الأجنبية المائعة التي يسيطر على اكثر الشركات السينمائية فيها اليهود ، ونسير على طريقتهم واسلوبهم في الموضوعات ومشاهدة الأفلام المغرية ؟ لماذا لا تساهم الحكومات العربية في انتاج الافلام التوجيهية وتمنع انتاج الافلام المائعة المستهترة ؟

لماذا لا تقيم الحكومات العربية رقابة شديدة صالحة على الافلام المستوردة من الخارج التي تنشر الخلاعة والاستهتار والفساد بين أبناء الجيل الجديد ؟

لماذا لا تقفل الحكومات العربية أبواب الصحف التي تنشر مثالب الناس وتستغل الفضائح ، وتنشر الصور الخليعة في صدر صفحاتها إرضاء لنزوات الناس من جهة وطمعاً بالتجارة الرخيصة من جهة اخرى ؟

لماذا لا تمنع الحكومات العربية الرقص الشرقي والاجنبي المثير مِن برامج التلفزيون ، هذا النوع من الرقص الذي ليس له غاية إلاّ اثارة الشهوات البهيمية وخصوصاً عند المراهقين فيصيبهم من ذلك اضرار كثيرة في نفوسهم ومنهج سلوكهم؟ ولماذا لا تمنع الافلام البوليسية التي يكثر فيها القتل والاجرام والتي تطبع في عقول بعض الشبان هستيريا السلب والجريمة ؟

لماذا لا تقف الحكومات العربية سدّاً امام سيل هذه الأزياء المستوردة من الخارج والتي تكشف عن عورات المرأة ومفاتنها مما تستنكرها الأديان ، والتي تلهب عواطف وشعور الشبان فتصرف افكارهم عن الدرس والعمل الجدي المثمر لهم ولأمتهم ؟ هل هذه هي المدنية ؟ لا ... انها الجانب المريض النتن من المدنية التي تهدّد المجتمع بشرّ الكوارث .

عاقبة الكفر والظلم

يتساءل الإنسان عن الكوارث الطبيعية وغيرها التي تصيبه، فمن زلازل لا تبقي ولا تذر ومن فيضانات تقضي على الثروة القومية وتشتت وتهلك الألوف، ومن رياح هوجاء تدمّر ما أفنى الانسان عمره في تشييده، ومن حروب تثيرها اطماع القادة يجيء من ورائها الخراب الشامل.

يتساءل الانسان عن أسباب ذلك كله في قرارة نفسه ولا يجد الجواب المقنع، ويؤدي به هذا التساؤل الى التشاؤم والنظر الى الحياة بمنظار اسود يفقده هناء العيش وصفاء الاستقرار النفسي.

هذا التساؤل في اسباب هذا العذاب الذي يصيب الإنسان يجيب عليه القرآن في عدة مواضع منه، وفي قصة موسى بالذات ويبين ان من اسبابه: الكفر والظلم واقتراف الذنوب. والظلم والكفر تعبيران اطلقا في القرآن واريد بهما عدم الايمان بالله او الاشراك به والاعراض عن شريعته والتعدي على حدوده، وذلك باقتراف المعاصي والشرور والآثام.

جاء في القرآن: ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ﴾ آل عمران: ٥٦.

وقال تعالى: ﴿ وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم مَوْعداً ﴾ الكهف: ٥٩.

ويعدّد الله انواع الهلاك بقوله: ﴿ فكُلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾ العنكبوت: ٤٠

يذكر الله في هذه الآية انواع العذاب التي ارسلها للأمم العاصية فمنهم من اهلكه بالريح العاصف التي تحمل الحصباء، ومنهم من اهلكه بالصاعقة، ومنهم من اهلكه بخسف الأرض، ومنهم من اهلكه بالغرق.

وفي قصة موسى يقص علينا سبحانه وتعالى ما اصاب قوم فرعون بسبب ظلمهم واعراضهم عن الإيمان بقوله: ﴿ واستكبر (١) هو وجنوده في الأرض

---

(١) استكبر هو: المراد به فرعون.

بغير الحق وظنوا انهم الينا لايُرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ القصص : ٣٩ — ٤٠ .

ويصف القرآن مآل حالهم عندما غرقوا في البحر معدّداً ما خلّفوا وراءهم من بساتين وقصور وبحبوحة من العيش للعبرة والعظة ﴿كم تركوا من جنّات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونَعْمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين ﴾ الدخان انظر الى هـــذه الصورة البلاغية التي ذكرها القرآن عن مآل حالهم ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ انها تجسّم النهاية التعيسة المفجعة للظالمين الذين لم يتأثر ولم يحزن عليهم اي مخلوق حتى الجماد لو كان ينطق .

فالقرآن حين ذكر هذه الوقائع من التاريخ القديم غايته : دعوة الناس الى النظر في تاريخ من قبلهم نظرة استفادة ، ودرس عوامل الفناء والبقاء للأمم السالفة ، وبيان أن الحصول على السعادة لا يكون إلاّ بالايمان والعمل الصالح وان الذنوب عاقبتها وخيمة على الجنس البشري . وهذا ما اكّده القرآن ايضاً في قوله تعالى : ﴿ اولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوّة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق[1] ﴾ غافر : ٢١ .

صمود العقيدة

العقيدة السليمة إذا رسخت في النفوس وحلّت في القلوب لا تزحزحها جميع القوى المادية . هذا درس نتلقاه من سحرة فرعون عندما آمنوا برسالة موسى عن اقتناع ، وعندما تلقوا تهديد فرعون الذي قال لهم : ﴿ لأقطّعنّ ايديكم وارجلكم من خِلافٍ ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ الاعراف : ١٢٤ .

ماذا كان جوابهم لفرعون ؟ هل ارهبهم تهديده ؟ كلا ... بل اجابوه بهذا القول العظيم الذي يثير الرعشة في النفوس لما يحمـــل في ثناياه من التضحية والاستماتة في سبيل المبدأ :

﴿ قالوا : إنّا الى ربنا منقلبون . وما تنقم مِنّا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا افرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين ﴾ الاعراف : ١٢٥ ، ١٢٦ .

---

(١) واق : اي حافظ ، يحفظهم من عذاب الله .

وقفة قصيرة أمام هذه الآية الكريمة ومعانيها السامية، فالسحرة يقولون: ﴿ إنّا إلى ربنا منقلبون ﴾ هذا الاعتقاد يخفّف من وقع المصيبة ، فالإنسان مرجعه الى الله عاجلاً أم آجلاً ولا بأس بالتعجيل بلقياه إذا كانت هذه إرادته ، والحصول على مَرضاته ، ويقولون ايضاً : ﴿ ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ فالمصائب والآلام التي يلاقيها الانسان من مرض وفقر واضطهاد ، وفقد عزيز لتزحزحه في بعض الاحيان عن إيمانه ويقينه بالله وترميه في بؤرة الكفر والتشاؤم ، فدعاء السحرة يحمل في ثناياه العزم على تحمل الآلام والاستمرار النهائي في الإيمان مهما كانت النتائج .

فالآلام والمصائب هي أشد ما تمتحن به النفس الانسانية ، إنها اختبار وامتحان لجوهر العقيدة ودرجة تغلغلها في النفس ، ولهذا حذّر القرآن من الإيمان السطحي الضعيف الذي لا يصمد لعاديات الزمان والذي لا ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ، بقوله :

﴿ ومن الناس من يَعبدُ الله على حَرْف[1] فإن أصابه خيرٌ اطمأنّ به ، وإن اصابته فِتْنَةٌ انقلب على وجهه ، خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ الحج : ١١ .

انتصَارُ الحق على الباطل

وتفيدنا قصة موسى : ان الباطل مهما استعلى ووجد له أنصاراً واعواناً فلا بُدّ من هزيمته أخيراً امام الحق . فهؤلاء السحرة الذين جاءوا بالباطل وسحروا أعين الناس لم يدروا ان الله سيؤيد رسوله موسى بمعجزة هي اقوى من سحرهم ، وهذا ما يقصه علينا القرآن : ﴿ وأوحينا الى موسى ان الق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبَطَلَ ما كانوا يعملون ﴾ الاعراف : ١١٧ ، ١١٨ .

انها وقفة قصيرة يُبيّن لنا فيها القرآن جولة الحق مع الباطل الذي لم يلبث أن خرّ صريعاً .

فالسحرة كانوا أعلم الناس بباطلهم وأعرف الناس بالذي جاء به موسى لهذا كانوا أول من آمن برب موسى ، فتوعدهم فرعون بالتنكيل والعذاب الأليم

---

(١) على حرف : على حرف من الدين لا ثبات له فيه .

فما أعاروا ذلك أهمية بل أجابوه بنفوس مؤمنة ليس فيها مجال للشك :﴿ إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر ﴾ طه : ٣٧ .

وقد صوّر العالم الأخفش[1] هذه الواقعة بوصف بليغ فقال : (قد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود . ثم القوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين) .

حُرية الشعوب

وفي قصة موسى تقرير لحرية الشعوب وحقها في التخلص من استعباد الأقوياء وذلك في قوله تعالى عن بني اسرائيل وفضله عليهم عندما حرّرهم من ذُلّ الاستعباد الذي ذاقوا اهواله حيناً من الدهر ﴿ ونُريد ان نَـمُنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ القصص : ٥ .

فهذا النص القرآني يُعلن بأن لا موجب لأن تستضعف أمة غيرها وتخضعها لقوتها وسيطرتها وتستغل مواردها ، فاذا فعلت ذلك كان الله في عون المستضعف فينصره ويحرّره من ربقة الاستعباد والطغيان . والتاريخ يحمل في طياته البراهين الكثيرة على أمم تحررت من سيطرة المستبدين ، وكانت عاقبة هؤلاء وخيمة إذ انقض عليهم المستضعفون وانتقموا منهم اشد الانتقام .

وقد جاء على لسان موسى استنكار الاستعباد بما ذكــرته الآية القرآنية التالية : ﴿ وتلك نعمة تَـمنّها عَـليّ ان عبّدت بني اسرائيل ﴾ الشعراء : ٢٢ . هذه الآية جاءت على لسان موسى عندما منّ عليه فرعون من انه رباه وأنشأه في قصره . فموسى يقول له : كيف تظهر منتك عليّ وأنت تستعبد قومي وتفتك بهم ؟ وفي فحوى هذا القول حملة جريئة على العبودية وتقريع لفرعون المتكبر المستبد وانتقاد عنيف لتصرفاته .

الدعْوة الى الكفاح

وإن في ايمان قوم موسى وتحمّلهم أذى فرعون ، ووصايا موسى لهم بالصبر والكفاح لدرساً للمؤمنين ليستمروا في كفاحهم في سبيل عقيدتهم .

فهؤلاء المؤمنون برسَالة موسى يمعن فيهم فرعون تقتيلاً وتعذيباً ، فيواسيهم

---

(١) الأخفش : هو من مشاهير النحاة في اللغة العربية .

موسى بقوله : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ في هذه الآية يوصي موسى اتباعه بالصبر ويعدهم بالنصر إذا اتقوا ربهم .

ولكنهم يتململون تحت وطأة العذاب الأليم فيجأرون بالشكوى اليه قائلين : ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ فيجيبهم موسى : ﴿ عسى ربكم ان يهلك عدوكم ﴾ ففي هذه الاجابة تجرّد واضح من التشبث بالنصر العاجل ، فهلاك العدو بيد الله إن شاء قدّمه وإن شاء أخّره ، ولكن الله سينصرهم عاجلاً أو آجلاً ليرى ما يصدر منهم من عمل كما تقول بذلك تتمة الآية : ﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

فهذا الاعتقاد إذا سيطر على المؤمنين : من ان الله سينصرهم على اعدائهم إذا استمروا في كفاحهم له اكبر الأثر في شحذ الهمم وتقوية العزائم ، وإزالة الوهن من النفوس ، وإبعاد اليأس عن القلوب .

تقويض الطغيـــان

وانتصار موسى على فرعون مثل واضح لتقويض الطغيان يعرضه القرآن لكل أمة يطغى حاكمها كما طغى فرعون . ومظاهر طغيان فرعون تظهر لنا فيما يلي :

فهو الذي اعلن الوهيته في قومه ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلّه غيري ﴾

وهو الذي قيد عقائد الناس وعقولهم فليس لأحد منهم ان يؤمن بشيء إلا بإذنه فهو القائل : ﴿ آمنتم به قبل ان آذن لكم ﴾ .

وهو الذي فرّق الأمة وجعل أهلها شيعاً واحزاباً ليسهل عليه السيطرة عليها كما يفعل المستعمر اليوم في الأمم الضعيفة ، أو كما يفعل الحاكم الظالم لاستمرار حكمه ، وهذا ما ذكره القرآن بقوله : ﴿ انّ فرعون علا في الارض وجعل اهلها شِيَعاً ﴾ .

وهو الذي اصم اذنيه عن سماع كلمة الحق : ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ .

وهو الذي ظلم وساقه طغيانه الى كل أسباب العسف والظلم فقتّل ابناء بني اسرائيل ، وابقى نساءهم احياء فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ سنقتّل

ابناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ .

ولقد بيّن القرآن نتيجة هذا الطغيان والاستكبار والتكذيب بآيات الله ﴿ كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴾ .

إن في ذلك لعبرة للطغاة ودرساً للأمم المضطهَدة كي تصمد وتكافح الطغيان لأن النصر حليفها في النهاية .

نجـاة المؤمنين

يتراءى لنا ذلك عندما أذن الله لموسى ومن آمن معه بالرحيل من مصر ، وكيف ان فرعون استنفر جنوده وخرج وراءهم يريد اهلاكهم ، فأدركهم عند ساحل البحر ، والتفت اصحاب موسى وراءهم فرأوا الهول يتبعهم ، ونظروا أمامهم فلم يروا إلاّ البحر بأمواجه فظنوا ان هلاكهم قد قرُب ، ولكن موسى ثبت أمام هذا الرعب الذي سيطر على اصحابه ولم يجزع بل قال لقومه هذه الجملة الطافحة بالايمان : ﴿ ان معي ربي سيهدين ﴾ هذه الجملة مثل حيّ يضعه القرآن امام الذين يجاهدون في سبيله بأن لا يجزعوا ولا ييأسوا عند المصائب بل يردّدوا هذه الجملة في انفسهم مطمئنين الى نصر الله وفرجه وهذا الذي حصل لموسى مع فرعون كما قصه علينا القرآن : ﴿ وانجينا موسى ومن معه اجمعين ثم اغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية ، وما كان اكثرهم مؤمنين ﴾ .

التَحرّر من سُلطان التقاليد

صوّر القرآن سيطرة التقاليد على قوم فرعون عندما خاطبوا موسى في شأن الدعوة الجديدة التي أتاهم بها ﴿ وقالوا : أجئتنا لِتَلْفِتَنَا[1] عمّا وجدنا عليه آباءنا ﴾ يونس : ٧٨ .

فسلطان التقاليد له قيمته وله وزنه من الناحية الاجتماعية في كل أمة ، وقد يكون حجر عثرة في سبيل رقيها وتقدمها ويجعلها تقف دائماً امام التقاليد التي ورثتها من تراث الآباء والأجداد ولو ناقضت الحقائق . فالتقليد من هذه الناحية من أمارات الجمود والتخلف يجعل الأمة غير قادرة على الحركة والسير في مضمار الرقي ، ومسايرة ما يحدث من تطورات اجتماعية ، فأعظم ضرر يصيب

---

(١) لتلفتنا : لتصرفنا .

الجماعات البشرية ويمنعها من ارتياد طرق النجاح هو التقليد الأعمى للآباء ، وقد ادى التقليد في بعض الجماعات الى الاعتداء على دعاة الحق واضطهادهم كما وقع لكثير من الانبياء والمصلحين من اممهم التي لم تستطع الافلات من ربقة التقاليد .

ومن روعة القرآن أنه حارب التقليد الاعمى للآباء بدون روية وتبصر وبيّن متسائلاً : كيف ينقاد الانسان الى آبائه ولو كانوا لا يسلكون طريق العقل ، أو كانوا على ضلال؟ وهذا ما قاله تعالى : ﴿ وإذ قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾

التحلّي بالقَول الليّن

تلقى موسى وهارون أمر ربهما بدعوة فرعون الى عبادة الله ، ولكن ما هي الطريقة التي يجب ان يتبعاها؟ لقد أمرهما الله أن يبلغا فرعون الرسالة الالهية بلين ورفق ﴿ فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر او يخشى ﴾ .

انه إرشاد سام ذكره القرآن ليكون مثالاً يحتذى به في كلّ الأزمان والظروف ،. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا صاحبهما اللين كانا أفعل وأشد أثراً في النفس في زدها عن غيّها ، لأنّه يترك لها فرصة التفكر في الوضع الذي هي فيه وفي فائدة النصيحة التي القيت اليها ، وهذا ما يرضي كرامتها وكبرياءها ويجعلها طيّعة لقبول ما يعرض عليها من الخير وخصوصاً إذا لازمه الاقناع ، بخلاف طريقة القسر والشدة والقول الغليظ فإنه يحملها على التمرد والنفور ، وعدم تقبل النصيحة .

الإيمان عن طريق العقل

وفي قصة موسى عرضٌ للطريقة الاستدلالية على وجود الله . فقد رأينا موسى كيف انه دخل على فرعون يدعوه الى الايمان بالله عن طريق العقل وذلك بالنظر في الطبيعة وما تحتويه من مخلوقات وعجائب ليدخل الايمان الى قلبه عن طريق البحث والنظر والاقتناع .

فها هو فرعون يسأل موسى وهارون ﴿ قال فمن ربكما ﴾ فيجيب موسى : ﴿ ربُنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .

فالقرآن يقول : إن المخلوقات جميعها خلقها الله بنظام معين ، وكل مخلوق يختلف عن الآخر بأشياء واسرار أودعها الله فيه ، ثم ألهم كل مخلوق حي الى الطريقة الخاصة التي بوسعه ان يعيش بموجبها .

هذه الآية تلخص مجلدات كثيرة في علم الحيوان والحشرات والطيور والأحياء المائية وإن العلماء المتخصصين في دراسة هذه الأحياء جميعاً ليأخذهم العجب عندما يتأملون الأسرار التي تكتنف حياتها وطريقة توالدها وكيفية المحافظة على نوعها والحصول على قوتها وسلوكها مع بعضها . إن هذا الالهام الذي يسيّر حياة هذه الأحياء ، أو بالأحرى هذه (الهداية) كما يسميها القرآن والتي تختلف من نوع الى آخر لهي من اقوى الدلائل على وجود القصد في الطبيعة الذي هو من صنع الله وعلى بطلان نظرية المصادفة التي يتعلل بها الماديون في تفسير نشوء الكون .

ثم نرجع الى متابعة الحوار بين موسى وفرعون فنرى موسى بعد ان ذكر هذه الآية التي تدل على وجود الله نراه يُعَدّد انواعاً اخرى مما خلق الله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مَهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى ، كلوا وارعوا انعامكم إن في ذلك لآياتٍ لأولي النهى ﴾ . انظر كيف اختتم هذا النص القرآني بهذه الجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ ومعنى (أولي النهى) أي اصحاب العقول . فإن خلق هذه الأرض وما عليها من الآيات البينات لتدل بما لا يدع مجالاً للشك على وجود الله خالقها بما يقتنع بها كل ذي عقل . فلما كذّب فرعون وعاند بعد قيام هذه الأدلة العقلية اظهر الله معجزة العصا وغيرها .

فالقرآن يلفت انظارنا الى التفكر بآيات الله في الكون لنستشعر من ورائها القدرة الخلاقة المبدعة ، وليكون ايماننا بالله عن اقتناع وتسليم مدروس .

هذا طريق للاستدلال على الخالق انفرد به الاسلام ، فبينما نجد بعض الأديان توصي متبعيها (آمن ثم فكر) وتتخذ المعجزات والأعاجيب التي صدرت من انبيائها وسيلة للاقتناع نرى الاسلام يتخذ العقل أساساً للإيمان .

دَحضُ معتقدات المصريين القدماء

وفي حوار آخر بين موسى وفرعون في ربوبية الله نرى أروع رَدّ على

مظاهر الاشراك بالله عند المصريين القدماء ، يذكره لنا القرآن على لسان موسى :

﴿ قال فرعون : وما رب العالمين . قال : رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لِمَنْ حَولَهُ : الا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ الشعراء : ٢٣ — ٢٩ .

المتأمل في هذا النص القرآني يرى فيه لأول وهلة وصفاً شاملاً لربوبية الله لهذا الكون ، وانه الواحد الذي لا ينازعه احد في ملكه .

ولكن العالم المتمعن في العقائد المصرية القديمة يرى من خلال هذا النص القرآني رداً محدداً مقصوداً لمختلف ما كان يدين به المصريون القدماء من معتقدات مما يدل على ان القرآن ينبيء عن أشياء تاريخية صحيحة سبق بها العلم .

يبدأ الحوار في الآيات القرآنية السابقة بسؤال فرعون لموسى : ﴿ وما رب العالمين ﴾ فيجيب موسى بأنه هو ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ .

هذا الجواب الذي جاء على لسان موسى فيه رد على المعتقدات المصرية القديمة التي كانت شائعة إذ ذاك .

فقد كان للسماء آلهة اسمها نوت (Nout) تصوروها امرأة عملاقة جسمها مقوس فوق الأرض على شكل قبة ..

وقد كان للأرض اله اسمه غب (Gheb) وهو زوج نوت وهناك اله اسمه شو (Chou) ويمثل الفضاء الجاف الذي بين السماء والأرض[١] . (وكان القمر إلهاً ولعله كان اقدم ما عبد من الآلهة في مصر ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت اعظم الآلهة)[٢] .

ثم نرجع الى صلب المحاورة فنرى فرعون يأخذه العجب من كلام موسى فيجيب بلهجة الاستهزاء موجهاً كلامه الى من حوله (ألا تستمعون) فيستمر موسى قائلاً (ربكم ورب آبائكم الأولين) هذا القول نفي لألوهية فرعون

---

(١) كتاب (مصر) تأليف : دريوتون وجاك فانديه ، تعريب الاستاذ عباس بيومي .

(٢) قصة الحضارة — ول ديورانت جـ ٢ ص ١٥٦ .

كما انه ردّ على المعتقدات المصرية التي كانت تقول بوجود آلهة للموتى امثال « الاله (سكر) إله جبانة منف (سقاره) والاله (ختني امنتيو) إله جبانة (ابجو)[1] » .

كما أن هذه الآية تنكر عبادة الملوك الموتى (فعند موت الملك يقام له بجوار قبره معبد تستمر فيه عبادته باعتباره الهاً متوفى)[2] .

ولكن فرعون يُكابر ويجيب موسى جواب الساخر ﴿ إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ﴾ فيجيبه موسى غير مكترث بسخريته ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ فالمشرق والمغرب كناية عن الشمس ونورها وهذا النظام السائد في هذا العالم من دوران الأرض حول الشمس الذي يجعل الشمس تشرق في مكان معين وتغيب في المكان المقابل وكلمة (بينهما) كناية على ما تشرق عليه الشمس من مدن وقرى ونبات وحيوان .

فهذا القول رد على المعتقدات السائدة آنذاك عند المصريين الذين جعلوا لكل مقاطعة ولكل بلدة رباً مختصاً بها امثال الآلهة : (امن) و (انوبيس) و (اونوريس) و (اوزيريس) و (باست) و (حوريس) و (عنقت)[3]

ولكن فرعون يجيب موسى مهدداً ﴿ قال : لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ هذا التصريح القرآني بألوهية فرعون هو حقيقة تاريخية فقد كان الملك عند المصريين القدماء إلهاً وكان على الدوام ابن (آمون – رع) لا يحكم مصر بحقه الالهي فحسب بل يحكمها ايضاً بحق مولده الالهي فهو اله رضي ان تكون الأرض موطناً له الى حين)[4] .

فنستخلص مما تقدم انه كان للمصريين القدماء عدة آلهة بجانب تأليههم لملوكهم وقد اشار القرآن الى ذلك اشارة صريحة ايضاً :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ .

---

(١) عن كتاب (مصر) .

(٢) نفس المصدر .

(٣) عن كتاب (مصر) .

(٤) قصة الحضارة ص ١٦١ .

هذه الحقائق التي يذكرها القرآن هي سبق علمي له لم تعلم إلاّ منذ امد قريب وذلك بعد قيام الحفريات في مصر والوقوف على اسرار الآثار التي فك العلماء رموزها .

تنزيه الله وتقديره حق قدره

ما اكثر ما ضلت البشرية في خالقها وصورته بأشكال من نسج خيالها وقد تغلغلت البدع والأوهام في شأن الخالق وصوّرته بصور لا يستسيغ العقل قبولها مما أعطى الملحدين حجة استغلوها في مهاجمة الأديان .

اما القرآن فقد جاء بالحقيقة المطلقة في شأن الخالق ونزّهه عن مشابهة المخلوقين فقال : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾

وفي قصة موسى في القرآن نرى وصفاً دقيقاً لعظمة الخالق والترفع عن وصفه بصفات الخلق الذين يعتريهم الضعف والقصور ، نرى ذلك عندما طلب موسى من ربه التجلي عليه لرؤيته وفي جواب ربه عليه بما يقصه علينا القرآن : ﴿ قال ربّ أرني انظر اليك . قال : لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا اول المؤمنين ﴾ الأعراف : ١٤٣.

أين هذا مما جاء في كتب اليهود الذين جعلوا الله في غاية العجز والضعف فقد صارع الله يعقوب في زعمهم الى الفجر ولم يغلبه[١] ؟

(ولقد كان (يهوه) إله اليهود القومي هو في نظرهم صارماً ذا نزعة حربية ... كذلك لا يُرى انه معصوم من الخطأ ويرى ان اشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الانسان ، ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه ان يكون شاؤل (طالوت) ملكاً وتراه من حين الى حين شرهاً غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلّب الأطوار ... وهو حي لا يسمح ان يروا منه إلاّ ظهره ، وقصارى القول انه لم يكن للأمم القديمة إله آدمي في كل شيء كإله اليهود هذا)[٢] .

---

(١) راجع الفصل الثاني والثلاثين من سفر التكوين ٢٤ – ٣٠ .
(٢) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٤٠ تأليف ول ديورانت ترجمة الأستاذ محمد بدران .

الفصل السابع

موسى والعبد الصالح

الالتقاء بالعبد الصالح – موسى يطلب العلم – موسى يعترض على العبد الصالح – أسرار تصرفات العبد الصالح – العبر من هذه القصة .

الالتقاء بالعبد الصالح

خطب موسى في قومه مذكراً إياهم بطاعة الله ، ولما أتم خطبته سأله رجل : أي الناس أعلم فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم اليه وحده وأوحى اليه : ان لي عبداً بملتقى البحرين هو اعلم منك . فقال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً[1] فتجعله في مكتل[2] فحيثما فقدت الحوت فهو هناك . فأخذ موسى حوتاً ثم انطلق وبصحبته فتاه .

ولما بلغ موسى وفتاه ملتقى البحرين جلس ليستريح فأخذته سنة من نوم ، وفي هذه الاثناء امطرت السماء فابتل الحوت وانتفض إذ عاودته الحياة وانساب في مياه البحر .

استيقظ موسى من غفوته وأمر فتاه بمعاودة السير للبحث عن بغيتهما . وقد حدث ان فتاه نسي أن يخبره بفقدان الحوت . ولما أحسا بالجوع أمره موسى بتحضير الطعام ، وعندئذ تذكر الفتى ما كان من امر الحوت فأخبر موسى بفقدانه .

استبشر موسى بما سمعه وقال لفتاه : هذا ما كنا نبغيه ، فلنرجع لنقتفي الأثر حتى نبلغ المكان الذي فقدنا فيه الحوت ، وما ان وصلا الى المكان المقصود حتى وجدا العبد الصالح[3] الذي وُعِدَ به موسى .

---

(١) حوتاً : الحوت في اللغة هو السمك صغيراً كان او كبيراً ، والمقصود هنا الحجم الصغير .

(٢) مكتل : ما يستعمله صيادو السمك لحمل السمك .

(٣) العبد الصالح : ليس المراد بالعبد هنا الشخص المملوك لانسان، بل المراد بذلك العبودية لله فالبشر كلهم عباد الله .

﴿ وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرحُ[١] حتى أبلُغَ مجمع البحرين أو امضي حُقُباً[٢] . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا[٣] . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا[٤] : قال : أرأيتَ إذ أوينا الى الصخرة ، فإني نسيت الحوتَ ، وما أنسانيه إلاّ الشيطانُ أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال : ذلك ما كُنّا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصا[٥] : فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلّمناه من لَدُنّا[٦] عِلما ﴾ .

موسى يَطلبُ العلم

طلب موسى من العبد الصالح أن يأذن له بمرافقته ليستّزيد من علمه فأجابه العبد الصالح : بأنه لن يستطيع الصبر على ملازمته إذ كيف يصبر على شيء يخالف ظاهره شريعته ، فردّ موسى عليه قائلاً : ستجدني إن شاء الله صابراً على تصرفاتك ولا اعصي لك امرا ، فأجابه العبد الصالح : إن اتبعتني فسأشترط عليك شرطاً ان لا تسألني عن شيء من تصرفاتي لأني سأبين لك اخيراً سرها وتعليلها .

﴿ قال له موسى : هل اتّبعُكَ على ان تُعَلّمَنِ مِمّا عُلّمتَ رُشداً[٧] . قال : انك لن تستطيع معي صَبْرا . وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبرا[٨] . قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لَكَ أمراً . قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحْدِثَ لك منه ذِكرا ﴾ .

---

(١) لا ابرح : لا زال سائراً .
(٢) امضي حقباً : اسير في طريقي زماناً من الدهر .
(٣) سرباً : مسلكاً ينفذ منه اليه .
(٤) نصباً : تعباً وشدة .
(٥) فارتدا على آثارها قصصاً : فرجعا في الطريق التي جاءا منها يتبعان آثار سيرهما .
(٦) وعلمناه من لدنا علماً : وعلمناه علماً مختصاً بنا وهو بعض علم الغيب .
(٧) رشداً : كل علم اهتديت به الى الخير .
(٨) خبراً : علم الشيء عن تجربة .

موسى يَعترض عَلى العَبد الصالح

سار موسى والعبد الصالح على ساحل البحر فمرت بقربهما سفينة فطلبا من أصحابها ان يحملوهما معهم فقبلوا، وركبا في السفينة، وفي غفلة من اصحابها عمد العبد الصالح الى جدار السفينة الخشبي فثقبه ثقباً يمكن اصلاحه فيما بعد، هال موسى هذا الصنيع ونسي العهد الذي اخذه على نفسه من عدم الاعتراض على فعل العبد الصالح فقال : اتخرق سفينة القوم لتغرقهم بعد ان اكرموا وفادتنا؟ لقد عملت شيئاً معيباً. ولكن العبد الصالح ذكّره بالشرط الذي بينهما، فأدرك موسى خطأه وطلب منه ان لا يؤاخذه على نسيانه.

تابعا المسير فوجدا غلاماً يلعب مع اقرانه، فاحتال العبد الصالح حتّى أخذه بعيداً عن رفاقه وقتله. انفطر قلب موسى من هذه الجريمة النكراء واعترض ثائراً: أقتلت نفساً طاهرة بريئة بغير ذنب اقترفته؟ لقد صنعت شيئاً منكراً. فما كان من العبد الصالح إلاّ ان قال له بلهجة العاتب المؤنب: ألم أقل لك إنك لن تستطيع صبراً على ما تراه في صحبتي؟ فأجابه موسى مظهراً ندمه: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فقد وجدت لك عذراً — من جهتي — في مفارقتك إيـــاي.

ثم تابعا سيرهما حتّى اعياهما التعب والجوع فدخلا قرية، وطلبا من اهلها طعاماً لهما فرفض اهل هذه القرية ان يضيّفوهما وردوهما رداً غير لطيف. وفيما هما عائدان ادراجهما وجدا جداراً يوشك ان ينهار فأصلحه العبد الصالح واقام بنيانه، فما وسع موسى إلاّ ان قال: اتجازي قوماً طردونا باصلاح جدارهم؟ لو شئت لاتخذت على عملك هذا اجراً يكفي لطعامنا!. وبعد هذا الاعتراض حصلت الفرقة بين موسى والعبد الصالح. قال تعالى:

﴿ فانطلقا حتّى إذا ركبا في السفينة خرقها، قال: أخرقتها لِتُغْرِق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً[1] قال: ألم أقل: إنك لن تستطيع معيَ صبراً؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا تُرهِقني من امري عُسْراً. فانطلقا حتّى إذا لقيا غلاماً فقتله، قال أقتلت نفساً زكيّة بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكراً[2]،

---

(١) شيئاً امراً: شيئاً عظيماً منكراً

(٢) نكراً: الأمر الفظيع المنكر.

قال : ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لَدُنّي عذراً . فانطلقا حتّى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا ان يضيّفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن يَنقضّ فأقامه قال : لو شئت لاتخذت عليه اجراً . قال : هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويـــل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

أسرارُ تصرفات العبد الصالح

وقبل ان يفارق العبد الصالح موسى شرع يبين له أسرار عمله قائلاً :

اما السفينة فكانت لمساكين ليس لهم مال سواها ، وقد علمت ان ملكاً غاصباً كان يتعقب كل سفينة صالحة ويسلبها من أهلها ، فأردت ان اجعل فيها عيباً يمكن اصلاحه فيما بعد ، حتى إذا رآها الملك ظنها غير صالحة فيتركها لأصحابها وتسلم لهم .

وأما الغلام فقد كانت تظهر عليه علائم الفساد منذ الصغر ، وكان ابواه مؤمنين صالحين فخشيت بما فُطِرَ عليه الآباء من حب الأبناء ان يطغى فساده على صلاحهما ويجرهما الى الكفر والطغيان ، فقتلته لأريح هذين الأبويــن المؤمنين من مثل هذا الغلام الشرير ويرزقهما بدله مولوداً خيراً منه صلاحاً وابر بهما وأرحم .

وأما الجدار الذي اقمته وتعبت في بنائه فقد كان لغلامين يتيمين في المدينة وتحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك الكريم ان يحفظ لهما الكنز حتى يكبرا ويستخرجاه . وما فعلته ليس من اجتهادي بل كان وحياً من الله ، وهذا هو تفسير ما لم تستطع عليه صبراً . اقرأوا هذه الآيات :

﴿ أما السفينة فكانت لمساكينَ يعملون في البحر ، فأردت ان أعيبها ، وكان وراءهم مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سفينَةٍ غصبا . وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا ان يُرهقهما طُغياناً وكفراً . فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة[1] وأقرب رُحماً[2] . وأما الجدارُ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ،

---

(١) زكاة : طهارة وصلاحاً .

(٢) الرحم والرحمى : رقة في القلب وانعطاف يقتضي الإحسان .

وكان تحته كنز لهما . وكان ابوهما صالحاً ، فأراد ربك ان يبلغا أشدهما [1] ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن امري ، ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِـعْ عليه صبراً ﴾ . [2]

العِبَر من هَذه القِصَّة

في هذه القصة : الحضّ على طلب العلم ، فموسى سار في طلب رجل صالح من عباد الله عندما عرف ان عنده علماً لم يكن يعرفه ، ولم يمنعه منصبه – وهو النبوة – ان يقف بنفسه عند حدها .

ومنها : درس في قوة الإرادة والعزم على بلوغ الهدف مهما كانت العوائق، كما في قول موسى ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حُقباً ﴾ أي لا أزال سائراً الى أن أصل الى مقصودي ولو سرت زماناً من الدهر .

ومنها : درس في أدب المتعلم مع المعلم. وهذا يتراءى لنا في قول موسى ﴿ هل اتّبعك على أن تُعلّمَن مِمّا عُلّمت رُشدا ﴾ فموسى يضع نفسه من الرجل الصالح موضع المتعلم فيعطي له حق قيادته وإرشاده. فإذا نبهه الى امر تنبّه ، وإذا بين له خطأ بادر الى الاعتذار ووعد بالطاعة .

ومنها : ان ايمان الانسان يحفظه الله لصاحبه، فلا يدع ظروف الحياة تذهب به ، كما في حادثة قتل الغلام الذي سينشأ على العصيان وسيرهق والديه طغياناً وكفراً .

ومنها : أن المساكين لن يتخلى الله عنهم بل يحفظهم من عاديات الدهر ، ويرزقهم اليُسر بعد العسر، كما في حادثة خرق السفينة لتشويهها حتى لا يستولي عليها الملك الغاصب .

ومنها : ان الله قد يكرم الابناء اكراماً لآبائهم الصالحين، ولا يأخذهم بما فشا في مجتمعهم من فساد واعوجاج، وييسّر لهم الحياة الرغيدة ، كما في حادثة إقامة الجدار الذي تحته كنز والذي كان ليتيمين وكان أبوهما صالحاً .

---

(١) يبلغا اشدهما : يكبرا ويعقلا .

(٢) سورة الكهف ٦٠ – ٨٢ .

الباب التاسع

دَاود عليه السلام

سُليمَان عليه السلام

إليَسع عليه السلام

اليَاس عليه السلام

يونسُ عليه السلام

١ - طالوت و دَاود

٢ - قصَّة دَاود

٣ - قصَّة سُليمان

٤ - سُليمَان وَملكة سَبأ

٥ - دُروس وَعِبَر

٦ - نبُوّة اليَاس وَاليسع

٧ - قصَّة يُونس

٨ - دُروس من يُونس

تمهيد

داود نبي من انبياء بني اسرائيل وقد جمع الله تعالى له بين النبوة والملك، واعطاه خيري الدنيا والآخرة، فكان نبياً ملكاً، وهو أحد الرسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى إذ آتاه الله الزبور . قال تعالى :

﴿ ولقد فَضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾

أما سُليمان فهو ابن داود، وقد أنعم الله عليه ايضاً بالنبوّة والملك، وآتاه الحكمة حتى انه لُقّب بسليمان الحكيم .

وداود أول ما لمع اسمه وذاعت شهرته عندما كان جندياً في جيش طالوت (شاول) حين بارز قائد الاعداء جالوت (جليات) وصرعه .

ولكن من هو طالوت ؟ ومن هو جالوت ؟

هذان القائدان يَحسن بنا ان نعرّف بهما القراء قبل الكلام عن نبوة داود وسليمان ونمهد لذلك بذكر الأحداث التي رافقت حياتهما .

الفَصلُ الأوّل

طَالوتَ وَدَاوُدَ

هزيمة بني اسرائيل وسلب التابوت منهم – بنو اسرائيل يطلبون ملكاً – تولية طالوت الملك – علامة الملك في طالوت – طالوت يختبر جيشه – انتصار طالوت – داود وقتله جالوت – موت طالوت وتولية داود ملكاً .

هزيمة بني اسرائيل وسلب التابوت منهم

بعد وفاة موسى عليه السلام قام بأمر بني اسرائيل (يوشع بن نون) من سبط يوسف عليه السلام ومعه دخل بنو إسرائيل الأرض التي وُعدوا بها آنذاك وهي فلسطين .

وكان أول بلد احتلوه مدينة (اريحا)، وقيل: (اورشليم)، وقد امرهم الله ان يدخلوا باب المدينة حين يدخلونها خاشعين متذللين لله تعالى وان يقولوا: (حطة) أي حط عنا يا رب خطايانا ، ولكن هؤلاء القوم خالفوا أمر الله فدخلوا المدينة متكبّرين . وفسقوا بدل ان يستغفروا ربهم كما دعاهم لذلك ، فغضب ربهم عليهم وأنزل بهم العذاب جزاء عصيانهم .

﴿ وإذ قُلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سُجّداً، وقولوا: حطّة نغفرلكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسُقُون ﴾ البقرة : ٥٨ ، ٥٩ .

قام يوشع بأمر بني اسرائيل في فلسطين فراح يحكم بينهم الى أن توفي وولي الأمر بعده قضاة حكموا فترة من الزمن دون أن يكون لهم ملك ذو سطوة وعـــزة .

وكان بنو اسرائيل في تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم المجاورة لهم ، وكانت العادة المتبعة عندهم انهم إذا خاضوا حرباً مع اعدائهم جعلوا تابوت

العهد أمامهم يستنصرون به لتقوى عزائمهم .

ثم حدث ان اشتبك بنو اسرائيل في معركة دامية مع الفلسطينيين ، ولما كان الله ساخطاً على بني اسرائيل لما اقترفوا من خطايا فقد هزمهم الفلسطينيون شرّ هزيمة، فَسَبوا نساءهم وذراريهم واخرجوهم من ديارهم، وسلبوا منهم تابوت العهد، وحملوه الى بيت (داجون) الههم .

وكان بنو اسرائيل في عهد القضاة في حالة بدوية، وكانت عصبيتهم تتجه نحو القبيلة واستمروا كذلك الى سنة ١٠٤٠ ق . م حين ظهر فيهم زعيم وحّد شمل قبائلهم وجمعها تحت راية واحدة ، وقبض بيده على زمام الحكم وكان بذلك أول ملك في بني اسرائيل، وقد عُرف في التاريخ اليهودي باسم (شاول) وسماه القرآن (طالوت) .

بنو اسرائيل يطلبون ملكاً

حاق الذل والهوان ببني اسرائيل بعد هزيمتهم وسلبهم التابوت . فذهب اشرافهم الى (صموئيل) وكان نبياً وقاضياً وطلبوا منه ان يختار لهم ملكاً يجتمعون تحت رايته ليقاتلوا اعداءهم ، وكان صموئيل يعرف حقيقة قومه ويعلم طبيعتهم وتخاذلهم في القتال فسألهم : لعلكم اذا فرض عليكم القتال لاتقاتلون؟ فأنكروا ان يقع ذلك منهم وقالوا : كيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا ، وقد طَرَدنا أعداؤنا من أوطاننا وفرّقوا بيننا وبين ابنائنا . وقد حصل ما توقع صموئيل فإنه لما استجاب الله لرغبتهم وفرض عليهم القتال احجموا عنه إلاّ جماعة قليلة منهم . قال تعالى :

﴿ ألم ترَ الى الملأ من بني اسرائيل من بَعْدِ موسى : إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا مَلِكاً نُقاتل في سبيل الله ؟ قال : هل عسيتم إن كُتِبَ عليكم القتال ألاّ تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألاّ نُقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كُتِبَ عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ البقرة : ٢٤٦ .

تولية طالوت الملك

اخبر صموئيل بني اسرائيل ان الله استجاب لرغبتهم وأقام طالوت ملكاً

عليهم وهو من سبط بنيامين، لكن القوم تذمروا واعترضوا على اختياره، فهو ليس ذا نسب رفيع، وهم –على زعمهم– أحق بالملك منه، وقد كان ملك بني اسرائيل في سبط يهوذا، والنبوة كانت في سبط لاوي، أما طالوت فكان من أبناء بنيامين الذين هم من عامة الشعب، كما اعترضوا على تولية طالوت لأمر آخر هو أنه كان فقيراً ولم يكن في سعة من المال، والمال عند اليهود من اعظم اسباب الوجاهة والشرف.

أجاب صموئيل المعترضين: بأن الله اصطفى طالوت وميزه عليهم بصفات تؤهله للملك، فقد آتاه العلم الغزير الذي يمكنه من معرفة أمورهم السياسية وتصريف شؤونهم بحكمة ودراية، كما آتاه الله قوة بدنيّة تعينه على الصمود في الحروب وعند لقاء الأعداء، ثم إن الله الذي اختار طالوت أدرى بشؤون خلقه، فهو يصرف أمور الكون كما يريد فيؤتي الملك من يشاء لحكمة لا يعلمها غيره.

﴿ وقال لهم نبيهم: إنّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لكم طالوت مَلِكاً، قالوا: أنّى يكون له المُلْكُ علينا ونحن أحقُّ بالمُلك مِنْهُ، ولم يُؤْتَ سَعَةً من المال؟ قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطة في العلم والجسم[1] والله يُؤتي مُلكَهُ من يشاء والله واسع عليم ﴾ البقرة: ٢٤٧.

عَلامة الملك في طالوت

يذكر القرآن الكريم ان النبي صموئيل اخبر بني اسرائيل: ان علامة ملك طالوت انه سيقودهم الى النصر، وأن التابوت الذي فيه شارة عزهم، وطمأنينة قلوبهم، وفيه آثار مما ترك موسى وهارون، ومنها الواح دونت عليها وصايا الله، هذا التابوت سيعود اليهم تحمله الملائكة، قال تعالى:

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية مُلْكِهِ أن يأتيَكُمُ التابوتُ فيه سَكينَةٌ من ربكم وبقيّةٌ مِمّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ البقرة: ٢٤٨.

---

(١) وزاده بسطة في العلم والجسم: يستفاد من هذا ان القيادة الرشيدة لا تكون بالوراثة بل بالمزايا التي تتطلبها الرئاسة، وهي قوة العقل التي يدعمها العلم الغزير الذي يساعد على تصريف الأمور مع قوة في الجسم تعين على تحمل اعباء القيادة.

طالوت يختبر جيشه

دعا طالوت قومه للجهاد في سبيل الله وحثهم على قتال اعدائهم الذين أذلوهم ، فاجتمع تحت لوائه جيش كبير وساقهم الى قتال الفلسطينيين الذين كان يقودهم جالوت[1] الذي اشتهر بالشجاعة والبأس ، وانتشرت اخبار بطولاته وانتصاراته بين جميع الأمم المجاورة فهابوه وتجنبوا الاشتباك معه .

سار طالوت بجنوده وابتعد بهم عن ديارهم واصبحوا قريبين من لقاء العدو ، فأراد طالوت ان يختبر عزمهم على القتال ، ويقف على مدى صبرهم وطاعتهم له فقال لهم : — وقد بلغ منهم التعب والظمأ مبلغاً كبيراً إنكم ستمرون بنهر والله مختبركم به ليميز المطيع من العاصي ، فمن لم يشرب منه ولم يذقه فهو من اتباعي ، ولكن يباح لأحدكم ان ينال غرفة من مائه بيده يبل بها ظمأه ، ومن يشرب منه اكثر من ذلك فليس من اتباعي ، فلما جاءوا الى النهر خالف معظمهم أمر طالوت ، واقبلوا عليه يعبّون منه عبّاً غير آبهين لنهيه .

﴿ فلما فَصَلَ طالوتُ بالجنود قال : إنّ الله مُبْتليكم بنهر فمن شَرِبَ منه فليس مني ومن لم يَطْعَمْهُ فإنه مني إلاّ من اغترف غُرفة بيده[2] ، فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم ﴾ البقرة : ٢٤٩ .

انتصار طالوت

اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ، وقد وجد هؤلاء أنفسهم قلة ضئيلة أمام جموع أعدائهم الكثيرة بعد ان تخلف الكثير ، فقال

---

(١) اسمه في العهد القديم (جليات) .

(١) والحكمة من منع طالوت جنوده من الشرب من النهر باستثناء غرفة من الماء لبل ظمأهم هو تدريب جيشه على احتمال المشتقات واهوال القتال ، وربما لخطة حربية يبتغيها من وراء ذلك كما يقول الشيخ محمد ابو زهرة : فقد كان النهر يفصل بين بني اسرائيل واعدائهم وقد وصلوا اليه مجهدين من العطش والتعب فخشي إن مكثوا حوله وملأوا مزاداتهم وبطونهم واستراحوا واستجموا أحسّ بهم أعداؤهم فاجتازوا النهر اليهم وابعدوهم ، فأراد طالوت أن يأخذ عدوه بالجولة الأولى المفاجئة فيجتاز النهر قبل ان يحسوا به ... وهذا يتفق مع الخطط الحربية لأن الفجاءة في الحروب أمضى سلاح .

فريق منهم وقد هالته كثرة العدو : لا طاقة لنا اليوم بجالوت ، أما الفريق الآخر المؤمن فلم ترهبه كثرة العدو لأنهم أيقنوا أنهم سيلاقون ربهم بعد الموت لذا قالوا : كم حدث ان جماعة قليلة العدد غلبت جماعة كثيرة العدد بإذن الله، فلنصبر على لقاء العدو ، فإن الله مع الصابرين بالنصر والتأييد .

ولما خرج المؤمنون لقتال جالوت وجيشه اتجهوا الى الله ضارعين ان يملأ الصبر قلوبهم ويثبتهم في ميدان القتال ، وأن ينصرهم على اعدائهم ، فاستجاب دعاءهم ونصرهم. وقتل داودُ جالوت واعطاه الله ملك بني اسرائيل وعلمه ما شاء من علم وحكمة والله سبحانه ينصر عباده الصالحين ، ولولا ان الله يسلّط المصلحين على المفسدين لمحو فسادهم ، ولولا ان يسلّط الأشرار بعضهم على بعض لما عمرت الأرض بل لعم الفساد ولكن الله دائم الإحسان والفضل على الناس جميعاً .

﴿ ... فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوتَ وجنوده قال الذين يَظُنُّون أنهم مُلاقوا الله: كم من فِئَةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله [1] والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا افرغ علينا صبراً وثبِّت اقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله، وقتل داودُ جالوتَ، وآتاه الله الملك والحكمة، وعلَّمَهُ مِمّا يشاء . ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لَفَسَدَتِ الأرض ،ولكن الله ذو فَضْلٍ عَلَى العالمين ﴾ البقرة : ٢٤٩ ــ ٢٥١ .

داود وقتله جالوت (جُليات)

لم يفصّل القرآن كيفية قتل داود لجالوت ، ولكن العهد القديم فصل ذلك ، ولنذكر ملخصاً لذلك :

جمع الفلسطينيون جنودهم لمحاربة بني اسرائيل ووقف في مواجهتهم

(١) كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله : فالفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة قائدها الفئة الكثيرة التي يعوزها الصبر والثبات والاتحاد والطاعة لقائدها ، وهذا مشاهد في كثير من المعارك التي يحفل بها تاريخ الحروب الحديثة والقديمة فلم تكن الكثرة هي العنصر الأهم في انتصار جيش على آخر ، وهذه سنة الله في خلقه يعرضها القرآن لكل شعب مضطهد يريد ان يسترد كرامته وحريته .

شاول ورجال بني اسرائيل وكان كل فريق على جبل وبينهم واد ، ومضت أيام، وأحد الجيشين لا يجرؤ على مهاجمة الآخر، حينئذ خرج من معسكر الفلسطينيين رجل عملاق مهيب المنظر اسمه (جليات) وكان مدججاً بالسلاح يحمل بيده رمحاً ضخماً .

خرج (جـُليات) ووقف وسط الوادي ونادى صفوف بني اسرائيل أن يختاروا رجلاً منهم لمبارزته وقال : إن استطاع رجلكم ان يغلبني صرنا لكم عبيداً ، وإن ظفرت أنا به وقتلته تصيرون لنا عبيداً .

سمع شاول وجنوده كلام جـُليات فارتاعوا واحجموا عن منازلته وظل يتحداهم أربعين يوماً صباحاً ومساء ، وكان شاول قد وعد بأن يغدق المال على من يقتل جليات ويزوجه ابنته .

وكان لرجل من بيت لحم اسمه (يسيّ) ثلاثة أبناء رافقوا جيش شاول ليحاربوا معه، وكان له ولد رابع اسمه داود أرسله الى اخوته ليتفقد حالهم فرأى جليات يطلب المبارزة ، والناس تتحاشاه خوفاً منه وهو يشتمهم ويهينهم، فتحركت في قلب داود الحمية وطلب من شاول الإذن لمبارزته فضن به شاول وحذره من التهور، ولكنه أخيراً أذن له بمبارزته وألبسه درعاً فلم يعرف ان يمشي بها لأنه لم يكن قد تعود على لبسها ونزعها عنه، ثم اخذ عصاه بيده وانتقى خمسة حجارة مُلس من الوادي ووضعها في جرابه ومقلاعه بيده، وبعد جدال مع جـُليات هـَمّ هذا على إثره بمعاجلة داود بضربة من رمحه ولكن داود كان اسرع منه فقذفه بحجر من مقلاعه على جبهته فخر الجبار على أثره على الأرض يتلوى وفي سرعة البرق وثب عليه داود واستل سيفه وقطع به رأسه .

ذ ُعِرَ الفلسطينيون لما رأوا جبارهم قد قـُتِلَ ودبّت الفوضى في صفوفهم ثم ولوا هاربين فتعقبهم شاول ورجاله وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

موت طالوت وتولية داود ملكاً

لما قتل داود جليات حسنت حاله عند شاول (طالوت) وصار مقدماً بين رجال الحرب في بني اسرائيل ، ولكن الحسد دبّ الى قلب شاول الذي رأى في داود منافساً خطراً ولا سيما انه يتمتع بمحبة شعب بني اسرائيل كله ، ولم يلبث

حسده ان انقلب الى حقد مميت فحاول اغتياله مرات عديدة إلاّ انه اخفق في محاولاته .

ثم كانت معركة الجلبوع التي ولى فيها الاسرائيليون الأدبار وقتل لشاول ثلاثة من أولاده ، وادرك رماة الفلسطينيين شاول فأثخنوه بالجراح فأمر شاول حامل سلاحه بأن يستل سيفه ويطعنه به حتى لا يقتله اعداؤه ويمثلوا به فأبى ذلك عندئذ اخذ شاول سيفه وسقط عليه فمات .

توجه داود بعد ذلك الى (حبرون) مدينة الخليل اليوم فجاء رجال يهوذا وأقاموا داود ملكاً على بيت يهوذا ، وأما بقية بني اسرائيل فدانوا بالطاعة الى (اشبوشت) ابن شاول ، وقد حصلت حروب بين رجال داود ورجال (اشبوشت) الى ان هلك ابن شاول وحينئذ اصبح داود ملكاً على اسباط اسرائيل كلها، وكان داود ابن ثلاثين سنة يوم مَلَكَ على كل اسرائيل، ومدة ملكه اربعون سنة ، ملك بحبرون على يهوذا سبع سنين وستة اشهر ، وملك بأورشليم ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع اسرائيل ويهوذا ، ثم جعل داود ابنه سليمان وليّ عهده قبل ان يموت ، ولما وُلّي سليمان أتم عمل ابيه فواصل فتح البلاد ، ونظم المملكة تنظيماً حديثاً وشيّد الهيكل وأوتي الحكمة .

الفصل الثاني

قصة داود

داود القاضي – الحكم بقضية الزرع – داود العابد – ملك داود وحكمته – معجزات داود .

داود القاضي

كان داود عليه السلام قد قسم أيامه أربعة أقسام : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للوعظ ، ويوماً لخاصة نفسه .

وفي يوم من أيامه الخاصة التي يخلو فيها الى نفسه والتي لايجرؤ أحد على تعكير صفو وحدته إذا برجلين يتخطيان الأسوار في غفلة من الحراس ويدخلان عليه في محرابه ، ففزع منهما لهول المفاجأة، وظن أنهما يريدان شراً به ، فقالا له : لا تخف ، نحن خصمان تعدى بعضنا على بعض فجئنا نحتكم اليك فاحكم بيننا بالحق ولا تكن جائراً وأرشدنا الى الطريق الواضح المستقيم، ثم اخذ المعتدى عليه يعرض شكواه فقال: إن صديقي واخي في الدين هذا – واشار الى صاحبه – يملك تسعاً وتسعين نعجة وأنا املك نعجة واحدة فطمع في نعجتي وأراد أن يأخذها مني ويضمها الى نعاجه ، وقد حاولت اقناعه بفساد طلبه لكني فشلت وغلبني في جداله وخصامه .

سمع داود القصة فأنكر على صاحب النعاج الكثيرة أن يأخذ من صاحبه نعجته الواحدة وحكم عليه بأنه ظالم في طلبه هذا ، شأنه في ذلك شأن كثير من الأصدقاء الذين يحاولون ان يظلموا اصدقاءهم مع ان الواجب يحتم عليهم ان ينصفوهم ، وهذه سجية اكثر الناس باستثناء المؤمنين العاملين للصالحات – وهم قليل في المجتمع الانساني – وهنا تنبه داود الى ان الله أرسل هذين الخصمين بهذا الخصام ابتلاء له وذلك لينبهه الى أمر ما كان يليق به ان يصدر منه بحسب مقامه فاستغفر ربه وانحنى له راكعاً ساجداً راجعاً اليه ليقبل توبته ، فقبل الله

توبته وطمأنه بأنه مقرب منه وأن مصيره الى الجنة : قال تعالى :

﴿ وهل أتاكَ نبَأُ الخصم[١] إذ تَسَوَّروا المحراب[٢] . إذْ دَخَلوا على داود فَفَزِعَ منْهُم قالوا : لا تَخَفْ خَصْمان بَغَى[٣] بَعْضُنَا عَلى بَعْضٍ فَاحكُمْ بَيْنَنا بالحق ولا تُشْطِط[٤] واهدنا الى سَوَاءِ الصِّراط .[٥] إن هذا اخي له تِسْعٌ وَتسعون نَعْجَةً ولي نَعْجَةٌ واحدة فقال : اكفلنيها[٦] وعزّني في الخطاب[٧] . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وإن كثيراً من الخُلطاء[٨] ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وَظَنَّ داودُ أنّما فَتَنّاه[٩] فاستغفر ربَّهُ وخَرَّ راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإنّ لَهُ عِنْدنا لزُلْفى وَحُسنَ مآب ﴾ ص : ٢١ ـ ٢٥ .

ثم أراد الله ان يظهر لداود عظم المنة التي أنعمها عليه وهي أنه جعله خليفة في الأرض ، وهذه الخلافة تجعل الإنسان عادة يطغى ويحكّم هواه ، لذلك دعاه الله الى ان يحكم بين الناس بالحق بعيداً عن أهواء النفس ، لأن ذلك يصرفه عن طريق الله القائم على العدالة المطلقة ، وإن الذين يتنكبون عن طريق الله لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم عاقبة ظلمهم وميلهم عن الحق ، هذا ما وصى به الله داود بقوله :

---

(١) نبأ الخصم : قصة الخصوم.

(٢) تسوروا المحراب : أي أتوه من أعلى السور ودخلوا المنزل ، والسور : هو الجدار المحيط المرتفع ، والمحراب هنا الغرفة .

(٣) بغى : اعتدى.

(٤) تشطط : تبعد عن الحق وتتجاوزه .

(٥) سواء الصراط : طريق الحق .

(٦) اكفلنيها : ملكنيها .

(٧) عزني في الخطاب : غلبني في المناقشة والمحاجة .

(٨) الخلطاء : الشركاء .

(٩) **فتنة داود** : قيل ان الفتنة المقصودة هي ال داود حجب نفسه عن الناس والواجب على القاضي ان يعد نفسه للقضاء دائماً ولا يضع بينه وبين المتخاصمين حجاباً، وذلك مما أدى بالمتخاصمين الى تسوّر المحراب والدخول على داود ، وقيل هي قضاوه بين الخصمين بعد ان سمع حجة احدهما وقبل ان يسمع حجة الآخر . وقيل: ان الفتنة كانت في استشعار داود المُلْك والسلطة فرأى في ذلك فتنة واختباراً له من الله فخاف من الوقوع في الجور والظلم شأن كثير من الحكام .

﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ ص : ٢٦ .

الحكم بقضيّة الزرع

اقبلت غنم ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعيها فأفسدت الزرع وأتت عليه، فاحتكم اصحاب المزرعة الى داود قائلين: يا نبي الله، إنّا حرثنا ارضنا وزرعناها وتعهدناها حتّى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتّى لم يبق منه شيء ، فقال داود لأصحاب الغنم : أحقاً ما يقوله هؤلاء؟ قالوا : نعم ، فقال لأصحاب المزرعة : كم تقدرون ثمنا لزرعكم؟ فذكروا له الثمن، فقال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمناً لأغنامكم ؟ فقدروه بثمن ما، فلما رأى داود الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم : ادفعوا اغنامكم الى اصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم .

ولكن ابنه سليمان كان حاضراً يشهد هذه المحاكمة فابتدر أباه قائلاً : لي رأي في هذه القضية، وهو ان يدفع أصحاب الغنم اغنامهم الى اصحاب المزرعة فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها ، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتّى يستوي الزرع ، فإذا حان وقت حصاده سلموا المزرعة الى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم ، فرضي الجميع بهذا الحكم ، وقال داود وُفقت يا بنيّ بهذا الحكم ، وَحَكَمَ بما أفتى به سليمان ، وهذا ما أشار اليه القرآن :

﴿وداود وسليمان إذ يَحْكُمان في الحَرْث[1] إذْ نَفَشَتْ[2] فيه غَنَمُ القوم وكُنّا لِحُكْمهم شاهدين . ففهّمنَاها سُليمان[3] وكلاً آتينا حُكماً وَعِلْماً﴾ الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ .

---

(١) الحرث : الزرع .

(٢) نفشت الغنم : رعت ليلاً .

(٣) ففهمناها سليمان : يدل ذلك على ان سليمان هو المصيب للحق ولولا ذلك لما خصّصه الله بالفهم، وتخصيصه بالفهم لايدل على خطأ داود لجواز كون كل واحد منهما مصيباً، وهو معنى قوله تعالى : (وكلاً آتينا حكماً وعلماً) ويؤخذ من هذه الحادثة ان المجتهدين =

داود العابد

يصف الله عبادة داود بقوله :

﴿ واذكُرْ عَبدنا داود ذَا الأيدِ إنّهُ أوّاب . إنّا سخّرنا الجبال معه يُسبّحن بالعشيّ[1] والإشراق[2] ، والطير محشورةً كُلٌّ له أوّاب ﴾ ص : ١٧ ـ ١٩ .

في هذه الآيات يأمر الله نبيه محمداً ﷺ ان يذكر عبده ونبيه داود ليكون له فيه الأسوة الحسنة، فهو المتصف بصفة (ذا الأيدِ) أي صاحب القوة في دينه لا يهن لشدة ولا يضعف لاضطهاد .

ويصفه الله بصفة (أواب) أي كثير الرجوع الى الله، واللجوء اليه في الشدة والرخاء وفي السرّ والعلانية .

وقد سخر الله له الجبال تردد معه التسبيح في الليل والصباح بلسان خاص بها لا يدركه الإنسان العادي ، ولكن يدركه داود بما وهبه الله من حواس وعلم ومزيّة خاصة ، وكذلك الطير كانت تجتمع حوله عند تسبيحه لله وتشاركه في التسبيح . وهذا ما ذكره الله سبحانه ايضاً بقوله :

﴿ ولقد آتينا داود مِنّا فضلاً يا جبال أوّبي مَعَهُ وَالطّيْرَ ﴾ سبأ : ١٠ .

مُلك داود وحكمته

ويذكر الله نِعَمَه على داود بقوله :

﴿ وَشَدَدْنَا مُلكَهُ وآتيناهُ الحكمة وَفَصْلَ الخِطَاب ﴾ ص : ٢٠ .

والمراد بقوله: (وشددنا مُلكه) أي قواه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود

= لايقدرون على اصابة الحق في كل قضية، ولكن يجب ان لا يصرّوا على حكم إذا تراءى لهم حكم آخر أقرب إلى الصواب ، وهذا ما فعله داود من تراجعه عن حكمه الى الحكم الذي افتى به سليمان، كما يؤخذ من ذلك جواز الاجتهاد في الأحكام، وان المجتهد قد يخطيء، وأنه مأجور مع الخطأ، لأن الله اخبر ان الحق كان في جانب سليمان، ثم أثنى عليهما معاً .

(١) العشي : من زوال الشمس الى الصباح .

(٢) الإشراق : وقت شروق الشمس .

ومزيد النعمة (وآتيناه الحكمة) أي النبوة وكمال العلم وعلم الشرائع (وفصل الخطاب)[1] أي الفصل في الخصومات الواقعة بين المتخاصمين بتمييز الحق من الباطل .

مُعجزات داود

واشار الله تعالى الى ما خص به داود عليه السلام من امور حارقة لا يستطيع الانسان العادي ان يفعلها فقال تعالى :

﴿ ... وألنّا له الحديد . ان اعمل سابغات[2] وقدّر في السرد[3] وا عملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾ سبأ : ١٠ ، ١١ .

أي ان الله ألان الحديد بين يديه وطوّعه حتى أصبح كالشمع يتصرف به كما يشاء من غير نار ولا مطرقة ، فيصنع منه دروعاً احكم نسجها من حلقات متصلة بعضها ببعض في دقة ومقادير متساوية ، وهذا النوع من الدروع لا تعوق لابسها عن الحركة كما يعوق الدرع الذي يتكون من صفيحة واحدة .

ويشير القرآن الى ذلك ايضاً :

﴿ وعَلَّمناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ[4] لكم لِتُحصنَكُم مِنْ بأسكم[5] ﴾ الانبياء : ٨٠ .

أي وعلمنا داود صنعة لباس لكم وهي الدروع التي تصنع من الحديد لتحفظكم من ضرب السيوف وطعن الرماح في حروب أعدائكم .

كتاب داود

ويذكر القرآن ان الله اعطى داود كتاباً اسمه الزبور (وآتينا داود زبورا) ويسمى عند اهل الكتاب (المزامير) وهي قصائد من الشعر الديني الوجداني الغنائي ، منها الترانيم والأناشيد التي فيها تمجيد الله عن عجائب مخلوقاته ، ومنها الصلوات ، ومنها تعليم وصايا الرب وذكر ثوابه وعقابه . واكثر المزامير ترجع لداود ، وبعض المزامير وضعت بعده . وبعض هذه المزامير من تصنيف (همان) و (اتهان) و (سليمان) و (اساف) و (جدوتهن) و (موسى) و (ابناء قورح) .

---

(١) فصل الخطاب : قيل من معناه : الكلام الذي يفي بالمقصود من غير اختصار مخل ولا اطناب مخل .

(٢) سابغات : دروع .

(٣) قدر في السرد : قدر الشيء قاسه به وجعله على مقداره ، وسرد الدرع نسجه .

(٤) لبوس : السلاح كله .　　(٥) بأسكم : حربكم .

الفصل الثالث

قصة سليمان

سليمان وادراكه كلام النمل – تسخير الرياح والجن لخدمة سليمان – سليمان والخيل .

سليمان وإدراكه كلام النمل

تفضل الله على داود وسليمان فآتاهما علم الشرائع والأحكام ، وقد أدرك هذان النبيان مقدار ما أسبغ الله عليهما من النعم فقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين الذين لم يؤتوا من العلم مثلما أوتينا .

ولما مات داود ورثه سليمان دون سائر أبنائه في النبوة والملك ، ولما تولى الملك دعا رؤساء مملكته وأهل العلم فيها وقال لهم تنويهاً بجليل نِعَم الله عليه واعترافاً بفضله : لقد تفضّل الله عليَّ فعلمني لغة الحيوان والطير ، وجعلني أفهم ما تتخاطب به ، هذا بالاضافة الى ما آتاني الله من الملك والنبوة ، إن هذه النعم الجليلة هي من فضله وإحسانه وهي واضحة لا تخفى على احد .

ودعا سليمان يوماً جنوده ، فاجتمع جنده من الجن والإنس والطير مؤتمرين بطاعته ، ومضى سليمان بهذا الجند حتى وصل الى واد فيه نمل كثير ، فسمع سليمان نملة تقول لزميلاتها : يا أيها النمل هذا سليمان وجنوده يسيرون باتجاهكم فاسرعوا واختبئوا في جحوركم حتى لا يحطموكم ويبيدوكم بوطئهم وهم لا يشعرون بوجودكم .

سمع سليمان ما قالته النملة فسُرّ بذلك واغتبط لالهام النملة ان تذكر ما وهب الله له من النبوة والعدل والرحمة ، وابتهج بما خصه الله به من الملك ومن إدراك كلام النملة الذي يخفى على البشر . فقال مناجياً ربه : رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك ، وادخلني بفضلك ورحمتك في عداد الصالحين الذين نالوا رضاءك :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان عِلْماً وقالا : الحمد لله الذي فَضّلنا على كثير مِن عِبادِه المؤمنين . وَوَرِثَ سُليمانُ داودَ وقال : يا أيُّها النّاسُ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطّيْر وأُوتينا مِنْ كُلِّ شيء إن هذا لهو الفَضْلُ المبين . وحُشِرَ لسليمانَ جنودُهُ مِنْ الجنّ والإنسِ والطيرِ فهم يُوزعون[١] حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملةٌ : يا أيّها النّمْلُ ادخلوا مساكنكم لا يَحطمنّكم سُليمانُ وجنودُهُ وَهُمْ لا يشعرون[٢] . فَتَبَسَّمَ ضاحكاً مِنْ قَولها وقال : رَبِّ أوزعني[٣] ان اشكُر نِعمتَكَ التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وان أعْمَلَ صَالحاً ترضاهُ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ النمل : ١٥ ـ ١٩ .

ابتلاء سُليمان

امتحن الله سليمان بمرض شديد أصابه حتى صار إذا جلس على كرسيه ظهر وكأنه جسد بلا روح ثم تماثل الى الشفاء، وقد يكون هذا المرض الذي أصاب سليمان عن تقصير واسراف في حق نفسه كما يقع لبعض الناس الذين يفرطون في صحتهم ، فإذا حلّ بالانسان مرض وكان للاسراف في الصحة دَخلٌ في حلوله تنبه الى الخطأ الذي وقع فيه وطلب من الله المغفرة والرجوع الى الصحة، وهكذا كان من سليمان ، قال تعالى :

---

(١) يوزعون : يحبس اولهم حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم احد .

(٢) لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون : هذا القول اعتذار عن سليمان وجنوده إذ لو فرض ان كان من سليمان وجنوده قتل للنمل فهو قتل عن خطأ عن غير شعور وإرادة ، وقد أقر سليمان النملة على ما تظن فيه من الرحمة ، فقد دعا ربه ان يجعله من الشاكرين . وفي هذا لفت لطيف الا انه ينبغي للقوي ان يرحم الضعيف . ويتضح من النص القرآني ان النمل يعيش في مساكن أي ان له مجتمعاً خاصاً، كما ان من خصائصه اليقظة والحذر، وان له لغة خاصة يتفاهم بها . هذا وقد عرف عن مجتمع النمل خصائص عدة تظهر ان له مجتمعاً منظماً وأنه على قدر كبير من الذكاء والدهاء وحب العمل والمثابرة وسعة الحيلة . فجماعات النمل تحرص على الالتقاء في صعيد واحد من حين الى آخر وهذه الجماعات حين تلتقي تتجاذب اطراف الحديث ويسأل بعضها بعضاً اسئلة تتصل بشوونها، ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير عن خصائص النمل .

(٣) اوزعني : اجعلني .

﴿ ولقد فتنا[1] سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب[2]. قال: رب اغفر لي .. ﴾ ص: ٣٤.

النِعَمُ التي خصّ الله بها سُليمان

وكما دعا سليمان ربه ان يغفر له دعاه ان يهبه ملكاً لا يعطى لغيره فأجاب الله دعاءه واعطاه ما يلي:

اولاً: أعطاه سلطاناً على الريح وقدرة عليها فجعلها بجري بامره الى المكان الذي يريده.

ثانياً: سخر الشياطين لخدمته، فمنهم البنّاء للقصور والحصون، ومنهم الغواص في البحر لاستخراج اللآلىء والاحجار الكريمة، كما جعل الله لسليمان سلطاناً على الشياطين الكفرة فكان يقيدهم لكف شرهم.

هذا الملك كله هيأه الله لسليمان، وأباح له ان يتصرّف فيه على الوجه الذي يريده فيعطي منه من يشاء، ويمسك عن العطاء لمن يريد، وله بجانب ذلك منزلة كريمة عند ربه وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة، قال تعالى:

﴿ قال: رَبِّ اغفر لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدي إنّكَ أنتَ الوهّاب. فسَخّرنا لَهُ الرّيحَ تجري بأمره رُخاء[3] حَيْثُ أصاب. والشّياطين كُلَّ بنّاءٍ وغوّاص. وآخرين مقرّنين[4] في الأصفاد[5]. هذا عطاؤنا فامْنُنْ[6] أو أمْسِك[7] بغَيْرِ حِسَاب. وإنّ له عندنا لزُلفى[8] وحُسن مآب ﴾ ص: ٣٥ — ٤٠.

ويذكر القرآن في موضع آخر بأن الله سَخّر لسليمان الريح، جريها في الصباح الى الزوال مسيرة شهر يأمرها بما يريد وتنقله الى حيث يشاء. وهذا امر

(١) فتنا: ابتلينا.
(٢) اناب: رجع الى الصحة.
(٣) رخاء: وصف الله الريح بأنها رخاء أي أن الريح العاصفة الشديدة قد ألانها ولطفها لنبيه سليمان.
(٤) مقرنين: مسلسلين في القيود بحيث يقرن بعضهم بعضاً.
(٥) الصفد: القيد.
(٦) فامنن: فاعط من شئت.
(٧) امسك: امنع من شئت.
(٨) لزلفى: لقربة وكرامة.

ليس بمستبعد في عصرنا الذي سخر الانسان فيه العلم لاغراضه البعيدة باختراع الطائرات النفاثة التي تنقل الإنسان الى أقاصي الأرض في مدة وجيزة ، والصواريخ التي نقلت الإنسان إلى القمر .

ويذكر القرآن بأن الله سخر لسليمان عيناً من الأرض يخرج منها النحاس المصهور ، كما سخر له من الجن من يعمل بين يديه بأمر ربه ، ومن كان يعدل منهم عن تنفيذ أمر الله بطاعة سليمان يذيقه في الآخرة عذاب النار الملتهبة ، وقد كان هؤلاء الجن يعملون لسليمان ما يشاء من معابد وقصور وتماثيل وصور لسباع وطيور ، وقصاع للأكل كالحياض العظيمة ، وقدور لطهو الطعام ثابتات لا تتحرك لعظمها ، وقد قال الله لآل داود بعد هذه النعم التي خصهم بها : اعملوا يا آل داود على طاعة الله واعبدوه شكراً له على جزيل النعم التي خصكم بها .

﴿ ولسُليمان الريح غُدوّها شَهرٌ ، ورَوَاحُها شَهرٌ وأسَلْنا[1] له عَيْنَ القطر[2] ومِنَ الجنّ من يَعمل بين يديه بإذن ربه ومن يَزغْ[3] منهم عن أمرنا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعير . يَعملون لَهُ ما يَشاءُ مِن مَحاريب[4] وتماثيل وجِفَانٍ[5] كالجواب[6] وقُدُورٍ[7] راسِيَاتٍ[8] ، اعملوا آل داود شُكْراً وقليلٌ مِنْ عِبَاديَ الشكور ﴾ سبأ : ١٢ ، ١٣ .

سُليمان والخيل

ومن نعم الله على سليمان تلك الخيل الأصيلة التي كان يملكها والتي كان يستعرضها أمامه من حين لآخر .

وفي يوم أمر سليمان بإحضار الخيل بين يديه ، فقال سليمان لمن حوله مفتخراً بها : إني احببت هذه الخيل لأجل أن اذكر بها ربي وأعلي شأن دينه . فأنا

---

(١) اسلنا : أذبنا .
(٢) القطر : النحاس .
(٣) يزغ : يعدل .
(٤) محاريب : جمع محراب وهو القصر أو مكان العبادة او المسكن .
(٥) جفان : جمع جفنة وهي ما يوضع فيه الطعام .
(٦) كالجواب : كالحياض العظيمة .
(٧) قدور : جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام .
(٨) راسيات : ثابتات .

لا احبها لأجل الدنيا والغنى فيها . ثم بدأ استعراض الخيل فمرت أمامه حتى غابت عن الأنظار، ولكن سليمان لم يشف نهمه من حب الخيل فأمر بإحضارها أمامه ثانية، وأخذ يلاطفها بالمسح بيديه على سيقانها واعناقها . والغرض من ذلك أمور :

منها : تشريفاً لها لكونها من اعظم الوسائل في دفع العدو في ذلك الزمن

ومنها : انه أراد ان يظهر انه مهتم في ضبط السياسة والملك بحيث يباشر اكثر الأمور بنفسه .

ومنها : أنه كان اعلم بأحوال الخيل وعيوبها وأمراضها، فكان يمتحنها ليعلم هل يوجد فيها ما يدل على امارات المرض . قال تعالى :

﴿ ووهبنا لداود سُليمان نِعْمَ العَبْدُ إنّه أوّاب . إذْ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصَّافناتُ[1] الجيَادُ[2] . فقال : إني أحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ[3] عَنْ ذِكْرِ ربي[4] حتى توارت بالحجاب . رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ[5] مَسْحاً بالسُّوقِ والأعناق ﴾ ص : ٣١ – ٣٣ .

---

(١) الصافنات : الخيل التي ترفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى تقوم على ثلاث، وهي من علامات الإصالة في الخيل .

(٢) الجياد : الخيل السريعة المشي الواسعة الخطو .

(٣) الخير : يراد بالخير هنا الخيل ، هكذا كان العرب يسمونها كما كانوا يسمون الخير مالا .

(٤) احببت حب الخير عن ذكر ربي : اي اشربت حب الخير حباً ناشئاً عن ذكري لربي لأنها عدة الخير وهو الجهاد في سبيل الله، وهذا درس للمؤمن بأن يكون حبه لله وحده، فكلما احب شيئاً في هذه الحياة ينبغي ان يحبه لأنه يعينه على ذكر الله وشكره، وإذا كره شيئاً فلأنه يصرفه عن سبيل ربه .

(٥) طفق : جعل .

الفصل الرابع

سليمان وملكة سبأ

مملكة سبأ – حوار بين الهدهد وسليمان – رسالة من سليمان الى بلقيس – جواب بلقيس على رسالة سليمان – عرش بلقيس امام سليمان – بلقيس تتعرف على عرشها – بلقيس في قصر سليمان – موت سليمان .

مملكة سبأ

قبل ان ندخل في قصة سليمان مع ملكة سبأ يحسن بنا ان نلم إلمامة سريعة بمملكة سبأ .

فسبأ هي أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ... سميت هذه الأرض بهذا الإسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجُب بن يعرب ابن قحطان ، وإنما سمي سبأ لأنه اول من سبى السبي [١] من ملوك العرب وأدخل الى اليمن السبَايا .

وذكر بعض الإخباريين : أنه بنى مدينة سبأ و (سد مأرب)[٢]. وعندما حدث سيل العرم في مأرب تفرق أهل هذه الأرض في البلاد ، وسارت كل طائفة منهم الى جهة ، فضربت العرب بهم المثل في تفرقهم فقيل : ذهب القوم أيدي سبأ ، وأيادي سبأ ، اي متفرقين [٣] .

وقد جاء ذكر سبأ في العهد القديم باسم (شبأ) وانها مركز تجاري هام وان تجارها كانوا يتاجرون مع العبرانيين ، وعرفت بثروتها ووجود الذهب فيها[٤] .

وفي العهد القديم قصة زيارة قامت بها (ملكة سبأ) لسليمان فأتت اورشليم

---

(١) معجم البلدان لياقوت .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي .

(٣) معجم البلدان لياقوت .

(٤) حزقيال الاصحاح ٢٧ الآية ٢٢ الاصحاح ٣٨ الآية ١٣ .

بموكب عظيم جداً بجمال حاملة اطياباً وذهباً كثيراً وحجارة كريمة[1] .

ويذهب أهل الحبشة الى أن الأسرة المالكة هي من سلالة سليمان وزوجته ملكة (شبأ) أي سبأ ويدعونها (ماقدة)[2] .

وقد قص القرآن الكريم قصة زيارة ملكة (سبأ) لسليمان دون ان يذكر اسم الملكة غير أن المفسرين ذكروا أنها بلقيس وأنها من بنات التبابعة .

حوار بين الهدهد وسليمان

ذكرنا فيما سبق أن الله خص سليمان بالقدرة على فهم كلام الطير ، وكان هناك هدهد من جملة من كان يربيهم سليمان ويتفاهم معهم بلغتهم الخاصة .

تفقد سليمان يوماً الهدهد فلم يظهر له أثر فقال : لماذا لا أراه بين الطيور ؟ أغاب عني الآن فلم أره حال السؤال عنه أم انه غاب من قبل دون ان اشعر بغيبته ؟ ثم كيف يغيب بدون علمي ؟

بدا على سليمان الغضب ونوى معاقبة الهدهد إما بنتف ريشه او بحبسه في قفص او بذبحه وذلك على حسب ذنبه ، وقد يصفح عنه إذا جاء بدليل واضح يبين عذره في ذلك الغياب .

لم يطل غياب الهدهد بل رجع الى سليمان بعد برهة وجيزة قائلاً له : لقد اطلعت على ما لم تطلع عليه وعُدت اليك من مملكة سبأ بخبر صادق محقق ، لقد وجدت امرأة تحكم هذه المملكة وقد أوتيت كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم ولها عرش عظيم محلى بالجواهر واللآلىء ، ولكن رغم ما أفاض الله من نعمه على أهل هذه المملكة فإنهم لا يعترفون بنعم الله عليهم ولا يؤمنون به ولا يعبدونه ، بل يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله ، وقد اغواهم الشيطان فحوّل قلوبهم عن طريق الحق والصواب فهم لا يهتدون الى عبادة الله وحده ، لقد اغواهم الشيطان وصرفهم عن السجود لله المستحق وحده للعبادة لأنه: هو الذي يظهر ما تخبئه الأرض من النبات، وهو الذي ينزل المطر من السماء ، وهو الذي يعلم ما تخفي الصدور من النوايا ، وما تظهر النفوس من أعمال ، وهو الله الذي لا اله إلاّ هو رب العرش العظيم .

---

(١) سفر الملوك الثالث ، الاصحاح ١٠ الآية ٢ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي جـ ٢ ص ١٠٤ .

لما انتهى الهدهد من كلامه أجابه سليمان : سوف نبحث ونحقق فيما قلت لنتبين أأنت صادق في قولك ، أم انت كاذب ، وسيكون حكمنا عليك بما يظهر لنا من الحقائق :

﴿ وتفقّد الطيرَ ، فقال : مالي لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟. لأُعذّبنّه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنّه ، أو ليأتينّي بسُلطان مبين[1] ، فمكث غير بعيد فقال : أَحَطْتُ بما لم تُحِط به[2] وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وَجَدْتُ امرأة تملكهم وأوتيت مِنْ كل شيء ولها عرش[3] عظيم . وَجَدْتُها وقومها يسجدون للشمس[4] من دون الله وزيّن لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء[5] في السموات والأرض ويعلم ما تُخفون وما تعلنون . الله لا إلّه إلاّ هو رب العرش العظيم . قال : سننظر : أصَدَقت ام كُنْتَ مِن الكاذبين ﴾ النمل : ٢٠ ــ ٢٧ .

رسالة من سليمان الى بلقيس

ولكشف حقيقة ما أعلنه الهدهد أعطاه سليمان رسالة وأمره بالقائها بين يدي بلقيس وأوصاه بمراقبتها وقومها والاستماع الى ما يجيبون ويردون به على الرسالة .

طار الهدهد برسالة سليمان الى مملكة سبأ والقاها بين يدي بلقيس التي تناولتها وفضتها وقرأت ما فيها ، ثم جمعت اشراف قومها وقادة مملكتها وقالت لهم :

---

(١) سلطان مبين : حجة بينة .

(٢) أحطت بما لم تحط به : أي علمت ما لم تعلمه .

(٣) العرش : كرسي الملك .

(٤) يسجدون للشمس : اما ان السبئيين كانوا يعبدون الشمس فذلك ما كشفت عنه الدراسات العلمية وأثبتت صحته ، فمن الآلهة المعروفة عند السبئيين : (عثتر) و (المقه) و (هبس) و (ذات حميم) و (ذات بعدان) فعثتر هو ولد الشمس التي يطلق عليها (ام عثتر) وهي تعتبر آلهة البركة والخصب والحبل . و (ذات حميم) معناها ذات الأشعة التي تشبه الحميم . و (ذات بعدان) أي ذات البعد كنية قصد بها الشمس حيث تكون بعيدة عن الأرض (تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٢ و جـ ٥) .

وهذا سبق علمي للقرآن يضاف الى جملة معجزاته في كشف الحقائق التي كانت خافية عن الناس .

(٥) الخبء : خبء الأرض أي كنوزها ونباتها .

يا أيها القوم قد جاءتني هذه الرسالة من الملك سليمان هذا نصها : بسم الله الرحمن الرحيم، لا تتكبروا عليّ، وتعالوا إليّ طائعين خاضعين لله وحده. وبعد أن اتمت بلقيس قراءة الرسالة وجهت كلامها لمن حولها من رعيتها تستشيرهم في موضوع هذه الرسالة فقالت لهم : أيها القوم اشيروا عليّ في هذا الأمر الهام فإني لا انفذ حكماً ، ولا أبرم أمراً إلاّ في حضوركم ومشورتكم ، فأجابها الحاضرون : نحن اصحاب قوة شديدة وعدد عظيم، ونحن على اتم الاستعداد للقتال، وقد فوضنا الأمر اليك فانظري ما تأمرين، وسنكون لك طائعين . والى هذا تشير الآيات القرآنية :

﴿ إذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ، ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : يا ايها الملأ إني ألْقي إليّ كتاب كريم[1]. إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . الاّ تعلوا عليّ وَأتوني مسلمين . قالت : يا ايها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة امراً[2] حتى تَشهدون[3] . قالوا : نحن اولو قوة وأولو بأس شديد[4] والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ النمل : ٢٨ — ٣٣ .

جَوابُ بلقيس على رسالة سليمان

أحست بلقيس ان قومها يميلون الى الحرب، وكانت عاقلة مفكرة تقدر عواقب الأمور فأرادت ان تبين لهم اضرار الحرب وخاصة على المهزوم فقالت لهم : إن الملوك إذا دخلوا قرية محاربين أفسدوا عمارتها وأتلفوا ما فيها واهانوا أهلها ، ومثل هذه الأمور سيفعلون بنا إن هم انتصروا علينا .

ثم أبدت بلقيس رأيها قائلة : لقد اعتزمت ان ابعث الى سليمان وقومه رسلاً بهدية عظيمة وسأنتظر وقعها في نفوسهم ، فإن من عادة الملوك ان الهدايا تقع في نفوسهم موقعاً حسناً فيهادنون من أجلها مرسليها ، فإن قبلها سليمان عرفت انه ملك يرضيه ما يرضي الملوك ، وإن كان نبياً أبى إلاّ ان نتبع دينه ، كما ان هؤلاء الرسل سيعودون اليّ بالخبر اليقين الوافي عن مبلغ قوته .

---

(١) سمي الكتاب كريماً لأنه كان مختوماً، وقيل وصفته بذلك لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء
(٢) قاطعه امراً : ممضية امراً .
(٣) تشهدون : تحضرون .
(٤) اولو بأس شديد : أي اصحاب شجاعة شديدة .

ذهب وفد بلقيس الى فلسطين يحمل الهدايا الى سليمان فرأى الوفد مُلكاً كبيراً وقصوراً وجنداً ليست مملكة سبأ الى جانبها شيئاً يُذكر ، فلما مثل الوفد بين يدي سليمان وقدم اليه هدية بلقيس انكر ذلك لأنه لم يكتب اليها طمعاً في مال او هدية ولكنه طلب منها أن تأتي اليه لتؤمن بالله وتتبع شريعته وتترك عبادة الشمس ، فخاطب سليمان الوفد قائلاً : أتهدونني مالاً وقد آتاني الله خيراً مما آتاكم من المال؟ كما اعطاني الله الملك وسخر لي الجن والإنس والريح والطير ، كما آتاني الله النبوة فلست أطمع في مال ولكني أرجو لكم الهداية ، فأنتم تفرحون بما يُهدى اليكم لتعلقكم بحب الدنيا والتمتع بها ، ثم خاطب رئيس الوفد قائلاً : إرجع الى قومك واردد إليهم هديتهم واخبرهم بما شاهدت من ملكنا وقوتنا وعبادتنا لله ، فإن أطاعوا وآمنوا نجوا ، وإن بقوا على الكفر فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ، ولنخرجنهم من مدينة سبأ اسرى أذلاء مستعبدين . قال تعالى :

﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بِمَ يرجع المرسَلون . فلما جاء سليمان قال: اتمدونَنِ بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها[١] ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون[٢] ﴾ النمل : ٣٤ – ٣٧

عرش بلقيس أمام سليمان

رجع الوفد ادراجه واخبر ملكته بما رأى من قوة سليمان ورفضه هديتها. وأكد لها ما اقسم عليه سليمان من التهديد بالغزو إذا ما رفضت الحضور اليه ، عندئذ ادركت بلقيس ان سليمان نبي مُرسل ، وانه صادق تهديده ووعيده ، وانها لا طاقة لها بمخالفة أمره ، فتجهزت للمسير اليه مع اشراف قومها .

عرف سليمان بمسيرة بلقيس اليه ، فأراد ان يريها بعض ما خصه الله به من معجزات ليكون ذلك دليلاً على نبوته ، فقال لمن حوله من الجن : أيكم يأتيني بعرش بلقيس قبل أن تأتي إليّ مع قومها مؤمنين ليروا قدرة الله – الذي دعوتهم

---

(١) لا قبل لهم بها : لا طاقة لهم بها .
(٢) صاغرون : ذليلون .

الى عبادته – ماثلة أمامهم ؟ فقال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل ان تقوم من مجلسك الذي تقضي وتحكم فيه – وكان سليمان يجلس من الصبح الى الظهر في كل يوم للحكم بين الناس – وأضاف هذا العفريت بأنه قادر على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر، ولكن احد الملائكة الذين ايد الله بهم سليمان وكان عنده علم الكتب السماوية قال: أنا آتيك به اسرع من رد الطرف، وأتى بالعرش أمام سليمان ، فلما رأى سليمان العرش مستقراً في مجلسه قال : هذا النصر والتأييد بحضور العرش من فضل الله عليّ ليختبرني أأشكره على نعمه ام أجحده واكفره، وإني لشاكر ربي على نعمه، ومنفعة الشكر تعود على الشاكر، لأن الشكر يستوجب المزيد من النعمة ودوامها ، ومن لم يشكر فإن ربي غني عن عباده وهو كريم متفضل على خلقه جميعاً :

﴿ قال : يا أيها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك[1] ، فلما رآه مُستقراً عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ النمل : ٣٨ – ٤٠ .

بلقيس تتعرّف عَلى عَرشها

ثم ان سليمان أمر رجاله ان يغيروا هيئة العرش بعض الشيء ليعرف ما إذا كانت بلقيس تهتدي اليه بعد التأمل وإمعان النظر عند عرضه عليها أم أنها لا تعرف ان هذا عرشها وكرسي ملكها . فلما جاءت بلقيس عُرِضَ عليها عرشها فوقفت أمامه في حيرة وتردد لأن فيه من العلامات ما يجعلها تحكم بأنه عرشها فقيل لها: هل هذا العرش الذي ترينه يشبه عرشك الذي تركته ببلادك ؟ فأجابت: كأنه هو، وبعد إمعان النظر أيقنت أنه عرشها بالذات وأن الإتيان به قبل حضورها معجزة من معجزات سليمان ، وخصوصاً انه كان مغلقاً عليه في قصرها ، عندئذ قالت لسليمان : لقد علمنا بقدرة الله وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدنا من أمر الهدهد ، وما سمعنا من رسلنا إليك من الآيات

---

(١) قبل ان يرتد اليك طرفك : أسرع من غمضة عينيك .

الدالة على ذلك وكنا مؤمنين منذ ذلك الوقت ، وما منعنا من اظهار ايماننا وإعلانه إلاّ أننا كنا بين قوم راسخين في الكفر وهذا مما جعلنا نكتمه الى حين حضورنا اليك .

﴿ قال : نكّروا لها عرشها ننظر : أتهتدي ام تكون من الذين لا يهتدون ؟ فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك ؟ قالت: كأنه هُوَ، وأوتينا العلم[1] من قبلها وكنا مسلمين. وَصَدّها[2] ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين ﴾ النمل : ٤١ — ٤٣ .

بلقيس في قصر سليمان

وليري سليمان بلقيس روعة الهندسة التي اختص بها دونها، فقد أمر المهرة من الصُنّاع ببناء قصر فصُنعت ارض بهوه من زجاج شفيف مستو أملس وأرسل الماء تحت الزجاج فبدا البهو كأنه بركة ماء ثم جلس سليمان في صدر البهو على سرير الملك وبعث في طلب بلقيس لمقابلته في القصر ، فقيل لبلقيس: ادخلي القصر لمقابلة سليمان فاعترتها دهشة عندما رأت البهو وقد تراءى لها كأنه مليء بالماء فكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها — حسب ظنها — وسارت في البهو فقال لها سليمان حينئذ وقد أراد ان يطمئنها ويخفف من دهشتها: بأن هذا البهو من زجاج شفاف أملس . وهذا مشهد لم تعهده بلقيس من قبل .

ثم لما رأت بلقيس من اكرام سليمان الشديد لها، ورأت الحقيقة الساطعة التي كانت محجوبة عنها ، توجهت الى ربها مناجية : رب إني ظلمت نفسي بعبادة الشمس وخضعت مع سليمان لك يا رب العالمين فأنت وحدك المستحق للعبادة:

﴿ قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجّة وكَشَفَتْ عن ساقيها ، قال : انه صرح مُمَرّد من قوارير . قالت : ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ النمل : ٤٤ .

---

(١) واوتينا العلم: قيل ان هذا الكلام من سليمان أي واوتينا العلم بالله وقدرته قبل علم بلقيس، وقيل: ان هذا الكلام من بلقيس ويكون المعنى على هذا انها علمت بقدرة الله قبل هذه المعجزة .

(٢) وصدها: قيل، ان الضمير راجع لسليمان أي ان سليمان صدها عما كانت تعبد من دون الله وأبان لها الحقيقة التي يجب ان تسلكها وهي عبادة الله وحده ، وعلى القول بأن الضمير راجع لبلقيس يكون المعنى ان الذي منعها ان تظهر الإيمان وجودها بين قوم راسخين في الكفر .

موت سليمان :

يذكر القرآن موت سليمان بقوله تعالى :

﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ سبأ : ١٤ .

للمفسرين اقوال كثيرة في تفسير هذا النص القرآني البعض منها بعيد عن العقل، وأقربها الى المنطق ما رواه عبد الوهاب النجار : ان سليمان قد مات وبقي موته معمى على الجن دون سواهم من الإنس ودفن وانتهى امره وقام في الملك ابنه والجن في امكنة نائية كـ (تدمر) لا يفترون عن العمل دائبين عليه خشية أن يعاقبهم سليمان . وبعد مدة علم احد الجن بموته إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض[1] فرفعها فإذا (الأرضة) قد اكلتها فاستدل من اكل الأرضة إياها ان سليمان قد تركها ملقاة على الأرض مدة طويلة وما كان ليتركها إلاّ لحدث من موت او مرض فتقصى الأمر فإذا هو قد مات ، فأعلم الجن بالأمر .. وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين .

وقيل : إن سليمان كان في محرابه فأدركه الموت وهو جالس متكىء على عصاه، فجاءت الأرضة واشتغلت بأكل طرف العصا فأكلت بعضه فانهار الجزء الذي أكلته فاختل توازنه فخر[2] فدل ذلك على موته، فأقبل اهله عليه ودفنوه وظهر لهم بعد البحث ان الموت حصل من زمن غير قصير، ولما رأى الجن المسخرون بالأعمال الشاقة موت سليمان ادركوا انهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين هذه المدة الواقعة ما بين موته وعلمهم به . والذي يظهر ان سليمان كان اذا دخل في محرابه وخلا لنفسه واعتكف لعبادة ربه لم يستطع أحد ان يدخل عليه إلاّ من بعد ان يأذن له، ويظهر ان غيابه قد طال حتى اكتشف امره .

---

(١) حمل العصا من شارات الرياسة ، ومن كان ملكاً كسليمان لا يترك عصاه ما دام صحيحاً معافى .

(٢) خر : تأتي بمعنى السقوط ، وتأتي بمعنى الموت .

الفصل الخامس

دروس وعبر

درس في العدل – الأزمنة المفضلة في العبادة – الجمع بين الدنيا والآخرة – محاسبة النفس – الأخذ بنظام الشورى – صمود العقيدة امام اغراء المال – درس في التواضع .

دَرسٌ في العدل

في قصة داود درس في العدل، وتحديد للمفاهيم التي يجب السير بموجبها لتعصم القاضي والحاكم من الوقوع في الظلم، وهذا ما يظهر لنا في نداء الله لنبيه داود :

﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ .

ففي هذه الآية يوصي الله داود بأن يَحكم بين الناس بالحق أي بالعدل الذي به تستقيم الأمور وتصلح الأمة .

ولكن ما هي الأسباب والعوامل التي تصرف الحاكم عن التنكب عن طريق الحق ؟ انها هوى النفس الذي يتمثل بالمظاهر الآتية : حب الانتقام من الخصم ، ومحاباة الأقوياء والاقرباء ، والجور على الضعفاء والأعداء ، وإرضاء نزوات النفس من حب الاستعلاء والشهرة . وهذه الأمور أظهر ما تكون عند بعض الحكام ، ولهذا فإن الله بعد وصيته لنبيه داود ان يحكم بالحق يقول له : ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ .

واخيراً بيّن القرآن آثار متابعة الانسان لهوى النفس بأنها تصرفه وتضله عن سبيل الله الموصل الى السعادة والفوز العظيم ، كما ان الخروج عن الطريق التي رسمها الله يؤدي الى العذاب الشديد يوم القيامة .

هذه وصية من اروع الوصايا التي ذكرها القرآن تعصم الحاكم والقاضي من الزلل. وتجنبهما اصدار أحكام جائرة تكون عواقبها وخيمة على نظام الدولة وهيبة القضاء فتزعزع بنيانهما في الأساس.

الأزمنة المفضلة في العبادة

وفي قصة داود تخصيص للأزمنة المفضلة للعبادة، وهذا ما يفهم من منطوق الآية الكريمة:

﴿ إنّا سخرنا الجبال معه يُسبحن بالعشي والإشراق ﴾.

فتخصيص هذين الوقتين بالذكر دل على اختصاصهما بمزيد شرف فيصلح التخصيص لأن يكون سبباً للحرص على العبادة في هذين الوقتين، فإن للأزمنة والأمكنة أثراً في فضيلة ما يقع فيهما من العبادة.

فعند مغيب الشمس وامتداد الليل تصفو النفوس وترنو الى التأمل في الطبيعة وقد غمرها السكون وتراءت النجوم في سمائها مشعة وضاءة مما يطلق النفس من قيودها التي سببها ضجة العمل وزحمة العيش ويجعلها تهفو الى خالقها مسبحة بحمده ممجدة لعظمته.

وكذلك وقت شروق الشمس حيث تظهر الطبيعة في اجلى مظاهرها، وقد اغرورقت بالندى وتحرك ما فيها من إنسان وطير وحيوان، كل ذلك يثير الإحساس الروحي في قلب الانسان ويدعوه الى تمجيد خالقه.

الجمع بَين الدُنيَا والآخرة

يظن كثير من الناس استحالة الجمع بين الدنيا والآخرة، لأن التدين في نظرهم يكون بالزهد في الدنيا والاعراض عنها، وملازمة أماكن العبادة، وعدم الأخذ بنصيب من الدنيا، وقد انتشر هذا الوهم الى حدّ ان اطلق دعاة الالحاد تصريحات في غاية الخطورة وهي ان: (الدين مخدّر للشعوب).

ومما يجهله هؤلاء الماديون: أن الاسلام يعتبر الدنيا والآخرة متلازمتين تكمل إحداهما الأخرى، فتعاليمه داعية للأخذ بنصيب من الدنيا مع التزوّد للآخرة. قال تعالى:

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحِسنْ

كما احسن الله اليك ﴾ كما ان الاسلام يأمر بالأخذ بوسائل القوة التي تحمي الوطن من الأعداء :

﴿ واعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

هذا هو مفهوم الدين في نظر الإسلام وهذا ما أوصى به الله داود تعليماً وارشاداً لنا :

﴿ ان اعمل سابغاتٍ وقدّر في السرد واعملوا صالحاً ﴾ .

فالله يأمر داود بصنع الدروع ، وقد كان القتال في عهده بالنبال والحراب والسيوف، فكانت الدروع من اهم الوسائل للدفاع عن النفس، واليوم بعد اختراع الأسلحة الفتاكة تطورت الأسلحة الدفاعية، فالواجب على المتدين ان يصنع من السلاح ما يقاوم ما استحدث من وسائل التدمير .

ثم تأمل كيف ان الله بعد أن اوصى داود بصنع الدروع أمره وأمر أتباعه بالعمل الصالح لخير دنياهم وآخرتهم ، لأن الدنيا والآخرة مترابطتان في نظر الدين كل منهما تكمل الأخرى، فالقوة العسكرية تحمي الأمة من الأعداء وتقيها ذل الاستعمار ، والقوة الروحية التي تتمثل بالإيمان والعمل الصالح تصلح الأمة وتحول بينها وبين الفساد .

محاسَبة النفس

وفي قصة داود درس في محاسبة النفس عما يصدر منها من أخطاء وخطرات سيئة ، وهذا ما يتبين لنا في قوله تعالى :

﴿ وَظنّ داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ﴾ .

فهل المقصود بـ (فتناه) ان الله اختبره أو أوقعه في الفتنة ؟ كل ذلك محتمل، ولكن المقصود ان داود استغفر ربه لمجرد الظن من الوقوع في الزلل، فما بالك بمن يتيقن الزلة ، وفي ذلك درس بليـــغ في الحرص على محاسبة النفس وكبح جماحها عندما يخطر خاطر السوء في ذهنها لأن ترك النفس على غاربها يؤدي الى فسادها .

فكلما حدثتك نفسك أيها المؤمن بإتيان عمل منكر ، أو راود ذهنك خاطر من حسد او بغض نحو اخيك الإنسان عليك ان تقتدي بنبي الله داود فتخر لله

راكعاً او ساجداً راجعاً إليه بالتوبة فيغفر الله لك ، لأن الله يحاسب حتى على ما تضمره الأنفس ﴿ إن تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ .

هذا أسلوب حكيم من اساليب القرآن لإصلاح النفس ، فإن الأعمال المنكرة وخاطرات السوء إذا تركت في الإنسان بدون علاج أضرت بسلوك الإنسان وانعكست على افعاله ، ولهذا قال عثمان رضي الله عنه :

(ما أسرّ احد سريرة إلاّ ابداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه) .

وقال الشاعر زهير بن ابي سلمى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

الأخذ بنظام الشورى

استبداد الحكام بآرائهم وعدم مشاورة أولي الأمر والخبرة والعلم ربما يؤدي الى اصدار أحكام يشوبها النقص والاضرار بمصالح الأمة ، والتاريخ حافل بالأمثلة على ذلك، فما كان استبداد الحاكم برأيه إلاّ مصدراً من مصادر خراب الأمة .

فالشورى نظام اثبت صلاحيته لخير الأمم ، فرأي الجماعة أرجح وأصوب من رأي الفرد ، وعقول مجتمعة انفع من عقل واحد .

والقرآن الكريم يقدم لنا درساً في الأخذ بنظام الشورى إذ يقص علينا قصة ملكة سبأ عندما تلقت تهديد سليمان بالزحف على مملكتها ، ماذا كان موقفها من ذلك ؟ هل انفردت باتخاذ موقف ما وطلبت تنفيذه ؟ لا ! لقد جمعت اشراف قومها وقالت لهم :

﴿ يا أيها الملأ أفتوني في امري ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ .

هذا القول يتركز فيه مبدأ الشورى الذي اخذت به دساتير العالم المتمدن وأطلقت عليه أسماء مختلفة: كمجلس النواب ومجلس الشيوخ الى مجلس الشعب وغير ذلك من مسميات .

فالشورى دعامة من دعائم الحكم الصالح تجلب الخير للأمة وتجنبها الأضرار التي يمكن ان تصدر عن اهواء قادتها ومطامعهم ، وغاياتهم الشخصية .

فمبدأ الشورى قررته ملكة سبأ على نفسها ونوّه به الاسلام واعتمده مبدأً

من مبادىء الحكم الإسلامي ، ففي القرآن يخاطب الله رسوله محمداً: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ كما اثنى الله على المؤمنين الذين جعلوا الشورى قاعدة للحكم بقوله: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

صمُود العَقيدة أمام إغراء المال

ويظهر لنا ذلك في قول سليمان لرسل بلقيس الحاملين له الهدايا :

﴿ اتمدونَنِ بمال فما آتاني الله خَيرٌ مما آتاكم ﴾ .

أي فما آتاني الله من فيض رحمته من النبوة والعلم خير مما آتاكم من المال ، لأن المال عرض زائل ومظهر من مظاهر الدنيا الفانية .

فسليمان يقصد بذلك تفضيل النواحي الروحية على النواحي المادية ، فهو لم يقل ما آتاني الله اكثر مما آتاكم بل قال : ﴿ خير مما آتاكم ﴾ وهو طبعاً يقصد النواحي الروحية فهي في نظره أفضل من النواحي المادية .

لقد فُتِنَ الناس منذ بدء الخليقة بالمال وكان موجههم في كل تصرفاتهم ، وظنت بلقيس ان سليمان كغيره من الناس تؤثر عليه اغراءات المال ، ولذلك أرسلت اليه بهدية تمتحن بها جوهره لترى آثارها في نفسه ، وهل تكون هذه الهدية مدعاة لسكوته والإغضاء عن دعوته لله ، وعن الغزو الذي هددها به ، ولكن لم تجد بلقيس من سليمان سوى هذه الكلمة :

﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ .

كلمة أطلقها سليمان لتكون دستوراً لمن بعده وليقولها بعده كل مصلح ، وكل زعيم وكل قاض عندما يعرض عليه أهل الباطل رشوة للسكوت عن فسادهم ومجاراتهم في باطلهم .

كلمة قالهـا سليمان تتركز فيها القيم السامية والتمسك بالحق والترفع عن جميع اغراءات الدنيا من جاه ومال ومناصب عالية .

فهدية بلقيس ما هي في الحقيقة إلاّ رشوة ارادت بها التأثير على سليمان للإعراض عنها وتركها وشأنها في مملكتها .

ولكن سليمان أنكر عليها هديتها مضيفاً قوله لوفدها : ﴿ بل انتم بهديتكم تفرحون ﴾ .

فسليمان لا يفرح بمظاهر هذه الدنيا ومفاتنها ولا تؤثر عليه اغراءاتها ، فهو يسعى الى حقيقة عظمى لا توازيها أية قيمة مادية .

دَرسٌ في التَواضع

وفي قصة سليمان مع بلقيس درس للعالم ان يتواضع ، فلا يأخذه العجب والغرور بما أُوتيه من علم ، وذلك يتراءى لنا في قول الهدهد لسليمان بعد رجوعه من غيبته عنه :

﴿ أحطتُ بِمَا لم تُحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ .

فسليمان ذلك النبي الذي وهبه الله الحكمة واعطاه العلوم الجمة خفي عليه ما علمه الهدهد ، ذلك الطائر الضعيف الذي خاطب سليمان بهذا القول الذي فيه من التحدي له ولعلمه الشيء الكثير ، وفي هذا درس بالغ للمؤمنين بأن الإنسان مهما بلغ من العلم فلا بُدّ ان يجد في أضعف خلق الله من يفوقه علماً في ناحية من نواحي المعرفة .

ولكن ماذا كان موقف سليمان من الهدهد ؟ هل سيطر عليه الغرور وأهمل هذا النبأ من الهدهد ؟ هل حمل الكبرياء والعنفوان اللذان يتحلى بهما الملوك على معاقبة الهدهد على هذا التحدي .. لا ، لم يكن جواب سليمان إلاّ قوله :

﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

قول يكمن فيه قبول العلم من الهدهد والتحري عن الحقائق .

فسليمان لم يرَ في نفسه حرجاً ان يتلقى النبأ من الهدهد ، ذلك الطير الضعيف ، وهو النبي الذي بلغ من العلم والمعرفة الشيء الكثير والذي وصف الله علمه بقوله :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا : الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ .

فهذه الآية دليل على فضل العلم وشرف أهله وتنبيه للعلماء ان يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ، ويستشعروا منزلة العلم التي لا يوازيها شيء ، وفي تخصيص الآية بذكر ان ربهما فضلهما على كثير من عباده إشارة الى ان البعض الآخر قد يكون مفضلاً عليهما ، وفي هذا لفت نظر العلماء الى ان يتواضعوا لأن في عباد الله من يفضلونهم في العلم .

الفصل السادس

نبوة إلياس

كان قوم الياس سبطاً من بني اسرائيل نزحوا الى المدينة المعروفة اليوم بـ (بعلبك) ، وكان هؤلاء القوم يعبدون صنماً يسمى : (بعلاً)[1] .

أرسل الله لهؤلاء القوم نبيّه الياس يدعوهم إلى عبادة الله وحده . فقال الياس لقومه : ألاَ تتقون عذاب الله ونقمته بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ؟ أتعبدون الصنم بعلاً وتتركون عبادة الله الذي خلق العالم فأحسن خلقه؟ فالإله الجدير بالعبادة هو الله ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ .

ولكن هؤلاء القوم كذّبوا دعوته فلم يستجيبوا له، فكان جزاؤهم ان يصيبهم العذاب في الدنيا والآخرة جزاء تكذيبهم له باستثناء عباد الله المخلصين ، وقد جعل الله لإلياس ذكراً حسناً على ألسنة من جاءوا بعده لأنه كان من المؤمنين المخلصين في افعالهم ، وهذا ما ذكره الله بقوله :

﴿ وإنَّ إليَاس لَمِنَ المُرسَلين . إذْ قَالَ لِقَومه: ألاَ تتّقون . أتَدْعُون بَعْلاً وتَذَرُونَ أحْسَنَ الخالقين . اللهَ ربَّكم ورَبَّ آبائكم الأولين . فكذَّبُوهُ فإنّهم لَمُحْضَرون[2]. إلاّ عِبَادَ الله المخلصين . وتركنا عَلَيْه في الآخرين . سَلاَمٌ على إلياسين[3] إنّا كذلك نَجزي المحسنين . إنّهُ مِنْ عِبَادِنا المؤمنين ﴾ الصافات : ١٢٣ ــ ١٣٢ .

---

(١) ليس القول بأنه بعث في بعلبك قولا متيقناً ، كما قيل: إن بعلا كان اسم امرأة يعبدونها من دون الله .

(٢) لمحضرون : أي يحضرون للعذاب في الدنيا والآخرة .

(٣) الياسين: جمع الياس، والمراد بالياسين: قوم الياس المخلصون، فأطلق هذا الجمع عليه وعلى اتباعه.

نُبوَّةُ اليسَع

هو من انبياء بني اسرائيل ، لم يذكر القرآن شيئاً عن حياته سوى ذِكْرِه في مجموعة الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم .

﴿ واذكُرْ إسماعيل واليسع ، وذا الكفل، وكُلٌ مِنَ الأخيار ﴾ ص :٤٨ .

﴿ واسماعيل وإليسع ويونس ولوطاً وكُلاً فضّلنا على العالمين ﴾ الانعام : ٨٦ .

ويُقال انه ابن عم الياس قام بالدعوة بعد انتقال (الياس) الى جوار ربه ، فقام يدعو الى الله مستمسكاً بمنهاج نبي الله الياس وشريعته ، وقد كثرت في زمانه الاحداث والخطايا .

* * *

وهكذا نرى ان القرآن لم يذكر سوى اليسير عن الياس مع إشارة الى نبوة اليسع ، أما كتب التاريخ فتذكر الكثير عن الياس بما هو مشبع بالاسرائيليات .

ولكن هناك رواية للطبري وغيره نختارها من كثير ونذكر ملخصها لا على أنها حقيقة لا مرية فيها بل من باب الاطلاع :

(إن الياس عليه السلام لما دعا بني اسرائيل الى نبذ عبادة الأصنام ، والاستمساك بعبادة الله وحده رفضوا دعوته ولم يستجيبوا له ، فدعا ربه قائلاً : اللهم إن بني اسرائيل قد أبوا إلاّ الكفر بك والعبادة لغيرك ، فغيّر ما بهم من نعمتك فأوحى الله إليه : إنّا جعلنا أمر ارزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك ، فقال الياس : اللهم فأمسك عليهم المطر ، فحبس عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والشجر ، وجهد الناس جهداً شديداً . ولما دعا عليهم استخفى عن اعينهم ، وكان يأتيه رزقه حيث كان ، فكان بنو اسرائيل كلما وجدوا ريح

الخبز في دار قالوا هنا الياس فيطلبونه وينال منهم أهل المنزل شرٌّ ، وقد أوى ذات مرة الى بيت امرأة من بني اسرائيل لها ابن يُقال له (إليسع بن اخطوب) به ضرٌّ فآوته واخفت أمره ، فدعا ربه لابنها فعافاه من الضر الذي كان به ، واتّبع الياس وآمن به وصدّقه ولزمه ، فكان يذهب معه حيثما ذهب ، وكان الياس قد أسن وكبر ، وكان اليسع غلاماً شاباً . ثم إن الياس قال لبني اسرائيل: إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله ان يفرّج عنكم ، فأخرجوا اصنامهم ومحدثاتهم فدعا الله لهم ففرّج عنهم واغاثهم ، فحييت بلادهم ولكنهم لم يرجعوا عمّا كانوا عليه ولم يستقيموا ، فلما رأى الياس منهم ذلك دعا ربه ان يقبضه اليه فيريحه منهم فقبضه ورفعه ، ثم إن الله أرسل اليهم إليسع بعد الياس) .

الفصل السابع

قِصَّةُ يُونُسَ

يونس يدعو الى الله – يونس في بطن الحوت – مصير قوم يونس – نجاة يونس وهدايته لقومه .

يونس يدعو الى الله

كانت نينوى من ارض الموصل عاصمة دولة أشور ، تلك الدولة التي بسطت سلطانها على معظم بلاد آسيا ، وكانت من اغنى واعظم المدن الشرقية في ذلك الزمن ، وأدت سعة الرزق بها وغناها الفاحش الى ضلالها بارتكاب الموبقات والمعاصي ، وبالإضافة الى هذا فقد كان اهل نينوى يعبدون الأصنام ولا يؤمنون بالله تعالى ، فكان هلاكهم امراً مقضياً لولا ان الله تعالى تداركهم برحمته فأرسل اليهم يونس(١) عليه السلام يدعوهم إلى الايمان بالله والتوبة عن سيئاتهم، ولكنهم أصروا على ما هم عليه ولم يستجيبوا لدعوته، فأوعدهم يونس بنزول العذاب عليهم بعد مدة من الزمن .

ظن يونس عليه السلام انه قد أدى الرسالة وقام بكل المهمة التي أمره الله بها ، وخرج من مدينتهم مغاضباً لهم بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر ، وكان تركه للمدينة بدون إذن ربه اعتقاداً منه ان الله لن يؤاخذه على ما فعل . وظل سائراً حتى أتى الى ساحل البحر ، فوجد سفينة على اهبة السفر فطلب من اصحابها ان يركبوه معهم في السفينة ففعلوا .

يُونس في بطن الحوت

أقلعت السفينة به وسارت في عرض البحر ولكن الله ألقى على ذلك البحر ريحاً عاصفة جعلت أمواجه تضطرب بشدة وتهدد السفينة بالغرق، ففزع الملاحون

---

(١) يونس : هو ابن متى، ومتى قيل اسم ابيه وقيل اسم أمه، وبعض أهل الكتاب يسميه : يونان بن أمتاي

والركاب وقالوا : إن فينا صاحب ذنب ، فتشاوروا فيما بينهم على ان يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه ، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس الذي أخبرهم بقصته فقالوا : هذا رجل صالح ولا يعقل ان يكون مذنباً ولا بد ان القرعة اصابته مصادفة، فأعادوها ثانية فوقعت عليه ايضاً، فاستعد ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك، فأعادوا القرعة ثالثة ووقعت عليه ايضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم، فألقي في البحر فبعث الله حوتاً عظيماً فالتقمه ، وهذا ما أشار اليه القرآن :

﴿وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين إذْ أبَقَ[1] الى الفُلْكِ المشحون[2] فَسَاهَمَ[3] فكانَ مِنَ المدْحَضِين[4] فالتقمه الحوتُ وَهُوَ مُليم[5]﴾ الصافات : ١٤١ .

مصير قوم يونس

لما ترك يونس قومه أيقن هؤلاء نزول العذاب بهم وظهرت مقدماته، فقذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة فندموا على ما كان منهم ولبسوا المسوح ، وتضرعوا الى الله، وبكى الرجال والنساء والبنون، وردّوا المظالم إلى اهلها، وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله برحمته ورأفته العذاب عنهم . جاء في القرآن :

﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنت فَنَفَعَها إيمانُها إلاَّ قوم يُونُسَ لمَّا آمنوا كشفنا عنهم عَذَابَ الخِزْي في الحياةِ الدُنيا ومتَّعناهم إلى حين﴾ يونس : ٩٨ .

ومعنى الآية : لو ان كل قرية من القرى تؤمن لنفعها إيمانها لكنها لم تؤمن إلاّ قوم يونس فإنهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا ومتعهم بمتع هذه الحياة الى نهاية أعمارهم .

نجاة يونس وهدايته لقومه

لما التقم الحوت يونس ألهم الله هذا الحيوان ان لا يصيبه بأذى .

---

(١) ابق : هرب ، واصله الهرب من السيد ومن العبودية ، وقيل ليونس ابق لأنه خرج بغير امر الله أو لأنه ابق عن العبودية وانما العبودية لله ترك الهوى وبذل النفس في سبيل الله.

(٢) الفلك المشحون : الفلك المملوء .

(٣) ساهم : اقترع .

(٤) المدحضين : المغلوبين .

(٥) مليم : أي أتى بما يلام عليه .

استقر يونس في جوف الحوت وحسب انه قد مات، فحرك جوارحه فأدرك انه حي فخر لله ساجداً وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك احد في مثله، ثم ظل في جوف الحوت عدة ايام وهو عاكف على تسبيح الله وعبادته ثم دعا ربه معترفاً له بربوبيته، وبأنه كان ظالماً فيما صدر عنه فلبي الله دعاءه وقبل توبته، فألهم الحوت ان يطرح يونس في أرض قفراء.

خرج يونس من بطن الحوت وهو سقيم مريض متعب فأنبت الله عليه شجرة وارفة الظلال من اشجار اليقطين — وهي القرع — مطلة عليه مظللة له من حرارة الشمس فظل في تلك الحالة فترة من الزمن حتى استرد عافيته وذهب روعه، وسكنت نفسه، ثم أمره الله ان يعود الى قومه الذين فارقهم وكانوا مائة الف ونيفاً فدعاهم الى الايمان، وأدى الرسالة التي أمره الله بها، فصاروا من المهتدين، فمتع الله هؤلاء المؤمنين المهتدين بالسعادة والهناء مدة حياتهم، قال تعالى :

﴿ فلولا انه كان من المسبّحين[١] . لَلَبِثَ في بَطْنه الى يَوم يُبْعثون[٢] . فَنَبَذْنَاهُ[٣] بالعَراءِ[٤] وهو سَقيم[٥] . وأنْبَتْنا عليه شجرةً مِن يقطين . وأرسَلْناهُ الى مائة الف أو يزيدون . فآمنوا فمتّعناهم إلى حين ﴾ الصافات : ١٤٣ — ١٤٨ .

﴿ وذا النون[٦] إذْ ذَهَبَ مُغاضباً[٧] فَظَنَّ أن لن نَقْدِرَ عليه[٨] فنادى في الظلمات[٩] أن لا اله إلاَّ أنت سُبحانك إني كُنْتُ مِنَ الظالمين . فاستجبنا له ونجّيناه مِنَ الغمّ وكذلك نُنجي المؤمنين ﴾ الانبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

---

(١) المسبحين : المصلين .
(٢) يوم يبعثون : يوم القيامة .
(٣) فنبذناه : طرحناه .
(٤) العراء : الصحراء ، المكان الخالي .
(٥) سقيم : مريض .
(٦) ذوالنون : لقب ليونس لابتلاع النون إياه ، والنون هو الحوت .
(٧) مغاضباً : أي غاضباً من اجل ربه ، والمؤمن يغضب لله إذا عصي .
(٨) لن نقدر عليه : قيل معناه استزله ابليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر عليه بمعاقبته ، وهذا قول مردود يتنزه عنه الأنبياء لأنه كفر . وقد قال كثير من العلماء ان معنى ذلك : لن نضيق عليه وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم أي فظن ان لن نقضي عليه بالعقوبة .
(٩) الظلمات : ظلمة الليل وظلمة الحوت وظلمة البحر .

الفَصْل الثامِن

دُرُوسٌ مِنْ يُونُسَ

عبادة الله تنجي عند الضيق – اللجوء الى الله عند الضيق – الصبر في مجال الدعوة .

عبادة الله تنجي عند الضيق

في قصة يونس درس للمؤمن بأن العبادة في حالة الرخاء مدعاة للنجاة في حال الكرب ، فالله سبحانه اخبرنا ان يونس كان من المسبحين قبل ان يلتقمه الحوت ، وان تسبيحه كان سبب نجاته من بطن الحوت :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ .

والمراد بالمسبحين هنا : المصلين . فيونس كان يكثّر الصلاة في الرخاء فأنجاه الله عند الشدة ، ولهذا روى ابن عباس ان رسول الله ﷺ قال له : (إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) .

اما نسيان الله في حال الرخاء والاعراض عن هديه فإن ذلك يكون سبباً في عدم استجابة الله له عند الشدة ، ولهذا ذكر القرآن عن فرعون الذي كان طاغياً كافراً بالله فإنه لما ادركه الغرق قال : ﴿ آمنت ان لا اله إلاّ الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فقيل له : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾

اللجوء الى الله عند الضيق

وفي قصة يونس درس للمؤمن باللجوء الى الله والتضرع اليه في حال الضيق والكرب ليكشف الله عنه ذلك .

فيونس تضرع الى ربه وهو في بطن الحوت بقوله :

﴿ لا اله إلاّ انت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من

الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ .

فيونس وصف ربه : (لا اله إلاّ انت سبحانك) وهو وصف بكمال الربوبية ونزهه عن كل النقائص ومنها العجز ، ووصف نفسه : (إني كنت من الظالمين) أي بضعف البشرية ، والقصور في أداء حق الربوبية ، وهو اعتراف منه ايضاً بذنبه وإظهار توبته ليفرج الله عنه كربته فاستجاب الله له . وانظر الى تذييل الآية بقوله تعالى : (وكذلك ننجي المؤمنين) . فهو وعد من الله للمؤمنين بأنه ينجيهم من الغم إذا عبدوه ولجأوا اليه كما حصل ليونس . وقد روى سعد بن ابي وقاص عن النبي قال : (دعوة ذي النون في بطن الحوت : (لا اله إلاّ انت سبحانك إني كنت من الظالمين) ما دعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب إلاّ استجاب الله دعاءه) .

الصبر في مجال الدعوة لله

كما يؤخذ من قصة يونس ان على المؤمن تنفيذ ارشادات ربه والدعوة اليه بصبر لئلا يبتليه بصعاب واهوال لم تكن في الحسبان ، فيونس تعجّل الفرار من الميدان الذي وضعه الله فيه ، وتلك فعلة ما كان لنبي ان يفعلها لأول بادرة سوء يصادفها من قومه او اعراض عنه ، وكان لا بد من درس يتلقاه النبي من ربه . وهو ان يخرج من ضيق الى ضيق أشد وأقسى وهو جوف الحوت ثم تجيء رحمة الله فتخرجه منه الى اليابسة فيعود الى المدينة التي فارقها ليعاود الدعوة الى الله وهو أشد يقيناً وارحب نفساً فيوفقه الله في مهمته .

ولهذا يدعو الله نبيه محمداً الى الثبات في مجال الدعوة الى الله وعدم الفرار من قومه ﴿ واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ .

الباب العاشر

زكريا عليه السلام
يحيى عليه السلام
عيسى عليه السلام

1 - قصة زكريا ويحيى

2 - قصة مريم وولادة المسيح

3 - رسالة عيسى

دروس وعبر

الفصل الأول

قصة زكريا ويحيى

زكريا يسأل الله ولداً – البشرى بغلام اسمه يحيى – نبوة يحيى وصفاته .

زكريا يسأل الله ولداً

زكريا عليه السلام من انبياء الله، قضى عمره في الدعوة الى الله وخدمة الهيكل المقدس في القدس، وقد كان يتمنى ان يرزقه الله ولداً يواصل دعوته الى الله من بعده خوفاً على قومه ان يضلوا ، فقد كانت بوادر الضلال تظهر فيهم ، ولكن تقدمه في السن، وعقر زوجته، وكبر عمرها، كل ذلك أضعف أمله في الولد .

لكن زكريّاً المؤمن بربه يعلم أن قدرة الله لا تقف امامها العوائق ، وكان أن دخل يوماً على مريم وهي في الهيكل – تقضي فيه ليلها ونهارها – فوجد عندها طعاماً وشراباً وفاكهة في غير اوانها ، فسألها من أين لك هذا ؟ قالت: هو من عند الله ، الذي يرزق من يشاء بغير حساب .

لما رأى زكريا آيات الله الباهرات واكرامه تعالى لمريم المؤمنة المتبتلة ، حفزه ذلك على أن يناجي ربه : يا رب لقد كبرت ولحقتني اعراض الهرم والشيخوخة، فهذا عظمي قد ضعف ووهن ، وهذا رأسي قد دب فيه الشيب ، وإني لشديد الطمع ، عظيم الرجاء في ان تقبل دعائي وترزقني ولداً ، وقد كنت بدعائك غير شقي بل كنت سعيداً مستجاب الدعوة .

يا رب لم أتوجه اليك بهذا الدعاء طمعاً في الدنيا ورغبة مجردة في النسل ولكني رأيت أقاربي أصبحوا شرار القوم فلا أطمئن ان يقيموا أمور الدين ، وأن يتولوا أمور الناس بالعدل بعد موتي ، وعلى الرغم من ان امرأتي عاقر فأنت يا رب قادر على استجابة الدعاء بأن تهب لي ولداً يرثني في العلم والدين ويرث الملك من آل يعقوب وأن تجعله يا رب مرضياً عندك ، اقرأوا هذه الآيات :

﴿ ... كلَّما دَخلَ عليها زكريّا المحرابَ وَجَدَ عندها رزقاً ، قال : يا مريمُ أنّى لَكِ هذا، قالت: هو منْ عندِ الله، إنَّ الله يرزقُ مَنْ يَشاءُ بغَيْرِ حسَاب، هُنالِكَ دَعَا زكريّا ربّهُ قالَ: رَبِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرّيّة طيّبة إنك سميع الدعاء ﴾ آل عمران : ٣٧ ، ٣٨ .

﴿ ذكْرُ رَحْمَةِ ربّك عَبْدَهُ زكريّا . إذْ نَادى رَبّهُ نداءً خفيّاً . قال : ربِّ إني وَهَنَ العَظْمُ منّي واشتعَلُ الرأسُ شيباً ولم أكُنْ بدُعائِك ربِّ شقيّاً . وإني خِفْتُ الموالي من ورائي[١] وكانت امرأتي عاقراً فهب لي مِنْ لَدُنْك وَليّاً[٢] . يَرثني ويَرثُ مِنْ آلِ يَعقوب واجعله رَبِّ رَضيّاً ﴾ مريم .

البشرى بُغلام اسمه يحيى

استجاب الله دعاء زكريا وأرسل اليه ملائكة تبشرّه بأن الله تعالى سيهب له ولداً ، وقد اختار له اسم يحيي . وهذا الاسم خاص به لم يسم به احد ، وستحل بركة الله عليه فيكون مؤمناً بكتاب الله وسيّداً في قومه يتجنب الشهوات والأهواء .

تعجب زكريا من هذه البشرى لأنه طاعن في السنّ وامرأته عاقر لم تلد أيام شبابها، فقيل له : هكذا أراد الله، وهو عليه هيّن، فقد أوجدك من قبل ولم تكن شيئاً ، عندئذ سأل زكريا ربه : ان يجعل له علامة يعرف بها ان زوجته حامل فأخبره الله ان العلامة التي يعرف بها ذلك هي انه لن يقدر على مخاطبة الناس والتفاهم معهم إلاّ بالإشارة باليد أو العين او هزّ الرأس أو نحو ذلك ، ويستمر على ذلك ثلاثة ايام ، كما أمره الله أن يذكره كثيراً طوال هذه الأيام الثلاثة ويكثر التسبيح في الصباح المبكر وفي المساء ، لأنه مع عدم قدرته على التحدث الى الناس ، قادر على العبادة والتسبيح ، قال تعالى :

﴿ يا زكريّا إنّا نبشّركَ بغُلام اسمه يحيي لم نجعل له من قبل سَميّاً[٣] . قال: رب أنّى يكونُ لي غُلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بَلغتُ مِنَ الكِبَرِ عِتيّاً[٤] . قال : كَذَلِكَ قال رَبُّكَ هُوَ عَليَّ هَيّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شيئاً . قال : ربِّ اجعل لي آية ، قال : آيتُك ألاّ تُكَلِّم

(١) خفت الموالي من ورائي : اي من يلي أمره من ذوي قرابته بعد مماته .
(٢) ولياً : أي ولداً من صلبي .
(٣) لم نجعل من قبل سميا : أي لم يسم أحد بهذا الاسم من قبل .
(٤) عتيا : النهاية في الكبر .

الناس ثلاثَ ليَال سَويّا[١] . فخرج على قومه مِنَ المحراب[٢] فأوحى[٣] اليهم ان سبّحوا بُكْرة[٤] وعشيّا[٥] ﴾ مريم : ٧ – ١١ .

﴿ فنادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّي في المحراب أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيحيي مُصَدّقاً بكلمة مِنَ الله وسيّداً وحصوراً[٦] ونبيّاً مِنَ الصالحين . قال ربِّ : أنّى يكون لي غُلامٌ وقد بلغني الكِبَرُ وامرأتي عاقرٌ ، قال : كَذَلكَ الله يفعل مايشاء . قال : رب اجعل لي آية ، قال : آيَتُكَ ألاَّ تُكلّم الناس ثلاثة أيام إلاّ رَمزاً . واذْكُرْ ربّك كثيراً وسبّح بالعشي والإبكار ﴾ آل عمران .

نبوة يحيى وصفاته

تحققت إرادة الله وحملت زوجة زكريّا عليه السلام ، ولما انتهت مدة الحمل وُلِدَ يحيى . فخصّه الله بمواهب عظيمة ، فمنحه حدة الذكاء ، وحسن الفهم ، وأمره ان يقرأ التوراة ويعمل بما فيها في جدّ وعزم ، وآتاه الله منذ صغره بصيرة قادرة على التفقه في الدّين وتفهم أحكام الشريعة . وآتاه من فيض رحمته نفساً عطوفاً وقلباً حنونا ، وطهره من الرجس والدنس ، وجعله تقيّاً مطيعاً لله فلم يرتكب في حياته خطيئة ، وجعله الله كثير البرّ والاحسان بوالديه . ولم يكن قاسياً متكبراً ، بل كان متواضعاً ليّن الجانب ، وله من الله تحية طيبة . وسلام وأمان ان يمسه ضرٌ او أذى يوم ولادته ، ويوم موته ، ويوم القيامة حين يُبعث حيّاً ليؤدي الحساب بين يدي ربه . قال تعالى :

﴿ يا يحيي خُذ الكتاب بقوة وآتيناه الحُكْمَ صبيّا . وحناناً من لدُنّا[٧] وزَكاة[٨] وكان تقيّا . وبرّاً بوالديه وَلَم يَكُنْ جبّاراً عصيّا[٩] . وسَلامٌ عليه يَومَ وُلِدَ ويَوْم يموت ويوم يُبْعَثُ حيّا ﴾ مريم : ١٢ – ١٥ .

---

(١) ثلاث ليال سويا : ثلاث ليال كاملة .

(٢) المحراب : المصلى .

(٣) أوحى : أومأ .

(٤) بكرة : من الفجر الى الضحى .

(٥) عشيا : من الزوال الى الغروب .

(٦) حصورا : الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك ، وقيل المبالغ في حصر النفس وحبسها عن الشهوات .

(٧) وحناناً من لدنا : الحنان ، الشفقة والرحمة والمحبة . أي إن الله تعطف عليه بالرحمة .

(٨) زكاة : بركة .

(٩) عصياً : مخالفاً أمر ربه .

الفصل الثاني

قصة مريم وولادة المسيح

منزلة مريم عند الله – الملائكة تحمل البشرى لمريم – جبريل ومريم – الحمل بعيسى وولادته – عيسى يتكلم في المهد .

منزلة مريم عند الله

كان عمران ابو مريم رجلاً عظيماً في بني اسرائيل ، وكانت امرأته عاقرًا لم تُرزق بولد ، فالتجأت الى الله وتوسّلت اليه في ضراعة ان يهبها ولداً ، ونذرت له إن رزقها صبياً ان تجعله وقفاً على طاعة الله وخدمة بيته المقدّس .

أجاب الله دعاءها فشعرت بالجنين يتحرك بين احشائها ، ثم وضعت أنثى – والبنات عادة لا يصلحن لخدمة المعابد كما يصلح الذكور – لكنها شكرت الله على عطائه وسمتها مريم ، ودعتِ الله ان يحصنها ونسلها من غواية الشيطان الرجيم . فتقبّلَ الله سبحانه هبتها ، ورضي ان تكون ابنتها في خدمة الهيكل وفاء للنذر ، فأنشأها على الصلاح والعفة .

والظاهر ان عمران توفي وابنته صغيرة تحتاج الى من يكفلها ويقوم بتربيتها فلما قدّمتها أمها الى رعاة الهيكل اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها وألقوا على ذلك قرعة فكان الكافل لها زكريا – زوج خالتها – الذي اتخذ لها محراباً لا يدخل احد عليها فيه سواه ، ووجهها الى العبادة الصحيحة واستمر على ذلك حتى رأى شيئاً عجب له ، ذلك انه كلما دخل عليها وهي في المحراب ، وجد عندها رزقاً لم يأتها به ولا وجود لأمثاله عند الناس في ذلك الوقت ، فيسألها من أين لك هذا ؟ فتجيبه قائلة : إنه من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب :

﴿ إذ قالت امرأة عِمْران: رَبِّ إني نَذَرْتُ لَكَ ما في بطني مُحرّراً فتقبّل مني انك أنت السميع العليم . فلمّا وَضَعَتْها قالت : ربِّ إني وَضَعْتُها أُنثى والله أعلم بِمَا وَضَعَتْ . ولَيْسَ الذكرُ كالأنثى وإني سمّيتها مريم

وإني اعيذها بِكَ وَذريتَها مِنَ الشيطان الرجيم . فَتَقَبَّلَها رَبُّها بقبولٍ حَسَنٍ وأنبتها نباتاً حسَناً ، وكفَّلَهَا زكريا كُلَّما دَخَلَ عليها زكريَّا المحراب وَجَدَ عِنْدَها رزقاً قال : يا مريمُ أَنّى لَكِ هَذا ؟ قالت : هو مِنْ عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ آل عمران : ٣٥ ـ ٣٧ .

ويشير الله الى الخلاف الذي دب بين رعاة الهيكل بسبب رغبتهم في كفالة مريم والقاء القرعة على ذلك ، بما خاطب الله به محمداً ﷺ :

﴿ذَلِكَ مِنْ أنباءِ الغَيْبِ نوحيهِ إليْك وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِم إذْ يُلْقُون أقلامهم[١] أيُّهُمْ يكفُلُ مَرْيَم وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصمون ﴾

الملائكة تحملُ البشرى لمريم

ولما بلغت مريم مبلغ النساء اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظير لها في النسك والعبادة ، وظهر عليها من آثار التقى ما غبطها عليه زكريا ، ولذا خاطبتها الملائكة بالبشارة باصطفاء الله لها :

﴿وإذْ قَالَتِ الملائكة: يا مريمُ إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وطَهَّرَكِ وَاصْطفاكِ على نِساءِ العالمين[٢] . يَا مَرْيَمُ اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ آل عمران : ٤٢ ، ٤٣ .

كما بشرتها الملائكة بأن الله سيهب لها ولداً يخلقه بكلمة (كن) على غير الطريقة العادية في التوالد ، وهذا الولداسمه المسيح عيسى بن مريم وقد خلقه الله ذا مكانة في الدنيا ، فهو ذو جاه وشرف وعلو قدر ، كما انه في الآخرة مميز بعلو درجته ، فهو مع الصفوة المقرّبين الى الله .

ومن مميزاته التي خصه الله بها في الدنيا ان يكلم الناس وهو طفل في مهده كلاماً حكيماً ، كما يكلمهم وهو رجل سوي من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة ، كما جعله الله من الصالحين .

تعجّبت مريم ان يكون لها ولد وهي العذراء التي لم تتزوج . فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

---

(١) يلقون اقلامهم : اي يرمونها ويطرحونها للاقتراع، والاقلام قيل: هي التي كانوا يكتبون بها التوراة .

(٢) واصطفاك على نساء العالمين : يحتمل ان يكون المراد عالم زمانها او على عموم النساء فتكون مريم افضل نساء الدنيا ممن كن قبلها وو جدن بعدها .

﴿ إذْ قَالَتِ الملائكة: يامريم إن الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمةٍ مِنْهُ اسمُهُ المسيح عيسى[1] ابن مريم وَجيهاً في الدُنيا والآخرة ومِنَ المقرّبين. ويُكلّم الناس في المهد[2] وكهلاً ومِنَ الصّالحين. قالت: ربِّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بَشَرٌ، قال: كذلِكِ الله يخلُقُ مَا يشاءُ إذا قضى امراً فإنّما يقول له كن فيكون ﴾ آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧.

هذه هي الأحوال التي اكتنفت الحمل بالعذراء مريم وولادتها وتربيتها، ويلاحظ القارىء ان الطهارة والعبادة اظلتها وهي جنين في بطن أمها الى ان بلغت مبلغ النساء، ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة تمهيداً لأمر جليل هو اختيار الله لها لأن تكون أمّاً لمن يولد بغير الأسباب المعتادة، وذلك لكي تكون آية الله مشهورة تحمل فيما حف فيها من أحوال القرائن ما تقطع ريب المرتاب ولسان كل أفاك. فحياة مريم كلها تنفي الريبة وتبعدها عن مواطن الشبهة.

جبريل ومريم

كانت مريم وقفاً على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فاجتنبت الناس وانفردت وحدها شرقي المعبد لتعبد الله فيه، وفيما هي كذلك إذ أرسل الله اليها الروح الأمين جبريل عليه السلام فظهر لها في صورة رجل كامل البنية لتستأنس به ولا تنفر منه، فلما رأته مريم حسبته آدمياً يريد بها سوءاً، فقالت له: اني استعيذ بالله من شَرّك والجأ اليه ليصون عفتي وطهارتي، فإن كنت تخشى الله وتتقيه فابتعد عني. فقال لها جبريل: إنني لست بشراً كما تظنين ولكني ملك من الملائكة أرسلني الله لأهب لك ولداً صالحاً تقيّاً نامياً على الخير والبركة، تعجبت مريم مما قاله جبريل، وسألته: كيف يكون لي ولد ولم يمسسني زوج ولست فاجرة؟! فأجابها جبريل: الأمر كما قلت، وقد قال ربك: إن خلق غلام بلا أب هو عليّ هيّن ليكون ذلك آية تدل على عظيم قدرتي، كما يكون رحمة لمن يهتدي به، وكان خلق عيسى أمراً مقدّراً لا بُدّ منه. قال تعالى:

---

(١) عيسى معرب يشوع ومعناه السيد، والمسيح هو لقبه، قيل: انه سمي مسيحاً لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه، وقيل: لأنه مسح بالبركة واليمن، وقيل: لأنه كان يمسح بدهن زيت بورك فيه وكانت الأنبياء تتمسح به، وقيل: لأنه مسح من الأوزار والآثام.

(٢) المهد: مقر الصبي في رضاعه.

﴿ واذكُر في الكتاب مَريم إذ انتبذت(١) مِنْ أهلها مكَاناً شرقيّا . فاتخذت من دونهم حجاباً(٢) فأرسلنا اليها رُوحنا(٣) فتمثّل لها بشراً سويّا . قالت : إني اعوذ بالرحمن منك إن كُنْتَ تقيّا . قال : إنما أنا رَسُولُ ربّك لأهَبَ لَكِ غُلاماً زكيّا(٤) . قالت : أنّى يكونُ لي غُلامٌ ولم يمسسني بَشَرٌ ولم أكُ بَغيّا(٥) . قال : كذَلِكِ قال ربّك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة مِنّا وكان أمراً مقضيّا ﴾ مريم : ١٦ ــ ٢١ .

ويقول الله تعالى : ﴿ والتي(٦) احصنت فرجها فنفخنا فيها من رُوحنا(٧) وجعلناها وابنها آية(٨) للعالمين ﴾ الأنبياء : ٩١ .

وإننا نلتمس تلك الآية الدالة في ولادة عيسى من غير أب فنجد انه يبدو امام أنظارنا أمْرٌ عظيم هو : أن ولادة عيسى من غير أب تُعلن قدرة الله سبحانه الذي لا يتقيد في خلقه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظامه الذي أبدعه .

وقد اتخذ البعض من تكوين عيسى بدون أب حجة على ألوهيته، والبعض الآخر وَجَدَ من ذلك منفذاً للطعن في أمه او الشك في وجود المسيح ، هؤلاء جميعاً يخاطبهم الله بقوله :

﴿ إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تــراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين(٩) ﴾ آل عمران : ٥٩ .

---

(١) انتبذت : انتحت وتباعدت .
(٢) حجاباً : ستاراً توارت به منهم .
(٣) روحنا : هو جبريل ، وسمي روحاً لأنه روحاني ، وقيل : خلق من الروح.
(٤) غلاماً زكياً : غلاماً طاهراً من الأرجاس والأدناس .
(٥) بغيا : زانية .
(٦) والتي : أي مريم .
(٧) فنفخنا فيها من روحنا : اختلف العلماء في النافخ فقال بعضهم: كان النفخ من الله لأن الله شبه خلق عيسى بآدم والله يقول في آدم (ونفخت فيه من روحي) وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام ثم اختلفوا في كيفية النفخ فقال بعضهم : إن جبريل نفخ في جيبها (والجيب عنق القميص او الصدر) حتى وصلت النفخة الى الرحم ، وقيل : إن النفخة كانت في فيها فوصلت الى بطنها فحملت في الحال .
(٨) آية : دلالة على قدرة الله .
(٩) الممترين : المتشككين .

ولا ريب أن خلق آدم اعجب من خلق عيسى ، فعيسى خُلِقَ من أنثى من نوعه بينما آدم خُلِقَ من تراب .

الحمل بعيسَى وولادته

حملت السيدة مريم في اللحظة التي نفخ فيها الملك جبريل . ولا ريب أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها زوج ، فأفزعتها هذه الأفكار وجعلتها قلقة مضطربة خائفة تحب العزلة وتميـــل الى الانفراد ، حينئذ اعتزلت مكاناً بعيداً عن الناس تستتر فيه من أعينهم .

ولما آن أوان الوضع اضطرها ألم الولادة للإلتجاء الى جذع نخلة لتستتر به وتعتمد عليه وتذكرت آنذاك أنها سترمى بوصمٍ شائن ، فتمنت حينئذ لو كانت لُقيت منيتها قبل هذا أو كانت شيئاً لا يُذكر لتفاهته ، وسرعان مـــا أدركها لطف الله وأحاطت بها عنايته فسمعت صوت جبريل يناديها بالقرب منها ، من مكان تحت المكان الذي كانت به ، مُطْمئناً إياها بأن الله قد كفل لها رزقها ، وما عليها إلاّ ان تهز جذع النخلة فيسقط عليها رطب طازج ، فتأكل هنيئاً ، وتشرب من الجدول الذي يجري تحتها ، وتطيب خاطراً ، وتهدأ بالاً ، وعلمها جبريل بأنها إذا قابلت من يلومها أو يسألها عن الذي تحمله ، ومن أين أتت به لا ترد جواباً بل تقول إشارة : إني نذرت للرحمن صوماً .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فانتَبَذت به مَكَاناً قصيّاً[1] . فأجاءها[2] المخَاضُ[3] الى جِذْعِ النَّخلة قالت : ياليتني مِتُّ قبل هذا وكُنتُ نَسْياً[4] مَنْسِيّاً . فناداها مِنْ تحتها ألاّ تَحْزني قَدْ جَعَلَ رَبُّك تَحتَك سَرِيّاً[5] . وَهُزّي إليْك بِجِذع النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْك رُطَباً جنيّاً[6] . فكُلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترينّ مِنَ البشر أحداً فقولي إني نَذَرْتُ للرحمٰن صَوْماً فلن

(١) قصيا : بعيداً .
(٢) فأجاءها : اضطرها .
(٣) المخاض : الطلق وشدة الولادة .
(٤) نسيا : الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده .
(٥) سريا : جدول ماء ، وقيل : المقصود به عيسى ، فالسري من الرجال العظيم الخصال .
(٦) رطباً جنياً : البلح الذي لم يجف ولم ييبس ، هذا وقد ثبت علمياً أن البلح الرطب يحتوي على المواد الغذائية الرئيسية في صورة مركزة سهلة الهضم وأنه يناسب صحياً النفساء

أُكَلِّمَ اليوم إنسيّاً ﴾ مريم : ٢٢ ـ ٢٦ .

عيسى يتكلم في المهد

ولما ولدته مريم وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم سواء من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف ، لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهي المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها زوج ، فكانت المفاجأة داعية للاتهام لأن المفاجأة تذهب الروية وخصوصاً ان دليل الاتهام قائم وقرينته أمر مادي لا مجال للريب فيه ، وكل ما عملته السيدة مريم إزاء هذه العاصفة انها اعتصمت بوصية جبريل ، فلزمت الصمت ، واشارت الى ابنها الممدد في المهد طالبة اليهم ان يكلموه ، فاشتد غضبهم لاعتقادهم أنها تهزأ بهم إذ لم يعهدوا طفلاً يتكلم في المهد ، ولكن عيسى عليه السلام أجابهم الجواب الشافي الدال على براءة أمه ، بأن انطقه الله فقال : اني عبد الله سيؤتيني الانجيل ويختارني نبياً ويجعلني مباركاً معلماً للخير ويأمرني باقامة الصلاة وأداء الزكاة مدة حياتي ، كما يأمرني ان اكون باراً بوالدتي ولن يجعلني متجبراً في الناس ولا شقياً بمعصيته ،والأمان من الله عليّ يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي من الأموات حيّاً ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ فأتَتْ به قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قالوا : يامريمُ لَقَدَ جئتِ شيئاً فَرِيّاً[١] . ياأُخْتَ هارون[٢] مَا كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كَانت أُمُّكِ بَغيّاً . فأشارت اليه ، قالوا : كيف نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ في المهد صبيّاً . قال : إني عَبْدُ الله آتاني الكتاب وَجَعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أينما كُنْتُ وأوصَاني بالصلاة والزكاة ما دُمت حيّاً وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبَّاراً شقيّاً . والسَّلامُ عَلَيَّ يوم وُلِدْت ويوم أموتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حيّاً ﴾ مريم : ٢٧ ـ ٣٣ .

(١) فريا : شيئاً عظيماً .

(٢) يا اخت هارون : اختلف العلماء في معنى هذه الأخوة ومن هو هارون فقيل : انه اخو موسى ، والمراد : من كنا نظنها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل هذا العمل ؟ وقد كانت مريم من ولد هارون اخي موسى فنسبت اليه بالأخوة لأنها من ولده كما يقال للتميمي : يا اخا تميم ، وللعربي يا اخا العرب ، وقيل : كان في ذلك الزمان في بني اسرائيل عابد منقطع الى الله يسمى هارون فنسبوها الى اخوته حيث كانت على طريقته في العبادة إذ كانت موقوفة على خدمة بيت الله .

الفصل الثالث

رسالة عيسى

ضلال بني اسرائيل – نبوة عيسى – التبشير بمجيء محمد عليه السلام – انصار عيسى – معجزات عيسى – مناوأة اليهود لعيسى – نهاية عيسى – وحدانية الله هي دعوة عيسى .

ضلال بني إسرائيل

حاد بنو اسرائيل عن الطريق القويم وجاوزوا حدود الله ، واستغرقوا في جمع المال الحلال منه والحرام، فحرم الله عليهم كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً لهم . قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذين هادوا[1] حرّمنا عليهم طيّبات أُحلّت لهم ، وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً إليما ﴾ النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

كما انهم بعدوا عن الروحية فأنكر فريق منهم القيامة والحشر ، ومن ثم أنكروا الحساب والعقاب ، وبالتالي أدى ذلك الى انغماسهم في الشهوات والافراط في الملذات غير متوقعين حساباً .

نبوة عيسى

بعث الله عيسى عليه السلام نبيّاً وهو في حوالي الثلاثين من عمره بعد ان تلقى من ربه الوحي وعلمه التوراة والانجيل ، قال تعالى :

﴿ ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً الى بني اسرائيل ﴾ آل عمران : ٤٨ .

﴿ وآتيناه الانجيل فيه هُدى ونور ومصدّقاً لِمَا بَين يديه من التورَاة

(١) هادوا : اي اليهود .

وهُدىً وموعظة للمتقين ﴾ المائدة : ٤٦ .

أخذ عيسى عليه السلام يبشّر في الناس برسالته ويدعوهم الى اتباعه ويسعى في ان يرد اليهود عن زيغهم ، ويصدّهم عن ضلالهم ، ويبين لهم ما اختلفوا فيه من الحلال والحرام ، ويحل لهم بعض الذي حُرّم عليهم ، قال تعالى :

﴿ ولما جاء عيسى بالبيّنات ، قال : قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعونِ . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صِرَاطٍ مستقيم ﴾ الزخرف : ٦٣ ، ٦٤ .

التبشير بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم

وكان من ضمن رسالة عيسى التبشير بمجيء رسول من الله يأتي من بعده اسمه (أحمد) أي محمد ﷺ ، قال الله حكاية على لسان عيسى :

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم: يا بني اسرائيل إني رَسولُ الله اليكم مُصَدّقاً لِمَا بين يديّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ الصف ٦ .

وكان عيسى يعبر عن المبشَّر به بلفظ (النبي) وبلفظ (مسيا) وبلفظ (فارقليط) .

والفارقليط تعريب للفظ اليوناني (بيريكلتوس) الموجود في الانجيل بالترجمة اليونانية ومعنى بيريكلتوس في اللغة اليونانية : محمد وأحمد[1] .

أنصَار عيسى

اصطدم عيسى عليه السلام في دعوته بجدال (الصدوقيين) وكانوا فرقة من اليهود تنكر اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء .

---

(١) سأل العلامة عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب (قصص الأنبياء) الدكتور كارلونلينو المستشرق الإيطالي عن كلمة (بيريكلتوس) فأجابه بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المعزى) فقال له : إني أسأل الدكتور كارلونلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة ولست أسأل قسيساً فقال : إن معناها (الذي له حمد كثير) ، فسأله أيضاً : هل ذلك يوافق افعل التفضيل من (حمد) أي (احمد)؟ فقال: نعم . وهذا ما يؤيد القرآن (ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه احمد) .

كما اصطدم بجدال الرؤساء الدينيين المنحرفين في مفاهيمهم الدينية الخاطئة وهم الفريسيين والكتبة والكهنة ولكن عيسى افحمهم بحججه القوية الدامغة وبين فساد مسلكهم .

ولكن العناد والكفر ظلا مسيطرين على هؤلاء ، ولما وَجَدَ عيسى تيار العناد يقوى وبوادر الكفر تطغى وقف في قومه قائلاً : من أنصاري الى الله ؟ فلباه تلاميذه الذين آمنوا به ، وأعلنوا ايمانهم بجرأة وهم القلة وسط جموع الكافرين ، وهذا ما يقصه علينا القرآن :

﴿ فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكُفْرَ قال : من أنصاري الى الله ، قال الحواريّون : نحن أنْصَارُ الله آمنا بالله واشهد بأنّا مُسْلمون . ربَّنا آمنا بِمَا أنْزَلْتَ وَاتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ آل عمران : ٥٢ ، ٥٣ .

والحواريون هم اصحاب عيسى وتلاميذه المقرّبون وكانوا اثني عشر رجلاً – هم المبشرون بلغة هذا العصر – الذين ارسلهم المسيح في حياته للتبشير بديانته .

معجزات عيسى

شعر رجال الدين بالخطر يدهمهم فها هو عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات ، وتهالكهم على الملذات ، ثم راح يفضح اسرارهم . وينشر بين الناس مخازيهم ، فأجمعوا أمرهم على مناوأته وتكذيبه ، ولإحراجه طالبوه بما يؤيد رسالته ، فأيده الله بالمعجزات الباهرة وهي :

١ – صنع من الطين شكل طير ثم نفخ فيه فكان طيراً بإذن الله .
٢ – مسح على الاكمه – وهو من وُلد اعمى – فعاد الأعمى بصيراً بإذن الله .
٣ – مسح على الأبرص فشفاه بإذن الله .
٤ – أحيا الموتى بإذن الله (بالنداء او اللمس) .
٥ – انبأ الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم .

وهذا ما ذكره الله على لسان عيسى :

﴿ إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئةالطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابرىء الاكمه والابرص وأُحيِ الموتى بإذن الله

وانبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ آل عمران : ٤٩ ، ٥٠ .

وهناك معجزة أخرى طلبها الحواريون وهي انزال مائدة من السماء ليأكلوا منها ولتطمئن قلوبهم بالايمان ، فيتثبتوا من صدق رسالته ، فدعا عيسى ربه فأنزل عليه المائدة التي طلبوها .

﴿ إذ قال الحواريُّون ياعيسى ابن مريم هل يستطيعُ ربُّك أن يُنَزّل علينا مَائدةً مِن السماء قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نُريدُ أن نأكل مِنها وتطمئن قلوبنا ونَعْلَم أنْ قَدْ صَدَقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً مِنَ السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خيرُ الرازقين . قال الله : إني مُنَزّلُها عليكم فمن يَكْفُرْ بَعْدُ منكم فإني أُعذّبُهُ عذاباً لا أعَذّبُهُ أحَداً مِنَ العالمين ﴾ المائدة : ١١٢ — ١١٥ .

الحكمة من معجزاته

هنا يتساءل القارىء لماذا كانت معجزات عيسى من هذا النوع ؟ قيل في تعليل ذلك ان السبب هو مناسبة ذلك النوع من المعجزات لأهل زمان عيسى الذين كانوا ينكرون الروح فجاء المسيح بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق ومصدق لما يأتي به ، وهي في الوقت ذاته اعلان صادق لحقيقة الروح ، وبرهان قاطع على وجودها .

هذا طين مصوّر على شكل طائر ينفخ فيه فيكون طيراً حياً بإذن الله وما ذاك إلاّ لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه تغلغل فيه فكانت معه الحياة ، وهذا إنسان قد أصابه الموت يناديه عيسى فإذا هو حي يجيب نداء من ناداه وما ذاك إلاّ لأن روحاً غير الجسم حلت فيه بذلك النداء ففاضت عليه الحياة وهكذا كانت معجزة عيسى من جنس دعوته وهي : تربية الروح ، والايمان بالبعث وان هناك حياة اخرى يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته .

مُناوأة اليهود لعيسى

أيّد الله عيسى بتلك المعجزات الباهرة التي تخرس الألسنة وتطمئن كل

مرتاب ، ولكن اليهود الذين بُعث فيهم عيسى كانوا قساة القلوب فناوأوه واخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعوته ويحيكون المؤامرات ضده ، فلما أعيتهم الحيل وفشلوا في التخلص منه ورأوا ان الضعفاء والفقراء يجيبون دعوته ، ويلتفون حوله ، اخذوا يحرّضون الرومان عليه ويوهمونهم ان في دعوة عيسى زوالاً للملك قيصر ، وتقويضاً لسلطانه وهكذا تمكنوا من حمل الحاكم الروماني على اصدار الأمر بالقبض عليه والحكم بإعدامه صلباً .

اخذ جند الرومان يبحثون عنه ، وكان من اصحابه رجل منافق وشى به ، فألقى الله عليه شبه عيسى فقبض عليه الجنود ، وارتج عليه واسكته الله فنفذ فيه حكم الصلب ، أما عيسى فقد كتب الله له النجاة .

هذا وإن القرآن يقرّر أن الله لم يمكن هؤلاء من قتل عيسى بل نجاه الله من ايديهم :

﴿ وقولهم : إنّا قَتَلْنا المسيحَ عيسَى ابن مريم رسُولَ الله ، وَمَا قتلُوهُ وَمَا صَلَبُوه ولكن شبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شَك منه ما لهم به من عِلْمٍ إلاّ اتباع الظن ﴾ النساء : ١٥٧ .

والمعنى : ما قتلوا عيسى وما صلبوه كما زعموا ولكن وقع لهم الشبه فظنوا انهم صلبوا عيسى وهم إنما صلبوا غيره ، وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من حقيقة الصلب ، إذ ليس لهم به علم قطعي الثبوت وانما هم يتبعون الظن .

فالقرآن ذكر اختلاف اتباع المسيح بعد ذكره قضية قتله وصلبه أي ان الخلاف وقع في هذين الأمرين . وهذه حقيقة تاريخية فقد وُجدَ من طوائف المسيحيين من ينفي الصلب والقتل مثل (الساطرينوسيون) و (المركيونيون) و (البارديسيانيون) وغيرهم ممن لم يسلموا الى ان المسيح صلب وقتل .

فمن اين لمحمد هذه الحقائق التي لم تكن معروفة عند العرب ؟ إن ذلك من الدلائل على ان القرآن وحي الهي انزله الله على محمد ليبين للناس الحقيقة التي اختلفوا فيها .

نهاية عيسى

وإذا كان عيسى لم يُصلب فما مصيره بعد ذلك ؟ الجواب على ذلك

ما ذكره القرآن :

﴿ وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه ﴾ .

﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ آل عمران : ٥٥ .

ومعنى متوفيك : أي اني مستوف اجلك لا أسلّط عليك من يقتلك فهنا كناية عن عصمة المسيح من الأعداء وما أرادوه من الفتك به .

وفي معنى قوله تعالى : (ورافعك إليّ) ذكر اكثر المفسرين الى ان الله رفع عيسى بجسمه وروحه اليه ، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة بأن عيسى سينزل الى الأرض كإحدى علامات الساعة (أي يوم القيامة) كما قال الله (وانه لعلم للساعة) ويكون نزوله وسط الأمة المسلمة وأنه سيحكم بشريعة الإسلام ، ويرجع في حكمه الى كتاب الله (أي القرآن) وانه سيطهر الأرض ويملأها عدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً .

وعلى الرأي الثاني للمفسرين : ان عيسى عاش حتّى توفاه الله كما يتوفى انبياءه والظاهر من الرفع بعد الوفاة في قوله تعالى : (بل رفعه الله اليه) أي انه رُفع درجات عند الله كما قال الله في ادريس (ورفعناه مكاناً عليّاً) مريم : ٥٧ .

ولئن قيل : اين ذهب عيسى وما الذي آل اليه أمره ؟ فالجواب على ذلك : ان الله أبهم امره ولم يبينه لنا فنحن نفوّض العلم بذلك الى الله .

وحدانيّة الله هي دعوة عيسى

اذا تتبعنا آيات القرآن الكريم التي ذكرت عيسى وديانته وجدنا أن القرآن ينص على ان عيسى بشر ، وأنه رسول من الله لهداية خلقه ، وأن رسالته كانت الدعوة الى توحيد الله ، والتوحيد في العبادة ، فالعبادة خالصة لله وحده، والتوحيد في ذات الله وصفاته ، فليست ذاته بمركبة ، وليست لصفاته مشابهة وانه يتنزه عن الولد ، جاء في القرآن :

﴿ يا أهل الكتاب[1] لا تغلوا في دينكم[2] ولا تقولوا على الله إلاّ الحق ،

(١) يا اهل الكتاب : تطلق على النصارى او اليهود او عليهما معاً .

(٢) لا تغلوا في دينكم : أي لاتتجاوزوا الحدود التي حددها الله .

إنّما المسيحُ عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمتُه[١] ألقَاها الى مريم ورُوحٌ منه ، فآمنوا بالله ورُسُله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيْراً لكم إنما الله إلّه واحد سبحانه أن يكون له وَلَدٌ لَهُ ما في السموات وما في الأرض وكفى باللهِ وكيلا ﴾ النساء : ١٧٠ .

﴿ وقالوا[٢] اتخذ الرحمٰنُ وَلَداً . لقد جئتم شيئاً إدّاً [٣]. تَكادُ السَّموات يتفطّرن[٤] منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هَدّاً . أن دعوا للرحمٰن ولداً وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً ﴾ مريم : ٨٨ — ٩٢ .

﴿ ما المسيح بن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة[٥] كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون ﴾ .

تأمل كيف قرن الله لفظ المسيح بكلمة (ابن مريم) ليلفت الأنظار بأنه ابن مريم لا ابن الله ... (كما ينبه الله المسيحيين الى ان المسيح وأمه (كانا يأكلان الطعام) ومن البيّن ان الذي يأكل الطعام فيتحول في جسمه دماً ولحماً وعظماً وينضح عرقاً ويخرج فضلة لو بقيت في الجسم لأضرته ... من الواضح ان كائناً من هذا النمط لا يمكن ان يكون إلاّ بشراً خاضعاً لكل قوانين البشرية التي لا تؤدي الى نقص في مرتبته كرسول)[٦] .

ويذكر القرآن هذه المحاورة التي ستكون بين الله ورسوله عيسى يوم القيامة :

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناس اتخذوني وأمّيَ الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك[٧] ما يكون لي ان أقولَ مَا ليس لي بحقّ إن كُنْتُ قُلْتُه فقد علمته تعلَمُ ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسِك إنك أنْتَ علاّم الغيوب . ما قلْتُ لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكُنْتُ

---

(١) كلمته : اي حدث بكلمة «كن» من غير مادة معتادة .
(٢) وقالوا : اي النصارى .
(٣) ادا : أي منكراً عظيماً .
(٤) يتفطرن : يتشققن .
(٥) صديقة : خلقها الصدق .
(٦) عن كتاب (التفكير الفلسفي في الاسلام) للدكتور عبد الحليم محمود .
(٧) سبحانك : أي تعاليت ان يكون معك شريك .

عليهم شهيداً مادُمْتُ فيهم ، فلما توفيتني كُنْتَ أنْتَ الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادُك وإن تَغْفِرْ لهم فإنك انت العزيز الحكيم ﴾ المائدة : ١١٦ ١١٨ .

في هذه الآيات اسلوب سام من الوعظ ودعوة الى تصحيح الافكار في حقيقة عيسى عليه السلام .

وفي قوله تعالى على لسان عيسى : ﴿ إن تُعذّبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ تصوير لنفسيّة عيسى المشعة بالرحمة للإنسانية، واعتراف بجلال الله وقدسيته وحكمته في عذابه وغفرانه لعباده .

هذه الآية لها وقع كبير على النفوس المؤمنة ولهذا روي ان الرسول محمداً ﷺ قام ليلة الى الصلاة فرددها حتى اصبح الصباح .

النصرانية اقرب الأديان موَدّة للإسلام

من الأمور التي يجهلها الكثيرون أن الإسلام خَصّ النصارى من بين جميع الأديان بالود ، فهو وإن أنكر ألوهية المسيح والصلب والتثليث إلاّ انه من جهة اخرى أعلن أن النصرانية اقرب الأديان مودة الى الإسلام، وهذا ما صرح به القرآن :

﴿ ولَتجِدنّ أقربهم مَودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ﴾ .

كما أثنى الله على أتباع المسيح الذين ساروا على هديه وتخلقوا بأخلاقه :

﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ .

ولعله بعد ما ذكرناه من قبل في نظرة القرآن الى المسيح وأمه والإقرار لهما بالفضل وعلو المكانة عند الله، لعل ذلك كله يهيب بالمسيحيين والمسلمين ان يتعاطفوا ويتوادوا ويتعاونوا على خير الإنسانية والوقوف بوجه الإلحاد الذي بدأ يستشري في العالم .

الفَصْلُ الرَّابِع

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

ابتغاء الذرية الصالحة – التقوى وخيراتها – الدعوة الى نصرة دين الله .

ابتغاء الذرية الصالحة

حب الولد فطرة في النفس الإنسانية ونزعة طبيعية فيها، وهي تسمى: (غريزة بقاء النوع) والاسلام لا يجافي الفطرة، وقد رسم لنا في قصة نبيه زكريا طبيعة الإنسان في حب الولد واتخاذ السبيل اليه ، والقدوة الحسنة من زكريا .

فنبي الله زكريا بلغ من العمر ما بلغ . وفات أوان حمل زوجته ، فطرق باب الله بالدعوات ان يرزقه الذرية الصالحة، فدعا ربه: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ .

هذا توجيه لنا لابتغاء الذرية ، والحرص على ان تكون ذرية طيبة نشرف عليها بالتربية الصالحة ، ونكون لها قدوة حسنة فيما نقول ونعمل ، حتى تكون الذرية متعة لنا في حياتنا وعوناً على ما يصيبنا من ملمات ، وذخراً صالحاً بعد الممات ، ننتفع بدعواتها ولهذا يقول الرسول ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، او علم ينتفع به، او ولد صالح يدعو له) .

والجدير بالملاحظة ان زكريا حينما اتجه الى ربه راجياً الولد كان خاشعاً معترفاً له بفضله ، ذاكراً ضعفه وعجزه . ملتمساً تحقيق امنيته ، وفي هذا درس للمؤمنين في كيفية تضرعهم الى الله ولجوئهم اليه في كل ما يبتغون منه .

وعند إجابة الدعاء على الإنسان ان يكثر من تسبيح الله وحمده ، فزكريا عندما تلقى البشرى بالولد اشار الى اهله واتباعه ان يفعلوا كما فعل من تسبيح[1] الله في الصباح والعشي .

---

(١) التسبيح : قيل هنا بمعنى تنزيه الله، وقيل بمعنى الصلاة .

ودرس أخير نتلقاه في هذا المعنى : هو ان تربية الأطفال في احضان أهل الصلاح والتقوى ، فيه حصانة لهم من السقطات ، وحفظ لهم من المكاره ولنا في تربية زكريا لمريم اكبر أسوة في ذلك .

فمريم التي كفلها زكريا وأشرف عليها بالتربية الدينية الحقة في بيت الله بعيدة عن موثرات السوء هذه التربية هي التي جعلتها بتلك المكانة العالية من التقوى والقربى من الله ، حتى ان القرآن اثنى عليها الثناء العظيم وفضلها على نساء العالمين، فقال: ﴿ وإذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

التقوى وخيراتها

جعل الله ارزاق الناس في هذه الحياة تسير بموجب الأسباب والمسببات، وتتحقق بسعي الإنسان وكدّه ، لهذا امر الله المؤمنين بالسعي والعمل بقوله :

﴿ فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ .

ولكن الارزاق ليست كلها قائمة على جهد الإنسان وسعيه فقط ، بل إن هناك حصة كبيرة من الارزاق تكمن وراء الأسباب والمسببات تتنزل من الله على من يشاء من عباده ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ أوَ لم يروا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقـــدر ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

فأرزاق الناس سرّ من الله يهبها لحكمة اختص بها وحده .

ومن الأسرار التي كشف عنها القرآن : ان تقوى الله وسيلة الى استنزال ما عنده من ارزاق طيبة ، قال تعالى :

﴿ ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بَركاتٍ من السماء والأرض ﴾

وفي قصة مريم وعيسى يكشف لنا القرآن سرّ التقوى .

فهذه مريم كانت ترزق من طيب الطعام وتقول انه من عند الله، وكان ذلك من آثار التقوى التي خصها الله بها :

﴿ كُلّمَا دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال: يا مريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

ألا ترى ان كلمة (المحراب) في هذه الآية توحي اليك بهذا الجو التعبدي الذي كانت فيه مريم والذي يسبغ على المتعبد فيه صفة التقوى والبعد عن الآثام.

وهذه مريم ايضاً عندما تحمل طفلها وتقابل قومها في موقف حرج يغص فيه المرء بريقه ويعجز عن الكلام لسانه من هول ما تتوقعه من الفضيحة ، يلهمها الله أن تشير الى طفلها ففعلت ، وهنا نطق الصبي في مهده بخير ما ينطق إنسان مبرئاً أمه ، فكان ذلك معجزة لعيسى وكرامة لأمه الطاهرة ، فالله لا يتخلّى عن عباده المتقين ، وهو القائل في القرآن :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ .

فالتقوى وسيلة لإدرار الرزق واليسر والفرج من الضيق ، وما أحرانا ان نتصف بها ونتزود منها لنحصل على السعادة في الدنيا والآخرة، فهي أفضل زاد في مسيرة الحياة كما قال الله مخاطباً المؤمنين : ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

الدعوة الى نصرة دين الله

الدعوة الى نصرة دين الله تبدو لنا في قول عيسى لقومه وقد شعر بالريبة من إيمان بعضهم: ﴿ فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال : من انصاري إلى الله ؟﴾ .

فكان جواب انصاره: ﴿ نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنّا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾

فالقرآن ينوّه ويثني على تلك الفئة التي آمنت بعيسى وجاهرت بإيمانها واظهرت استعدادها لنصرته مهما كلفها ذلك من تضحيات .

أمثولة رائعة من الإيمان والتضحية يضعها الله أمام انظار المؤمنين ليقتدوا بهؤلاء ويسيروا على منوالهم ، لهذا يخاطبهم الله في القرآن بقوله :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا كونوا أنصَار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ، قال الحواريون : نحن أنصار الله ﴾ .

فالايمان الحقيقي هو الذي يهيب بالمؤمن لنصرة دين الله واعلاء شأنه، والتبشير به بين الناس ، والاستماتة في الدفاع عنه ، لأن نصرة دين الله نصرةٌ للعدالة والاصلاح ، واحقاق الحق والقضاء على الطغيان والفساد .

الباب الحادي عشر

محمد صلى الله عليه وسلم

القسم الأول

سيرته من مولده إلى هجرته

القسم الثاني

جهاده في سبيل الدعوة

القسم الثالث

من حياته الخاصة والعامة

القِسمُ الأول

سِيرَتهُ مِنْ مَولِدِهِ إلى هجرتِه

1 - نَشأة مُحمَّد قبل النُّبوّة

2 - نُبوّة مُحمّد

3 - اضطهادُ النبيّ والمؤمنِين

4 - انتشارُ الدَعوة الإسلامية

5 - هِجْرةُ النَّبيّ

تمهيد

هذا البحث الموجز : لم يترك المسلمون الأولون شيئاً من اقوال محمد ﷺ ولا افعاله إلاّ دونوها في عشرات المجلدات، وهي التي يطلق عليها اسم: كتب الأحاديث الشريفة او السُنّة النبوية .

هذا ، وإن الكلام عن محمد ﷺ يقتضينا أيضاً ان نرجع الى القرآن لأن القرآن مصدر رئيسي من مصادر حياة النبي ومبادئه وتعاليمه التي أوحاها الله اليه، وعرض هذه المبادىء وتحليلها وشرحها يتطلب دراسة عميقة طويلة المدى، وتستوجب عدة كتب، لهذا اتجهت نيتي عند البدء بتأليف هذا الكتاب إلى ان لا اتعرض لكتابة سيرة سيدنا محمد بل اعتزمت أن اضعها في كتاب مستقل .

ولكن إلحاح الاصدقاء عليّ بأن اكتب نبذة مختصرة عن سيرته هو الذي دفعني الى ذلك فقمت به ، وكتبت هذا البحث المختصر تاركاً كثيراً من وقائع سيرته خوفاً من ازدياد حجم الكتاب، كما ان نفسي غير راضية كل الرضى عما كتبت لأني لا استطيع ان أفي الرسول ما يستحقه من تقدير بهذا البحث الموجز.

هذا وقد سبق لي ان تكلمت عن تعاليم محمد ﷺ بصورة مجملة في كتابي: (روح الدين الإسلامي) الذي يمكن ان نعتبره تتمة لهذا البحث الموجز .

فضل محمد ﷺ على الإنسانية : لا شيء يوازي فضل رسول الله محمد على المسلمين وعلى الانسانية ، لهذا أمَرَ الله المسلمين ان يحفظوا لرسوله محمد هذا الفضل ولا ينسوا ما اسداه اليهم من الهُدى، وما قدمه من تضحية في سبيل تبليغ رسالة ربه التي فيها إسعاد للبشرية ، فقال تعالى :

﴿ إن الله وملائكته يُصلّون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صَلّوا عليه وسلّموا تسليماً ﴾.

فالصلاة في اللغة تعني : الدعاء والتبرك ، فصلاة المسلمين للنبي هي: دعاؤهم له، والصلاة من الملائكة على النبي هي: الاستغفار له، والصلاة من الله

على النبي : تعني رحمته له ، وثناءه عليه عند ملائكته .

فالمسلم عنـــدما يقول : (اللهم صلّ على محمد) معناها : اللهم عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره ، واظهار دينه ، وابقاء العمل بشريعته ، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته ، وإجزال أجره ومثوبته ، وابداء فضله للأولين والآخرين ، وتقديمه على كافة المقرّبين .

شبهة خاطئة : والمعنى المتبادر الى ذهن القارىء العصري – الذي يجهل حقائق ومعاني اللغة العربية والإسلام – من ان الله يصلي على النبي كالصلاة المعهودة من ركوع وسجود فهو كفر وجهل فاضح بالإسلام ، فمحمد هو رسول من الله وعبد من عباده . وقد أمرنا الله بالصلاة عليه ، أي بالدعاء له ، تكريماً له وتهذيباً للمسلمين ، وتعويداً لهم على مكارم الأخلاق ليشكروا كل من يُسدي اليهم معروفاً .

مسألة الصلاة على النبي : وإني في الكلام عن سيدنا محمد ذكرت اسمه الكريم مئات المرات ولم التزم ذكر الصلاة عليه أمام كل اسم له ، وذلك للاختصار وحرصاً مني على حصر ذهن القارىء في صميم حياته وما فيها من رفعة وسموّ .

هذا وإن الصلاة على محمد كلما ذُكِرَ اسمه ليس فرضاً محتماً ، فقد ذكر العلماء عدّة احكام للصلاة على النبي ، فقال بعضهم : انها مستحبة ، وقال آخرون : انها واجبة في الجملة بغير حصر لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة . وقيل : الصلاة على النبي فرض اسلامي جملي غير مقيد بعدد ولا وقت معيّن . وقيل : انها تجب في القعود آخر الصلاة بعد التشهد وقبل السلام[1] .

وفي ختام هذه الكلمة اقول : اللهم صلّ على محمد عدد خلقك صلاةً تكافئه عنا وتجزيه خير الجزاء .

---

(١) راجع كتاب : القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي .

الفصل الأول

نشأة محمد قبل النبوة

نسبه واسماؤه – ولادته – رضاعه – وفاة والدته – كفالة جده وعمه له – سفره الى الشام – شهوده حرب الفجار وحلف الفضول – سيرته قبل النبوة – زواجه من خديجة – تحكيمه عند بناء الكعبة – عمله قبل النبوة .

نسبه واسماؤه

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب[١] ، وامه امنة بنت وهب[٢] وكل اجداده صلى الله عليه وسلم من السادة الأشراف .

وله أسماء كثيرة غير محمد[٣] منها : احمد[٤] ، والنبي ، ورسول الله ، والماحي[٥] ، والعاقب[٦] ، والمقفى[٧] ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والفاتح ، وطه ، ويس . والمصطفى ، والرسول ، والنبي الأمي وغيرها من الأسماء الكريمة .

---

(١) عبد المطلب هو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان بن أدد، وينتهي نسبه الشريف إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

(٢) وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم الذي هو الجد الخامس للنبي .

(٣) محمد : منقول من صفة، وهو في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار أي الذي يحمد حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة الحامدين له بما هدى إليه .

(٤) احمد: افعل تفضيل من الحمد، أي ان الحمد الذي يستحقه افضل مما يستحقه غيره .

(٥) الماحي : الذي يمحو الله به الكفر .

(٦) العاقب : الذي ليس بعده نبي .

(٧) المقفى : المتبع للأنبياء .

ولادته

كان عبد الله والد محمد ﷺ من أحب اولاد ابيه اليه، وقد زوجه أبوه من آمنة بنت وهب وهي من أشرف بيوت قريش فحملت منه برسول الله، ثم لم يلبث عبد الله ان خرج في تجارة فتوفي ودُفِنَ بمدينة (يثرب) عند اخواله: بني عدي بن النجار، وله من العمر خمسة وعشرون عاماً.

ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت مولودها، وكانت الولادة يوم الاثنين في التاسع او الثاني عشر من ربيع الأول[1] عام الفيل[2] عند طلوع الفجر.

أرسلت آمنة رسولاً الى جدّه عبد المطلب تبشره بالمولود، فأقبل مسروراً وسماه بإلهام من الله: محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً من قَبْلُ عند العرب، ولم يحمل هذا الاسم إلاّ افراد قلائل، وقد سُئل جده: لِمَ رَغِبَ عن اسماء آبائه؟ فقال: إني لأرجو ان يحمده أهل الأرض كلهم.

رضاعه

وكان من عادة العرب ان يتخذوا المراضع لمواليدهم من أهل البوادي لينشأ أولادهم أصح اجساماً، واصفى ذكاء، وكانوا يقولون: إن المربي في المدن يكون كليل الذهن، فاتر العزيمة. فأول من أرضعته (ثُويبة) فترة قليلة من الزمن ثم ارضعته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وكانت فقيرة وببركة محمد كَثُرَ الدر في شياهها وكثر المرعى وتوالت الخيرات عليها، ثم ردته الى امه وهو ابن خمس سنين، وكانت حاضنته (ام أيمن)[3] بركة الحبشية.

---

(١) حقق المرحوم محمود الفلكي تاريخ مولد الرسول وفق التقويم الشمسي فتبين له انه يصادف العشرين من نيسان (ابريل) سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح.

(٢) عام الفيل: حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب، وملخصها: أن ملكاً من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن اغار على مكة قاصداً هدم كعبتها وكان في مقدمة جيشه فيل عظيم لم يكن العرب قد رأوا مثله فإكراماً للنبي المنتظر وغيرة على بيته اهلك الله هذا الجيش، وهذه الحادثة ذكرها القرآن في سورة (الفيل).

(٣) من الإشارات العجيبة ذات الدلائل الغريبة ان في اسم ابيه (عبد الله) دليل التوحيد وفي اسم امه (آمنة) أمان لأمته، وفي اسم (ثويبة) مرضعته الثواب. وفي اسم مرضعته (حليمة السعدية) الحلم والسعد وفي اسم (ام ايمن) حاضنته، اليمن والبركة.

وفاة والدته

وفي السنة السادسة من عمره حملته أمه الى اخواله بيثرب لتزيره إياهم وتزور قبر زوجها، وأخذت معها ام أيمن جاريتها التي خلفها لها زوجها بعد وفاته ، ولما تم مكثهم بالمدينة شهراً انطلقوا عائدين الى مكة ، فلما كانوا في بعض الطريق بين البلدين مرضت آمنة بموضع يدعى : (الأبواء) وما لبثت ان ماتت ودفنت فيه ، وعادت أم ايمن بالطفل اليتيم « محمد » الى مكة .

كفالة جدّه وعمه له

كفله جده عبد المطلب، ورَقّ له رقة لم تُعهد له في ولده لما كان يظهر عليه من علامات النجابة والدعة .

وبعد سنتين من كفالته توفي الجدّ ، فكفله عمه ابو طالب وكان فقيراً إلاّ أنه كان شهماً كريماً أحب محمداً حبّاً لم يحبه احداً من ولده ، فكان محمد ينام الى جنب عمه ، وإذا خرج لأمر ما أخذه معه ، وكان محمد في مدة كفالته مثال القناعة والبعد عن صغائر الأمور التي يشتغل بها الأطفال عادة .

وقد ترك اليتم أثراً عميقاً اليماً في نفس محمد خفف من وقعه تلك الكفالة الحنون من عمه حتى ان القرآن ذكّره بتلك النعمة فقال : ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾.

سفره الى الشام

ولما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة اراد عمه السفر بتجارة الى الشام، فصعب على محمد فراق عمه ، فرق العم له وأخذه معه ، ولما وصلت القافلة الى ضاحية مدينة بُصرى[1] أشرف بحيرا[2] الراهب عليها ورأى فيمن رأى محمداً، رأى فيه امارات النبوة التي قرأها في كتب النصرانية فأوصى عمه ان يكون حذراً عليه من اليهود ، فعمل أبو طالب بما نبهه اليه بحيرا ، وعاد بالفتى مسرعاً الى مكة .

---

(١) بصرى : قرية على الحدود بين سوريا والجزيرة العربية .

(٢) بحيرا : راهب مسيحي من فرقة مسيحية تعرضت للأضطهاد بسبب قولها بالتوحيد فلجأ رهبانها الى أطراف الصحراء العربية .

شهوده حرب الفجار وحلف الفضول

ولما بلغ العشرين من عمره حضر حرب الفجار ، وهي حرب كانت بين قبيلة قريش وحلفائها وبين قبيلة قيس وحلفائها في موضع بين مكة والطائف يسمى : (نخلة) وقد كانت حرباً شديدة الهول لما استحل فيها من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب ، ولهذا سميت بحرب الفجار ، وقد انتهت بالصلح بعد سقوط كثير من القتلى .

وبعد حرب الفجار تنادى بعض اشراف قريش المكيين لابرام حِلْفٍ أسموه : (حلف الفضول) تعاهدوا فيه ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها او من غيرهم من سائر الناس إلاّ اعانوه حتى ترد إليه مظلمته ، وقد حضر هذا الحلف محمد مع اعمامه وقال بعد أن شرّفه الله بالنبوة : (لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لي به حمر النعم[١] ، ولو دُعيتُ به في الاسلام لأجبت) .

سيرته قبل النبوة

وكان محمد أحسن قومه خلقاً ، واصدقهم حديثاً ، واعظمهم أمانة ، وابعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال حتى سماه قومه : الأمين ، لِمَا جَمَعَ الله فيه من الصفات الحميدة .

وقد حفظه الله قبل النبوة من صغائر أعمال قومه ، وبغضّت اليه الأوثان بغضاً شديداً حتى إنه ما كان يحضر لها احتفالاً او عيداً مما يقوم به عبّادها .

يقول محمد متحدثاً عن صباه : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية [٢] يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممتُ به حتى اكرمني برسالته ؛ قلت ليلة لغلام يرعى معي بأعلى مكة : لو ابصرت لي غنمي حتى أدخل مكة واسمرُ بها كما يسمر الشباب ، فقال : افعل . فخرجت حتى إذا كنت عند اول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فلان بفلانة ، فجلست اسمع ، فضرب الله على اذني فنمت فما ايقظني إلا

(١) حمر النعم : الابل الحمراء وهي أثمن ما يقتنيه العرب من الإبل .
(٢) الجاهلية : هو العصر الذي سبق الاسلام ، وقد اطلق القرآن عليه هذا الاسم لما كان يستحل فيه من الآثام .

حرّ الشمس ، فعدت الى صاحبي فسألني فأخبرته ، ثم قلت له ليلة اخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء[١] .

زواجه من خديجة

ولما بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة سافر الى سوريا للمرة الثانية بتجارة لخديجة[٢] بنت خويلد وكانت تستخدم الرجال ليتجروا لها في مالها ، وقد اختارته لهذا العمل لما سمعت عنه من الأمانة والصدق وغيرهما من الصفات الحميدة، وسافر معه (ميسرة) خادمها فباعا وابتاعا، وربحا ربحاً جسيماً ، وظهر لمحمد في هذه الرحلة من البركات ما أدهش قلب ميسرة الذي اخبر سيدته بكل ما رأى[٣] .

اعجبت خديجة مما سمعته من صفات محمد ، وافرحها الربح الوفير الذي اسفرت عنه هذه التجارة ، فأرسلت اليه تخطبه لنفسها – وكانت في الأربعين من عمرها – فقبل محمد ، وأرسل عمه أبا طالب يطلب يدها من أهلها وتزوجها .

تحكيمه عند بناء الكعبة

ولما بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة فأسرعت قريش الى هدمها لتعيد بناءها من جديد ، ولما تم البناء الى الحد الذي ارادوا فيه وضع الحجر الأسود في موضعه اختلف اشرافهم فيمن يضعه ، وتنافسوا في ذلك حتّى كادت تشب بينهم نار الحرب ، فقال ابو امية بن المغيرة – أسنّ رجل في قريش – : يا قوم لا تختلفوا وحكّموا بينكم من ترضون بحكمه ، فقالوا : نكل الأمر لأول داخل ، فكان هذا الداخل هو محمد ، فاطمأن الجميع إليه لما يعهدون فيه من الأمانة وصدق الحديث ، ورجاحة العقل ، وقالوا : هذا محمد الأمين رضيناه ، فلما اخبروه الخبر بسط رداءه ثم دعا رؤساء العشائر الى الأخذ بأطراف الثوب الأربعة ثم وضع فيه الحجر الأسود وأمرهم برفعه حتّى انتهوا به الى موضعه ، فأخذه محمد بيده

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ٢ .

(٢) خديجة امرأة غنية من اواسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وكانت تدعى: بالطاهرة وسيدة قريش وقد عرض كثيرون عليها الزواج فلم تقبل وقد كانت ارملة .

(٣) اخبر ميسرة سيدته بأنه في الظهيرة واشتداد الحر كان يرى ملكين يظلانه من حرارة الشمس .

الشريفة ووضعه مكانه .

وبهذا التصرف الحكيم انتهت هذه المشكلة التي كادت تؤدي الى شر كبير .

عمله قبل النبوّة

لم يرث محمد من المال والمتاع إلاّ الشيء القليل ، وقد ترعرع يتيماً، ولما أصبح في عمر يمكنه فيه ان يعمل كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية ، وقد رُوي عنه انه قال : (ما بعث الله نبياً إلاّ راعي غنم ، فقال له اصحابه : وانت يا رسول الله ؟ قال : وانا رعيتها لأهل مكة بالقراريط[1] .

ولما شب محمد كان يتجر ، وكان شريكه السائب بن ابي السائب ، كما انه ذهب بالتجارة لخديجة على أجر له — كما ذكرنا سابقاً — ولما تزوج بها عمل في مالها .

---

(١) قراريط : قيل هواسم موضع ، وقيل جمع قيراط احد اجزاء الدينار .

الفصل الثاني

نبوة محمد

بدء الوحي على النبي – دعوة النبي الى الاسلام سراً – جهر النبي بالدعوة – مقاومة قريش للنبي – تهديد النبي – محاولة اغراء النبي –

بدءُ الوحي على النبي

ولما بلغ محمد من العمر أربعين سنة أرسله الله للناس بشيراً ونذيراً :

﴿ وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس بَشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وأول ما بدىء به من الوحي : الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رُؤيا إلاّ جاءت مثل ما رأى ، ثم حُبّب اليه الخلاء والانفراد عن قومه لما كان يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام ، واشتدت محبته للخلوة مع اقتراب ايحاء الله اليه ، وقد اختار لعزلته هذه غار حراء ، فأخذ يتعبد فيه ليالي عدّة ، فتارة عشراً ، وتارة اكثر الى شهر ، وكانت عبادته على دين ابراهيم عليه السلام ، ويأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع الى اهله فيتزود لذلك من جديد ، حتى جاءه الوحي وهو في غار حراء (فجاءه الملك فقال : اقرأ. قال : ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني [١] حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما انا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ، فقلت: ماأنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ إقرأ [٢] باسم ربك [٣] الذي خلق، خلق الإنسان من

---

(١) غطني : ضمني بشدة .

(٢) اقرأ : دعوة الى القراءة والعلم ، وهذا يفسر لنا ان الاسلام اتسم منذ اللحظة الأولى بالطابع العلمي وانه جاء ليمحو الجهل وينشر العلم .

(٣) باسم ربك : نص على ان القراءة لا تكون باسم زعيم او منفعة شخصية بل القراءة باسم الرب الخالق ، وإذا تجردت القراءة لله تعالى كانت خيراً في كل الحالات، وهكذا يضع الاسلام اتباعه من اول عهده على درب الاخلاص والتجرد .

علق ، اقرأ وربك الأكرم[١] الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

رجع رسول الله الى أهله يرجف فؤاده فدخل على زوجته خديجة قائلاً : زملوني[٢] زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع [٣] فروي لخديجة خبر ما رأى ثم قال : لقد خشيت على نفسي فقالت : كلا ! والله ما يخزيك الله ابداً ، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف[٤] ، وتحمل الكلّ [٥] ، وتكسب المعدوم [٦] وتعين على نوائب الحق ؛ فانطلقت به خديجة حتى اتت ابن عمها ورقة بن نوفل .. وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية وعالماً بالإنجيل ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة: يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن اخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس[٧] الذي نزّل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعا [٨] ، ليتني اكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله : (أوَ مخرجِيَّ هم ؟) قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلاّ عودي وإن يدركْني يومُك انصرك نصراً مؤزّراً[٩] . ثم لم ينشب[١٠] ورقة ان توفي ، وفتر الوحي[١١] .

وقد انقطع نزول الوحي مدة اربعين يوماً ثم تتابع نزوله بعد ذلك .

---

(١) وربك الاكرم : دليل على ان المقروء من فيض ما يتكرم به الله على عباده ، ووصف الله بالاكرم في معرض الكلام عن القراءة دليل على ان المعرفة اسمى عطايا الله.

(٢) زملوني : غطوني .

(٣) الروع : الخوف .

(٤) تقري الضيف : تكرمه .

(٥) تحمل الكل : أي تعطي صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤونة عياله .

(٦) تكسب المعدوم : اي تبذل العطاء للفقير .

(٧) الناموس : صاحب سر الخير ويسمى الملك جبريل بذلك لأن الله خصه بالغيب والوحي .

(٨) جذعاً : شابا .

(٩) مؤزراً : قويا .

(١٠) ينشب : يلبث .

(١١) فتر الوحي : تباعدت فترات نزوله .

دعوة النبيّ الى الإسلام سراً

قام محمد ﷺ بما أمره الله ودعا لعبادته سرّاً ، حذراً من مفاجأة الناس بأمر غريب، وكان اول من آمن به : زوجه خديجة بنت خويلد، وعليّ[1] بن أبي طالب، وعبد الله بن ابي قحافة الذي يكنى بأبي بكر ، وزيد بن حارثة.

كما قد أجاب دعوة الإسلام بادىء الأمر قلة من الأشراف والموالي : كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله ابن مسعود، وسعد بن ابي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وابي ذرّ الغفاري وصهيب الرومي، وغيرهم .

دخل هؤلاء في الإسلام وفي ذلك تضحية منهم وأي تضحية، وقد رُوي : أن (ابا جهل) وهو من رؤساء قريش كان إذا سمع بالرجل قد أسلم وله شرف ومنعة أنّبه وأخزاه[2] وقال له : تركت دين ابيك وهو خير منك. لنُسفهنّ حِلْمك . ولنُفيّلنّ[3] رأيك ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال له : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه واغرى به[4] .

وإن في هذا لأكبر دليل على ان الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يدعي المغرضون، فلم يكن رسول الله ذا قوة حتى يرغم هؤلاء على الاسلام ، بل كان هو وأتباعه مضطهدين من قريش بسبب إيمانهم كما سيأتي بيان ذلك فيما بعد .

---

(١) علي بن ابي طالب كان مقيماً عند محمد صلى الله عليه وسلم ينفق عليه. فقد اصابت قريشاً مجاعة وكان عمه ابو طالب والد علي مقلاً كثير الأولاد ، فقال محمد لعمه العباس : إن اخاك ابا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة، فلننطلق اليه لنخفف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً ، فانطلقا وعرضا عليه الأمر فأخذ العباس جعفراً، واخذ محمد علياً فكان في كفالته كأحد اولاده الى ان بعث الله محمداً نبياً فكان علي من أوائل المؤمنين ، وهو لم يسجد لصنم قط ولهذا يقال له : كرّم الله وجهه .

(٢) اخزاه : أذله .

(٣) لنفيلن : نقبحنه ونخطئنه .

(٤) ابن هشام ج ١ .

جهر النبي بالدعوة

مكث رسول الله يدعو الى الله سراً ثلاث سنين بعد بدء الوحي اليه الى ان أمره الله ان يظهر دينه علناً بقوله :

﴿ فاصدع [1] بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ .

امتثل النبي امر ربه فصعد الى الصفا[2] ثم هتف : يا صباحاه ! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فقال : يا بني فلان ، يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف ، فاجتمعوا اليه ، فقال : أرأيتكم لو اخبرتكم ان خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم مصدّقيّ ؟ قالوا : ما جرّبنا عليك كذباً ، قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال ابو لهب : تبّاً لك، ما جمعتنا إلاّ لهذا[3]؟ ثم قام فنزل قوله تعالى ﴿تبّت يَدا أبي لهب وتب﴾ : الى آخر السورة.

ثم أمر الله نبيه بقوله :

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين. وإخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . الشعراء : ٢١٤ – ٢١٥ .

فجمع النبي عشيرته وقال لهم : إن الرائد[4] لا يكذّب اهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ماغررتكم ، والله الذي لا إله إلاّ هو اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وانها لجنة ابداً ، او لنار ابداً .

فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه ابي لهب .

مقاومة قريش للنبي

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام في المسجد الحرام وهي عبارة عن احجار لا تضر ولا تنفع ولكنها مع ذلك كانت اساس الحياة عند قريش

---

(١) اصدع : افرق بين الحق والباطل .

(٢) الصفا : مكان مرتفع من جبل ابي قبيس بمكة .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ .

(٤) الرائد : من يمهد سبيلا من السبل امام الآخرين .

زعيمة العرب إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام وفي هذا مصلحة اقتصادية ومنفعة ادبية لقريش، فقد كانت قريش هي التي تحمي الدار التي فيها هذه الأصنام ، فالقضاء على هذا الدين انما هو قضاء على هذه المنافع وهذه الزعامة .

لذلك كانت مهمة رسول الله في نشر الدين الجديد مهمة شاقة، فقد ندّد بالوثنية والمعتقدات التي لا تتلاقى مع وحدانية الله، ولم يكتف بهذا بل اظهر فساد نظمهم الاجتماعية، ولذا نظرت قريش الى محمد نظرتها الى رجل خارج على نظمها وعاداتها جاء ليهدم اسس حياتها الاجتماعية والاقتصادية معاً فصممت ان تقاومه مقاومة عنيفة حتى تحافظ على كيانها.

دخل عليهم رسول الله يوماً المسجد الحرام فوجدهم يسجدون للأصنام فنهاهم عن ذلك و أنبهم على خروجهم على دين ابيهم ابراهيم فأجابوه : اننا نسجد لها لتقربنا الى الله وهذا ما حكاه الله عنهم ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى﴾ فبيّن لهم رسول الله ان ذلك هو الشرك الذي لا يقبله الله منهم ونعى عليهم استرسالهم فيما هم فيه، فأجمعوا على مخالفته وقابلوه بالسخرية والاستهزاء وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ وعجبوا ان جاءهم مُنذرٌ منهم وقال الكافرون: هذا ساحر كذّاب. اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجاب ﴾ ص : ٤ ، ٥ .

﴿وإذا رأوك ان يتخذونك إلاّ هزوا أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها ﴾ الفرقان : ٤١، ٤٢ .

وكان ذلك مما يحزن رسول الله ويؤلمه فينزل عليه من القرآن ما يواسيه مثل قوله تعالى :

﴿ ولقد كُذّبت رُسُلُ من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ الأنعام : ٣٤

هذا، وقد كان المستهزئون من ذوي الوجاهة، فكانوا يتعرضون لرسول الله بالشتم والهجاء ويقولون عنه : انه كاهن او مجنون، بجانب وصفه بالكذب، يقول الله مخاطباً نبيه : ﴿ فذكّر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ الطور ٢٩.

وتارة يفترون على القرآن ويزعمون أنه أساطير الأولين ، وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ وقال الذين كفروا: إنْ هذا إلاّ إفك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة واصيلا ﴾ الفرقان : ٤، ٥ .

ومن مقاومتهم لرسول الله تعنتهم في طلب المعجزات. وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً، او تكون لك جنّةٌ من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً . او تُسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً[١] او تأتي بالله والملائكة قبيلا[٢] ، او يكون لك بيت من زُخْرف[٣] او ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيّك حتى تُنزّل علينا كتاباً نقرؤه، قُل: سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾ الاسراء : ٩٠ ـ ٩٣ .

هذا بعض ما كان يلقاه رسول الله من مقاومة قومه: وهو ثابت صامد يدعو الى الله مسفهاً عقائدهم بسبب عبادتهم أصناماً لاتضر ولا تنفع بما يُوحى اليه :

﴿إن هي إلاّ اسماء سميتموها أنتم واباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطان﴾ النجم : ٢٣ .

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ البقرة : ١٧٠ .

﴿ام تحسب أنّ اكثرهم يسمعون او يعقلون، إن هُم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ الفرقان : ٤٤ .

تهديد النبي

ولما عاب النبي آلهتهم وسفّه عقولهم قصد جماعةٌ من أشراف قريش

---

(١) كسفاً : قطعاً من العذاب .

(٢) قبيلا : ضامناً وكفيلا بصحة ما تدعيه .

(٣) زخرف : ذهب .

الى عمه ابي طالب وقالوا له :

يا ابا طالب إن ابن اخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا وضلل آباءنا ، فإما ان تكفه عنّا ، وإما ان تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً. وردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه .

ومضى النبي في دعوته لا يثنيه شيء يُظهر دين الله ويدعو اليه مِمّا فجّر نقمة قريش، فاجتمع اشرافها وقصدوا ابا طالب وقالوا له :

(يا ابا طالب إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا وإنّا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبَر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا ، حتّى تكفّه عنا، او ننازله وإياك في ذلك حتّى يهلك احد الفريقين.. ثم انصرفوا عنه، فعظم على ابي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بتسليم النبي لهم ولا خذلانه ... فبعث في طلبه وقال له : (يا ابن اخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا للذي قالوا له، فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن النبي انه قد بدا لعمه فيه بَدَاءٌ (١) وأنه خاذله ومُسلّمه ، وانه قد ضعف عن نصرته(٢)؟ .. فقال له النبي كلمته المشهورة التي ستظل خالدة على الدهر لما تنطوي عليه من الاستماتة في سبيل العقيدة والدعوة الى عبادة الله وحده، هذه الدعوة التي يصغر امامها كل التهديدات وكل انواع العذاب :

(يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته) .

يا لروعة الايمان ويا لعظمته عندما يتغلغل في القلب فهو كالسيل الهادر لا تقف في وجهه قوة في الأرض .

بكى النبي بعدما أظهر استعداده للتضحية بنفسه في سبيل دعوته وانصرف، فناداه ابو طالب وقال له : (اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت ، فوالله لا أسلمك لشيء ابداً) .

---

(١) بداء : اي رأي جديد .
(٢) ابن هشام جـ ١ .

محاولة اغراء النبي

ثم ان الدعوة الاسلامية بدأت تُلاقي استجابة عند كثير من الناس، ولما رأت قريش هذا الأمر اجتمع اشرافهم وتشاوروا فيما بينهم في الخطر الذي يتهدّدهم فقرّ رأيهم ان يعرضوا على محمد اموراً لعله بها يكف عن دعوته فبعثوا في طلبه فجاءهم مسرعاً لأنه كان حريصاً على هدايتهم فقالوا له :

(يا محمد إنّا قد بعثنا اليك لنكلمك وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء ، وعبْتَ الدين ، وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام[1] ، وفرّقت الجماعة ، فما بقي أمرٌ قبيح إلاّ قد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[2] تراه قد غلب عليك– فربما كان ذلك – بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه او نُعْذر فيك ؟ فقال النبي : ما بي ما تقولون ، ما جئتُ بما جئتكم به اطلبُ اموالكم، ولا الشرف فيكم ولا المُلك عليكم ولكنّ الله بعثني اليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ اصبر لأمْرِ الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)[3] .

ثم مضى الكفار خطوة في تحدّيهم لدعوة الحق فعرضوا عليه أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته، فأنزل الله عليه: ﴿ قل: يا أيها الكافرون لاعبد ما تعبدون﴾ الى آخر السورة، وأنزل الله عليه ايضاً قوله: ﴿قل: افغير الله تأمروني أعبد ايها الجاهلون﴾ .

ثم سلكوا سبيلاً آخر فطلبوا منه ان ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد على عبادتها ، فأنزل الله عليه :

﴿ قُل: ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن اتبع إلاّ ما يوحى إلي ﴾.

---

(١) الاحلام : العقول .
(٢) رئياً : كانوا يسمون التابع من الجن رئياً .
(٣) ابن هشام ج ١ .

الفصل الثالث

اضطهاد النبي والمؤمنين

إيذاء النبي – إيذاء المؤمنين – الهجرة إلى الحبشة – محاصرة النبي والمؤمنين – اضطهاد النبي في الطائف .

ايذاء النبي

ولما رأى الكفار ان المسلمين يزداد عددهم كل يوم اخذوا يسيئون الى النبي ﷺ ويسلطون عليه الأشرار منهم لأهانته هو ومن آمن معه حتى اصابهم من ذلك ضرر كثير .

يقول النبي : (لقد اوذيت في الله وما يؤذى احد، وأُخفت في الله وما يخاف احد ، ولقد اتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال[1] ما يأكله ذو كبد[2] إلا ما يواري ابط[3] بلال)[4] .

فمن الإيذاء الذي لاقاه النبي : ان (ابا جهل)– وهو من عظماء قريش – اخذ مرة حجراً كبيراً ليلقيه على النبي فيقتله فترقبه حتى دخل المسجد وشرع في الصلاة، فلما سَجَدَ همّ (ابو جهل) بالقاء الحجر عليه فأنزل الله الرعب والخوف في قلب أبي جهل فرجع مضطرباً ممتقع اللون .

ومرة أمر ابو جهل رجلاً ان يحضر فرث جزور[5] فأحضره فألقاه على النبي وهو ساجد ، فلم يجسر احد من المسلمين ان يرفعه عنه لقلتهم وخوفهم من كفار قريش حتى اتت بنته فاطمة ورفعته عن ابيها.

---

(١) بلال : كان خادماً للنبي .

(٢) ذو كبد : ذو حياة .

(٣) الابط : باطن الكتف .

(٤) اخرجه الترمذي وابن ماجه .

(٥) فرث جزور : ما يخرج من بطن الجمل إذا ذبح .

ومرّة اخرى مرّ ابو جهل بالنبي عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه[1] .

ويوماً دخل النبي بيته والتراب على رأسه مما نثره عليه بعض السفهاء فقامت اليه احدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي والنبي يقول لها: يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك[2] .

ومن الذين آذوه: (عقبة بن ابي معيط) فبينما كان النبي يصلي في الكعبة اقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق النبي فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل ابو بكر حتى اخذ بمنكبه ودفعه عن النبي وهو يقول: (اتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) .

وممن آذوه ايضاً: ابو لهب وامرأته ام جميل، فكانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي حيث يمر[3] .

ايذاء المؤمنين

أما المؤمنون فقد قاسوا الكثير من الأذى فمنهم :

بلال بن رباح وكان مملوكاً لرجل يُدعى: (امية بن خلَف) فكان امية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء[4] مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت او تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى[5] فيقول: وهو في ذلك البلاء أحَد احد[6] (اي الله واحد) .

فمر به ابو بكر يوماً فقال: يا أمية، اما تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه؟ قال: انت افسدته فأنقذه مما ترى. فاشتراه منه واعتقه، فأنزل الله فيه وفي امية :

---

(١) ابن هشام .
(٢) تاريخ الطبري .
(٣) ابن هشام .
(٤) بطحاء : صحراء .
(٥) اللات والعزى : اسمان لصنمين كانوا يعبدونهما .
(٦) ابن هشام .

﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلاّ الاشقى الذي كذّب وتولّى ﴾ اي امية بن خلف . وتأتي تتمة النص القرآني﴿ وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحَد عنده مِنْ نعمة تُجزى إلاّ ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ أي ابو بكر .

وممن عُذّب بسبب اسلامه: عمار بن ياسر، وابوه، وأمه ، فكان بنو مخزوم يخرجونهم وقت الظهيرة ويضعون اجسامهم على الرمال الشديدة الحرارة لتعذيبهم فيمر بهم النبي قائلاً لهم : (صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة).

اما الأم فقد قـُتلت تحت العذاب فكانت أول شهيدة في الإسلام .

وممن اوذي في الله: (خباب بن الأرت) فكانت سيدته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلاّ ايماناً .

جاء (خباب) يوماً الى النبي يشكو ما يلاقيه من العذاب ويطلب منه ان يدعو له ، فقال النبي : (قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف إلاّ الله عز وجل)(١)

هذا وقد تعرض الكثير غيرهم من المؤمنين الى الضرب والتجويع والعطش حتى ما يقدر الواحد ان يستوي جالساً من شدة الضرّ الذي نزل به .

وفي اثناء ذلك كان النبي يتلو على المؤمنين ما ينزل عليه من القرآن ما يخفف عنهم بعض ما يصيبهم من العذاب وما يثبت قلوبهم . قال تعالى:

﴿ أحَسِبَ الناس ان يُتركوا ان يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ العنكبوت : ٢، ٣

﴿ أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوا من قبلكم مَسّتْهُمُ البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إنّ نَصْرَ الله قريب ﴾ البقرة: ٢١٤ .

الهجرة الى الحبشة

ولما رأى النبي اشتداد الأذى على اتباعه قال لهم: لو خرجتم الى ارض

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده احد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه ..

خرج عند ذلك كثير من المسلمين الى ارض الحبشة فراراً الى الله بدينهم، فهاجر احد عشر رجلاً واربع نسوة استأجروا سفينة اوصلتهم إليهـــا، ثم تتـــابع المسلمون في الهجرة الى الحبشة حتى بلغ عدد المهاجرين نحواً من ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة .

ولما وصل الى قريش خبر هؤلاء المهاجرين أرسلت وفـــدآ الى النجاشي فيه: عبد الله بن ابي ربيعة، وعمرو بن العاص لرد المهاجرين الى مكة ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشي قال له عمرو بن العاص :

(إنه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم ، واعمامهم ، وعشائرهم ؛ لتردّهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً (أي ابصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى من الحكمة ألا يُسلّم اليهم المهاجرين دون ان يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل الى اصحاب رسول الله فدعاهم فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين احد من هذه الملل ؟ فكان الذي كلمه جعفر بن ابي طالب فقال له :

(ايها الملك كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وامانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن واباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات

وأمرنا ان نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدّد عليه امور الإسلام) فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وان نستحلّ ما كنّا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك [1] ..

ولما قرأ عليه صدراً من (سورة مريم) بكى النجاشي ثم قال :

إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت الى عبد الله بن ابي ربيعة ، وعمرو بن العاص فقال لهما :

انطلقا : فلا والله لا أسلمهم اليكما .

لقد علم النجاشي فور سماعه المبادىء الاسلامية، أن هذه المبادىء حق لا يخفى صدقها على اصحاب العقول السليمة ، وعلم ان ما أتى به محمد انما يصدر من المنبع الذي صدرت عنه رسالة عيسى .

محاصرة النبي والمؤمنين

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش ، وأيقنوا ان ما ينالون به محمداً ومن معه من المؤمنين من الأذى والاضطهاد لن يحول دون إقبال الناس على دين الله عزموا على ان يقتلوا النبي علانية، فلما رأى عمه (ابو طالب) ما عزم عليه القوم جمع عشيرته بني عبد المطلب وأمرهم ان يُدخلوا النبي في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، وامرهم ان يمنعوه ممن ارادوا قتله، فلما عرفت قريش ان القوم منعوا النبي قرّ رأيهم ان يكتبوا كتاباً يتعاقدون[2] فيه على مقاطعة عشيرة النبي وهم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب ومقاطعتهم مقاطعة تامة فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة.

---

(١) ابن هشام جـ ١ .
(٢) يتعاقدون : يتعاهدون .

ظلت الصحيفة نافذاً مفعولها ثلاث سنوات والنبي واتباعه يُعانون من الحرمان ألواناً حتى انهم كانوا يأكلون اوراق الشجر، وكان يُسمع اصوات اطفالهم من بعيد من شدة الجوع .

وطالت مدة الحصار وأصاب المحاصرين ويلات وآلام أثارت الشفقة في قلوب بعض اشراف قريش ، فطالب خمسة من اشرافهم بنقض الصحيفة ووفقوا بعد معارضة شديدة ، فخرج النبي ومن معه من المؤمنين الى مساكنهم بعد هذه الشدة التي عانوا منها الكثير .

اضطهاد النبي في الطائف

رأى النبي استهانة قريش بدعوته فصمم ان يتوجه الى قبيلة ثقيف بالطائف لعلها تؤمن به وتنصره على قومه وتساعده حتى يتم أمر ربه ، وثقيف كانت أقرب القبائل الى مكة .

توجه النبي ومعه خادمه زيد بن حارثة فقابل رؤساءهم ، وعرض عليهم الإيمان والنصرة حتى يؤدي دعوته، فردوا عليه رداً قبيحاً ولم يرَ منهم خيراً، وحينذاك طلب منهم ان لا يشيعوا ذلك كي لا تعلم قريش فيشتد أذاها لأنه استعان عليهم بأعدائهم ، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم النبي بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمونه بالحجارة حتى ادموا عقبه[1] ، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه الى ان انتهى الى شجرة كرم واستظل بها.

لم تنفجر عين النبي عن دمعة، ولم يشك حزنه إلاّ الى الله وحده ، فما كان احلى عنده ان يخفف وقع الألم الذي هو فيه بدعوة تائبة، وهذا ما ناجى به ربه بهذا الدعاء الذي نستشف منه صورة لمدى إخلاصه لربه :

(اللهم اليك اشكو ضعف قُوّتي ، وقلّة حيلتي ، وهوَاني على الناس، يا أرحم الراحمين انت رب المستضعفين وأنت ربي ، الى من تَكِلُني؟ الى بعيد يتجهّمني ، أم الى عدوّ ملّكته امري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي اوسع لي ، اعوذ بنور وجْهكَ الذي اشرقت له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمْرُ الدنيا والآخرة من أن تَنْزل بي غضبكَ او يحلّ

(١) العقب : مؤخرة القدم .

عليّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلاّ بك)[1] .

هذا وقد كان جلوس النبي بجوار بستان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة فلما رآه هذان الرجلان رقّ قلباهما له فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يُقال له: عَدّاس وقالا له : خُذ قطفاً من هذا العنب ثم اذهب به الى ذلك الرجل ، فلما وضع النبي يده فيه قال: (بسم الله) فقال عداس: هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد ! فقال النبي : من اي البلاد انت ؟ وما دينك ؟ فقال: نصراني من نينوى ، فقال النبي : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال : وما علمك بيونس ؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس ، فلما سمع ذلك عدّاس أسلم .. وقال لابني ربيعة بعد أن جاءهما: ما في الأرض خير من هذا، لقد اخبرني بأمر لا يعلمه إلاّ نبي .

(١) ابن هشام جـ١ .

الفصل الرابع

انتشار الدعوة الإسلامية

تغلغل الإسلام بين المستضعفين – الاسراء والمعراج – بدء الإسلام بمدينة يثرب – اهالي يثرب يعاهدون النبي .

تغلغل الإسلام بين المستضعفين

إن اكثر المؤمنين في بدء الدعوة الإسلامية كانوا من الفئات الفقيرة والمستضعفة وإن آمن بالنبي رجال بارزون من ذوي الوجاهة .

والإسلام تقبّل هؤلاء المؤمنين وأمر رسوله محمداً بالحدب عليهم واحتضانهم وتعليمهم مبادىء الإسلام .

فكان النبي إذا جلس في المسجد يجلس اليه المستضعفون من اصحابه مثل: صهيب الرومي وعمّار بن ياسر وبلال وسلمان الفارسي وخباب بن الأرت وغيرهم من ضعفاء المسلمين وفقرائهم فيراهم اشراف قريش فيقولون لمحمد : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا بالإيمان بك ؟ انقتدي بهؤلاء العبيد والموالي ؟ إنّا لنستحي أن نأتيك فنجلس معهم ، اطردهم عنك فلعلنا نتبعك إن طردتهم ، فقال لهم النبي : ما انا بطارد المؤمنين ، فقالوا : فنحّهم عنا إذا جئنا وابعدهم عنك متى حضرنا ، فمال النبي الى تحقيق رغبتهم طمعاً في إسلامهم ، فأنزل الله عليه قوله :

﴿ ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يُريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ اليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ ﴾ الانعام : ٥٢، ٥٣ .

في هذا النص القرآني نهى الله رسوله محمداً عن طرد هؤلاء المستضعفين الذين يعبدون ربهم طرفي النهار ، ثم ردّ الله على هؤلاء الأشراف الذين طعنوا

في هؤلاء المستضعفين بمخاطبة محمد بأنه لا يؤخذ هو بحسابهم ولا هم يؤخذون بحسابه ، فكلٌ مسؤول عن نفسه امام الله ، فإن طردهم يكن من الظالمين .

وأخيراً علل الله أقوال هؤلاء الأشراف الذين قالوا : كيف يمكن ان يختص الله هؤلاء المستضعفين بالخير من بينهم بقوله : انه هو أعلم بالذين يشكرون فضله ونعمه .

فالاسلام سوّى بين الطبقات وألغى جميع الامتيازات التي كانت للأشراف ، فلا فرق عنده بين مولى وسيّد وغني وفقير ، فالكل أمامه سواء لا يتفاضلون إلا بالإيمان والتقوى والعمل الصالح .

هذا وقد حالت نزعة حب العظمة والرئاسة والجاه لدى بعض رجالات قريش دون الاستجابة لدعوة الإسلام .

فهذا الوليد بن المغيرة يقول : أيُنزّل على محمد (أي القرآن) وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيّد قبيلة ثقيف ونحن عظيما القريتين ، فأنزل الله في ذلك :

﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين[1] عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ الزخرف : ٣١، ٣٢ .

والمعنى : هل لهؤلاء ان يقسموا النبوة ويضعوها حيث شاءوا ؟ فالأمر كله لله فهو الذي يتولى تدبير معيشتهم ويفضل بعضهم على بعض في الرزق والمكانة ليتخذ بعضهم من بعض أعواناً يسخرونهم في قضاء حوائجهم حتى يتساندوا في طلب الرزق وتنظيم الحياة، ثم عقب الله على هذا بقوله: ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ قول رائع يحمل في طياته أسمى معاني التجرد والإخلاص لله والترفع عن مغريات الحياة ومفاتنها ، قولٌ فيه العزاء والسلوى لكل من سلبته الحياة نعمها ، أليست الحياة عطاء من الله والمرجع له وحده ؟ فيحاسب الناس على اعمالهم ، ما قيمة المال والجاه إذا كان في ذلك إبعاد للانسان عن خالقه ؟ متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى .

---

(١) القريتان : المراد بهما مكة والطائف .

وحادثة أخرى تظهر لنا عطف الاسلام واهتمامه بالضعفاء : فبينما كان رسول الله مع كبراء قريش واشرافهم يتألفهم ويدعوهم الى الاسلام إذ أقبل عليه عبد الله ابن ام مكتوم الأعمى (وهو ممن أسلم قديماً) ورسول الله مشتغل بالقوم، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في اسلامهم ، فقال له عبد الله ابن ام مكتوم : يا رسول الله علمني مما علمك الله، واكثر عليه القول ، فشق ذلك على رسول الله، وكره قطعه لكلامه، وخاف ان يكون التفاته لذلك المسكين منفراً لقلوب أولئك الأشراف، فعبس في وجهه واعرض عنه ، فعاتبه الله على ذلك بقوله :

﴿ عَبَسَ وتولّى . ان جاءه الأعمى . وما يُدريك لعله يزكّى . او يذكّرُ فتنفعه الذكرى . أمّا من استغنى فأنت له تصدّى . وما عليك ألاّ يزكى . واما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾(1) .

فهذا العتاب الالهي من اعظم الدلائل على كون القرآن وحياً الهياً وعلى صدق نبوة محمد ، فلو كان محمد من عظماء الرجال فقط دون ان يكون نبياً ، وكان القرآن من تأليفه – كما يدّعي اعداؤه – لما سمح ان تُعرض اخطاؤه على انظار الخاص والعام ! ولما رضي ان يقول إن هذا العتاب وحي الهي ! فقد كان في استطاعته ان يعتذر لابن ام مكتوم بأنه كان يرجو هداية اولئك الضالين ، وكل اصحابه يتلقون هذا العذر بقبول حسن ، ولكن الله أراد ان يعلم المسلمين ان للنفوس المؤمنة الطاهرة أفضلية على النفوس الطاغية ولو كانت ذات عاهة ، فليس لأحد ان يعبس ويعرض عن نفس ضعيفة تطلب الخير ملتفتاً عنها الى نفس قوية سيطر عليها الضلال والكبرياء .

ومن الجدير بالذكر انه رُوي ان رسول الله كان اذا اقبل عليه عبد الله ابن ام مكتوم يقول له : مرحباً بمن عاتبني به ربي ، ولما خرج رسول الله لغزوة أُحُد أمر عبد الله بن ام مكتوم ان يؤم المسلمين للصلاة مكانه، وهذه لفتة رائعة من تصرف الرسول في إلغاء امتيازات الأشراف .

---

(1) والمعنى : عبس النبي واعرض حين جاءه الأعمى، وما يعرفك بحال هذا الأعمى لعله يتطهر من الاثم او يتعظ فتنفعه موعظتك ، أما من استغنى بثروته وقوته فأنت تقبل عليه ، ولكن لا شيء عليك في ان لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام ، وأما من جاءك يسعى لطلب العلم والهداية وهو يخاف الله فأنت عنه تتشاغل.

وليمتحن الله ايمان من آمن وليظهر فضله على رسوله أراه من آياته الكبرى وكان ذلك في الإسراء .

فالله سبحانه سيّره ليلاً من المسجد الحرام في مكة الى المسجد الأقصى في القدس الذي بارك حوله ليريه من آياته ، كما قال تعالى :

﴿سبحان الذي اسرى[١] بعبده [٢] ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد[٣] الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ .

ولما وصل رسول الله بهذه السرعة القصوى الى بيت المقدس وجد فيه ابراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء فأمّهم رسول الله للصلاة ، ثم أتي له بإناءين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، فأخذ رسول الله إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : هُديت للفطرة وهديت امتك يا محمد، وحُرّمت عليكم الخمر .

ومن بيت المقدس انتقل النبي الى السماء — فكان المعراج — وهناك فُرِضَ عليه وعلى أمته الصلوات الخمس في اليوم والليلة ، ثم عاد رسول الله الى مكة، وجرى ذلك كله في ليلة واحدة .

وعند طلوع النهار أخبر رسول الله قومه بما رأى وشاهد فصدّقه بعض افراد قريش وكذّبه آخرون، وارتد أناس ممن كان آمن به من ضعاف الإيمان، وسعى رجال الى ابي بكر وطلبوا رأيه فقال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسُمي من ذلك اليوم صدّيقاً .

ثم اراد الكفار ان يمتحنوا رسول الله فسألوه وصف بيت المقدس وفيهم رجال رأوه فوصفه لهم موضعاً موضعاً فقالوا لبعضهم : لقد اصاب ، ثم طلبوا منه ان يخبرهم عن ابل تحمل تجارة لهم قادمة من سوريا فأخبرهم عن

---

(١) اختلف العلماء في كيفية ذلك الاسراء، فالأكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على انه أسري بجسد رسول الله ، والأقلون قالوا: إنه ما أسري إلا بروحه .

(٢) بعبده : اي محمد .

(٣) المسجد : لفظة مأخوذة من الفعل سجد ، فالمسجد موضع السجود ، وحين أسري بالرسول لم يكن في ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الأقصى وانما سمي في الآية بالمسجد لأنه مكان العبادة .

عددها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يتقدمها جمل لونه بين البياض والسواد ، فظلوا ينتظرونها حتى جاءت كما وصف ، فلم يزدادوا إلاّ كفراً وعناداً .

بدء الاسلام بمدينة يثرب

ولما رأى رسول الله ان قريشاً لم تستجب لدعوته ولم يؤمن منها إلاّ القليلون راح يخرج في مواسم العرب يعرض دعوته على القبائل، فكان منهم من يردّه ردّاً قبيحاً ، ومنهم من يرده ردّاً حسناً ، وممن عرض رسول الله نفسه عليهم نفر من عرب (يثرب)[1] فقال لهم رسول الله لما لقيهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج، قال: أمِنْ موالي اليهود[2] ؟ قالوا : نعم ! قال رسول الله : أفلا تجلسون حتى أكلمكم ، قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم الى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

فلما كلّم رسول الله اولئك النفر قال بعضهم لبعض : تعلمُنّ والله إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود[3] فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله ان يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

---

(١) يثرب : سميت بعد الاسلام : المدينة (أي مدينة رسول الله) واليوم يطلق عليها اسم (المدينة المنورة) .

(٢) موالي اليهود : حلفاؤهم .

(٣) كان يسكن مدينة يثرب قبل بعثة محمد : قبيلتا الأوس والخزرج وطوائف من يهود ، وكثيراً ما كانت تستعر الحرب بين العرب واليهود ولكن اليهود ، ارتأوا عدم مقابلة العرب وجهاً لوجه بل أثاروا العداوة بين الأوس والخزرج وما زالت تشتد بينهما حتى اقتتلوا في يوم يسمى : (يوم بُعاث) فوقع فيه كثير من الضحايا في الأرواح، ثم وقعت بينهما هدنة حالفت الخزرج فيها اليهود وأخذت الأوس تلتمس الحلف عند العرب .
وقد كان لجوار اليهود للعرب اثر روحي فقد كان اليهود أهل كتاب إلهي ودعاة وحدانية ولكن خالطها الشرك ودخل عليها البدع . وقد كان اليهود ينذرون العرب بقولهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

رجع هؤلاء النفر من الخزرج الى مدينة يثرب، وذكروا لقومهم ما شاهدوه عن رسول الله وما دعاهم به الى الإسلام فاستجاب الكثير لهذه الدعوة حتّى انه لم تبق دار إلاّ وفيها ذِكْرٌ لرسول الله.

اهالي يثرب يعاهدون النبي

مر عام وجاء موسم الحج فأقبل اثنا عشر رجلاً من أهالي (يثرب) الى مكة فالتقوا برسول الله عند مكان يسمى: (العقبة) وبايعوه (أي عاهدوه) على: ألاّ يشرك احدهم بالله شيئاً، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يقتل اولاده، ولا يأتي ببهتان يفترّيه بين يديه ورجليه، ولا يعصيه في معروف، فإن وفى فله الجنة وإن غشي[1] من ذلك شيئاً... فأمره الى الله إن شاء عذّب وإن شاء غفر.

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي هذه البيعة قَدِمَ من يثرب الى مكة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، ولما قابل وفدُهم رسول الله وَعَدَ بمقابلتهم ليلاً عند (العقبة) وامرهم ان لا ينبهوا في ذلك الوقت نائماً وان يتسللوا خفية حتّى لا تطّلع قريش على هذا الأمر.

وبعد مضي ثلث الليل تسللوا الى (العقبة) فاجتمعوا برسول الله ومعه عمه (العباس بن عبد المطلب) ــ وكان على دين قريش ــ الذي خاطب القوم قائلاً: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مِثْلِ رأينا، وهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلاّ الانقطاع اليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون انكم مُسلموه وخاذلوه[2] بعد الخروج اليكم فدعوه فإنه في عز ومنعة[3] من قومه وبلده، فقالوا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما احببت، فتكلم رسول الله فتلا القرآن، ودعا الى الله، ورغّب في الاسلام، ثم قال: (بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر،

---

(١) غشي: فعل.
(٢) خذل: تخلى عن مساعدته ونصرته.
(٣) المنعة: العز، العدة.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان تقولوا في الله لا تخافون فيه لومة لائم ، وعلى ان تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه انفسكم وأزواجكم وابناءكم ، ولكم الجنة) فبايعه القوم على ذلك ، ثم قال رسول الله : اخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً [1] يكونون قوّامين على قومهم بما فيهم ،فأخرجوا اثني عشر نقيباً ، فقال رسول الله للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي .

ثم انصرفوا الى يثرب فانتشر الإسلام فيما بين اهلها انتشاراً كبيراً .

---

(١) النقيب : كبير القوم وعريفهم وسيدهم .

الفَصْلُ الخَامِسُ

هِجْرَةُ النَّبِيِّ

التآمر على حياة النبي – النبي في بيت أبي بكر – نجاة النبي – البحث عن النبي – وقاية الله للنبي – وصول النبي الى قباء – خطبة للنبي – النبي في يثرب – المؤاخاة بين المهاجرين والانصار .

التآمر على حياة النبي

بعد ان انتشر الإسلام في يثرب دعا النبي مسلمي مكة الى الهجرة منها لازدياد الأذى عليهم ، فصاروا يتسللون خفية خوفاً من ان تمنعهم قريش إن هم خرجوا علانية ، ولم يبق في مكة إلاّ القليل منهم .

ظل النبي بمكة بعد هجرة اصحابه منها ينتظر ان يؤذن له في الهجرة ، وقد أرشده الله ان يدعو بهذا الدعاء ليجلب السكينة الى نفسه :

﴿ وقل رَبِّ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾ .

ولم يتخلف مع النبي بمكة أحد من المؤمنين إلاّ اضطهد وحبس سوى عليّ ابن ابي طالب وابي بكر ابن ابي قحافة .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن النبي في الهجرة ، فيقول له النبي : لا تعجل لعل الله يجعل الله لك صاحباً ، فطمع أبو بكر أن يكون النبي ذلك الصاحب فاشترى لذلك راحلتين[1] وجهزهما استعداداً للهجرة .

ولما رأت قريش ان محمداً قد صار له شيعة وانصار في يثرب ، وأن من آمن به من أهل مكة قد خرجوا اليهم ، وعرفوا انه لا محالة لاحق بهم ، اجتمعوا

---

(١) الراحلة : الجمل الصالح للأسفار والاحمال .

في (دار الندوة) وراحوا يتشاورون فيما يصنعون في أمره ، فاقترح بعضهم اخراجه من ارضهم ، واشار آخرون بحبسه ، واقترح (ابو جهل) قتله بطريقة تمنع عشيرته من الثأر من قاتليه ، وذلك بأن تختار كل قبيلة فتى شاباً جلداً ذا نسب ثم يُعطَى كل واحد منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون اليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل فلا تقدر عشيرته على الثار منهم جميعاً ، ويرضون عندئذ بالدّية[1] التي تقدم لهم. وتفرق القوم وهم مجمعون على الرأي الأخير هذا .

أتى المَلَك جبريل الى النبي ونبهه الى ائتمار القوم به ودعاه ان لا يبيت في فراشه هذه الليلة .

النبيّ في بَيت ابي بكر

تقول عائشة : كان رسول الله لا يخطىء ان يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية حتّى إذا كان اليوم الذي أُذِنَ فيه لرسول الله في الهجرة والخروج من مكة بين ظهري قومه أتانا رسول الله بالهاجرة[2] في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلما رآه ابو بكر قال النبي : إن الله قد أذِنَ لي في الخروج والهجرة ، فقال ابو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال : الصحبة (أي سأصاحبك) تقول عائشة واصفة شعور وَالدها : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم ان أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت ابا بكر يبكي يومئذ ، ثم قال : يا نبي الله ، إن هاتين راحلتـــان قد أعددتهما لهذا . ثم استأجرا دليلاً اسمه عبد الله بن اريقط ليدلهما على الطريق .

نجاة النبي

ولما كانت عتمة من الليل اجتمع فتيان قريش على باب بيت النبي يترصدونه حتى ينام فيثبون عليه لقتله . فلما رأى النبي مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب : نم على فراشي وتسجّ[3] ببردي[4] هذا الحضرمي[5] الأخضر فنم فيه فإنه لن

(١) الدية : ثمن دم القتيل ، وهو مال او نحوه يعطيه القاتل او احد ذويه الى ولي القتيل .

(٢) الهاجرة : نصف النهار في الحر الشديد من زوال الشمس الى العصر .

(٣) تسجى بالثوب : غطى به جسده ووجهه .

(٤) البرد : ثوب مخطط يلتحف به .

(٥) الحضرمي : منسوب الى حضرموت

يخلص إليك شيء تكرهه ، وأمرَهُ بردّ ودائع الناس التي كانت عنده، فقد كان كثير من اهالي مكة يضعون عنده ودائعهم لما يُعرف من صدقه وأمانته.

خرج رسول الله من بيته وقد اخذ الله تعالى على ابصار الفتيان فلا يرونه . ثم قصد الى دار ابي بكر للهجرة معاً، وقد عزما على اللجوء الى غار ثور للتخفي فيه .

أمر ابو بكر قبل الرحيل ابنه عبد الله ان يتسمع ما يقول الناس فيهما في النهار ، ثم يأتيهما إذا امسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر فتاه عامر بن فهيرة ان يرعى غنمه نهاره ثم يسوقها في المساء الى الغار ليشربا من البانها ، ثم خرج مع رسول الله من خوخة [1] في ظهر الدار زيادة في التخفي ميممين وجههم نحو الغار .

وهكذا نجا رسولُ الله من مؤامرة القتل، وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك[2] او يقتلوك او يخرجوك [3] ويمكرون ويمكر الله[4] والله خير الماكرين﴾ الأنفال : ٣٠ .

البَحث عن النبي

ويطلع النهار ويكتشف كفار قريش ان محمداً قد أفلت من أيديهم وأن الذي كان في فراشه هو عليّ بن ابي طالب [5] فكانت مفاجأة لهم أذهلت عقولهم. فحدّدوا مكافأة سخية قدرها مائة من الإبل لمن يردّه عليهم . فينطلق الطامعون في البحث عنه في كل الجهات ، ويؤدي اقتفاؤهم أثر محمد الى الصعود الى الجبل الذي لجأ اليه وصاحبه ، والمرور على باب الغار الذي دخلاه فتحاذي أرجلهم مدخل الغار ولا يرونهما حفظاً من الله لهما فيقول أبو بكر لرسول الله : لو أن احدهم نظر الى موطىء قدميه لأبصرنا ، فيجيبه رسول الله : (يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما) .

---

(١) الخوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين .

(٢) ليثبتوك : ليوثقوك ويحبسوك .

(٣) يخرجوك : اي يخرجوك من مكة .

(٤) ويمكر الله : يدبر الله ما يحبط به مكايدهم .

(٥) هذا موقف من علي بن ابي طالب فيه غاية الفداء والاخلاص لرسول الله ، فقد عرض حياته للخطر في سبيل نجاته .

وينظر الى ابي بكر وقد بدا الحزن والاضطراب على وجهه فيحاول ان يخفف بعض ما به فيجيبه ابو بكر : (اما والله لست على نفسي حزينًا ولكن مخافة ان ارى فيك ما اكره) فيقول له الرسول : (لا تخف إن الله معنا) وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجَهُ الذين كفروا ثاني اثنين إذ هُما في الغار إذْ يقولُ لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل اللهُ سكينته عليه وايّده بجُنودٍ لم تَرَوْها وجعل كلمة الذين كفروا السُفلى ، وكلمةُ الله هي العُليا والله عزيز حكيم ﴾ التوبة : ٤٠ .

وقضى رسول الله وصاحبه ثلاثة ايام في الغار يئست في اثنائها قريش من العثور عليهما، ثم أتاهما الدليل بالراحلتين وسلك بهما طريقاً غير مألوف من ناحية الساحل قاصدين (يثرب) ، وكانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته، وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وخمسين سنة .

وقاية الله للنبي

وكان بين الذين انطلقوا للبحث عن رسول الله طمعاً في الجائزة رجل اسمه : (سراقة بن مالك بن جعشم) وقد أخبره رجل من قريش انه رأى ثلاثة رجال متجهين الى (يثرب) .

وكان سراقة رجلاً قوي البنية ، معروفاً بالشجاعة فلبس درعه دون ان يشعر به احد ، وامتطى صهوة جواده ، وانطلق يطارد الرجال الثلاثة لعله يجد بينهم محمداً فيحظى بالجائزة .

رأى ابو بكر فارساً مدججاً بالسلاح يقترب منهما فأفزعه ذلك ، أما رسول الله فكان يسير سير المطمئن، وكان دائم الدعاء لا يفتر عن قراءة القرآن ، وبينما كان سراقة يجدّ السير إذ كبت به فرسه وألقته على الأرض فقام من جديد يحاول اللحاق بهما ، وحين أوشك ان يصل اليهما كبت به الفرس مرة أخرى وساخت قوائمها حتى الركب في الأرض ، وألقته بعيداً يتدحرج عن سلاحه وفرسه ، وهنا تطيّر (سراقة) وادرك انه فاشل في محاولته وقال عن نفسه : إنه أُلقي في روعه ان محمداً سيظهر أمره وينتصر ، فألقى اليهما بالأمان وطلب الى محمد ان يكتب له كتاب أمن يكون آية بينهما ، فأمر رسول الله

عامر بن فهيرة فكتب له هذا الكتاب فأخذه وعاد ادراجه ، وأخذ يضلل من يطاردون رسول الله بعد ان كان هو الذي يطارده ، فلما ظهر له ان رسول الله قد وصل الى (يثرب) جعل (سراقة) يقص على الناس ما جرى له مع النبي.

وصول النبيّ الى (قباء)

ترامى الى مسامع اهل (يثرب) نبأ هجرة النبي فصاروا ينتظرون مقدمه كل صباح في مشارفها ، حتّى إذا حميت عليهم شمس الظهيرة وقطعوا الأمل من وصوله في ذلك اليوم عادوا ادراجهم .

وأمضى النبي في الطريق حوالي ثمانية أيام في قيظ محرق حتّى وصل الى الى موضع يُقال له (قباء): على بعد ستة أميال من (يثرب)، وكان في استقباله رهط من انصاره بسلاحهم خوفاً عليه من الأعداء .

ونزل النبي في ضيافة بني عمرو بن عوف واقام عندهم بضعة عشر يوماً ، وفي هذه الأثناء أسّسَ النبي أول مسجد في الاسلام، وقد عُرِفَ بمسجد (قباء) والى هذا المسجد يشير القرآن في قوله تعالى :

﴿لمسجد أُسّس على التقوى من أول يوم احق ان تقوم فيه ، فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ وقد اشترك النبي مع اصحابه في بنائه.

خطبة للنبي

ثم ارتحل النبي من قباء وذلك يوم الجمعة قاصداً (يثرب) وانصاره محيطون به، فأدركه وقت زوال الشمس وهو في مسكن بني سالم بن عوف في واد يقال له: (وادي رانوناء) فصلى الجمعة هناك وخطب فيهم هذه الخطبة :

الحمد لله احمده وأستعينه ، واستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا اكفره ، واعادي من يكفره، واشهد ان لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهُدى ودين الحق والنور والموعظة، على فترة من الرسل ، وقلّة من العلم ، وضلالةٍ من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودُنوٍ من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يُطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن

يعصهما فقد غوى[١] وفرّط[٢] ، وضل ضلالاً بعيداً . واوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ ، ان يحُضّه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا افضل من ذلك ذكراً ، وإن تقوى الله لمن عَمِلَ به على وَجلٍ ومخافة من ربه عَوْنُ صدْقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية لا ينوي بذلك إلاّ وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وَذُخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يَوَدّ لوْ أن بينها وبينه امداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله وانجز وعده لا خُلف لذلك، فإنه يقول عزّ وجل ﴿ما يُبَدّل القول لديّ وما انا بظلاّم للعبيد﴾ فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السرّ والعلانية، فإنه ﴿ من يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويُعظم له أجْراً﴾ ﴿ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾. وإن تقوى الله تُوقي مقته ، وتوقي عقوبته ، وتوقي سخطه ، وإن تقوى الله تبيّض الوجوه وترضي الرب وترفع الدرجة .

خذوا بحظّكم ، ولا تفرّطوا في جنب الله ، قد علّمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا كما احسن الله اليكم ، وعادوا اعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين ليهلك من هَلَكَ عن بيّنة ، ويحيا من حيّ عن بيّنة ، ولا قوة إلاّ بالله. فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه، ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم[٣] .

النبي في يثرب

وبعد تأدية صلاة الجمعة تابع النبي مسيره حتى وصل الى يثرب فخرج أهلها لاستقباله وهم يقولون : (الله اكبر ، جاء رسول الله ، الله اكبر جاء

(١) غوى : ضل ، هلك .

(٢) فرط : قصر ، انقص .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير – وتاريخ الطبري.

محمد) وجعل النساء والصبيان ينشدون ترحيباً به :

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع[1]
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكان يوماً مشهوداً بالبهجة والفرح لم تشهد له المدينة مثيلاً في تاريخها ، هذا وقد طمع كل صاحب بيت ان يقيم النبي في بيته ، ولكن النبي القى لناقته خطامها تاركاً إياها تمضي على هواها، وقال للحشود المتلهفة المتحلقة من حوله: (دعوها فإنها مأمورة) أي انه سوف ينزل حيث تبرك ناقته ، ومضت في سبيلها حتى وصلت الى مربد[2] قبالة منزل ابي ايوب الأنصاري، وهناك بركت، وكان المربد لغلامين يتيمين فاشتراه رسول الله من وليهما وشيّد فيه المسجد الذي يُعرف اليوم بالحرم النبوي الشريف – هـذا المسجد أعيد بناؤه عدة مرات الى الآن – ونزل رسول الله في ضيافة أبي أيوب الأنصاري في جوار المسجد ريثما يُبنى ويُقام بيته بجواره .

وقد عمل رسول الله في بناء المسجد ليرغّب المسلمين في العمل، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا في بنائه ، وجعل ينقل معهم الحجارة بنفسه ويقول :

اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة

وبنى رسول الله بيته ملاصقاً المسجد وسكن فيه .

ولما استقر رسول الله في المدينة أرسل في طلب من تخلف من أهله فجاءوه وخرج معهم عبد الله بن ابي بكر في عيال ابيه ، ومنع مشركو مكة بعض المسلمين المستضعفين من الهجرة وحبسوهم وأذاقوهم ألواناً من العذاب .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وفي يثرب بدأ تاريخ الدعوة الإسلامية بأدوار جديدة هي : دور الهداية، ودور التنظيم، ودور النصر .

كان في هذه المدينة في بدء الهجرة طوائف مختلفة من السكان : أولها المسلمون الذين أجابوا الدعوة وآمنوا برسالة محمد وسماهم النبي : الأنصار ،

---

(١) ثنيات الوداع : اسم مكان .
(٢) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

ثم المهاجرون الذين فرّوا من مكة الى المدينة ، ثم اليهود ، واخيراً الوثنيون الذين ظلوا على اشراكهم بالله . ومع هذا التعدد كانت توجد بين اهل المدينة الأصليين أحقاد متأصلة في النفوس ، كثيراً ما أدت الى الحرب فيما بينهم. كان لا بد من تدبير اساسي يوحّد بين هذه النزعات المختلفة في هذا المجتمع المتفكك ، فأول نشاط كان لرسول الله هو تدبير حياة هؤلاء المهاجرين فقد كان معظمهم خلال مقامهم في مكة يحيون في رغد وسعة ، وقد اضطروا ان يتركوا ثرواتهم فراراً بدينهم .

والحل الذي فعله رسول الله هو عقد اخوة بين الأنصار والمهاجرين ، فقال لهم : (تآخوا في الله اخوين اخوين)، لقد كانت مؤاخاة في الدين بها يتناصرون ويتعاونون على مصاعب الحياة ، ويتوارثون كما يتوارث الاخوة في النسب[1] ، فآوى كل انصاري اخاً من المهاجرين واظهر له من كرم الضيافة ما يثير الاعجاب . ومن الأمثلة على ذلك : ان عبد الرحمن بن عوف لما قدم المدينة آخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فقال له سعد : أي أخي ، أنا اكثر اهل المدينة مالاً فانظر شطر[2] مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيهما اعجب اليك حتى اطلقها . فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك في اهلك ومالك، دلوني على السوق، فدلوه فذهب واشترى وباع فربح وحسن حاله وتزوج امرأة من الانصار .

وقد اثنى الله على الأنصار لحسن ما عاملوا به اخوانهم المهاجرين بقوله : ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ الحشر : ٩ .

كما أثنى الله على الأنصار والمهاجرين معاً مبشراً لهم بأعظم ما تطمح اليه النفس بقوله :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي

---

(١) دام هذا الميراث الى ان نزل قوله تعالى: (واولو الأرحام بعضهم اولى ببعض) وانتقل بذلك الميراث الى الأقارب الذين نص عليهم القرآن .

(٢) شطر : نصف .

الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً، ذلك الفوز العظيم﴾ التوبة : ١٠٠ .

بهذه الأخوة الدينية جمع رسول الله بين القلوب ، ونظم احوال المهاجرين الفقراء ، إنها مظهر رائع من مظاهر التكافل الاجتماعي غرسها الإسلام في قلوب اتباعه للتوفيق بين الطبقات وتوثيق العرى فيما بينهم .

وبعد ذلك عمد رسول الله الى الاتفاق مع اليهود فكتب معاهدة مفصلة بينهم وبين المهاجرين والأنصار ، تقرّرت فيها وحدة صف المسلمين ، وانهم امة واحدة ، كما قرّر في هذه المعاهدة: حرمة الأنفس، وحرمة الأموال، وحرمة المدينة، وقد عاهد اليهود فيما عاهدهم عليه، ان لهم دينهم وللمسلمين دينهم، وان ما يحدث بين اهل هذه المعاهدة من حدث او شجار يخاف فساده فإن مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله .

بهذه المعاهدة والمؤاخاة بين المسلمين هدأت حالة المدينة وسكن المسلمون الى دينهم يقيمون فرائضه لا يخافون فتنة ولا أذى .

القِسْمُ الثَّاني

محمد ﷺ

جهادُه في سبيل الدّعوة

١ ـ غزوة بدر الكبرى

٢ ـ غزوة أحُد

٣ ـ معاهدة الحُديبية

٤ ـ كتب النبي إلى الملوك والرؤساء

٥ ـ فتح مكّة

٦ ـ أيامه الأخيرة

الأمر بالجهاد :

ظل محمد ﷺ ثلاث عشرة سنة يتلقى صنوف الأذى هو واتباعه من كفار قريش، وكان القرآن ينزل عليه يوضّح له مهمته ، ويحدّد له سلوكه مثل قوله تعالى :

﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ .

ولما ازداد طغيان الكافرين وائتمروا على قتله – كما مرّ معنا – هاجر من مكة حيث لحق بالمهاجرين الذين سبقوه الى يثرب .

وبعد هجرة محمد وأصحابه الى يثرب تغيّرت معاملة أهل مكة للمسلمين الباقين في مكة الذين لم يجدوا سبيلاً للحاق بإخوانهم المهاجرين ، فبعد ان كانت حوادث عدوانهم عليهم قبل الهجرة حوادث فردية متفرقة ، وكان يلطف من عنفها – في غالب الأمر – مقام محمد وعظماء اصحابه بين ظهرانيهم ، اخذوا حين خلا لهم الجو مهاجمة جموعهم ، والتنكيل بهم ، وما زال طغيانهم عليهم يزداد يوماً بعد يوم حتى عيل صبرهم ، واخذوا يجأرون الى الله مستغيثين به وعندها أذِنَ الله للمؤمنين بالجهاد ، وأمر المهاجرين والأنصار بأن يهرعوا لإغاثة اخوانهم المؤمنين المستضعفين في مكة ، قال تعالى :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يُحبّ المعتدين. واقتلوهم حيث ثَقِفْتُموهم وأخرجوهم مِنْ حَيْثُ أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ﴾ البقرة : ١٩٠ – ١٩١ .

﴿ وما لكم لا تُقاتلون في سبيل الله والمستضعفين مِن الرجال والنساء والوِلدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا مِنْ هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً ﴾ النساء : ٧٤، ٧٥ .

هذه الآيات تبين ان الدافع لاباحة القتال هو اخراج المؤمنين من ديارهم بغير حق ، ولرد الاعتداء عليهم ولنصرة اخوانهم المستضعفين في مكة .

قطع طريق التجارة على قريش :

كان من عادة قريش ان تتبادل مع الشام المحصولات الزراعية والمصنوعات ، ولم يكن الوصول الى الشام ممكناً إلا من طريق يثرب .

فأول ما ارتآه النبي من وسائل التصدي للكفار هو إيصاد طريق التجارة الخارجية في وجوههم ، ومصادرة تجارتهم وفي ذلك عقاب لهم واضعاف لقوتهم المالية فيكون ادعى لانهزامهم في ميادين اخرى . وقد جرت في هذا السبيل عدة محاولات وكل محاولة اطلق عليها اسم (غزوة) هذا إذا كانت بقيادة النبي ، أما إذا كانت بقيادة غيره فقد أطلق عليها اسم (سرية) وهذه المحاولات لم يكتب لها النجاح عسكرياً في أكثرها وسقط فيها بعض القتلى ولكن نتائجها السياسية والمعنوية كانت بعيدة المدى عظيمة الاثر .

ونحن في هذا البحث الموجز سنقتصر على ذكر بعض الغزوات التي يظهر فيها جهاد النبي والمؤمنين في اروع صورة من صور التضحية ، هذه التضحية التي ترتكز على الايمان القوي بالله والرغبة الصادقة في بذل الروح في سبيل نشر دينه وتحقيق مرضاته وقد كان من المؤمنين ما وصفهم الله :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ .

(١) كان عدد مغازي النبي التي قادها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، وعدد سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سرية ، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات : بدر الكبرى وأحُد ، والمصطلق ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف .

الفصل الأوّل

غزوة بدر الكبرى

وراء القافلة — افلات القافلة — استطلاع اخبار القافلة — المسلمون في بدر — الاستعداد للمعركة — انتصار المسلمين .

وراء القافلة

علم النبي ان قافلة تجارية كبيرة لقريش قادمة من الشام في طريقها الى مكة، وكان على رأسها ابو سفيان، ويحرسها ثلاثون او أربعون رجلاً، فاعتزم النبي ان يعترض طريق هذه القافلة فيصادرها ليفجع قريشاً في أموالها، فندب أصحابه للخروج معه للاستيلاء عليها، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وهو عدد يكفي لما هو بسبيله فاكتفى بهم، وسلك الطريق المؤدية الى بدر . وكانت «بدر» تمر عليها القوافل التي تقصد طريق الساحل من سوريا الى مكة، والمسافة بين «يثرب» و «بدر» تزيد على ١٦٠ كيلومتراً، وكان عدد الدواب التي اتخذوها لركوبهم فرسين وسبعين بعيراً يتناوبون في الركوب عليها، فكان نصيب النبي مع علي بن ابي طالب ومرثد بن ابي مرثد الغنوي بعيراً واحداً يمشي البعض ويستريح البعض، فقال صاحبا النبي : (نحن نمشي عنك) فقال: (ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عَن الأجر منكما)، وأراد بذلك أيضاً المساواة مع أي فرد من قواته .

افلات القافلة

وصل الى اسماع ابي سفيان خبر خروج النبي للاستيلاء على قافلته، فأرسل أحد رجاله الى قريش بمكة يعلمهم الخبر، واتبع هو طريقاً غير طريق القوافل رجاء أن يفلت مِمّن يترصدونه، وسارع رجالات قريش الى نجدته فخرجوا تحت قيادة كبرائهم في تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائة فرس وسبعمائة

بعير محملة بالزاد والسلاح . وبينما هم في الطريق وَصَلَهم رسول من أبي سفيان يخبرهم بنجاته هو وقافلته ، ويطلب اليهم الرجوع ، ولكن أبا جهل تحمس للحرب وأبى إلاّ ان يتقدم ويتابع مسيره فصاح قائلاً : (والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيم عليها ثلاثاً، فننحر الجُزُر [1] ونطعم الطعام ، ونُسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان [2] وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها)، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بَطَراً ورئاء الناس ﴾ الانفال : ٤٧ .

تردّد القوم فرجع بعضهم واتبعت سائر قريش رأي أبي جهل ومضوا في طريقهم حتّى وصلوا الى وادي بدر ونزلوا في الجانب الأبعد منه .

استطلاع أخبار القافلة

انطلق المسلمون مسرعين خوفاً ان تفلت القافلة منهم وهم يحاولون حيثما مرّوا ان يقفوا على أخبارها حتّى أتوا «وادي ذفران» فنزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر ان قريشاً قد خرجت من مكة في جيش كبير للدفاع عن أموالها ، إذ ذاك تغيّر وجه الأمر فلم يكن قاصراً على ملاقاة قافلة قليلة العدد ، بل جيش كبير لم يأخذوا العدة لملاقاته .

استشار النبي جيشه وأُخبرهم بأن الله اوحى اليه ووعده احدى الطائفتين: (قافلة التجارة ، او جيش قريش)، فتبين له ان البعض كان يميل الى الاستيلاء على القافلة فقط ، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم انه مقدم على القتال ليأخذوا له عدّته، فأنزل الله في ذلك قرآناً يعاتبهم :

﴿وإذ يَعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم، وتودّون ان غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ الانفال ٧ .

أي انكم طلبتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه العزّة والقوة لكم .

أما ابو بكر وعمر بن الخطاب فقالا كلاماً كله ايمان واظهرا استعدادهما للتضحية وكذلك فعل المقداد بن عمرو الذي قال للنبي : (يا رسول الله امض

---

(١) الجزر : مفردها جزور وهي الواحد من النعم والماعز .

(٢) القيان : مفردها قينة وهي الجارية المغنية .

لما اراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب انت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنّا معكما مُقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سِرْتَ بنا الى بَرْك الغِماد [1] لجالدنا [2] معك من دونه حتّى تبلُغه) .

فقال له رسول الله خيراً ودعا له ، ثم التفت الى رجاله— وهو يريد أهل يثرب — لأن العهد الذي اخذه عليهم قد يفهم منه انه لا تجب عليهم نصرته إلاّ داخل المدينة نفسها ، فقال له « سعد بن معاذ » سيّد الأوس : (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال : أجل ، فقال سعد : (فقد آمنّا بك وصدّقناك وشَهِدنا أنّ ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطاعة ، فامضِ يا رسول الله لِمَا اردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف مِنّا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنّا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ في اللقاء ، لعل الله يريك مِنّا ما تقرّ به عينك فسِرْ على بركة الله) .

فأشرق وجه النبي لهذا الكلام وسُرَّ به ثم قال : (سيروا وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم) .

المسلمون في بدر

ثم ارتحل المسلمون حتّى إذا كانوا على مقربة من « بدر » انطلق محمد على بعيره حتّى صادف شيخاً من العرب فعرف منه ان جيش قريش قريب منه ، ثم أرسل بعضاً من أصحابه للاستطلاع فظفروا بغلامين لقريش يستقيان من ماء بدر فعلم النبي منهما عن مكانهم وعدد جنودهم .

نزل المسلمون من وادي بدر في الجانب الأدنى بعيداً عن الماء في أرض سبخة[3] فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم فكادت تتثبط عزائمهم وهم قريبو عهد بالإسلام ، كما أن الإرهاق قد أخذ منهم مأخذه ، فأخذتهم سِنَةٌ من النوم ثم جادت عليهم السماء بمطر مدرار فشربوا منه ، واغتسلوا واتخذوا

---

(١) برك الغماد : قال الهمذاني : هو في اقصى اليمن .

(٢) جالدنا : قاتلنا بشدة .

(٣) سبخة : جافة وعرة .

الحياض وملأوا اسقيتهم وتلبدت الأرض التي تحت أرجلهم فكان ذلك كله مما أدخل النشاط والطمأنينة الى قلوبهم . وقد اشار القرآن الى هذه المعونة غير المتوقعة :

﴿ إذ يُغَشِّيكم النعاس أمنَةً منه وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام ﴾ .

اما أثر هذا الغيث فكان وبيلاً على المشركين فإن المياه أوحلت ارضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال والتقدم ، أما بالنسبة للمسلمين فقد صلب الرمل وثبتت به الأقدام فسبق النبي وأصحابه المشركين الى الماء ونزلوا أدنى ماء من بدر ، فقال له الحُباب بن المنذر وكان مشهوراً بإصالة الرأي : (يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه او نتأخر عنه ، او هو الرأي والحرب والمكيدة) ؟ قال : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال الحُباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر[1] ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال النبي : لقد اشرت بالرأي ونفذَ ما أشار به الحُباب .

ولا بُدَّ من الاشارة الى ان استجابة النبي لرأي (الحباب) درس في أن الرأي يجب ان يكون شورى بين المسلمين ، وان القائد بحاجة الى حسن مشورة صاحب الرأي السديد ، ولهذا امر الله نبيه محمداً بقوله : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ .

ولحرص المسلمين على سلامة نبيهم قال سعد بن معاذ للنبي : يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً[2] تكون فيه ونعد عندك ركائبك[3] ثم نَلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله وأظهرنا[4] على عدونا كان ذلك ما احببنا ، وإن كانت الأُخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك اقوام ما نحن بأشد لك حبّاً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعُك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك .

---

(١) التغوير : الدفن والطمس .

(٢) العريش : البيت يستظل به .

(٣) ركائبك : الركائب هي الفرس الجاهزة للركوب .

(٤) اظهرنا : نصرنا .

فأثنى عليه النبي خيراً، ودعا له بخير ، ثم بُنِيَ للنبي عريش فوق تل ليشرف منه على المعركة .

الاستعداد للمعركة

ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للمعركة نهض رسول الله، وقوّم صفوفهم وأمرهم أن لا يبادروا اعداءهم بالهجوم حتى يأمرهم بذلك، وإن هاجموهم فليراشقوهم بالنبال، وأن لا يسلوا سيوفهم حتى يغشوهم(١) ثم رجع الى العريش الذي بنوه له ليشرف على المعركة .

اقبلت قريش نحو الوادي في الصباح فلما رآها النبي قال: (اللهم هذه قريش قد اقبلت بخيلائها (٢) وفخرها تحادّك(٣) وتكذّب رسولَك فنصرك الذي وعدتني ، اللهم احنهم(٤) الغداة(٥)).

ثم نظر النبي الى اصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف ونظر الى المشركين فإذا هم الف ، فاستقبل القبلة وقال : (اللهم انجز لي ما وعدتني ، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بَعدُ في الأرض أبداً؛ فما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأخذ ابو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله الححت على ربك) . وكان مما نزله الله بعد هذه الاستغاثة :

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾

ثم خرج رسول الله من العريش وهو يثب ممتطياً درعه تالياً قول الله تعالى:
﴿ سيُهزم الجمع ويولّون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ ﴾.

انتصار المسلمين

ابتدأت المعركة بمبارزة قُتِلَ على أثرها ثلاثة من جيش قريش، ثم التحم الجيشان وكان رسول الله يحرضهم على القتال بقوله : (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدبر إلاّ ادخله الله

---

(١) يغشوهم : يأتوهم .
(٢) الخيلاء : الكبر والاعجاب .
(٣) تحادك : تعاديك .
(٤) احنهم : اهلكهم .
(٥) الغداة : صباح اليوم .

الجنة) فقال عمير بن الحمام وكان في يده تمرات يأكلهن : بَخٍ بَخْ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة الاّ ان يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل .

هذا وقد اشترك رسول الله في القتال ، يقول علي رضي الله عنه : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا من العدو ، وكان من اشد الناس يومئذ بأساً .

وعندما حمي وطيس المعركة أخذ رسول الله حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: شاهت الوجوه ثم رماهم بها وأمر اصحابه قائلاً : احملوا عليهم ! فكانت الهزيمة لقُريش فقُتِلَ من قُتِلَ من صناديدهم وأُسِرَ من أُسِرَ من أشرافهم ، وفي ذلك نزل قوله تعالى :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ الانفال : ١٧ .

ثم إن رسول الله أمر بقتلى المشركين ان يُطرحوا في القليب[1] ، فلما أُلقوا وقف عليهم رسول الله فسمعه اصحابه من جوف الليل وهو يقول: يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة، ويا أبا جهل – فعدّد من كان منهم في القليب – هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟ قال المسلمون: يا رسول الله . أتنادي قوماً قد جيّفوا ؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون ان يجيبوني!

وقد بلغ عدد القتلى من قريش سبعين رجلاً ، وأُسِرَ منهم سبعون أيضاً وغنم المسلمون غنائم عظيمة، أما قتلى المسلمين فبلغوا أربعة عشر رجلاً وقد امتنّ الله بهذا النصر على المسلمين بقوله:

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وَأنتم أذلة ﴾ آل عمران : ١٢٣.

اما الأسرى فافتدتّهم قريش بالمال ومن لم يكن معه مال للفداء وهو يُحسِن القراءة والكتابة اعطوه عشرة من صبيان المدينة ليعلمهم وكان ذلك فداءه ، ومن هنا يُعتبر محمد ﷺ أوّل من كافح الأمية وسعى الى نشر العلم .

هـــذا ما ذكرناه من غزوة بدر وسنتابع الكلام عن العبرة منها في فصل (دروس وعبر) .

---

(١) القليب : البئر .

الفصل الثاني

غزوة أحد

الرغبة في الثأر من المسلمين – رجوع المنافقين – وصية رسول الله – انتصار المسلمين – الهزيمة بعد النصر – اشاعة مقتل النبي – المسلمون يجمعون صفوفهم – المسلمون يحصون قتلاهم – صور من البطولة والتضحية – رفع الروح المعنوية – حديث الموت .

الرغبة في الثأر من المسلمين

لم يهدأ نشاط الكفار بعد ما اصابهم من هزيمة منكرة في معركة بدر ، إذ وسمهم بعار لا يمحوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالون به من المسلمين ، لهذا اخذوا يعدّون العدة لجولة أخرى يثأرون فيها لمن قتل منهم ، فأرسلوا الى العرب يستنفرونهم للقتال ، فاستجابت لهم جموع من قبائل شتى ، وهيأوا المال للإنفاق على هذه الحرب من أرباح التجارة التي عاد بها ابو سفيان قبل معركة بدر .

استطاع الكفار ان يجمعوا ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة ابي سفيان ، فلما بلغ النبي خبرهم استشار أصحابه في البقاء بالمدينة او في الخروج اليهم ، وكان رأيه ان يتحصّن بالمدينة فإن هاجموهم قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، لكن الرجال الذين لم يشهدوا غزوة بدر – خاصة الشباب منهم – تحمّسوا للخروج ، وأيدهم رجال اشتركوا بغزوة بدر كي لا يُرمَوا بالجبن ، وأمام هذه الرغبة استجاب لهم النبي .

صلى النبي الجمعة ووعظ الناس وأمرهم بالصبر والجلد ، وبعد الانتهاء من الصلاة دعا بلأمته[١] فلبسها ، ثم اذّن في الناس للخروج لملاقاتهم ، فلما

---

(١) اللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح .

رأى بعض الرجال استعداد الناس للقتال قالوا لبعضهم: أمرنا رسول الله ان نمكث بالمدينة ، وهو اعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحي من السماء، ليتنا نعود ونترك الأمر له، فقالوا لنبيهم: يا رسول الله امكث في المدينة كما أمرتنا اولاً ، فقال: ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب وأذّن بالخروج الى العدو ان يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم إلاّ الخروج فعليكم بتقوى الله، والصبر عند البأس[1] إذا لقيتم العدو، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا .

رجوع المنافقين

خرج رسول الله لملاقاة الكفار في ألف من اصحابه، ولما كان ببعض الطريق رجع عبدالله بن أبيّ سيد المنافقين ومعه ثلاثمائة رجل ممّن هم على شاكلته فناداهم أحد المسلمين وقال لهم: يا قوم اذكّركم الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيكم عندما أقبل عدوهم، فقالوا له: لو نعلم انكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى ان يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلاّ الانصراف، قال: أبعدكم الله اعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه ، وقد قال الله في هؤلاء :

﴿ وليعلَم الذين نافقوا، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا. قالوا : لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم هم للكفر يومئذ أقربُ منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم واللهُ أعلم بما يكتمون ﴾ آل عمران : ١٦٧ .

ولما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبي عهد بالإسلام تخاذل عبد الله ابن أبيّ وجماعته تولاهما الخور والوهن وكادتا ان تنحوا نحوهما فعصمهما الله من ذلك وثبّتهما وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ إذ همّت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ آل عمران: ١٢٢ .

وهكذا بقي رسول الله مع سبعمائة من أصحابه يستعد بهم لقتال ثلاثة آلاف من أعدائه .

---

(١) البأس : الشدة وهنا : القتال .

وصيَّة رسول الله

سار المسلمون حتى نزلوا أحد أطراف جبل أُحُد، وهو جبل في الشمال الشرقي من (يثرب) جاعلين ظهورهم الى الجبل ، وقال لهم رسول الله: (لا يُقاتلنّ احد حتى آمره بالقتال) .

ونزل الكفار ببطن الوادي مصطحبين معهم كثيراً من النساء لتحريضهم على القتال، وكان معهم مئتا فرس، فجعلوا على ميمنة الخيالة خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) وعلى ميسرتها عكرمة بن ابي جهل .

استحضر رسول الله رماته وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم ان لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين ام منهزمين، وأمّرَ عليهم عبد الله بن جبير .

ولبعث التنافس القوي في إظهار البطولة أخذ رسول الله سيفاً بيده فقال مخاطباً أصحابه: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟) فقام اليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام (ابو دُجانة)[1] فقال: (وما حقّه يا رسول الله؟) فقال : ان تضرب به العدو حتى ينحني .

وكان (ابو دُجانة) رجلاً شجاعاً له عصابة[2] حمراء إذا اعتصب بها علم الناس انه سيقاتل ، فأخذ السيف وأخرج عصابته الحمراء التي كانوا يسمونها (عصابة الموت) وعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين على عادته إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه رسول الله يتبختر قال: إنها مشية يبغضها الله إلاّ في مثل هذا الموطن .

انتصَار المسلمين

إلتحم الجيشان وظهر المسلمون في أعلى صور البطولة والشجاعة، وبرز في القتال أبو دُجانة فكان لا يلقى احداً الا قتله، كما برز في القتال حمزة عم النبي فقتل اثنين من حملة لواء الكافرين وغيرهما ، وكان يترصّد لحمزة عبد حبشي اسمه (وحشي) بارع في رمي الرماح قل ما يخطىء، وقد وعده

(١) ابو دجانه : اسمه سماك بن خرشة .

(٢) عصابة : منديل يدار حول الرأس .

سيده بإعتاقه وجعله حرّاً إذا هو قتل حمزة وذلك للثأر منه، فأصابه (وحشي) بحربته إصابة قاتلة خرّ على إثرها حمزة صريعاً.

وكان حامل لواء المسلمين مصعب بن عمير فقاتل حتى قُتِلَ، فأعطى رسول الله اللواء عليّ بن أبي طالب وقال له: قدّم الراية فتقدّم علي وهو يقول: (أنا ابو القصم) فناداه (ابو سعد بن ابي طلحة) وهو صاحب لواء المشركين: هل لك يا ابا القصم في البراز من حاجة، قال: نعم، فبرزا بين الصفين واختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه.

ثم حملت خيّالة المشركين على المسلمين عدة مرات وفي كل مرة يرتدون على اعقابهم بسبب ما يصيبهم من النبل ثم التقت المشاة وحمي الوطيس وكان نساء الكفار ينشدن الأناشيد بحمس فلم تثمر حماستهن نفعاً لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام، وما هي إلاّ ساعة حتى شعر الكفار بالخور وولوا الأدبار ونساؤهم يولولن، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب.

الهزيمة بعد النصر

رأى الرماة الذين وضعهم رسول الله لحماية ظهور المسلمين ما آلت اليه الحال من النصر فمالوا الى النزول، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير: إن ذلك مخالفة لأمر الرسول، فعصوه ونزل اكثرهم وبقي هو مع قليل من المتثبتين فلما آنس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة اسرع الى مهاجمة من بقي فوق الجبل فقتلهم جميعاً، وأتى المسلمين من ورائهم، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم من الغنائم، واختلت صفوفهم حتى صار بعضهم يضرب بعضاً.

وتفرق عن الرسول أصحابه ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل الى الصخرة، وجعل رسول الله يدعو الناس: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، فالتف حوله نفر من انصاره منهم: ابو طلحة الأنصاري، وكان مناضلاً مسدّد الرماية كسر يومئذ قوسين او ثلاثة وهو يحمي رسول الله، ويقول: بأبي انت وامي يا رسول الله لا يصيبك شهم، نحري دون نحرك[1]. ومنهم سعد بن أبي وقاص فكان النبي يقول له: ارم سعد فداك ابي وامي، ومنهم

(١) نحري دون نحرك: رقبتي دون رقبتك أي انني فداؤك.

سهل بن حنيف وكان من مشاهير الرماة رمى الكفار بالنبل حتّى انفرج عنه الاعداء . ومنهم ابو دُجانة الانصاري جعل نفسه مترّاساً للنبي وهو منحن عليه، فصار النبل يقع على ظهره حتى كثر فيه، كما كان يدفع الناس عنه زياد بن الحارث حتى وقع صريعاً دونه، وقصد ابيّ بن خلف رسول الله يريد قتله فلما قرُب منه ضربه النبي برمح فكان سبب هلاكه .

وفي هذه الأثناء أصيب النبي بجراح من تأثير حجارة سقطت عليه فكسرت رباعيته[١] ، وشُجّ في جبهته ، وجرحت شفته السفلى فصار الدم يسيل على وجهه، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله عليه قوله :

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ .

كما سقط رسول الله في حفرة من الحفر التّي عملها ابو عامر الراهب ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ عليّ بن أبي طالب بيد رسول الله ورفعه طلحة حتّى استوى قائماً .

وهكذا كانت الهزيمة بعد النصر، وقد اشار القرآن اليها مبيّناً ان سببها كان اختلاف المسلمين وعصيانهم امر النبي ورغبة بعضهم في الظفر بالغنائم :

﴿ ولقد صَدَقكم الله وعده إذ تحسّونهم[٢] بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون[٣] ، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم[٤] ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ آل عمران : ١٥٢ .

كما وصف الله فرارهم من المعركة وما أصابهم من غم بقوله :

﴿ إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمّاً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ﴾ آل عمران: ١٥٣ .

---

(١) رباعيته : السن التّي بين الثنية و الناب .
(٢) تحسونهم : تقتلونهم .
(٣) اراكم ما تحبون : أي هزيمة الكفار .
(٤) صرفكم عنهم : أي كفاكم عنهم حتى تحولت الحال من الغلبة الى ضدها .

إشاعة مقتل النبي

وشاع بين المسلمين ان النبي قد قُتِلَ فألقى بعضهم السلاح ، وقال البعض : ليت لنا رسولاً الى عبد الله بن أبيّ فيأخذ لنا الأمان من ابي سفيان . وكان أنس بن النضر حاضراً فقال : اللهم إني اعتذر اليك عمّا صنع هؤلاء — يعني أصحابه— وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء — يعني الكفار — ثم خاطب من حوله : ما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ؟ ثم سلّ سيفه فقاتل حتى قُتل ، فوُجِدَ فيه بعد انجلاء المعركة بضع وثمانون جراحة ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم .

وفي تقاعس البعض عن الجهاد عندما سمعوا ان النبي قد مات نزل القرآن مرشـــداً المسلمين الى ان دين الإسلام لا يرتبط بشخص النبي ما دام حيّاً، وانما هو دين يجب اعتناقه والثبات عليه والدفاع عنه سواء أبقي النبي ام مات ، لأنه ليس دعوة شخصية ، وإنما هو دعوة خالصة الى عبادة الله واتباع شريعته فهل إذا مات محمد أو قُتل ارتد المسلمون الى الكفر ؟ إن هذا الأمر لو حصل لن يضر الله شيئاً ، ولكن الله سيجزي الثابتين على الإسلام ، الشاكرين لنعمه .

﴿ وما مُحَمّد إلاّ رسُولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُسُل افإن مات او قُتِل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ آل عمران : ١٤٤ .

المسلمون يجمعون صفوفهم

وقد كانت الاستماتة في الدفاع عن رسول الله من جهة واشاعة مقتله من جهة أخرى سبباً في انكشاف العدو عن المسلمين ، فصعد رسول الله ومن بقي معه من المحاربين في الجبل حتّى وصل الى مكان الصخرة التي فرّ اليها بعض اصحابه ، وكان اول من عرفه كعب بن مالك الذي نادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين ابشروا هذا رسول الله، ففرح المسلمون وذهب عنهم الحزن بملاقاة نبيهم بعد أن ظنوا انه قد قُتِلَ، وصاروا يذكرون النصر الذي فاتهم، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا .

وكان ابو سفيان قد اشرف عليهم فلما نظروا اليه نسوا الذي كانوا عليه واصبح همهم الأول الدفاع عن انفسهم فقال رسول الله : ليس لهم ان يعلونا ،

فقاتل عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين الكفار حتّى اهبطوهم عن الجبل.

ثم جمع الكفار جيشهم وتهيئوا للرحيل فنادى ابو سفيان جيش المسلمين من مكان مرتفع : إن موعدكم بدر للعام المقبل ، فقال رسول الله لرجل من اصحابه : قل نعم هي بيننا وبينك موعد ، ثم انصرف أبو سفيان وجيشه . فقال رسول الله لعليّ بن أبي طالب : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينـــة ، فوالذي نفسي بيده لئن ارادوها لاسيرنّ اليهم ثم لأناجزنهم[1] ، فقال عليّ : فخرجت في آثارهم انظر ماذا يصنعون ، فلما اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل عرفت انهم توجهوا الى مكة .

المسلمون يحصون قتلاهم

وفرغ الناس لقتلاهم يدفنونهم فكان عدد القتلى نيّفاً وسبعين ، وكان اكثرهم جراحاً المدافعون عن النبي ، فأصاب طلحة اكثر من سبعين جرحاً ، ومثّل الكفار بقتلى المسلمين حتّى ان هنداً زوج ابي سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شيء منها بعد ان لاكت قطعة منها بين اسنانها فلما رأى رسول الله ما مُثّلَ بحمزة أخذ الحزن والغيظ منه مأخذه وقال : لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثّلنّ بثلاثين رجلاً منهم ، فلما رأى المسلمون حُزن رسول الله وغيظه على من فعل بعمه قالوا : والله لئن اظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلنّ بهم مُثلة لم يمثلها احد من العرب وفي ذلك نزل القرآن :

﴿ وإن عَاقبتم فعاقبوا بمِثْلِ ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صَبرُك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِمّا يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ النحل : ١٢٦ – ١٢٨ .

وصية من الله ترتفع بالانسان عن غريزة الانتقام الى اعلى مصاف السمو الانساني ، ولهذا رُوي انه بعد نزول هذه الآيات نهى رسول الله عن المثلة (أي التمثيل بالقتلى) .

---

(١) ناجز : قاتل .

صُوَرٌ من البطولة والتضحية

وكان رسول الله حريصاً على تعقّب أخبار أصحابه ومعرفة ما حلّ بهم فقال : مَنْ رجُلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو ام في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا انظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، فانطلق يبحث عنه فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، فقال له : إن رسول الله أمرني ان انظر في الأحياء انت ام الأموات؟ قال : أنا في الأموات فأبلغ رسول الله عني السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص[1] الى نبيكم وفيكم عين تطرف . فلم يبرح هذا الرجل مكانه حتى مات سعد ، فجاء الى رسول الله فأخبره خبره .

مشهد يستثير العبرات بما يشوبه من الحب والتضحية والاستماتة في سبيل المبدأ .

ومشهد آخر يرويه ابن اسحق هو : ان عمرو بن الجموح كان رجلاً شديد العرج وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله المعارك، فلما كان يوم أُحُد أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله قد عذرك ، فأتى رسول الله وقال : ان بنيّ يريدون ان يحبسوني عن هذا الوجه (أي وجه النبي) والخروج معك، فوالله اني لأرجو ان أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال رسول الله : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم ان لا تمنعوه لعل الله ان يرزقه الشهادة فخرج معه فقتل .

ومثال آخر وليس آخراً على ذلك: ان امرأة من بني دينار قد قتل زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله في هذه الموقعة فلما نعوا لها شهداءها قالت: فما فعل رسول الله؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى انظر اليه ، فأشير لها اليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (أي صغيرة) .

بمثل هذا الايمان والتضحية انتصر المسلمون الأولون واسسوا امبراطوريتهم في عشرات السنين وكانوا سادة الدنيا ، وحماة العدل والحق فيها .

---

(١) خلص : أي ان استطاع الاعداء الوصول اليه .

رفع الروح المعنوية

رجع المسلمون إلى المدينة وقد هدّهم الحزن، وفت في عضدهم هذه الهزيمة بعد النصر الذي أصابوه ، لذلك نزل الوحي الالهي يواسي المسلمين ويرفع من روحهم المعنوية، ويخفف وقع الهزيمة عليهم ، فخاطب الله المؤمنين :

﴿ ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قَرْحٌ(١) فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نُداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠ .

والمعنى : لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا لما اصابكم من هزيمة ولمن قتل منكم لأنكم بتأييد الله وإيمانكم أنتم الأعلون عليهم وستنتصرون عليهم في النهاية . إن مسكم جرح وقتل فقد اصاب الكافرين ايضاً مثل ذلك يوم موقعة بدر وإن أوقات النصر يصرفها الله بين الناس فيكون النصر لهؤلاء احياناً ولأولئك اخرى اختباراً للمؤمنين ، وليكرم الله قوماً بالاستشهاد في سبيله والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم أوامر ربهم .

واشار القرآن الى حكمة هذه الهزيمة وهي اختبار قوة إيمان المسلمين ، وامتحانهم بتلك الشدة ليتبين ويتميز صادق الايمان من مزعزع العقيدة .

﴿وليمحّصَ(٢) الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ آل عمران : ١٤١ ، ١٤٢ .

كما بيّن الله للمسلمين أن ما اصابهم قد حدث مثله لأصحاب الرسل السابقين ، قاتلوا في سبيل الله ومع ذلك لم يضعفهم ما نزل بهم ولم يجعلهم مستكينين للذل ، بل اعتقدوا ان ما اصابهم يعود الى عيب في انفسهم وذنوب اقترفوها ، فابتهلوا الى الله ان يغفر لهم ذنوبهم ، وان يمنحهم من لدنه قوة وثباتاً ، فاستجاب الله لهم ومنحهم خير الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ وكأيّن من نبيّ قَاتَلَ مَعَهُ ربيّون(١) كثيرٌ فما وَهَنوا لِمَا أصابهمَ في سبيل الله وما ضعُفُوا وما استكانوا(٢) والله يحب الصابرين . وما كَان

---

(١) قرح : جرح وقتل .

(٢) محص : اختبره .

قَوْلَهُم إلا ان قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثَبّت أقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثوابَ الدُنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ آل عمران: ١٤٦ – ١٤٨ .

حديث الموت

وصل رسول الله وصحبه الى المدينة فسمع بكاء المسلمين ونواحهم على قتلاهم فذرفت عينا الرسول حزناً عليهم ونهاهم عن النوح ، واستغل المنافقون حزن المسلمين فراحوا يدسّون سمومهم لابعادهم عن نبيهم ، وظهر غش اليهود للرسول كما ظهر النفاق في أجلى صوره ، فقالت اليهود : لو كان نبياً ما انتصروا عليه ولا أُصيب منه ما أُصيب ، ولكنه طالب مُلك ، وقال المنافقون مثل قولهم ، كما قالوا للمسلمين : لو أنكم اطعتمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم ، وقد ذكر القرآن قولهم هذا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض او كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت ﴾

فأمام هذه الضجة التي أثارها اليهود والمنافقون نزل الوحي الالهي يرد عليهم مبيناً حقيقة الموت ومـنزلة الشهداء عند ربهم ليمسح من النفوس ما استولى عليها من الحزن . فالموت محدّد بوقت لا سبيل الى تقديمه وتأخيره :

﴿ وما كان لِنفْسٍ أن تموت إلاّ بإذن الله كتَاباً مؤجّلاً ومن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نؤته منها ومن يُرِدْ ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ .

والمعنى : لا يمكن لنفس ان تموت إلاّ بإذن الله وقد كتب الله ذلك في كتاب مشتمل على آجال الناس ، ومن يُرد متاع الدنيا وزينتها يؤته منها ، ومن يُرد ثواب الآخرة يوته منها وسيجزي الله الشاكرين الذين اطاعوه فيما أمر به من جهاد .

وأكد القرآن أيضاً ان الموت في سبيل الله سبب لنيل رحمة الله وهو أفضل من مقتنيات الحياة .

---

(١) ربيون : جماعات مؤمنة .

(٢) استكانوا : ذلوا لعدوهم .

﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مِمَّا يجمعون ﴾.

ووصف القرآن حال هؤلاء الشهداء بأنهم أحياء لم يموتوا كما وصف حياتهم السعيدة عند ربهم وصفاً يحبب الشهادة الى النفوس ويبعد عنها خوف الموت :

﴿ ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عِنْدَ ربهم يُرْزَقون. فَرِحين بما آتاهم اللهُ مِنْ فَضْله ويَستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم مِن خَلفِهم ألاّ خَوْفٌ عَليهم ولاَ هُمْ يحزنون. يستبشرون بنِعْمةٍ مِنَ الله وفَضْلٍ وأنّ الله لا يُضيعُ أجْرَ المؤمنين ﴾.

* * *

هذه الآيات وغيرها نزلت بعد هذه الموقعة التي تركت آثاراً عميقة من الحزن في نفس النبي وأصحابه بعد ان فارقهم العديد من الصفوة المختارة من المؤمنين الذين اختار الله لهم ان يكون مثواهم في ذلك الجبل الأشم. مؤمنين بما استشهدوا من أجله ، حائزين على رضوان الله.

ولقد كان رسول الله يذكر سِيَرَ اولئك الأبطال ، ولما حانت أيامه ان تودع الحياة زار قبورهم ودعا لهم، ووعظ الناس بهم ، يقول عقبة بن عامر : صلى رسول الله على قتلى أُحُد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال : إني بين ايديكم فرط[1] ، وانا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض[2] ، واني لأنظر اليه من مقامي هذا ، وإني لست اخشى عليكم ان تشركوا ولكني اخشى عليكم الدنيا ان تنافسوها. قال عقبة : فكان آخر نظرة نظرتها الى رسول الله[3].

ما أروع قول الرسول : (اخشى عليكم الدنيا ان تنافسوها) ، فهو من دلائل النبوة التي ظهر صدقها في تاريخ المسلمين عبر العصور. فأخطر ما أصاب المسلمين بعد وفاة نبيهم الى الآن هو التنافس على الدنيا والرئاسة ، هذا التنافس الذي قوّض دولتهم العظيمة التي أسسوها بإيمانهم وتضحياتهم وهو نفسه لا يزال الى اليوم السمة البارزة لتفرقهم وضعفهم وسيطرة المستعمرين عليهم.

---

(١) فرط : متقدم.

(٢) الحوض : من مغيبات يوم القيامة ، والظاهر أنه مكان في الجنة.

(٣) رواه البخاري.

الفصل الثالث

معاهدة الحديبية

زيارة المسجد الحرام – منع رسول الله من الزيارة – المفاوضات بين قريش ورسول الله – بيعة الرضوان – معاهدة الصلح – وقع هذه المعاهدة على المسلمين – اثر معاهدة الحديبية .

وللنبي الى جانب جهاده العسكري جهاد آخر سياسي لا يقل روعة عن سابقه، ومن أعظم منجزاته ذلك الذي انتهى بالفتح الاكبر وهو فتح مكة الذي به قوي الاسلام واصبح له الكلمة النافذة في الجزيرة العربية .

وفتح مكة ابتدأ بعمل سياسي قام به النبي في غاية الحكمة هو (معاهدة الحديبية) فالنبي لم تكن غايته القتال، بل نشر الدعوة الإسلامية، فكان يُقاتل حيث يجب القتال ويضطر اليه ، ويجنح الى السلم والصلح حيث يحسن السلم والصلح ، والى القارىء وصفاً موجزاً لمعاهدة الحديبية وآثارها :

زيارة المسجد الحرام

كان المسجد الحرام في مكة وجهة العرب في عباداتهم يحجون اليه كل عام في الأشهر الحُرُم فمن دخله كان آمناً ، وإذا التقى المرء بأشد الناس عداوة له لم يجرؤ ان يجرد سيفاً او يسفك دماً ، ولكن قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر محمد والمسلمون معه ان يصدوهم عن المسجد الحرام وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب ، وكان المسلمون يتألمون كثيراً من هذا الحرمان الذي يمنعهم من اداء الواجب الديني المفروض عليهم .

وقد انقضت ست سنوات على الهجرة والمسلمون يتحرقون شوقاً لزيارة المسجد الحرام، وإنهم لمجتمعون ذات يوم إذ أقبل عليهم رسول الله ينبئهم برؤيا في منامه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون ، فدعا رسول الله اهل يثرب ومن حولها من أهل البوادي مــن

الأعراب ليخرجوا معه (للعمرة)[1] أي لزيارة المسجد الحرام وهو يخشى ان يتعرضوا له بحرب او يصدوه عن المسجد، فامتنع كثير من الاعراب عن الزيارة وقالوا: ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا﴾ وكان السبب الحقيقي في تثاقلهم اعتقادهم أن محمداً وأصحابه لن يعودوا عن سفرهم هذا أبداً بسبب فتك المشركين بهم . وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿سيقول لك المخلّفون من الأعراب: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً او أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً ...﴾ الفتح ١١، ١٢ .

خرج[2] رسول الله ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وكان عددهم ألفاً واربعمائة لا يحملون من السلاح إلاّ السيوف في اغمادها يسوقون الهدي[3] امامهم لتعلم قريش وسائر الناس انهم خرجوا زائرين لا محاربين .

منع رسول الله من الزيارة

وصل رسول الله الى مكان يُدعى: (عسفان)، فجاءه الخبر بأن قريشاً أحست بمجيئهم واجمعت على صدهم عن دخول مكة، واستعدت للحرب تحت قيادة خالد بن الوليد (ولم يكن قد أسلم بعد) .

ولما بلغ رسول الله استعداد قريش للحرب قال : يا ويح قريش قد اكلتهم الحرب ماذا لو خلّوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن اصابوني[4] كان الذي ارادوا ، وإن أظهرني[5] الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين[6] ، والله

(١) العمرة : فرض عين على المسلمين مرة واحدة في العمر ، ولها ثلاثة اركان: الاحرام ، والطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة .

(٢) كان خروج رسول الله في شهر ذي القعدة .

(٣) الهدي : هي ما يهدى الى البيت الحرام من الابل والبقر والغنم، وقد كان رسول الله في هذه الزيارة يسوق امامه سبعين بدنة (البدنة هي الناقة المسمنة) وهي تنحر بعد الزيارة ويوهب لحمها للفقراء .

(٤) المراد بالاصابة هنا : القتل او الهزيمة .

(٥) أظهرني : أي نصرني .

(٦) وافرين : سالمين ، لم يقتل منهم أحد .

لا أزال اجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله او تنفرد هذه السالفة [١] (مشيراً الى صفحة عنقه) .

ثم خرج بهم رسول الله على غير الطريق الذي هم بها وسلك ذات اليمين على قرب من الحديبية فبركت به ناقته فقال الناس : خلأت (أي بركت) فقال : ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، وقال : لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلاّ اعطيتهم إياها، ثم زجر ناقته مغيّراً وجهة سيره فوثبت الناقة، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية .

واشتكى الناس من العطش فأخرج رسول الله سهماً من كنانته فأعطاه الى رجل من أصحابه ليضعه في بئر من تلك النواحي ، فغرزه في جوفه فجاش الماء بالرواء لهم حتى اغترفوا بآنيتهم وهم جلوس على شفير البئر .

المفاوضات بين قريش ورسول الله

أرسلت قريش بعض السفراء ، سفيراً تلو الآخر يسألون عن سبب قدوم المسلمين وقد راودهم الشك فيما عزم عليه رسول الله ، فأخبرهم بأنه جاء لزيارة المسجد الحرام ولكن الشك ظل يراود قريشاً فأرسلوا اليه رسولاً يثقون به وله مكانته وهو عروة بن مسعود الثقفي (سيد أهل الطائف) فتوجه الى رسول الله وقال : يا محمد قد جمعت أوباش الناس [٢] ثم جئت الى اصلك وعشيرتك لتفضها بهم [٣] ، انها لقريش قد خرجت تعاهد الله ان لا تدخلها عليها عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا [٤] عنك، فنال منه ابو بكر وقال : نحن ننكشف عنه ؟ ويحك! وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده [٥] إذا أراد ذلك ، ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول ﷺ أصحابه ، لا يتوضأ وضوءاً إلاّ كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر اليه [٦] ، فقال :

---

(١) السالفة : صفحة العنق ، وانفرادها عن الجسم كناية عن الموت لأنها لا تنفرد إلا به .
(٢) أوباش الناس : أي اخلاطهم .
(٣) تفضها بهم : أي تفرقها بهم .
(٤) انكشفوا : انهزموا .
(٥) يقرع : يضرب .
(٦) لا يحدون النظر اليه : لا يديمون النظر اليه تعظيماً واجلالا .

والله يا معشر قريش ، جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في عظمته فما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه ! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء ابداً فانظروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً [1] ! فاقبلوا ما عرض عليكم ، وإني لكم ناصح، مع اني أخاف أن لا تنصروا عليه. فقالت قريش: لا تتكلم بهذا ، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع في العام المقبل .

ثم رأى رسول الله ان يرسل عثمان بن عفان سفيراً من قبله لإبلاغ قريش ما قصده من مجيئه ، فبلغ عثمان رسالته الى قريش ، فقالوا لعثمان حين فرغ من مهمته: إن شئت ان تطوف بالبيت فطُف، فقال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ، ثم حبسوه عندهم ، فشاع عند المسلمين ان عثمان قد قتل. فلما بلغ رسول الله خبر مقتله قال: لا نترك هذا المكان حتّى نحارب هؤلاء القوم .

بيعة الرضوان

دعا رسول الله اصحابه لمبايعته على الموت في قتال المشركين فعاهدوه جميعاً باستثناء واحد منهم – تحت شجرة هناك – وقد سُئِلَ احد الذين شهدوا تلك البيعة : (على اي شيء بايعتم؟ «أي عاهدتم» رسول الله يوم الحديبية قال : الموت) وفي رواية أخرى : (انهم بايعوا رسول الله على ان لا يفروا) والمراد بذلك القتال حتّى النصر مهما كلفهم ذلك من تضحيات لا يفرون من وجه عدوهم مهما لاقوا منه من بأس. وهذه البيعة جاء ذكرها في القرآن مع الثناء على المؤمنين الذين بايعوا فيها نبيهم . قال تعالى :

﴿ لقد رضيَ الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

مُعاهدة الصلح

واستعد المسلمون للقتال، وإنهم لكذلك إذ ترامى اليهم ان عثمان لم يُقتل، ثم لم يلبثوا أن فوجئوا برجوعه .

وعادت المفاوضات بين الفريقين فأرسلت قريش سفيراً من قبلها هو

---

(١) رشداً : صواباً

سهيل بن عمرو يعرض شروط الصلح التي تطلبها قريش وهي أربعة :

أولاً : تقرير هدنة بين قريش وبين المسلمين مدتها عشر سنين .

ثانياً : إذا لجأ رجل من قريش الى المسلمين فعليهم ردّه ، وإذا فرّ واحد من المسلمين الى قريش فليس عليها رده .

ثالثاً : ان يعود المسلمون هذا العام بغير عمرة (أي زيارة للمسجد) ويأتوا في العام الذي يليه فيدخلوا مكة بعد ان تخليها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم مِنَ السلاح إلاّ السيوف في أغمادها .

رابعاً : من أراد ان يدخل في عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ، ومن طلب ان يدخل في عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فقبل النبي هذه الشروط .

وقع هذه المعاهدة على المسلمين

رأى المسلمون في هذه المعاهدة أمراً عظيماً لم تستطع نفوسهم تحمله فأجمعوا على ان يكلموا النبي ، فكان مما قالوا له : يا رسول الله كيف نرد الى المشركين من جاءنا منهم مُسلماً ولا يردون الينا من فرّ اليهم مرتداً؟ فقال لهم النبي : (إن من ذهب مِنّا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له مخرجاً) .

وبلغ من شدة وقع هذا الصلح على المسلمين ان عمر بن الخطاب قصد الى ابي بكر وأظهر امتعاضه من الصلح ، فقال له ابو بكر : انه رسول الله وليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فلم يقتنع عمر بما قال له صاحبه ، وذهب الى رسول الله وقال له مثل ما قال لأبي بكر . فقال له النبي : (انا عبد الله ورسوله ولن اخالف أمره ولن يضيعني) .

ثم استدعى رسول الله علي بن ابي طالب لكتابة الشروط فأمر النبي علياً ان يكتب وأملى عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض على ذلك سهيل وقال : إن قريشاً لا تعرف إلاّ باسمك اللهم ، فضج المسلمون من هذا التشدّد . وامر النبي علياً أن يكتب باسمك اللهم ، ثم قال له اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فاعترض سهيل على ذلك وقال : لو كنا نعرف أنك رسول

الله لم نقاتلك ، ولم نصدك عن البيت ولكن اكتب باسمك واسم ابيك ، فقال النبي لعلي : امح رسول الله ياعليّ ، فصعب عليه ان يمحوه فتناول الكتاب ومحاه بيده ، وقال لعليّ اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

ولقد نزل الوحي الالهي مستنكراً هذا التصرف من سهيل مثنياً على رسوله والمؤمنين بقوله :

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة : حميّة الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى ... ﴾ الفتح : ٢٦ .

بعد كتابة هذه الشروط التي اصبح مفعولها نافذاً لدى الفريقين أقبل رجل من المسلمين يُدعى : (أبا جندل) لاجئاً الى المسلمين وكانت قريش قد منعته من الهجرة فقال له النبي : إننا قد عقدنا مع القوم صلحاً واعطونا عهداً فلا نغدر بهم فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك وللمستضعفين مخرجاً .

رجاحة عقل زوج رسول الله : ولما تمّ أمر المعاهدة أمر رسول الله ان يتحللوا من عمرتهم وذلك بأن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم[١] ، فأصابهم من ذلك كرب عظيم حملهم على عدم المبادرة بالامتثال[٢] فدخل النبي على زوجته (ام سلمة) وكان قد استصحبها معه وقال : هلك المسلمون ، امرتهم فلم يمتثلوا ، فقالت له : يا نبيّ الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم احداً منهم كلمة حتى تنحر (بدنتك)[٣] وتدعو حالقك فيحلقك ؛ فقام الرسول ولم يكلّم احداً منهم حتى نحر (بدنته) ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق رؤوس بعض ، وهكذا ضربت (ام سلمة) مثلاً في إصالة الرأي وبُعد النظر .

ابطال شرط من المعاهدة : وحدث ان (أبا بصير عتبة بن اسيد) فرّ الى رسول الله فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه اليهما ، فأمره رسول الله بالرجوع معهما ، فرجع مع صاحبيه ، ولما قارب مكاناً يُدعى (ذا الحليفة) إنقض على احد حارسيه فقتله وهرب منه الآخر ، ورجع الى رسول الله ثانية

---

(١) هديهم : الانعام المعدة للذبح عقب اداء العمرة .

(٢) الامتثال : الطاعة .

(٣) البدنة : هي الناقة المسمنة .

قائلاً له : قد وفيت بذمتـــك فقال له رسول الله : لا ، اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة ،فخرج الى ناحية على طريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به ، واجتمع به نفر ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، ولحق به ايضاً (ابو جندل) اللائذ الأول ، واخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ، فاضطرت قريش ان يرسلوا إلى رسول الله يرجونه ابطال هذا الشرط من المعاهدة فقبل منهم ، وهكذا بَطَل من تلك المعاهدة ما كان يجد منه المسلمون ألماً ممضاً .

أثر معاهدة الحديبية

رُوي عن مجمع بن حارثة قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها ... وجدنا رسول الله واقفاً في موضع يدعى : (كراع الغميم) وقد جمع الناس وقرأ عليهم ما نزل عليه من الوحي :

﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً. وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ .

فقال رجل : يا رسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : (إي والذي نفس محمد بيده « أي والله » إنه لفتح)[1] .

قد يعجب القارىء من وصف القرآن هذا الاتفاق بالفتح المبين وقد اعتبره قبل ذلك جيش بأجمعه ضعفاً واستسلاماً ما عدا واحداً هو ابو بكر .

ولكن المؤمنين رأوا فيما بعد ثمرة هذا الصلح ، وتبين لهم انه كان خيراً على المسلمين وأعظم فائدة من أي فتح تقدمه ، بل رأوا انه كان يجب ان توجد هذه الهدنة لتمهد السبيل أمام الإسلام لفتح القلوب عن طريق الإقناع والحجة لا عن طريق السيف .

كان لا بد من وجود هدنة يُلقى فيها السلاح جانباً مدة من الزمن لتتمكن العقول من التفكير الهادىء في أصول هذا الدين الجديد ، فتأخذ به عن اقتناع لا عن رهبة .

ولكن الزمن لم يطل على الذين انكروا هذا الصلح ، فقد تجلت لهم حكمته في أجلى مظاهرها بعد عقده بسنتين عند فتح مكة ، وقد وصف هذا الحدث

(١) رواه الإمام احمد .

الهام من المعاهدة احد المسلمين الذين شهدوا هذا الصلح بقوله :

(فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب اوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة لم يُكَلّمْ أحدٌ ذو عقل في تلك المدة في الإسلام إلاّ دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو اكثر ، ويدل عليه ان رسول الله خرج الى الحديبية في الف واربعمائة ثم خرج بعد سنتين الى فتح مكة في عشرة آلاف) .

وروي عن ابن مسعود انه قال : إنكم تعدّون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

إن اقدام النبي على هذا الصلح وقبوله بشروط قريش القاسية رغم استنكار أكثر اصحابه ، ووصف القرآن لهذا الصلح بأنه فتح مبين في وقت لم تظهر فيه نتائجه ، ثم تصديق الأيام التالية لِمَا أقدم عليه النبي ، إن ذلك كله لمن أقوى الأدلة على صدق نبوة محمد وأن القرآن وحي الهي .

الفصل الرابع

كتب النبي إلى الملوك والرؤساء

بعد رجوع المسلمين من (معاهدة الحديبية) رأى رسول الله ان الوقت قد حان لاعلان العالم اجمع برسالة الإسلام التي بعثه الله بها .

﴿ وما ارسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾

فأرسل النبي الى الملوك الذين كانوا يحكمون في زمانه سفراء يحملون كتباً منه اليهم يدعونهم فيها إلى الإسلام موقعاً عليها بخاتم اتخذه منقوشاً عليه : (محمد رسول الله) .

كتاب النبي الى ملك الروم : وجّه النبي دحية الكلبي الى امبراطور الروم بكتاب جاء فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى هِرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى، اما بعد فإني ادعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك اثم الأريسيين[1] و﴿ يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾

كتاب النبي الى ملك فارس : وبعث النبي عبد الله بن حُذافة بن سهم بكتاب الى كسرى بن هرمز ملك فارس جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد ان لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ؛ وادعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن ابيت فإن إثم

(١) الأريسيين : أي الفلاحين في القرى .

المجوس عليك) .

كتاب النبي الى ملك الحبشة : ووجه النبي جعفر بن ابي طالب الى ملك الحبشة بكِتاب جاء فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، أسلم أنت ، فإني أحمد اليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن ، واشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ؛ فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني ادعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فإني ادعوك وجنودك الى الله، فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى) .

كما كتب النبي في هذا المعنى كتباً أرسلها الى المقوقس عظيم القبط، والى حاكم مصر، والى نصارى نجران، والى ملكي عمان، والى كل الرؤساء الذين كانوا يجاورون جزيرة العرب في ذلك الحين .

ثقة النبي بانتصَار الإسلام : والجدير بالملاحظة ان هذه الكتب أرسلها النبي قبل ان يستتب له السلطان في الجزيرة العربيَّة ولكن ثقته بالنصر الذي وعده به ربه وبأنه سيظهر الاسلام على جميع الأديان في زمانه كانت من الحوافز التي جعلته يباشر بهذه المهمة ، ووعد الله يتمثل في هذه الآية من سورة الفتح التي نزلت بعد (معاهدة الحديبية)

﴿ هو الذي أرسل رسوله [١]) بالهدى ودين الحق ليظهره[٢] على الدين كله ولو كَرِهَ المشركون ﴾ الفتح : ٢٨ .

وقد تغلب الاسلام على كل الممالك التي أرسل اليها النبي سفراءه، وتحقق ظهور الإسلام على كل الأديان التي كانت في زمانه وذلك بعد بضع عشرة سنة من وفاة النبي ، ولا ريب أن تحقق هذا الوعد من أعظم الدلائل على ان القرآن وحي الهي وعلى صدق نبوة محمَّد .

---

(١) رسوله : أي محمد .

(٢) ظهر : غلب ، علا .

الاسلام دعوة اصلاحية : والإسلام هو دين عالمي لا دين قومي ، جاء بإصلاح عام لما اعتور دين الله من بدع ، ولهذا نرى النبي في كتابه الى هرقل يستشهد بالآية القرآنية التي تحدّد مهمة الإسلام :

﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء[1] بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مُسلمون ﴾ .

ففي هذه الآية دعوة اهل الكتاب (أي اليهود والنصارى) الى التوحيد وهو العقيدة المشتركة بين الأديان جميعاً . انها كلمة منصفة عادلة تسوي بين المؤمنين ، وهي كفيلة بتنقية عقيدة الجميع من الخرافة والضلالة ، فلا خالق إلا الله ، ولا ربوبية لغيره ملكاً كان او نبياً او عالماً ، هذه هي عقيدة التوحيد المطلق التي تنقذ الناس من عبوديتهم لبعضهم البعض ، وتمنع ان يعلو بعضهم على بعض لأنهم كلهم عباد لإله واحد لا معبود لهم سواه .

من هنا كانت عقيدة التوحيد تحريراً للبشرية من كل عبودية ، وكانت العبودية لأحد المخلوقات إشراكاً بالله . فإن استجابوا فهم قريبون من الإسلام وإن ابوا (فقولوا اشهدوا بِأنا مُسلمون) .

فالأنبياء جميعهم موحدون لله لأن الأساس الأول لشريعة موسى قول الله له كما جاء في كتبهم : (انا الرب إلهك لا يكن لك آلهة اخرى أمامي) .

والوصايا العشر التي لم ينسخ منها شيء رأسها التوحيد، والمسيح يقول : لا تظنوا إني أتيت لأحل الناموس والأنبياء إني لم آت لأحل لكن لأتمم[2] ، وقد جاء عن المسيح تأكيد ما ورد في العهد القديم : (دنا احد الكتبة ... فسأله اية الوصايا هي أول الكل ؟ اجابه يسوع : إن اول الوصايا كلها ، اسمع يا اسرائيل : إن الرب الهنا رب واحد)[3] .

ثم ننتقل الى الشطر الثاني من الآية التي تقرر وحدانية الربوبية لله ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ هذه الربوبية فَسّرها القرآن بآية أخرى ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وقد قيل للنبي : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم؟! قال : اليس يحرّمون ما أحل الله فيحرمون؟! ويحلون

---

(١) كلمة سواء : كلمة عادلة منصفة .
(٢) متى (٥ : ١٧) .
(٣) مرقس ١٢ : ٢٨ — ٢٩

ما حرم الله فيحلون !؟) فاتباع رؤساء الدين فيما يقررونه وجعل قراراتهم بمنزلة الأحكام المنزلة من الله دون التقيد بالوحي الالهي هو خروج عن مفهوم الدين وروحه وهو الذي ادى الى تحريف الدين ودخول المنازعات والخلافات في كل دين من الأديان .

تأثير كتب النبي : لنرجع الى الكتب التي ارسلها النبي الى الملوك والرؤساء فنرى انها لم تصادف نجاحاً يذكر ، فمنهم من رد عليها رداً حسناً كالنجاشي والمقوقس عظيم القبط الذي أرسل الى النبي بهدية قوامها جاريتان وثياب وبغلة للركوب ، ومنهم من رد رداً قبيحاً كملك الفرس الذي مزق كتاب النبي .

والجدير بالذكر انه لما وصل كتاب النبي الى قيصر ملك الروم طلب ان يبحث له عن رجال من العرب ليسألهم عن النبي ، فاتفق ان كان ابو سفيان بن حرب بالشام في تجارة مع جماعة من قريش فدعوهم لمقابلة الأمبراطور فلما مثلوا بين يديه قال : أيكم اقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم انه رسول من الله؟ فأجابه ابو سفيان: أنا.. فقال له قيصر: أدن مني ، ثم سأله: كيف نسب الرجل فيكم؟ فقال ابو سفيان: هو فينا ذو نسب. فسأله : هل ادّعى هذه الدعوى احد قبله منكم ؟ فقال : لا . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يدّعي ما ادعى ؟ قال : لا [1] . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قال : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : فهل يزيدون ام ينقصون ؟ قال ابو سفيان : بل يزيدون . قال الأمبراطور : هل يرتد احد منهم سخطة لدينه؟ قال : لا . قال قيصر . هل يغدر إذا عاهد؟ قال ابو سفيان : لا ، ونحن في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها ؛ قال : فهل قاتلتموه ؟ قال: نعم . قال: فكيف حربكم وحربه ؟ قال: هي بيننا سجال مرة لنا ومرة علينا . قال قيصر : فيم يأمركم ؟ قال ابو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وقد رُوي بعد هذا : ان الأمبراطور استنتج من هذه الأجوبة ان محمداً رسول الله حقاً . وقال : إن كان ما كلمتني به صحيحاً فسيملك موضع قدميّ هاتين .

---

(١) روي ان هرقل قال تعليقاً على ذلك : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

الفصل الخامس

فتح مكة

قريش تنقض العهد – الزحف سراً الى مكة – في الطريق إلى مكة – اسلام قائد قريش – دخول النبي مكة – العفو الكبير – المساواة بين الناس – احلم الناس .

قريش تنقض العهد

وفي السنة الثامنة من الهجرة حدث ما أوجب نقض معاهدة الحديبية واعلان الحرب على قريش ، ذلك أن قبيلة خزاعة قد تحالفت مع النبي ودخل جيرانها بنو بكر في حلف مع قريش، وقد حدث أن وقف رجل من بني بكر يهجو النبي على مسمع رجل خزاعي، فنهض هذا وضربه، فهبت بنو بكر للثأر من خزاعة، وأجمعوا أمرهم على حربهم، وأعانتهم قريش سرّاً وأمدّوهم بالرجال والعتاد خفية، وقتلوا من خزاعة حلفاء النبي اكثر من عشرين رجلاً، فما كان من أمر هذه القبيلة الأخيرة إلاّ ان أرسلت وفداً الى النبي تخبره ما حدث .

ولما تحققت قريش أن ما حدث يُعتبر نقضاً لمعاهدة الصلح أرسلوا قائدهم ابا سفيان بن حرب الى المدينة ليجدد العقد مع النبي ﷺ ويزيد في مدته، فقصد الى النبي وحدثه بما كلفته قريش وهو لا يعلم ان وفد خزاعة سبقه واخبر النبي بما حصل من اعتداء قريش ، فسأل النبي أبا سفيان : هل حدث شيء يقتضي حضوره؟ فأجابه نفياً ، فقال له النبي : إذن فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد (أي اذا نكثوا العهد فإنه في حل من غزوهم) ، فأدرك ابو سفيان انه لم ينجح، فقصد الى رجالات المسلمين ورجاهم ان يتوسلوا الى النبي في قضاء ما جاء به، فلم يلبّه احد منهم ، فرجع خائباً الى مكة .

الزحف سراً الى مكة

اما النبي فأمر بتعبئة الجيش واستنفر الأعراب النازلين حول المدينة ولم يخبر احداً بما عزم عليه من الزحف الى مكة كي لا يشيع الأمر فتعلم به قريش فتستعد للحرب ، والنبي لا يريد حرباً بمكة ولا اراقة دماء ، ولهذا دعا ربه : (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) .

ولكن أحد اصحاب النبي واسمه حاطب بن ابي بلتعه كان له اقارب بمكة فأراد ان يتخذ عند قريش معروفاً ليدفع عنهم أذاهم فكتب كتاباً الى قريش بالذي اجمع عليه النبي من الأمر في السير إليهم ، ثم اعطاه امرأة لتوصله اليهم مقابل أجرْ لها على ذلك، فأخذت الكتاب واخفته بين شعرها، فأتى النبي الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وقال لهما : ادركا امرأة قد أرسل معها حاطب كتاباً الى قريش يحذّرهم ما قد اجمعنا له من امرهم، فخرجا حتى ادركاها على الطريق الى مكة ووجدا معها الكتاب، فأتيا به الى النبي فدعا حاطباً وسأله: يا حاطب ما حملك على هذا؟ قال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيّرت ولا بدّلت ولكني امرؤ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين اظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق ، فقال النبي : (وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب[٣] بدر يوم بدر (أي يوم المعركة) فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) ؛ وقد أنزل الله في حاطب قوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تُلقون اليهم بالمودة ﴾ الى آخر الآية .

فالنبي اعطى درساً في تقدير الأعمال والتماس المعذرة للمخطىء إذا وضحت له الحقيقة فرجع عن خطئه ، وكثير من النـــاس يختلط الأمر عليهم فـــلا يغفرون السيئة الصغيرة مهما تقدمها من حسنات كبار، مع ان القرآن أوضح هذا الأمر بقوله: ﴿ إن الحسنات يُذهبن السيئات ﴾، لقد وضع النبي قضية هذا

---

(١) اظهرهم : وسطهم .
(٢) فصانعتهم : داريتهم واظهرت لهم خلاف ما أضمر .
(٣) كان حاطب ممن شهد معركة بدر .

الصحابي المخطىء في الميزان فغفر له زلته الطارئة امام بلائه السابق في خدمة الاسلام .

في الطريق الى مكة

ثم سار النبي على رأس عشرة آلاف محارب في منتصف شهر رمضان قاصداً مكة، وفي الطريق إلتقى بعمه العباس بن عبد المطلب وكان مهاجراً مع عياله الى المدينة للدخول في الاسلام ، وانضم الى المسلمين .

وفي الطريق ايضاً التقى ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله ابن أبي أمية بجموع المسلمين والتمسا مقابلة النبي لطلب الصفح عنهما ، فكلمته ام سلمة — زوج الرسول — فيهما فقالت : يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك يريدان الصفح منك، فقال النبي : (لا حاجة لي بهما، اما ابن عمي فهتك عرضي ، واما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال[1]) .

فلما أخبرتهما ام سلمة بجواب النبي قال ابو سفيان وكان معه ابن له : والله ليأذنن لي (أي بالدخول عليه لطلب الصفح منه) أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ؛ فلما بلغ ذلك النبي رق له ثم أذن له ولصاحبه فدخلا عليه فأسلما .

وهكذا يظهر لنا عفو النبي عن من أساء اليه مصحوباً بالرحمة والشفقة .

إسلام قائد قريش

وكان جيش النبي يتابع سيره حتى وصل الى مكان يدعى (مر الظهران) فنزل فيه، وقد عميت الأخبار على قريش فلم يأتهم خبر عن النبي ، ولم يدروا ما هو فاعل .

وخرج في تلك الليالي ابو سفيان بن حرب — قائد وزعيم قريش — وحكيم ابن حزام وبُديل بن ورقاء يتلمسون الأخبار فرأوا نيراناً مشتعلة لم يروا لها مثيلاً من معسكرات المسلمين ولكنهم كانوا يجهلون هوية أصحاب هذه النيران.

وكان العباس عم النبي يخشى على قريش أن تقاوم النبي فيكون في ذلك

---

(١) قال له : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً الى السماء فتعرج فيه وأنا انظر ، ثم تأتي بصك واربعة من الملائكة يشهدون أن الله ارسلك (الروض الألف ٢/٢٧٦) .

هلاكها فخرج من معسكر المسلمين راكباً بغلة النبي لعله يجد إنساناً يدخل مكة فيحمّله رسالة منه اليهم ليخرجوا الى النبي ويطلبوا منه الأمان قبل ان يدخل عليهم عنوة ، وبينما هو يسير إلتقى بأبي‌سفيان وصاحبيه واخبره بوصول جيش المسلمين العرمرم، ونصحه بأن يلجأ الى النبي لأن في ذلك نجاته ، وهو يتعهد بطلب الأمان له ، فقبل أبو سفيان النصيحة وجعله العباس رديفه على بغلة النبي وتوجها نحو معسكر المسلمين .

فلما وصلا الى خيمة النبي أمر عمه ان يأخذ أبا سفيان الى خيمته ويحضره اليه صباح غد ، فلما كان الصباح وجيء بأبي سفيان حصلت بينهما المحاورة التالية :

(ويحك : يا ابا سفيان ألم يأن لك ان تعلم ان لا اله إلاّ الله؟! قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! قد كان يقع في نفسي انه لو كان مع الله اله لقد اغنى عني شيئاً بعدُ. قال النبي : يا ابا سفيان، ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وامي ما أحلمك وأكرمك واعظم عفوك ، اما هذه فوالله إن في النفس منها شيئاً بعدُ ، فقال العباس لأبي سفيان : ويحك إشهد ان لا اله إلاّ الله واشهد أن محمداً عبده ورسوله قبل — والله — ان تُقتل ، فشهد ابو سفيان شهادة الحق وأسلم . فقال العباس : يا رسول الله إنك عرفت أبا سفيان وحبه الشرف والفخر ، اجعل له شيئاً ، قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن) .

يا للروعة أي عفو أعظم من هذا !! ابو سفيان زعيم قريش الذي أدمى قلوب المسلمين في معركة أُحُد والذي هدّد المسلمين بالاستئصال في عقر دارهم يعفو عنه النبي ، ثم يعطيه الى جانب العفو من الجاه والشرف ما يفخر به ، لقد كانت هبة الحياة كل رجائه فإذا الحياة والجاه بعض هبات النبي للعدو المقهور .

دخول النبيّ مكة

رأى اهل مكة قوات المسلمين تقترب منهم ، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد قرروا قراراً حاسماً بشأن القتال ، فإذا بصوت ابي سفيان ينطلق بينهم مجلجلاً : (يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به ، فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل

المسجد فهو آمن)، واصبحت مكة تنتظر دخول المسلمين، فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة، واجتمع بعضهم في المسجد الحرام، وبقي المتطرفون مصرّين على القتال .

اما النبي فقد جعل جيشه على قسمين : قسم ولى عليه خالد بن الوليد وأمره أن يدخل من مكان يُدعى (كُدى)[1] ودخل النبي بالقسم الثاني من مكان يُدعى (كداء)[2] ، فأما خالد بن الوليد فقد قابله رجال من احلاف قريش وأرادوا منعه فحدثت بين الفريقين معركة قُتِلَ فيها من المسلمين رجلان ومن المشركين ثمانية وعشرون ، وداخلهم الرعب فانهزموا .

والنبي لم يجد معارضاً، وكان راكباً راحلته منحنياً على رحلها[3] تكاد لحيته تمسه تواضعاً، خاشعاً على ما أكرمه الله به من الفتح .

هذا التواضع من النبي عند هذا الفتح الكبير وسط هذا الجيش العرمرم لا يوجد له مثيل في كافة الفتوحات التي طالعنا بها التاريخ ، وإن قيمة هذا التواضع تتضاعف إذا ما قارناه بمواقف الفخر والعظمة التي ابداها مختلف القادة في فتوحاتهم عندما حازوا على نصر اقل قيمة من فتح مكة .

ثم دخل النبي مكة وحول البيت الحرام ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده وهي تهوي ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ ثم أمر بتحطيمها[4] .

هذا وإن في تحطيم الأصنام – التي يعبدها المشركون – دون ان تدافع عن نفسها او تصيب من حطمها بأذى، هو قضاء عملي على الوثنية في جزيرة العرب، وانتزاع قدسيتها من عقول المشركين .

---

(١) كدى : جبل بأسفل مكة .

(٢) كداء : جبل بأعلى مكة .

(٣) رحلها : ما يوضع على ظهر الجمل ليركب .

(٤) لم يكتف النبي بتحطيم هذه الأصنام فإنه في اليوم الخامس بعد الفتح ارسل خالد ابن الوليد في ثلاثين رجلا وأمره بهدم هيكل اكبر صنم كان لقريش وهو العزى وكان هيكلها ببطن نخلة قريباً من مكة ، وأرسل عمرو بن العاص لهدم الصنم الكبير لبني هذيل وكان هيكله على بعد ثلاثة أميال من مكة فهدمه، وبعث بسعد زيد الأشل في عشرين فارساً لهدم الصنم مناة وكان هيكلها بالمشلل على ساحل البحر الأحمر ، فهدموها .

ثم جاء النبي البيت الحرام فطاف به سبعاً على راحلته[1] يستلم الركن بعود في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففُتحت له ودخلها وصلى فيها ورأى فيها صُوَر الأنبياء فأمر بها فمحيت .

العفو الكبير

ثم وقف النبي على باب الكعبة وقد التف الناس حوله فقال : (لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له . صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) .. ثم أبان لهم بعض الأحكام الشرعية ، ثم أعلن للمسلمين الأصل الذي أقام عليه الإسلام صرح أمة عالمية لا تمت الى الروابط الجنسية ، أمة دينهـا الحق . والتفاضل فيها لا يقوم على المال والجاه ، بل على التقوى ، قال النبي :

(يا معشر قريش إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب) ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ .

وبعد ذلك وجه النبي الخطاب لقريش وكانوا في وضع المذنب الجاني المعتدي ، فكم عذّبوا المسلمين ونكلوا بهم في مكة وحاولوا قتله . وهاجموا المدينة مرة بعد مرّة لكي يقضوا عليه ويستأصلوا المسلمين وأوقعوا فيهم كثيراً من الضحايا . لقد كان أرأف ضرب من ضروب القصاص يقضي بقطع رؤوس زعمائهم الكبار وسجن البعض الآخر واخضاع سائرهم للاذلال مع عقوبات مالية تفرض عليهم كما تفعل الدول المتمدنة اليوم . او استرقاقهم جميعاً كما كانت تفعل الأمم قديماً .

لم يفعل النبي من ذلك شيئاً بل خاطب هؤلاء القوم المذنبين :

(يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم ؟) .

ولكن قريشاً لم تكن تتوقع ان تلقى على يديه اية معاملة قاسية . بل كانت تؤمن بما يتحلى به النبي من طبيعة نبيلة وسلوك مثالي ، لذا كان جوابهم لسؤال النبي : (خيراً . اخ كريم وابن اخ كريم) .

ومن هنا نطق النبي بكلمة العفو . الكلمة الكبيرة التي ظلت على مدىً

---

(١) الراحلة : الناقة .

التاريخ شاهدة برفعة السلوك الإنساني الذي كان يتحلى به فقال : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

المساواة بين الناس

ثم جلس النبي في المسجد فقام اليه علي بن أبي طالب – ابن عمه واقرب المقربين اليه – فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، ولكن النبي لم يرَ أن ينزع المناصب العالية من الغير ويعطيها لأقربائه كما يفعل أي حاكم غيره دانت له السلطة بل قال : (اين عثمان بن طلحة ؟) فدُعي له ، فقال : (هاك مفتاحك ، اليوم يوم برّ ووفاء) .

وليظهر النبي مساواة المسلمين جميعاً ، لا فرق بين ابيض وأسود فقد أمر بلالاً – وهو عبد حبشي – ان يؤذن يوم الفتح فوق الكعبة ، وهذا تكريم لبلال يغبطه عليه المسلمون جميعاً ، لأن الكعبة هي أقدس مقدسات المسلمين لهذا قال رجل من قريش لصاحب له : (ألا ترى الى هذا العبد اين صعد ؟) .

وروى البخاري عن عروة بن الزبير ان امرأة سرقت في غزوة الفتح (أي فتح مكة) فلجأ قومها الى أسامة بن زيد ليطلب الشفاعة لها ، فلما كلمه أسامة تلون وجه النبي وقال : (اتكلمني في حدّ من حدود الله؟) فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله . فلما كان العشي قام النبي خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : (أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس محمد بيده (أي الله) لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) ثم أمر النبي بتلك المرأة فقطعت يدها . فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت .

وقد كان لسلوك النبي السامي يوم فتح مكة أثره الكبير في غزو قلوب الناس الذين استهوتهم روعة الإسلام فأقبلوا على النبي يبايعونه[1] على الإسلام فأخذ عليهم النبي السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال اقبلت النساء عليه فبايعنه أيضاً ، وفي ذلك نزل الوحي الالهي :

﴿ يا أيّها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك[2] على ان لا يشركن بالله شيئا

---

(١) يبايعونه : يعاهدونه .

ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين[1] ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾.

أحلم الناس

وقد أهدر النبي دماء رجال قلائل اتصفوا بالاجرام وشدة العداوة له وللمسلمين فهربوا من وجهه فقتل بعضهم وأسلم بعضهم الآخر.

من هؤلاء: هبار بن الأسود. وقد استتر حتى إذا كان رسول الله بمكان يدعى: (الجعرّانة) جاءه مسلماً وقال له: يا رسول الله هربت منك واردت اللحاق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك[2] وصلتك وصفحك عمن جهل عليك، أوكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل، فقال له النبي: قد عفوت عنك.

ومنهم: صفوان بن أمية، فإنه ضاقت عليه الأرض بما رحبت فذهب ليلقي بنفسه في البحر فجاء ابن عمه عمير بن وهب وقال: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيّد قومه وقد هرب ليلقي بنفسه في البحر فأمنه فإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فقال له رسول الله: ادرك ابن عمك فهو آمن، فقال عمير: فأعطني يا رسول الله علامة، فأعطاه النبي عمامته، فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان قال له: فداك أبي وأمي قد جئتك من عند أفضل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك، وعزّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إني اخافه على نفسي. قال عمير: هو أحلم من ذلك واكرم، وأراه العمامة علامة الأمان، فرجع الى النبي وقال له: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال: صدق، قال صفوان: فأمهلني شهرين. فقال له النبي: بل أربعة أشهر، ثم أسلم وحسُنَ اسلامه.

ومنهم (وحشي) قاتل عمه حمزة وقد جاء اليه مسلماً فقُبِلَ اسلامه.

ومنهم الشاعر كعب بن زهير الذي جاء الى المدينة وأسلم وانشد رسول الله قصيدة يمدحه فيها والتي فيها هذه الأبيات:

---

(١) يأتين ببهتان يفترينه: أي لا يلحقن بازواجهن من ليس من اولادهم بهتاناً وكذباً.

(٢) عائدتك: معروفك.

أنبئت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

فلما انتهى الى قوله :

إن الرسول لنــور يستضاء به مهنّد من سيوف الله مســلول

خلع الرسول بردته وأعطاه إياها اعجاباً بشعره .

* * *

وهكذا تظهر لنا في فتح مكة شخصية النبي كأعظم قائد عرفه التاريخ ، إنه القائد المثالي الذي قابل جميع من اساءوا اليه واضطهدوه بعفوه الرحب ورحمته التي وسعت الناس جميعاً ، لقد كانت الرغبة في الانتقام والمقابلة بالمثل عند بعض اصحابه جامحة ، ولكنه اخمد هذه الرغبة وأبدلها سماحة وسلاماً . إنه في عفوه يريد ان يظهر الإسلام — الذي احدث ثورة على العقائد البالية ، والنظم الاجتماعية الفاسدة — انه اسمى من جميع الثورات والانقلابات التي عرفتها البشرية ، لأن غايته وحدة البشرية وصلاحها وتوثيق عرى المودة بينها لا الحصول على مغانم ومكاسب له ولخاصته .

الفصل السادس

أيامه الأخيرة

حجة الوداع – وفاة النبي .

حجة الوداع

وفي السنة العاشرة من الهجرة خرج النبي من المدينة للحج، وكان ذلك يوم السبت في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وكان معه جمع كبير ممن لم يُعهد مثله في بلاد العرب قبل ذلك ، فساروا جميعاً يحدوهم الإيمان وتملأ قلوبهم الغبطة لتأدية فريضة الحج، فلم يزالوا سائرين حتى دخلوا مكة، وهناك حج النبي بالناس فأراهم مناسكهم وعلمهم سنن حجهم .

وفي (منى) في اليوم الثاني من أيام التشريق خطب فيهم رسول الله خطبته الجامعة التي بيّن فيها حقوق الإنسان، نذكر فيما يلي مقتطفات منها، قال رسول الله :

(يا ايها الناس هل تدرون في اي شهر أنتم وفي أيّ يوم انتم؟ وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا: في يوم حرام ، وبلد حرام ، وشهر حرام ، قال : فإن دماءكم واموالكم واعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هـذا ، في شهركم هذا ، وفي بلدكم هذا ، الى يوم تلقونه. ثم قال : اسمعوا مـني تعـوا ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلاّ بطيب نفس منه...

ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد أيس ان يعبده المصلون ولكنه رضي في التحريش[1] بينكم ، واتقوا الله في النساء

(١) التحريش : الإفساد .

فإنهن عندكم عوان[١]، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً: أن لا يوطئن فرشكم احداً غيركم، ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه ، فإن خفتم نشوزهن[٢] فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرّح[٣]، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما اخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . وبسط يديه وقال : ألا هل بلّغت ؟ ألا هل بلّغت ؟ ثم قال : ليبلغ الشاهد الغائب فإنه رُبّ مبلغ أسعد من سامع[٤] .

يا أيّها الناس : إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتقوى . أبلّغت ؟ قالوا : بلّغ رسول الله[٥] ...)

وروى الطبراني ان رسول الله قال في حجة الوداع :

(وأحدثكم من المسلم ؟ من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأحدثكم من المؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . واحدثكم من المهاجر ؟ من هجر السيئات ، والمؤمن حرام على المؤمن كحرمة هذا اليوم . لحمه عليه حرام ان يأكله بالغيبة يغتابه ، وعرضه عليه حرام ان يظلمه ، واذاه عليه حرام ان يدفعه دفعـــاً) ...

*　　*

ألقى رسول الله هذه الكلمات على الجموع الحاشدة وقد اشتملت على اصول أولية لم يفه بها خطيب في بلاد العرب من قبل .

منها : تحريم أكل الأموال بالباطل ، وتحريم القتل ، وقد كانوا قبل ذلك

---

(١) عوان : اسرى ، وهو تقرير للواقع في ذلك العهد لا لحالتهن الملازمة لهن تحت رعاية الشريعة الإسلامية التي اعطتهن من الحقوق ما لا تزال نساء القرن العشرين محرومات منها ، وقد كانت النساء عند العرب قبل الاسلام يعشن في ذل واستعباد ، الزوجة تورث بعد موت زوجها وتباع كما تباع الانعام ليس لها ادنى حق حيال زوجها تطالبه به .

(٢) نشوزهن : عصيانهن .

(٣) غير مبرّح : غير مؤثر . والضرب غير المبرح موضوعه المرأة الخارجة على حدود الناموس الأدبي العام لا المرأة المحافظة على كرامتها .

(٤) رواه الإمام احمد .

(٥) رواه الإمام احمد .

يعتمدون على الغارات المسلحة لتحصيل معاشهم عن طريق النهب والقتل .

ومنها : تحرير المرأة بعد ان كانت مستعبدة عند العرب وعند سائر الشعوب ، وكان تحريرها بتصريح النبي أن للنساء حقاً على الرجال بأن يعاشروهن بالمعروف . ومن الجدير بالذكر أن الإسلام أثبت لهن حق الوراثة بعد ان كن محرومات من هذا الحق ، وجعل لهن الاستقلال بإدارة أموالهن وقبول شهادتهن . وهذا مما لم تعرفه الأمم في ذلك العصر .

ومنها : مبدأ المساواة بين جميع أفراد النوع الإنساني بصرف النظر عن اللغة واللون والجنس ، وجعل مناط التفضيل بين الناس الصفات النفسية من تقوى الله القائمة على العمل الصالح ، وهذا المبدأ لم ينبس به متكلم قبل الإسلام قط ، لأن الناس كانوا يعتدّون بأجناسهم الى اقصى حدّ حتى كبار الفلاسفة منهم : ألم يَقل افلاطون : اني لأشكر الله على ثلاث : أن خلقني انساناً ولم يخلقني حيواناً ، وأن جعلني يونانياً ولم يجعلني من جنس آخر ، وأن أوجدني في عهد سقراط ؟! .

ولما أدى رسول الله مناسك الحج قفل راجعاً الى المدينة ولما رآها كبّر ثلاثاً وقال :

(لا اله إلاّ الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده)[1] .

---

(١) رواه البخاري .

وَفَاةُ النَّبِيِّ

بدء المرض وشدته : رجع رسول الله من حجة الوداع فما هي إلاّ أشهر حتى شعر بوعكة المرض وبدأت آلامه صداعاً حاداً .

ولما اشتد به الوجع استأذن رسول الله ازواجه ان يمرض في بيت عائشة بدل ان ينتقل كعادته بين بيوت نسائه، فأذنّ له بذلك، واشتد المرض على رسول الله واشتدت بالتالي آلامه، فها هو عبد الله بن مسعود يقول: دخلت على النبي وهو يوعك فمسسته فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك[١] وعكاً شديداً ! فقال : أجل إني اوعك كما يُوعك رجلان منكم ! قال : قلت إن لك لأجْرَيْن ، قال : نعم ! والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلاّ حطّ الله به عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها .

وما قاساه رسول الله في مرضه ترك انطباعاً باستعذاب البلاء عند عائشة زوجه اذ قالت : (لا أزال اغبط المؤمن بشدة الموت بعد شدته على رسول الله).

خطبته بالمسلمين : واتقدت حرارة العلة في جسم النبي ، فطلب ان يأتوه بماء كثير يتبرّد به ... فقال لهم : (هريقوا[٢] عليّ سبع قرب من آبار شتّى) . قالت عائشة : فأقعدناه في مخضب[٣] لزوجته حفصة ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول : (حسبكم ، حسبكم)[٤] .

فلما اغتسل وجد الراحة فخرج الى الناس عاصباً رأسه فصلى بهم ثم خطبهم واستغفر للشهداء من أصحاب (غزوة أُحُد) ودعا لهم ثم أوصى بالأنصار ، فقال : يا معشر المهاجرين إنكم اصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم ، وإن الأنصار عيبتي[٥] التي أويت اليها ،

---

(١) وعك : اصابه الم من شدة التعب او المرض .

(٢) هريقوا : اريقوا وصبوا .

(٣) مخضب : وعاء يغتسل فيه .

(٤) حسبكم : كفاكم .

(٥) عيبتي : موضع ثقتي وسري .

فأكرموا كريمهم وأحسنوا الى محسنهم ، ثم قال :

إن عبداً من عباد الله خيّره بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله ... ففهمها ابو بكر ، وعرف ان النبي يريد نفسه بهذا التخيير فبكى وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال النبي : على رِسْلك يا أبا بكر ، ثم خاطب المسلمين : لا يبقى في المسجد باب إلاّ سُدّ إلاّ باب أبي بكر فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه ... فإني لو كنتُ متخذاً من العباد خليلاً لاتّخذت ابا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء ايمان حتّى يجمع الله بيننا عنده .

ولما كان رسول الله يخشى على أمته بأن تخالط عبادة الله بعض الشوائب من الإشراك بالله وتعلق القلوب بـ (الأضرحة) بدل ان تتعلق القلوب بالله وحده ، فخاطب المسلمين قائلاً : وإن قوماً ممن كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد ، فلا تتخذوا القبور مساجد فإني انهاكم عن ذلك .

تكليف ابي بكر بإمامة الصلاة : وحين عجز رسول الله عن الصلاة قال : مروا أبا بكر فليصلّ بالناس ، فقالت عائشة : يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن، قال: مروه فليصل بالناس ، قالت : فعُدتُ بمثل قولي ، فقال : إنكن صواحب يوسف[1] فمروه فليصلّ بالناس ، قالت : فوالله ما اقول ذلك إلاّ اني كنت احب ان يصرف ذلك عن ابي بكر ، وعرفت ان الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه ابداً ، وإن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان فكنت احب ان يُصرف ذلك عن أبي بكر .

ثم إن النبي رأى في نفسه بعض القدرة للخروج الى الصلاة فاستند الى رجلين حتى المسجد ، وكان ابو بكر يؤم المسلمين في صلاتهم فأراد ابو بكر ان يتأخر فأومأ اليه النبي ان يستمر مكانه، ثم اتى حتّى جلس الى جنبه فكان النبي يصلي وابو بكر يصلي بصلاته والناس يصلون بصلاة ابي بكر .

الوَصيَّة الأخيرة : ولما دنا الفراق جمع رسول الله اصحابه في بيت عائشة فنظر اليهم وشدّد نظره بهم ودمعت عيناه وقال : مرحباً بكم، حياكم الله، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، وفقكم الله، سلّمكم الله ، قبِلكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، واستخلفه عليكم ، وأؤديكم اليه ، إني لكم منه نذير وبشير ، ألاّ تعلوا على الله في عباده

---

(١) انكن صواحب يوسف : أي رقيقات العواطف .

وبلاده فإنه قال لي ولكم : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

ثم أوصاهم بكيفية تكفينه ودفنه وعدم الصياح .

ويُروى عن جابر انه سمع رسول الله يقول قبل موته: (أحسنوا الظن بالله) . ولما كان النبي يخشى على أمته اتباع الشهوات التي تؤدي الى ترك الصلاة ، وان يطغى عليهم وازع الكبرياء ، فكانت وصيته لهم بالمحافظة على الصلاة والرفق بمن كانت تحت أيديهم من رقيق وخدم ، يقول أنس رضي الله عنه : كانت عامة وصيَّة رسول الله حين حضر الوفاة : (الصلاة وما ملكت أيـْمانكم) .

الساعات الأخيرة : وكان أبو بكر يؤم المسلمين في الصلاة إطاعة لأمر رسول الله حتى إذا كان يوم الاثنين – اليوم الذي توفي فيه – كشف النبي ستر حجرته التي تطل على المسجد وتبسّم وهو يرى المسلمين في صلاتهم ، فرآه المسلمون فطغى الفرح عليهم حتى همّوا ان يتركوا ما هم فيه من الصلاة لفرحهم به ، وحتى أراد أبو بكر ان يتأخر ليصل الى الصف الذي خلفه مفسحاً المجال لرسول الله لأن يصلي بهم ، فأشار إليهم النبي ان يمكثوا في صلاتهم ، وارخى الستار ورجع الى فراشه ، وكان ذلك آخر لقاء له مع المسلمين .

ولما نزل به الموت جعل النبي يأخذ الماء بيده ويجعله على وجهه ويقول : واكرباه فتقول فاطمة : واكربي لكربك يا أبتي ، فيقول رسول الله : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، فلما رأى شدة جزعها استدناها وسارّها فبكت ، ثم سارّها الثانية فضحكت ، فلما توفي رسول الله سألتها عائشة عن ذلك ، قالت : اخبرني انه ميّت فبكيت ، ثم اخبرني اني أول أهله لحوقاً به فضحكت .

وتقول عائشة تصف اللحظات الأخيرة من وفاته : كان بين يدي النبي علبة فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ثم يقول : في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى، حتى قبض (أي توفي) .

وكان موته يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول ، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

* * *

إن من يسمع أقوال محمد ﷺ قبل وفاته وفي ساعاته الأخيرة يقتنع اقتناعاً لا ريب فيه بأنه رسول الله حقاً.

فالوصية بالصلاة وتقوى الله وعدم الفساد كانت آخر وصاياه للمسلمين، ومرأى المسلمين في صلاتهم كان احلى المشاهد التي ادخلت السرور على نفسه، وهو يشعر بأن أجله قد حان.

فإذا فرضنا جدلاً بأنه لم يكن نبياً وكان كسائر الناس فإن هذه الساعات الأخيرة التي يشعر بها الانسان باقتراب اجله تجعل همه منصرفاً الى التفكير في أهله وفي خاصة امره وما كان يحرص عليه من ملذاته.

وقد شوهد من الذين يخادعون الناس انهم كانوا يعترفون في تلك الساعات الأخيرة الرهيبة بجرائمهم ويتبرأون من ضلالهم.

والذي رآه الناس من محمد ﷺ هو خلاف ما عهده الناس في أولئك الدجالين، فكان الله خليله، وكان مطلبه: ربه، ذلك الرفيق الأعلى الذي ردده على شفتيه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة.

لقد توفي رسول الله وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لن يضلوا: كتاب الله وسنته، وترك اصحابه البررة الكرام يوضّحون الإسلام ويتممون فتح البلاد ويظهرون في العالم هداه، فنسأل الله ان يجزي محمداً خير ما جزى الله نبياً عن أمته، وان ييسرنا للعمل بهداه حتى نحصل على سعادة الدنيا والآخرة.

القسمُ الثالث

محمد ﷺ

مِن حياته الخاصّة والعامّة

١ - مِن شمائل النبيّ
٢ - زوجاتُ النبيّ
٣ - دروسٌ وعِبَر
٤ - أعظمُ العظماء

الفصل الأول

من شمائل النبي

محمد المثل الكامل – صفته البدنية – تواضعه – رحمته – عفوه وحلمه – زهده – – عبادته – بلاغته وحكمته .

محمّد المثل الكامل

سيرة محمد ﷺ حافلة بالفضائل الإنسانية والصفات الحميدة ، والمواقف الخالدة التي تتكشف عنها العظمة الأصيلة والخلق الكريم ، فقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وعصمه من شرور البيئة التي كان فيها ، فما من خلق كريم إلاّ كان متحلياً به ، ولهذا وصفه الله في القرآن : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ولهذا كان محمد المثل الأعلى للكمال الإنساني ، والقدوة الصالحة للمسلمين ، لذا أمرنا الله ان نقتدي به ونهتدي بفعاله لنحصل على رضوان الله قال سبحانه مخاطباً المؤمنين :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسْوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر وَذَكَرَ الله كثيرا ﴾ الاحزاب : ٢١ .

والباحث المنقب عن أخلاق النبي وصفاته الحميدة يقتضيه الإطلاع على القرآن فكل خلق عظيم دعا اليه القرآن تحلى به محمد ﷺ ولهذا تقول عائشة أم المؤمنين والتي هي أقرب الناس اليه : (كان خلق رسول الله القرآن) .

كما أن كتب الأحاديث الشريفة تروي لنا عشرات الآلاف من أقوال النبي وأفعاله ووصاياه الداعية لكل فضيلة وكل سمو إنساني والتي هي أقوى برهان وأعظم شهادة على تفرّد النبي بالخلق الكريم الأمثل .

---

(١) وتسمى كتب السنة ، وأهمها : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والترمذي ، والنسائي وابو داود ، وابن ماجة ، والموطأ للإمام مالك ، والمسند للإمام احمد .

ونحن في هذه الصفحات القليلة سنذكر نبذة من صفاته ليهتدي القارىء بها ويسير على منوالها ليحصل على رضوان الله، وقبل ان نذكر صفاته يَحسن بنا ان نذكر صفته البدنية كما وصفه بذلك اصحابه .

صفته البَدنية

كان النبي احسن الناس وجهاً لم يصفه واصف إلاّ شبهه بالقمر ليلة البدر ، ابيض اللون مشرباً بحمرة ، عيناه واسعتان مع شدّة سواد الحدقة ، اكحل العينين بدون كحل ، رموش عينيه فيها طول ، حاجباه طويلان مع دقة فيهما يمتدان الى مؤخر العينـين ، واسع الجبين ، مستوى الأنف، واسع الفم، أحسن الناس شفتين ، ما بين أسنانه انفراج ، سهل الخدين ، أحسن الناس عنقاً لا ينسب الى الطول ولا الى القصر ، عريض الصدر ، رحب الكفين والقدمين ، ليس بالطويل المفرط في الطول ولا بالقصير المتناهي في القصر ، سواء البطن والصدر ، جسمه ليس منتفخاً ولا نحيلاً ، واسع الظهر ، ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب الى الصفرة حولهـا شعرات متواليات ، شعره ليس بالجعد ولا بالمسترسل ولكنه وسط بينهما ، يصل شعره الى نصف أذنيه او الى شحمة أذنيه ، إذا مشى يمشي بقوة كأنما يمشي في انحدار ، وإذا التفت التفت جميعاً ، حسن الصوت ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه (باسم الله تعالى) يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً ، إذا غضب أعرض واشاح وإذا فرح غض طرفه ، جُلُّ ضحكه التبسم ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أرَ قبله ولا بعده مثله ، وكان يحب الطيب ويستعمله في كثير من الأوقات لملاقاة الملائكة ومجالسة المسلمين ولذلك كان لا يأكل البصل والثوم ، وكان يسمي الثوم : (البقلةُ الخبيثة) .

تواضعه

صفة التواضع قل أن يتصف بها الحاكم الذي دانت له السلطة واستلم مقادير الأمور ، خصوصاً في الأزمنة الماضية حيث كان الكبر القاعدة والسمة البارزة لحكام الأرض .

ومحمد ﷺ خالف هذه السمة المتعارف عليها ، فكان التواضع أبرز

صفاته ، وكان من اهداف رسالته القضاء على نزعة الكبرياء المنتشرة في العالم ، فكثيراً ما كان يعظ قومه ويقول :

(لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر)[١] .

وقد كان النبي في حياته في نهاية التواضع ، ومن المعروف في سيرته انه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس ، ويعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه .

خرج النبي مرة على اصحابه متوكئاً على عصا فقاموا له، فقال: (لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظّم بعضهم بعضاً) .

ومن أقواله: (لا تطروني[٢] كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنّما انا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله)[٣] .

ومن مظاهر تواضعه : انه كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويخدم في مهنة اهله ، ويقطع اللحم معهن ، أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه احد ، يجيب دعوة العبد والحرّ ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس .

ومن جالسه او قاومه في حاجة صابره، حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم يردّه إلاّ بها ، أو بميسور من القول .

جاءه رجل يرتعد يوم فتح مكة فقال له رسول الله : (هوّن عليك فإني لست بملك، إنما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)[٤] .

هذه الكلمة لو تأملها طالب الدليل القاطع على نبوته لوجد فيها أقوى حجة على ذلك، فإن قائداً دانت له بلاد بأكملها وأصبحت له الكلمة النافذة يجرد نفسه من كل ألقاب العظمة ، هو إنسان لا يوفيه حقه أي وصف غير وصف النبوة .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) لا تطروني : الاطراء هو حسن الثناء اي لا تبالغوا في مدحي كما بالغت النصارى في مدح عيسى فجعلوه ابن الله .
(٣) رواه البخاري .
(٤) القديد : اللحم المجفف.

رحمته

لو حاولنا المقارنة بين المزايا التي يتمتع بها الانسان ، والصفات التي يتحلى بها لما وجدنا صفة تفوق صفة (الرحمة) نبلاً وفضلا .

والرحمة صفة بارزة للإسلام فالله الذي يتوجه إليه المسلمون بالعبادة من صفاته الرحمة ، فهو ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ .

ومحمد ﷺ خصّه الله بهذه الصفة ، قال سبحانه مخاطباً المؤمنين :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ التوبة : ١٢٨ .

فرأفة النبي تتمثل في دفعه المضار عن المسلمين وجلبه المنافع لهم ، والآية القرآنية فيها ثناء على النبي كما أن فيها إشادة بخلق الحاكم الرحيم الذي يقلقه ويؤلم نفسه ما عسى ان يشق على شعبه ويوقع به الضرر .

هذا وقد وصف الله رسوله محمداً ايضاً بقوله :

﴿ فبما رَحْمَةٍ مِنَ اللهَ لِنْتَ لهم ، ولو كُنْتَ فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ آل عمران : ١٥٩ .

فالله سبحانه وصفه بأنه يلين لقومه ، وهذا اللين صادر عن منحة من الرحمة منحه الله إياها ، فلو كان (فَظّاً) وهو الكريه الذي لا تستريح اليه النفوس . وكان (غليظ القلب) وهو كناية عن عدم رقته ورحمته ، لكرهه الناس وتفرقوا عنه .

والنبي كانت حياته كلها رحمة ، سواء في معاملته للناس ، او في ارشاداته لأمته . فهو الذي كان يوصي قومه : (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) (لا تُنزع الرحمة إلاّ من شقي) .

والرحمة لا تظهر جليّة في الإنسان إلاّ على من دونه قوة وقدرة ، تأمل معاملة النبي لخدمه ، كما روى أحد اصحابه :

---

(١) عزيز عليه : اي يصعب على نفسه ما يصيبكم من مكروه .

(٢) حريص عليكم : أي شديد الرغبة في هدايتكم .

(ما رأيت رسول الله ضرب خادماً له قط)[1] .

وقال انس رضي الله عنه: (خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أفّ قط ، وما قال لشيء صنعته لِمَ صنعتَهُ ، ولا لشيء تركتُهُ لِمَ تركته)[2] .

ومن وصاياه في معاملة الأرقاء قوله : (هم إخوانكم جعلهم الله تحت ايديكم فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[3] .

وقد اتسعت رحمة النبي حتّى وصلت الى الحيوان الأعجم، فكان يرحمه ويوصي بالرفق به ، فمن أقواله : (ما من مسلم يغرس غرساً ، او يزرع زرعاً فيأكل منه طير او انسان او بهيمة إلاّ كان له به صدقة)[4] .

فهذا ثناء على من يُطعِم الحيوان ، وأنه من عمل الخير الذي ينال به الإنسان القربى من الله.

ويقول النبي في ثواب من يرحم الحيوان : (بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد به العطش فوجد بئراً فنزل فيه فشرب ثم خرج ، فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكره الله فغفر له)[5] .

ويقول النبي :(عُذّبت امرأة في هرة حبستها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض)[6] .

لقد أذن الإسلام في قتل الحيوان المؤذي –كالكلب العقور– لكنه أمر بالإحسان في قتله ، وأذِن الإسلام في ذبح الحيوان الذي يحلّ أكله ، لكنه أمر بالإحسان في الذبح ، يقول النبي : (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة وليحدّ احدكم شفرته

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخاري .
(٥) رواه البخاري .
(٦) رواه البخاري ومسلم .

وليرح ذبيحته[1]).

ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير عن رحمة النبي بالضعفاء .

عفوه وحلمه

وكان رسول الله مطبوعاً على الحلم والعفو مع القدرة على الانتقام ممتثلاً أوامر ربه : ﴿ خُذِ العفو وأمُرْ بالعُرف وأعرِض عن الجاهلين ﴾ .

قيل في تفسيرها : ان تصل من قطعك ، وتُعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك، لأنك إذا وصلت من قطعك فقد عفوت عنه، وإذا آتيت من حرمك فقد آتيت بالمعروف ، وإذا عفوت عمن ظلمك فقد اعرضت عن الجاهلين .

وجاء في القرآن الكريم في الحث على العفو :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالّتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم ﴾ فصلت : ٣٤ .

وقد تضافرت الأخبار على اتصاف رسول الله بهذه الصفات ، فقد قيل في وصفه : (وما انتقم رسول الله لنفسه في شيء قط إلاّ ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله)[1] .

والمعروف عن رسول الله انه كان يصبر للغريب على ما يلاقيه منه من جفوة، يقول أنس رضي الله عنه: (كنت أمشي مع النبي وعليه برد[2] نجراني غليظ الحاشية فأدركه اعرابي فجبذه[3] بردائه جبذة شديدة فنظرت الى صفحة عاتق[4] النبي وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال الأعرابي: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت اليه فضحك ثم أمر له بعطاء)[5].

ومن الحوادث الّتي شملها عفوه الكريم ودلت على حلمه المنقطع النظير ما رُوي : انه هبط على رسول الله وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله. وما كان إلاّ ان أُخذوا

---

(١) رواه البخاري .
(٢) برد : ثوب .
(٣) جبذه : شده .
(٤) عاتق : ما بين المنكب والعنق .
(٥) رواه البخاري .

في الأسر ثم عفا عنهم[1]

وهذا رجل أبكاه وأدخل الحزن على المسلمين وهو عبد حبشي يسمى (وحشي) قاتل حمزة – عم النبي – يتحدث عن نفسه فيقول : خرجت حتى ملت الى رسول الله بعد فتح مكة والطائف فلم يرعه[2] إلا بي قائماً بقربه أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآني قال : أوحشي ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : اقعد فحدثني ، كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته ، فلما فرغت من حديثي قال : ويحك غيّب عني وجهك فلا أرينّك ، قال وحشي : فكنت اتنكب[3] رسول الله حيث كان لئلاّ يراني .

يا للروعة ! عبدٍ حبشي ، لا أصل له ولا عشيرة يعفو عنه رسول الله وهو قاتل عمه ، وأحب شيء الى المسلمين ان يروا مصرعه كما رأوا من قبل مصرع حمزة .

انه العفو عند المقدرة ، انه صفة من صفات النبي التي يتجلى فيها سمو المقصد وحسن التصرف ، والانتصار على هوى النفس .

زهده

من السمات الظاهرة لعالمنا الحاضر التكالب على الدنيا وملذاتها ، ذلك التكالب الذي ولّد الخلافات والمنازعات بين الجماعات والأفراد ، وجعل الإنسان في سباق مستمر وراء المادة للحصول عليها من أي السبل كانت ، لذا فقد أرهقته وجعلته أسير الهم والقلق يبحث عن السعادة ولا يجدها .

فالمادة – في نظر الاسلام – يجب ان لا تلهي الإنسان عن واجباته نحو خالقه وإخوانه في الانسانية ، فمهما استكثر الإنسان من مقتنيات الحياة فإن مصيره الموت وترك ما جمع ، ولهذا ينبه الله الإنسان الى هذا المصير : ﴿ الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ .

كما ان الله سيحاسب الإنسان على النعيم الذي يرفل فيه إذا كان فيه نسيان لخالقه وإذا كان على حساب الحق والخير : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) يقصد أنه قدم فجأة .
(٣) اتنكب : اتجنب .

لهذا دعا الله الى الزهد بقوله :

﴿ ولا تمدنّ عينيك الى ما متّعنا به ازواجاً منهم زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهم فيه ورِزْقُ ربك خَيْرٌ وأبقى ﴾ طه : ١٣١ .

فالله سبحانه في هذه الآية ينهى نبيه والمؤمنين عن الطمع في الدنيا والتطلع الى زينتها وبهجتها وما يتمتع به الكافرون من انواع متعها وملذاتها ، لأنها اختبار لهم ، فإن ما أعطاه الله للمؤمنين من الهُدى ، وما ادّخر لهم في الآخرة هو خير لهم وأبقى اثراً .

وليست تلك دعوة للرهبنة وترك أسباب العيش والركون الى التواكل ، بل المقصود هو التضحية بهذه الملذات في سبيل نصرة الحق واغاثة الضعفاء .

لهذا كان الزهد من وصايا رسول الله لتخفيف وطأة الطمع والتكالب على على الدنيا فقد قال :

(إزهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[١] .

ورسول الله كان في حياته مثالاً للزهد في الدنيا والاعراض عن ملذاتها ، وزهده من الدلائل على صدق نبوته ، فقد اقبلت عليه الدنيا – ولا سيما بعد فتح مكة – فلم يتحول عن سيرته في المأكل والملبس والأثاث .

ولندع الكلام الى عائشة زوجه تصف حياته البسيطة :

(انما كان فراش رسول الله الذي ينام عليه من أَدَمٍ[٢] حشْوُهُ ليف[٣])[٤]

(وإن كُنَّا آل محمد نمكث شهراً مانستوقد بنار إن هو (أي الطعام) إلاّ التمر والماء)[٥] .

(ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبِضَ رسول الله)[٦] « أي توفي » .

ويُروى عن ابن عباس أنه قال : (كان رسول الله يبيت الليالي طاوياً[٧]

---

(١) رواه ابن ماجة .
(٢) الادم : الجلد المدبوغ او مطلق جلد .
(٣) الليف : هو ليف النخل .
(٤) اخرجه مسلم والترمذي .
(٥) اخرجه مسلم .
(٦) اخرجه الترمذي .
(٧) طاوياً : جائعاً .

هو وأهله لا يجدون عشاء، وكان اكثر خبزهم الشعير)[1] .

وليس معنى هذا انه اقتصر على هذه الأصناف من الطعام طيلة حياته ، فقد رُوي انه كان يحب الحلواء والعسل، وكان يأكل اللحم والخضار والفواكه ولكنه كان يحرم نفسه منها في سبيل الفقراء من أمته، ولا يتناول من الطعام إلاّ ما يقيم اوده .

عبادته

كان رسول الله اشد الناس عبادة لله ، تغلغل حب العبادة في صميم قلبه فتعلق بالله وفنيت نفسه فيه ، وصارت العبادة جزءاً من كيانه .

واعظم مظهر لعبادته هو انه كان مسلماً وجهه الى الله في جميع الحالات ، واسلام الوجه لله هو أحسن مظاهر التدين، قال تعالى :

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسْلَمَ وجهه لله وهو مُحْسِنٌ ﴾ النساء : ١٢٥ .

والنص الالهي الفريد في معناه بين الكتب السماوية والذي بين كيفيّة اسلام الوجه لله نجده في القرآن الذي خاطب الله فيه رسوله محمداً :

﴿ قُلْ إن صلاتي ونُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتي لله ربِّ العالمين . لا شريك لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّل المسلمين ﴾ الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

هذا النص فيه كل التجرد والإخلاص لله .

وكان رسول الله يخشى الله في كل احواله ويذكره دائماً ويستغفره ، فيقول :

(والله إني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم اكثر من سبعين مرّة)[2] .

كما كان يتقرب الى الله بالصلاة والصيام وتلاوة القرآن ، فقد كان يتعبد في الليل (ويصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة)[3] وفقاً لما أمره الله :

﴿ ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ﴾ .

وكان رسول الله يقوم مصلياً حتى تنتفخ قدماه فيُقال له : (يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر[4])؟! قال : افلا أكون

---

(١) اخرجه الترمذي . (٢) رواه البخاري .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

(٤) فقد قال الله في محمد : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

عبداً شكورا)[1] .

وكان رسول الله يصوم من الشهر حتى يُرى ان لا يريد ان يفطر منه ، ويفطر حتى يُرى ان لايريد ان يصوم منه شيئاً ، كما انه قال : (تُعرض الأعمال[2] يوم الإثنين والخميس فأحب ان يُعرض عملي وأنا صائم) .

والجدير بالذكر في عبادة رسول الله هو ذلك الجمع الغريب بين أرقى مراتب التعبد وبين القيام بقيادة أمته ، فلو كان رسول الله من النسّاك العادين الذين انقطعوا للرهبانية لما كان في نسكه ما يلفت النظر ، فالجمع بين أرقى مراتب التعبد وبين القيام بواجبات الحياة من أبرز صفات رسول الله .

رُوي عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها[3] فقالوا : وأين نحن من النبي ؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخّر ، فقال أحدهم : أما أنا فإني اصلي الليل أبداً ، وقال آخر : أنا اصوم الدهر ولا أُفْطِر ، وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج ابداً . فجاء رسول الله اليهم فقال : (أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم ، لكني أصوم وأُفطر ، وأُصلي وارقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) .

وصورة أخرى من عبادته هي أننا نرى قلبه متعلقاً بالله رجّاعاً له في كل شيء :

فإذا جاء أمر يحبه قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وإذا اراد أمراً قال : اللهم خِرْ لي واختر لي .

وإن أراد نوماً قال : اللهم باسمك وضعت جنبي ، وباسمك ارفعه .

وإن استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور .

وإن لبس ثوباً جديداً قال : الحمد لله الذي رزقني ما اتجمل به في حياتي .

وإن اكل قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .

واذا رفع بصره إلى السماء قال : يا مصرّف القلوب ثبت قلبي على طاعتك .

---

(١) اخرجه البخاري والنسائي .

(٢) تعرض الاعمال : يعني على الله سبحانه .

(٣) تقالوها : وجدوها قليلة .

وإذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلِ او أُضلّ ، أو أَذِلّ أو أُذلّ ، أو أَظْلِمَ أو أُظلم أو أَجهل او يُجهل عليّ .

وغير ذلك من الأدعية الكثيرة التي نجدها في كتب السُنَّة ، وقد ذكرنا هنا بعضاً منهـــا .

بلاغته وحكمته :

كان رسول الله افصح العرب يتكلم بجوامع الكلم وبدائع الحكم في لفظ ناصع وعبارات مضيئة مشرقة لا تكلف فيها .

وكان كلامه بيّناً لا فضول فيه ولا تقصير يحفظه من جلس اليه .

وكان لا يدعو إلاّ الى حق، ولا ينطق إلاّ بحكمة، فالحكمة التي تلقى في أسلوب بليغ تنفذ الى القلوب قبل ان تنفذ إليها الحكمة التي تلقى في عبارة غير بليغة ، من هُنا كان للنبي التأثير القوي على قومه مما لم يكن لغيره .

وهاكم أمثلة من كلامه التي هي على ايجازها آية في الفصاحة ، وآية في الحكمة ، وآية في الهداية :

- إنما الأعمال بالنيات، وانما لكل امرىء ما نوى (١).
- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه(٢).
- الدين النصيحة(٣).
- لا إيمان لمن لا أمانة له .
- كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .
- إذا لم تستح فاصنع ما شئت(٤).
- من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه(٥)

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخاري .
(٥) رواه الترمذي وابن ماجة .

ـ دع ما يريبك الى ما لا يريبك فإن الخير طمأنينة وإن الشر ريبة[١] .
ـ خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق .
ـ إتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.
ـ آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان.
ـ رحم الله عبداً قال خيراً فغنم او سكت فسلم .
ـ انما الصبر عند الصدمة الأولى .
ـ الغنى غنى النفس .
ـ ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً .
ـ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.
ـ السعيد من وُعظ بغيره .
ـ من كان يؤمِن باللهِ واليوم الآخر فليَقُل خيراً او لِيَصمت ، ومن كان يؤمِنُ باللهِ واليوم الآخر فليُكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه[٢] .
ـ البِرُّ حُسْنُ الخُلقِ ، والإثم ما حاك في نفسك وكَرِهْتَ أن يطّلِعَ عليه الناسُ[٣] .
ـ من رأى منكم منكراً فلْيغيِّرْهُ بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبِقَلْبه وذلك أضعف الإيمان[٤] .
ـ أربع من كُنّ فيه كان مُنافقاً ، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ مِنْهن كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النفاق حتى يَدَعَها : إذا حدّثَ كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ وإذا خاصم فَجَرَ ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ[٥] .

ولولا خوف التطويل لذكرنا المئات من هذه الأقوال التي فيها من البلاغة والهداية الشيء الكثير .

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه البخاري ومسلم .

الفصل الثاني

زوجات النبي

تعدد الزوجات في الإسلام – مثال حي من عفة النبي– أسباب تعداده للزوجات – من سير زوجات النبي – نساء النبي والتقشف .

تعدّد الزوجات في الإسلام

لن نتكلم في هذا البحث عن تحرير الإسلام للمرأة ، وعن ما أعطاها من الحقوق التي لم تصل اليها المرأة في القرن العشرين فذلك بحث يطول ، ولكن الموضوع هنا تعدّد الزوجات والأسباب التي حدت بالنبي الكريم ان يعدّد زوجاته .

وتعدد الزوجات كان معروفاً عند أغلب الشرائع والأمم قديماً ، وكان العرب قبل الإسلام اكثر الأمم تعداداً للزوجات ، فجعل الإسلام حدّاً للرجل لا يمكن ان يتعداه وهو أربع ، ولكن اشترط : العدل بين الزوجات ، والأمن من الظلم ، ويشمل الظلم الإنفاق والإسكان ، وحسن المعاشرة وكل ما يخاف من عدم المساواة بين الزوجات .

والواقع أن تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية لسدّ الطريق على الرجل من أن يزني ، ويخلف للمجتمع لقطاء، فإباحة التعدّد إنما شُرِعَ حماية للمرأة وكبحاً لجماح الرجل ، وحفظاً لحقوق الزوجة والأولاد .

والتعدّد قد تضطر اليه الأمم وخصوصاً بعد الحروب التي يفنى فيها اكثر الرجال ، وتصبح النساء أضعاف الرجال ، وقد يضطر اليه الرجل لتلبية حاجاته الفطرية إذا أصيبت زوجه بمرض عُضال ، او بعقم ، او غير ذلك من الأسباب فالتعدد أفضل من الطلاق ، ولو لم يبح له التعدد لفعل الإنسان مضطراً ما هو محظور عليه .

ومحمد ﷺ تزوج بإحدى عشرة امرأة، وهو استثناء خاص به دون قومه، وقد اتخذ اعداء الإسلام من هذا التعدد مثاراً للطعن في سيرته والقول بأن حياته محفوفة بالشهوات التى لا تتفق مع السمو الذي يجبَ ان يتحلى به .

مثال حيّ من عفة النبي

وللرد على هؤلاء نقول : إن محمداً كان معروفاً من صباه إلى كهولته بالعفة ، فلم يُعرف عنه انه استسلم للشهوات الجنسية في ريعان شبابه ، ولم يسمع عنه انه كان يلهو ويعاقر الخمرة ، ويصاحب النساء ، ولم يرمه بهذه التهمة أحد من اعدائه في عصره وهم الحريصون على ابراز كل نقيصة وكل عيب يحتمل أن يكون فيه للتشكيك في رسالته .

السيدة خديجة بنت خويلد[1] **:** هي أول امرأة تزوجها النبي ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي ارملة في نحو الاربعين، ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل هجرته ، وقد جاوزت من العمر الستين ، بينما قارب هو الخمسين .

وهكذا يكون النبي قد عاش مع زوجته خديجة خمسة وعشرين عاماً ، وعلى الرغم من ان العادة جرت في بلاد العرب بأن يتخذ الرجل لنفسه عدة زوجات ، فإن النبي لم يجمع مع خديجة أية زوجة أخرى ضارباً بذلك المثل على ان الزوجة الواحدة هي القاعدة الّتي يجب ان تكون في الأحوال العادية .

وقد كانت خديجة — على الرغم من كبر سنها — احب نسائه اليه وقد ظلت ذكراها الطيبة تجري على لسانه بين نسائه اللاتي تزوجهن من بعـــدها ، فيجدن في انفسهن الغيرة منها .

تقول عائشة زوج النبي : كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة ، فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ (تقصد بذلك نفسها)،

---

(١) خديجة : تزوجها قبل النبي عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ومات عنها وتزوجها بعده ابو هالة بن زرارة بن نباش التميمي .

فغضب النبي ثم قال: (لا والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء)[1].

فالحب الذي كان من النبي لخديجة لم يكن باعثه الشهوة، ولا الجمال او الشباب بل كان باعثه: نبلها، وسمو خلقها، ووفاءها، واسبقيتها للإيمان برسالته.

اسباب تعداده للزوجات

ولو كان الباعث لتعداد زوجاته شهوة الجنس لاختار النبي اجمل بنات الجزيرة العربية، والقبائل تفتخر بهذا الزواج وترضى به، ولكنه لم يفعل ولم يتزوج بنتاً بكراً غير عائشة، وسائر زوجاته كنّ أرامل.

ولقد كانت الغاية من تعداده للزوجات جملة امور: تعليمية، وتشريعية واجتماعية وسياسية.

فالنبي أراد تخريج بعض معلمات للنساء يعلمنهن الأحكام الشرعية، فالنساء نصف المجتمع، وقد فرض عليهن الإسلام من التكاليف مثل ما فرض على الرجال، وقد كان الكثيرات منهن يستحيين من سؤال النبي عن بعض الأمور، وخاصة تلك المتعلقة بهن: كالحيض والنفاس والجنابة والأمور الزوجية، فكن في ذلك يسألن نساءه.

ثم ان تشريع الإسلام يقوم على القرآن والسُنّة، والسُنّة تشمل: قوله وفعله وتقريره، فمن ينقل لنا اخباره وافعاله في بيته غير زوجاته[2]؟. هذا وقد أصبح بعض زوجاته معلمات متفوقات نقلن هديه الى المسلمين بكل أمانة.

اما الحكم الأخرى من تعداده للزوجات وما فيها من أمور تشريعية واجتماعية وسياسية فستأتي عند الكلام على كل زوجة من زوجاته الآتي ذكرهن.

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

(٢) من مراجع هذا البحث محاضرة للشيخ محمد علي الصابوني، نشرت في ندوة المحاضرات لرابطة العالم الإسلامي سنة ١٩٧١.

مِن سِيَرِ زَوجَاتِ النَّبيّ

السيدة سودة بنت زمعة : تزوجها النبي بعد وفاة خديجة ، وهي أرملة كان زوجها[١] من المهاجرين الى الحبشة فتنصّر بها ومات [٢] فأصبحت وحيدة لا معيل لها ، ولوعادت الى أهلها لأكرهوها على الكفر ، او لنالها الأذى منهم ، فاختار النبي كفالتها فتزوجها ليقدّم لها التكريم على صدق ايمانها .

السيدة عائشة بنت ابي بكر الصديق : تزوجها النبي وهي بنت تسع سنين وكان قد شارف الخامسة والخمسين ، وهي الوحيدة بين نسائه التي كانت بكراً .

ولقد كانت مصاهرة النبي لوالدها ابي بكر أعظم مكافأة له في هذه الحياة كما كانت خير وسيلة لنشر سنته والأحكام الشرعية ، ولا سيّما فيما يتعلق منها بالنساء ، فقد كانت عائشة أذكى أمهات المؤمنين واحفظهن للعلم ، لذا كان كثير من كبار الصحابة يسألونها عن بعض الأحكام التي تُشكل عليهم. وقد شهد النبي بحفظها للعلم فقال : (خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء) .

ولكن نفراً من المستشرقين يعيبون هذا الزواج بين كهل وشابة فيردّ المستشرق (بودلي) بقوله :

كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو الذي تنموه نساء العرب والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين ...

ولكن هذا الزواج شغل بعض المؤرخين لمحمد ... نظروا اليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه ، فلم يقدّروا ان زواجاً مثل ذاك كان ولا يزال عادة اسيوية ، ولم يفكروا في ان هذه العادة لا زالت قائمة في شرق اوروبا ، وكانت طبيعية في اسبانيا والبرتغال الى سنين قليلة ، وانها ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة[٣] .

السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب : تزوجها النبي وهي أرملة ، وكان زوجها[٤] قد استشهد في غزوة (بدر) بعد أن أبلى بلاء حسناً .

---

(١) هو السكران بن عمرو بن عبد شمس .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ .

(٣) بودلي : الرسول ص ١٢٩ من الترجمة العربية .

(٤) هو خنيس بن حذافة السهمي .

ولما انقضت عدتها عرضها والدها على ابي بكر فسكت ، فعرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت النبي فقال: ما أريد ان اتزوج اليوم، فذكر ذلك عمر بن الخطاب لرسول الله ، فقال رسول الله : (يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة)[1] .

ثم خطبها رسول الله من عمر فتزوجها ، وزوّج ابنته (ام كلثوم) من عثمـــان .

وهكذا لم يضن رسول الله على عمر هذا الشرف وهذه القربى منه كما فعل مع ابي بكر ، فقد كانت هذه الزيجة لتوثيق الصلة بينه وبين أصحابه مكافأة لهم على جهادهم في سبيل الاسلام .

السيدة ام حبيبة رملة بنت ابي سفيان : تزوجها النبي وهي أرملة وكان زوجها[2] من مهاجري المسلمين الى الحبشة ، وقد هاجرت معه ، فتنصّر زوجها وحاول ان تتابعه على دينه الجديد ، فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها على النصرانية ، ولما علم النبي بذلك بعث رسولاً الى النجاشي ليخطبها له فخطبها النجاشي للنبي .

وواضح من هذا الزواج أن غاية النبي ترضية هذه السيدة المؤمنة واكرامها على ثباتها وتمسكها بالإسلام ، كما ان في ذلك استرضاء وتأليفاً لقلب ابي سفيان – والدها – وتخفيفاً من حدة عداوته له .

السيدة أم سلمة هند بنت ابي أمية : كانت من اشد الناس إيماناً وجهاداً ، فقد هاجرت مع زوجها الى الحبشة فراراً بدينها من أذى قريش ، ثم هاجرت بعد ذلك الى المدينة .

وفي معركة أحد أصاب زوجها[3] جرح بليغ توفي على إثره، فخطبها النبي فقالت له : (أما انا فكبيرة السن ، وانا امرأة معيل، وأنا امرأة شديدة الغيرة). فقال لها النبي : (انا اكبر منك ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك)[4] .

---

(١) عن كتاب الاصابة في تمييز الصحابة .

(٢) هو عبيد الله بن جحش بن خزيمة .

(٣) هو ابو سلمة بن عبد الأسد .

(٤) عن كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر .

أهذا زواج يقصد به المتعة ؟ كلا ! لا يقول بذلك أحد ، انه زواج يقصد به اكرام هذه السيدة وإعالتها واولادها ، وتطييب خاطرها ، ومكافأتها على جهادها وصبرها .

السيدة زينب بنت حجش : تزوجها النبي لإبطال بعض العادات الجاهلية . فزينب هذه كانت قرشية ذات نسب رفيع ، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب . وقد كانت زينب مطلقة من (زيد بن حارثة) .

وزيد بن حارثة كان مملوكاً تبناه النبي واصبح يطلق عليه عند العرب (زيد ابن محمد) وقد أراد الله امتحان زينب بزواج زيد لتحطيم نزعة (العصبية القبلية ، والتفاخر بالأنساب) التي كانت متبعة في جزيرة العرب ، فحين عرض النبي على زينب الزواج من زيد امتنعت واستنكفت اعتزازاً بنسبها وشرفها ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة من امرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾ .

فخضعت زينب عندئذ لأمر النبي ورضيت بالزواج على مضض . وقد عاشت مع زيد مدة من الزمن ثم ساءت العلاقات بينهما ، فكانت تغلظ له في القول وتفخر عليه بنسبها حتى ساءت الأمور الى حدّ اضطر معه زيد أن يطلق زينب، فأمر الله نبيه ان يتزوجها ليبطل (بدعة التبني)[١] ويقيم أسس الاسلام كما ارادها الله، ولكن النبي كان يخشى ألسنة المنافقين ان يقولوا : تزوج محمد امرأة ابنه، فكان يتباطأ في امر زواجه حتى نزل العتاب من الله :

﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زَيد منها وَطَراً[٢] زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في ازواج أدعيائهم[٣] إذا قضوا منهن وطراً ﴾ الاحزاب : ٣٧ ، فتزوجها عندئذ النبي .

لقد كان محمد يعرف زينب من الصغر لأنها ابنة عمته، فمن كان يمنعه من الزواج منها إذا كان يريد المتعة ؟ وهي تفضله على كل الرجال ، وكيف يقدم

(١) كانت العادة المتبعة عند العرب ان زوجة المتبني المطلقة لا يجوز ان يتزوجها من تبناه .
(٢) قضى زيد منها وطراً : أي طلقها .
(٣) ازواج ادعيائهم : أزواج اولادهم بالتبني .

إنسان بنتاً لشخص ما حتى إذا تزوجها وصارت ثيباً رغب فيها ؟

إن زواج النبي من زينب لم يكن إلاّ امتثالاً من الله لإبطال بعض العادات الجاهلية وتقرير اصول الإسلام عملياً حتى ترسخ في العقول .

السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار : وقد تزوجها النبي من اجل تأليف قلوب قومها على الاسلام واعطائهم الحرية التي فقدوها .

كانت جويرية من بني المصطلق، وقد تجمعوا لقتال النبي بقيادة سيدهم الحارث بن أبي ضرار، فسارع النبي الى غزوهم فهزمهم في عقر دارهم، وسبى منهم كثيراً من الرجال والنساء والذرية وغنم مالاً وفيراً، وكانت في السبي السيدة جويرية بنت الحارث فوقعت في سهم أحد المسلمين (أي في حصته) فكاتبته على نفسها ثم جاءت الى النبي وقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث ابن ابي ضرار سيّد قومه، وقد اصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسي[2] فجئتك استعينك على كتابتي .

هنا تجلت حكمة النبي في بني المصطلق فقد كانوا من اعز العرب داراً واكرمهم أحساباً، وأسْرُ نسائهم ورجالهم بهذه الكثرة مما يشق على النفوس الأبية ويترك مشكلة اجتماعية صعبة الحل، لقد ظهرت حكمة النبي بهذا التصرف السليم الذي أدى الى عتق جميع الأسرى ... لقد قال النبي لجويرية : فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : اقضي عنك كتابك (أي المال الذي تحتاجه لعتقها) واتزوجك ، قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت ، وخرج الخبر الى المسلمين ان رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث ، فقالوا : اصهار رسول الله نسترقهم ! لن يكون ... فأعتقوا كل ما بأيديهم من الأسرى .

تقول عائشة : فلقد اعتق رسول الله بتزوجه إياها أهل مائة بيت من بني المصطلق ، فما رأيت امرأة اعظم بركة على قومها منها .

السيدة صفية بنت حيي بن أخطب : كان ابوها سيد بني النضير من بني اسرائيل، وقد أُسرت بعد قتل زوجها[3] في (غزوة خيبر)، فاستدعاها النبي

---

(١) جويرية : كانت أرملة مالك بن صفوان .

(٢) فكاتبته على نفسي : أي اتفقت معه على مبلغ من المال ادفعه له مقابل عتقي .

(٣) هو كنانة بن الربيع بن ابي الحقيق .

وقال لها : ان تكوني على دينك لم نكرهك ، فإن اخترتِ الله ورسوله اتخذتك لنفسي ، قالت : بل اختار الله ورسوله ، فأعتقها رسول الله فتزوجها وجعل عتقها مهرها) .

لقد اشترط النبي عليها الإسلام فقبلت فكان تزوجه منها تكريماً ومكافأة لها ، لقد كانت سيدة قومها الذين هم اشد الناس عداء له . فهو بهذا الزواج أراد ايضاً ان يستميل قومها للإسلام ويعطيهم درساً في التعايش السلمي ونبذ العداء والخصام .

السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية : وهي آخر أزواجه وهي أرملة[1]، وقد تزوج بها النبي اكراماً لعشيرتها الذين آزروه ونصروه .

سراريه : واما سراريه فهن مارية ابنة شمعون القبطية، وولدت له ولداً سماه ابراهيم توفي صغيراً . وريحانة ابنة زيد القرظية .

أولاده : أولاده جميعاً من خديجة باستثناء ولده ابراهيم فهو من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطيب ، والطاهر ، و عبد الله ، وزينب ، ورقية ، وام كلثوم ، وفاطمة .

فأما الذكور فماتوا وهم صغار . وأما الإناث فتزوجن وولدن .

نساء النبي والتقشف

ونختم هذا البحث بهذه الصورة عن الحياة التي كان يحياها النبي ونساؤه تلك الحياة التي كانت كلها تقشفاً وحرماناً وبُعداً عن ملذات الحياة وشهواتها .

فقد كان النبي يبيت الليالي طاوياً وأهله لا يجدون عشاء . وكان عامة خبزهم الشعير .

وتقول عائشة زوج النبي :(ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات حتى لحق بالله « أي توفي ») .

اما بيوت أزواج النبي فقد كانت على أبسط ما تكون، فهي مبنية من الطين وجريد النخل ، وعلى أبوابها ستائر من شعر المعز او وبر الجمال .

---

(١) كان زوجها قبل النبي ابا رهم بن عبد العزى .

هذه هي مظاهر الحياة التي كان يحياها النبي ونساؤه ، ولو شاء النبي ان يأكل في صحاف من الذهب او يتخذ القصور لفعل ، وخصوصاً بعد أن استجابت له الجزيرة العربية واصبح سيدها الأوحد واصبح كل شعبها يدين له بالطاعة والمحبة .

ونساؤه شاركنه هذه الحياة القاسية المحفوفة بالحرمان غير متأففات ولا متبرمات سوى حادثة سجلها القرآن ، وهي وثيقة دامغة لكل التهم التي يمكن ان تُثار في هذا المجال .

فقد شكت نساء النبي — على فخرهن بالانتماء اليه — أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، وطلبن الاستزادة من النفقة والزينة كما يفعل غيرهن من النساء ، فكان ردّ النبي على مطالبهنّ ان هجرهن ردحاً من الزمن الى أن نزل الوحي الالهي :

﴿ يا أيها النبي قُلْ لازواجك إن كُنْتُنّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتّعكن وأُسَرّحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة[1] فإن الله أعدّ للمحسنات منكن اجراً عظيما ﴾ الاحزاب : ٢٨ ، ٢٩ .

والمعنى : يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تحببن لذات الحياة ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكن عندي مقام فأقبلن عليّ كي أعطيكن حقوقكن واطلقكن . وإن كنتن تُرِدْنَ رضاء الله ورسوله وثواب الدار الآخرة فعليكن بالصبر على ما عند النبي من ضيق الحال ، فإن الله أعد للمحسنات منكن في أعمالهن ثواباً عظيماً .

ولما نزلت هاتان الآيتان بدأ النبي بزوجه عائشة فقال : إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ان لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك ، وتلا عليها ما أنزل الله عليه من الآيات ، فقالت له : (أفي هذا استأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة) ثم خيّر نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة .

أهذه حياة من يبتغي الشهوة والمتعة ويعدّد النساء لذلك ؟ لن يقول بذلك منصف أبداً عَرَفَ الدوافع التي حدت بالنبي أن يُعدّد زوجاته بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ، وبعد أن كان تنظيم أمور المسلمين وهدايتهم وعبادة ربه يشغل معظم أوقاته .

---

(١) في هذا النص القرآني دليل بأن الآخرة سبيلها التقشف والحرمان والمكاره ، وفي هذا المعنى يقول النبي : (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

دروس من الهجرة – دروس من جهاد النبي والمؤمنين – حياته تشهد بصدق نبوته – الاحتفال بالمولد النبوي .

دُرُوسٌ مِنَ الهِجْرَة

لم تكن هجرة رسول الله ومن معه من المؤمنين من مكة الى يثرب فراراً ولا جبناً ولا قنوطاً ، ولا رحلة ترفيهية يستروحون فيها من عناء الدعوة وبلاء قريش ، وإنما كانت فاصلاً بين الحق المستضعف وبين الحق الحرّ الثائر الذي راح يبني قوته لينقض على الظلم والطغيان .

لقد تحدى رسول الله ومن معه من المؤمنين سطوة قريش وهاجروا من مكة الى يثرب تاركين وطنهم الذي ترعرعوا فيه وأموالهم التي بذلوا حياتهم في جمعها إيثاراً وفداء للعقيدة التي نذروا انفسهم لها ، وهناك في يثرب اقام النبي نظاماً جديداً لمجتمع اسلامي تتلاشى فيه الفوارق ، وتذوب الطبقات ، وتتحقق فيه العدالة ، وفي يثرب أسّس الجيش الإسلامي من المهاجرين والأنصار الذي نشر المبادىء الإسلامية وقضى على سطوة قريش وعلى الوثنية في جزيرة العرب .

لذا اعتبرت الهجرة حادثاً خطيراً في تاريخ الدعوة الإسلامية إذ كانت بداية لانتصار رسول الله في جهاده لتبليغ الدعوة ، وكان من حكمة سيدنا عمر ان جعل الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامي فقال : (الهجرة فرّقت بين الحق والباطل فأرخوا بها) .

ومن أروع ما يرمز اليه معنى الهجرة في الإسلام ان التاريخ الإسلامي لم يذكر عن هؤلاء الذين تركوا مكة ولجأوا الى يثرب انهم (لاجئون) . ولقد استحقوا

التكريم من الله ، لذا اثنى عليهم كما اثنى على الأنصار الذين استقبلوهم بالترحاب والاخاء المنقطع النظير ، فقال سبحانه: ﴿والسَّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عنهم ورضوا عنه﴾ .

فالهجرة من سنن المصلحين الذين اتخذوا منها منطلقاً جديداً لدعواتهم ، وقد حدثنا التاريخ عن هجرة ابراهيم — ابي الأنبياء — وفراره بدينه من العراق الى الشام بعد أن تحداه الفرس وحاولوا احراقه ، كما حدثنا عن هجرة موسى من مصر مع من آمن معه فراراً من فرعون وجنوده ، وعن هجرة عيسى من بيت لحم الى اورشليم (أي القدس) .

لذا فإن الهجرة توحي لنا بأعظم الدروس من حيث الصبر على البلاء ، والتضحية والفداء ، والثبات على المبدأ ، والثقة بالنصر .

الهجرة وانطباعاتها

وللهجرة انطباعات شتّى على المؤمن غير الدروس السابقة ، منها : الفرار الى الله[1] ، والفرار الى الله انتصار على المادة بكل متطلباتها وبكل مغرياتها ، يقول الله تعالى في حادثة هجرة الرسول :

﴿ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هُمَا في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾ التوبة : ٤٠ .

في هذه الآية يصوّر الله اخراج الكفار للرسول من مكة وهجرته مستخفياً في جنح الليل الى بلد آخر يجد فيه حرية الدعوة الى الله والعبادة ، يصوّر الله ذلك بأنه انتصار ، في الوقت الذي كان فيه وصفيّه ابا بكر مختبئين في الغار ، والكفار في كل مكان يجدّون في البحث عنهما للفتك بهما .

فالهجرة — في نظر القرآن — انتصار لأنها فرار الى الله ، ولو ادى ذلك الى الموت . قال تعالى :

﴿ والذين هَاجَرُوا في سَبيل الله ثُمَّ قُتِلوا او ماتوا لَيَرْزُقَنَّهم اللهُ رِزْقاً حَسَناً ، وإن الله لَهُوَ خَيْرُ الرّازقين ﴾ الحج : ٥٨ .

---

(١) من مراجع هذا البحث كتاب : القرآن والنبي ، للدكتور عبد الحليم محمود .

والمسلمون مأمورون بالفرار الى الله – أي بالهجرة اليه – قال تعالى :
﴿ ففرّوا الى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

فهجرة المؤمن الى الله يتمخض عنها الطمأنينة والسكينة والتأييد من الله فيدخله في نطاق رعايته وحفظه لذا يقول رسول الله لصاحبه ابي بكر وهمــا مختبئان في الغار : (لا تحزن إن الله معنا) .

وهجرة المؤمن الى الله دليل الإخلاص والمحبة له ، وهذا يستدعي ترك ما نهى الله عنه . ولهذا يقول رسول الله : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) .

ومن انطباعات الهجرة : النية الخالصة لله تعالى ، فإذا ما توجهت النية الى الله كانت كلها خيراً وكانت الأعمال هجرة ، أما إذا لم تتوجه النية الى الله فإن الأعمال ولو كانت خيراً في الظاهر فهي غير مقبولة من الله ، يقول رسول الله : (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه) .

ففي هذا المعنى يخالف الاسلام الذين يقولون الخير للخير ، او الخير لإرضاء الضمير ، فالخير إذا لم يتجه أصلاً الى الله انحرفت به الأهواء الى الشر والفساد .

فالنية الخالصة لله تعالى من أهم الدعائم التي قام عليها الإسلام ، ولتبيان اهميتها ايضاً يقول الرسول بعد فتح مكة ، ذلك الفتح الذي انتصر به الاسلام على مناوئيه : (لا هجرة بعد الفتح « أي فتح مكة » ولكن جهاد ونية) .

دُروسٌ مِنْ جِهَادِ النَبيّ وَالمؤمِنين

الروح المعنوية

المتمعن في معركتي بدر وأُحد يرى ارتفاع الروح المعنوية في قلوب المؤمنين، وهي من أهم الأسباب التي أدت لنصرهم وصمودهم في أصعب حالات القتال.

والروح المعنوية اعترف بأهميتها كبار القادة العسكريين، فنابليون قال: إن نسبة القوى المعنوية في ميدان القتال الى القوى المادية هي نسبة الثلاثة الى الواحد.

وفي الحرب العالمية الثانية جاء مونتجمري يؤكد أهمية الروح المعنوية واثرها في إحراز النصر، ولم يكن هذا القائد ليصل الى قراره إلا على اساس من الدراية الكاملة وطول الخبرة بالحرب وقيادة الجيوش.

والدراسات الحربية الحديثة اثبتت ان المقاتل الكفء هو الذي يجمع بين القوة المعنوية والقوة المادية.

والقوة المعنوية تنبع من الإيمان بالقضية التي يحارب الجندي من اجلها، الى جانب الثقة في النفس وفي قدرتها. والثقة بالقائد وفي قدرته وحكمته.

وقد أنزل الله آيات من القرآن بعد معركة بدر بيّن فيها مقام القوة المعنوية وضرورتها للقتال. فقال سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار. ومن يولّهم يومئذ دبره إلاّ متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير﴾.

هذه الآية تنهى عن الفرار من المعركة وتدعو الى الصمود أمام الأعداء، فالفرار من العدو انما ينشأ من تسرّب الشك في وعد الله للأمة المؤمنة بالنصر، كما ينشأ من تسرّب الخوف من أية قوة من قوى العدو بعد الشك في قوة الخالق، فهو من هذه الناحية لون من ألوان الشرك... ثم هو بعد هذا يشيع الاضطراب

والتخاذل في الصف المحارب، ويكشف المقاتلين للأعداء فيسبب القتل للمسلمين.

إن قلب المؤمن ينبغي ان يكون راسخاً رسوخ الجبال لا تهزمه قوة في الأرض؛ لأنه متصل بالله، والآجال بيده فما يجوز ان يفرّ المؤمن خوفاً على حياته.

ومن الآيات التي نزلت ايضاً قوله تعالى:

﴿ يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئَةً فاثبتوا واذْكُروا اللهَ كثيراً لَعَلَّكم تُفْلحون. واطيعوا الله ورسوله ولا تَنَازَعوا فتفشلوا وتذهب رِيحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين. ولا تكونوا كالذين خرَجوا من ديارهم بَطَراً ورئاء الناس وَيَصُدّون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط ﴾ الانفال: ٤٥ – ٤٧.

فالله سبحانه يذكر عوامل النصر الحقيقية التي تنبع من القوى المعنوية وهي: الثبات عند لقاء العدو، وعدم الفرار منه، والاتصال بالله مصدر كل قوة في الوجود، والطاعة لله ورسوله باجتناب المعاصي والتزام الطاعات ونبذ النزاع والشقاق الذي هو مدعاة للفشل، والصبر على اعباء المعركة، والخروج الى الحرب دون اغترار بالقوة او الفخر بها، وان يقاتل في سبيل الله لا حباً بالشهرة والظهور.

وإظهاراً لأهمية الصبر في احراز النصر قال تعالى:

﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ الانفال: ٦٦.

وأخيراً نذكر عنصراً هاماً في تقوية المعنويات وهو اعتقاد المؤمن بأن الذي يُقتَل في سبيل الله لا يموت بل هو حي عند ربه أعد له الجزاء العظيم والأجر الكبير (وقد ذكرنا ذلك من قبل في معركة أحد).

النصر من الله

وإذا توفرت القوة المعنوية النابعة من الإيمان بالله المجردة من أي مطمع في مغنم مادي تحقق النصر من الله، وهذا ما يظهر لنا في اجلى صورة في معركة بدر:

إن المسلمين – في بدر – كانوا قليلي العدد ناقصي العتاد، وكان اعداؤهم

كثيري العدد والعدة ولكنهم حاربوا طاعة لنبيهم واستماتة في الدفاع عن عقيدتهم ، وقد وصفهم الله في القرآن بأنهم كانوا (أذلة) والإنسان لا يشعر بالذل إلا في حالة العجز الذاتي . قال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ .

ومن ذلك ايضاً أن المسلمين لم يكونوا يتوقعون النصر يوم معركة بدر إلاّ إذا جاءهم من طريق الإعجاز ويدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ إذْ تَستغيثون رَبّكم فاستجابَ لَكُم اني مُمِدُكم بألْفٍ مِنَ الملائكة مُرْدِفين ﴾ الانفال : ٩ .

ومنها : انهم انتصروا على اعدائهم نصراً كبيراً وهم يعتقدون انه عطاء من الله لم ينالوه بقوتهم فقط ، لقوله تعالى :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكنّ اللهَ رمى ﴾ الانفال : ١٧ .

وإذا كان الأمر كذلك، فالنصر لايكون إلاّ من الله كما قال سبحانه ﴿ وما النصر إلاّ من عند الله ﴾ . ولا يؤتي الله نصره إلاّ لمن أخلص له وحده ، وفي معركة أُحد بدأ المسلمون القتال بطاعة الله ورسوله فبدت لهم تباشير النصر ، فلما عصى المسلمون أوامر رسول الله وأصبح همهم من القتال إحراز الغنائم – باستثناء البعض – اصابتهم الهزيمة بعد النصر .

انتصار النبي آية على صدق نبوته

إن المسلمين لما خرجوا للاستيلاء على قافلة قريش يوم بدر لم يستعدوا للأمر الاستعداد العظيم لأنهم سيقاتلون جماعة من الحراس وهي لا تقتضي اكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة للاستيلاء على القافلة اما الالتحام مع جيش فيستدعي تعبئة اشد عدداً وعدّة .

وقد امر النبي المسلمين ان يقاتلوا جيش قريش الذي أرسلته لحماية القافلة بناء على وعد من الله بالنصر ، قال تعالى : ﴿ وإذ يَعِدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم ﴾ ، فلما أفلتت احدى الطائفتين وهي (القافلة) فلا بُدّ أن يصدق

---

(١) مردفين : مساعدين ، متتابعين .

وعد الله في الأخرى وهي (جيش قريش)، فدعا النبي اصحابه الى مقاتلة جيش قريش، وقد ادى ذلك الى موقف من التردد — عند بعض اصحابه — ادركه النبي وعمل على ملافاته.

فلو لم يكن النبي واثقاً كل الثقة من صِدق ما ينزل عليه من الوحي لما أقدم على الزج بجيشه في هذه الحرب التي لا تبشر بالنصر للأسباب الآتية:

اولاً: تفوق جيش قريش في العدد حيث كان على نسبة ثلاثة على واحد. وهذا يعتبر في عرف رجال الحرب تفوّقاً ساحقاً، وخصوصاً في ذلك الزمن حيث كان القتال بالنبال والسيوف والحراب، فقد كان عدد المسلمين ٣١٥، وعدد المشركين ٩٥٠ مقاتلاً.

ثانياً: تفوق العدو في الأسلحة، وهي العوامل الفاصلة في الحروب، فقد كان معهم مائتا فرس، وكان مع المسلمين فرسان فقط.

ومع هذا كله فقد كانت معنويات المسلمين مرتفعة جداً.

فالقائد الماهر الذي يدفع بجيشه الى الحرب موقناً بالنصر ويقول كما قال النبي قبل معركة بدر: (ابشروا والله لكأني انظر الى مصارع القوم)، ثم يتحقق قوله وينتصر المسلمون على قريش انتصاراً ساحقاً، إن هذا لا يمكن تعليله إلاّ بأنه رسول الله حقاً أيّده بنصره[1].

عظمة التضحية

قبل معاهدة الحديبية تتراءى لنا صورة من اعظم صور التضحية عند المسلمين، فقد جاء النبي والمؤمنون مسالمين لزيارة المسجد الحرام فمنعتهم قريش، فأرسل النبي عثمان بن عفان سفيراً من طرفه الى قريش فاعتقلته وترامى الى المسلمين أنه قتل، فعزم النبي على محاربة المعتدين.

ما مدى استجابة المسلمين لنبيهم؟ لقد عاهدوه على الموت، عاهدوه ان لا يفروا من وجه عدوهم، ولو كان في ذلك موتهم جميعاً.

ما اكبر وما أجل هذا الايمان الذي استوت فيه الحياة والموت! لقد اندفع المسلمون الأولون بإيمانهم فلم تقف في وجههم قوة في الأرض فاقتحموا الممالك وتغلبوا عليها واحدة تلو الأخرى، هذا الإيمان لو خالط قلوب

(١) من مراجع هذا البحث مقالات للمغفور له الاستاذ محمد فريد وجدي في مجلة الأزهر.

المسلمين اليوم لما حلّ بهم ضعف أو خذلان ، فالشعوب لا تقاس قوتها بعددها ولكن بإيمانها وبعقيدتها وتضحياتها، وأكبر مثال على ذلك المسلمون الأولون وشعب فيتنام في العصر الحاضر .

ما احوج العرب اليوم الى هذا الايمان ، فهل هم على استعداد لمبايعة القادة المخلصين على الموت في سبيل استرجاع أرضهم، ورد الإهانة التي لحقتهم؟ ام يقولون كما قالت الأعراب لرسول الله :(شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) .

لقد شغل الكثيرين الإسراف والتبذير في بناء القصور الشاهقة ، والتهالك على متاع الحياة ومفاتنها، وشغلتهم الفرقة والتنازع على الدنيا للحصول على مغانمها والاستئثار بالسلطة والجاه فيها، شغلهم كل ذلك عن الجهاد في سبيل استرداد اراضيهم ، وبذل كل ما يملكون في سبيل ذلك .

حياته تشهد بصدق نبوته

كثير من اتباع الديانات الأخرى الذين لم يدرسوا الإسلام دراسة حقيقية ولم يطلعوا على سيرة محمد يعتقدون أن القرآن من تأليف محمد استكتبه لغايات ومآرب شخصية ، وأنه بالتالي ليس رسولاً من عند الله .

ولكن على طالب الحقيقة ان يتأمل سيرة محمد وما اكتنفها من وقائع وأحداث فيرى فيها كل التأكيدات بأنه رسول الله حقّاً .

فتاريخ محمد ينفي الشك بأنه مدّع للنبوة كذباً، فقد كان مشهوراً بمكارم الأخلاق في نشأته بحيث سمّاه معاصروه : الأمين .

فها هو محمد يمضي من عمره أربعين سنة لم يحدث فيه قومه بنبوة ولا رسالة، فإذا كان مغامراً أو طموحاً فإن في تلك السنين مجالاً لأن يقوم بأي عمل فيه طابع المغامرة ولكن لم يكن أي شيء من ذلك ، هذا وإن من المشاهد ان أكثر المغامرين كانوا في ريعان الشباب .

ثم الجدير بالنظر أننا رأيناه بعد بلوغه سن الأربعين اصبح يميل الى الوحدة فيقصد غار حراء ويمكث فيه ليالي كثيرة للتعبد والتأمل والتفكر ، ثم يأتيه الوحي من الله وهو في الغار فيصيبه الخوف والجزع فيرجع الى أهله وهو يرجف ويقول :

(لقد خشيت على نفسي) . هـــذه الكلمة برهان واضح على الصدق

والإخلاص وانتفاء كل شبهة بأنه مدعي النبوة كذباً. فمحمَّد يصف حقيقة رآها بأم عينه أرهبته وأدخلت الخوف الى قلبه ، فأصابه نوع من البرداء فقال لأهله : (زمّلوني[1] ، زمّلوني) .

ومن الدلائل على صدق نبوته شهادة (ورقة بن نوفل) الذي كان عالماً بالإنجيل فإنه لما سمع قصة نزول الوحي على محمد قال : هذا هو الناموس الذي أنزل الله على موسى ، قال ورقة بن نوفل ذلك طبقاً لمعرفته بحياة محمد الطاهرة الصادقة البعيدة عن طلب المجد الزائف . لقد رأى (ورقة بن نوفل) في حديث محمد صورة صحيحة للصدق وسمع منه التعبير البريء البعيد عن التفكير المدبّر .

وها هو محمد بعد أن يأمره ربه بالمجاهرة بالدعوة يقف على جبل الصفا وينادي قريشاً بقوله : أرأيتكم لو اخبرتكم ان خيلاً بسفح هذا الجبل اكنتم مصدّقيّ ؟ قالوا : نعم ، انت عندنا غير متهم وما جرّبنا عليك كذباً .

فمحمد يطرح الثقة بنبوته برفعه علم الصدق ، لقد كانت حياته متصفة بالبراءة التامة والطهر الكامل بحيث جعله ذلك يتحدّى في صراحة ويعلن بوضوح ان حياته تثبت صدق ما يقول .

ومن أصدق ما قيل في هذا المعنى ما قاله الشيخ محمد الخضر حسين :

(فلو ان محمداً ادّعى الرسالة بغير صدق لاستبان لمن اتبعه من ذوي العقول الكبيرة شيء مّما ينقض هذه الدعوى ، وقد عاش نبي الله محمد بعد دعوى الرسالة نحواً من ثلاث وعشرين سنة وهي مدة بالغة من الطول ما فيه كفاية لمن أراد ان ينظر في هذه الدعوى من كل ناحية ، ويرقب سيرة صاحبها لعله يقف على أثر يدلّه على انه يعلن غير ما يبطن ، أو انه يقول على الله ما لم يعلم . ومن الشواهد ان سيرته عليه الصلاة والسلام كانت نقية من كل ما يخدش في دعوى الرسالة ، أن أشد الناس إيماناً به واملأهم قلوباً بمحبته وإجلاله هم أطول الناس صحبة له ، ومن لا يكادون يفارقونه إلاّ قليلاً كالسابقين من المهاجرين والانصـــار) .

ولقد تجرّد النبي محمد عن كل مطمح دنيوي ــ كما ذكرنا ذلك في سيرته ــ وتوفي ولم يترك لعياله شيئاً من العمارات والأموال بل قال : (نحن معشر الأنبياء

---

(١) زملوني : أي غطوني .

لا نورث)، وعند وفاته كان درعه مرهوناً عند يهودي لنفقة عياله .

هذا وقد دلّ التاريخ ان كل زعيم يكون له أخصاء على شاكلته يعاونونه على نيل بغيته ويشاطرونه المغنم ، وقد كان اخص اصحاب محمد ونسائه مثالاً في الزهد والاعراض عن الدنيا والاقبال على العبادة ، فهل هناك دليل اقوى من هذا على صدق نبوته ؟!

الاحتفال بمولد النبي

لم يحتفل المسلمون الأولون بمولد النبي وإنما استحدث ذلك بعد وفاته بعدة قرون ، وهذه بدعة حسنة تذكرنا بسيرته العطرة وهديه القويم مما يمدنا بطاقة جديدة للتمسك بالإسلام وما فيه من إسعاد للناس في دنياهم وآخرتهم .

وذكرى مولد النبي تكون بتلاوة سيرته التي فيها القدوة الحسنة ، والتصدق على الفقراء . والقيام بأعمال البر وصلة الرحم ، والدعوة إلى سبيل الله، لأن هذه الأمور هي جوهر الرسالة المحمدية .

لكن في مدينة بيروت – وربما في مدن أخرى – يحتفلون بمولد النبي بطريقة لا ترضي الله ورسوله . يحتفلون بمولده بتفجير المفرقعات ، واطلاق الأسهم النارية والرصاص في الهواء . ويهدرون في ذلك مئات الألوف من الليرات . فهذه الأمور من الأعمال التي نهى عنها القرآن لأنها تضييع للمال بدون فائدة وتعريض الناس للخطر ، واقلاق لراحتهم .

فذكرى مولد النبي بتفجير المفرقعات واطلاق الرصاص هو إبعاد الناس عن هدي النبي بدلاً من تأليف القلوب نحوه .

فإلى متى تتحرك الحكومة بايعاز من سماحة المفتي فتضع قوانين صارمة تمنع بيع واستعمال المفرقعات واطلاق الرصاص في الهواء بهذه المناسبة، ويقوم رجال الدين وزعماء الأحياء بجمع المال الذي كان سيرصد لهذه الغاية في سبيل اعمال البر والخير من بناء المساجد والمستوصفات والتبرّع لدور اليتامى والعجزة .

الفصل الرّابع

أعظم العظماء

من البراهين القوية الدالة على نبوة محمد وعلى انه اعظم عظماء التاريخ **ذلك** الاصلاح الكبير الذي حققه وحده في جزيرة العرب في سنين قلائل والذي لا يمكن تحقيقه إلاّ في خلال آمادٍ طويلة وعقب تطورات متوالية .

من ذلك : توحيده الأمة العربية، واقراره المساواة بين افرادها بعد أن كانت القبائل فيها تتناحر لأوهى الأسباب ، وتتفاخر بالأنساب، وتتباهى بالألقاب.

ومن ذلك : تحويل اخلاق العرب الى اعلى المبادىء الخلقية واسمى الأصول الأدبية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية بعد أن كانوا يئدون البنات ويحقرون النساء، ويقترفون أخس الشهوات ولا يراعون أية حقوق للضعفاء .

ومن ذلك : قضاؤه على وثنية كانت متوارثة آماداً طويلة، واحلاله محلها ديناً سماوياً يحتوي على وحدانية الخالق وعلى تشريع ينظم حياة الانسان مع ربه ومع مجتمعه محرراً بذلك الإنسان من رواسب الجهل والفوضى والخرافات والأساطير ومحققاً بذلك المجتمع المثالي الذي تخيله الفلاسفة .

إن عملاً واحداً من هذه الأعمال المجيدة لو تحقق على يد رجل واحد لاستحق اعظم الألقاب ولأصبح من الخالدين في التاريخ ، فما بالك بهذه الأعمال جميعها التي تحققت على يد محمد ﷺ .

ونحن في هذا المقام نذكر بعض أقوال المنصفين من علماء الغرب وادبائهم الذين شهدوا بعظمة النبي .

يقول (ول ديورانت)[1] :

(... إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في النفس قلنا: إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه ان يرفع المستوى الروحي

---

(١) قصة الحضارة – ج ٢ من المجلد الرابع – ترجمة الاستاذ محمد بدران .

والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به، وقد وصل الى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في ايامه الى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ الى خيالهم والى مخاوفهم وآمالهم وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عديدها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات واقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً قوامُهُ البسالةُ والعزة القومية، واستطاع في جيل واحد ان ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد ان ينشيء دولة عظيمة، وان يبقى الى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم).

ويقول الأديب الفرنسي (لامارتين)[1] :

(إذا كانت عظمة الهدف، وبساطة الوسائل والنتائج العظيمة المحققة هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان، فمن الذي يستطيع ان يقارن بمحمد – على الصعيد الإنساني –أيّ رجل عظيم من كبار رجال التاريخ؟

إن أعظم الرجال لم يَعْدُوا أنْ شهروا السلاح، وحرّكوا القوانين وانشأوا الممالك؛ انهم لم يؤسسوا – هذا عندما اسسوا شيئاً – سوى دولة مادية انقرضت احياناً قبل زوالهم هم أنفسهم عن مسرح الوجود؛ اما محمد فقد هزّ المشاعر، وحرّك الشرائع والممالك والشعوب والعروش وملايين مِنَ الناس في ثلث الكرة الأرضية المأهول، لكنه فوق ذلك زعزع اركان هياكل وآلهة وأديان وافكار ومعتقدات وحرّك نفوساً، انه اقام على اساس «كتاب» اصبح كل حرف منه قانوناً، أمة ضمت شعوباً من كل لغة وعرق، وغرس في نفوس هذه الأمة المسلمة كره الآلهة الزائفة، والتعلق بعبادة الاله الحقيقي الواحد الموجود

(١) لامارتين : شاعر رومانطيقي فرنسي شهير (١٧٩٠/١٨٦٩) له عدة دواوين شعرية تعتبر من اروع ما انتج شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر كان عضواً في الحكومة الفرنسية الموقتة ووزير خارجية فيها عام ١٨٤٨ .

غير الملموس جاعلاً لها من هذا المنهج الميزة الخاصة الحية التي تشكل الطابع المميّز لها .

هذا التمسك بالعقيدة الذي يحارب كل ما من شأنه أن يخرق حرمة الحقيقة الالهية ، هو الفضيلة التي يتميّز بها اتباع محمد .

إن معجزته تكمن في تمكنه من كسب ثلث الكرة الأرضية تحت لواء عقيدته ، لا بل هي لم تكن معجزة الإنسان إنما كانت معجزة الفكر . إن فكرة وحدانية الله تعالى إذ اتى بها في غمرة هيمنة الأساطير والخرافات ، كانت في جوهرها الذاتي تتصف بفاعلية جعلها ، عندما نطق بها . تقضي بمضمونها على جميع هياكل الوثنية والأوثان فيشرق بنور ذلك الجوهر الخيِّر على ثلث العالم ..

الفيلسوف ، الخطيب ، الرسول ، المشرّع ، المحارب ، باعث الأفكار ، موجد العقيدة الصحيحة القائمة على العقل لعبادة لا تعرف الصُوَر ، المؤسّس لعشرين مملكة أرضية ولأمبراطورية روحّية واحدة : ذلك هو محمد .

فلو نظرنا في جميع المقاييس التي تعتبر أساساً للعظمة الانسانية، فأي إنسان نجده كان أعظم من محمد[1] ؟

(١) من كتاب Mahomet بقلم Franeesco Gabrieli مدير معهد الدراسات الاسلامية في جامعة روما . وقد تلطف صديقنا الفاضل الاستاذ محمد صَالح البنداق فقدّم لنا هذه الترجمة الدقيقة .

مراجع الكتاب

القرآن الكريم .
تفصيل آيات القرآن الكريم لجول لابوم ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .
تفسير الرازي .
تفسير روح المعاني للألوسي .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا .
تفسير محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي .
تفسير القرآن الكريم للاساتذة محمود محمد حمزة ـ حسن علوان ـ محمد احمد برانق .
مؤتمر سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي .
تفسير المراغي للشيخ احمد مصطفى المراغي .
المنتخب في تفسير القرآن ، وزارة الأوقاف بمصر .
في ظلال القرآن للاستاذ سيد قطب .
صحيح البخاري وصحيح مسلم .
الشمائل المحمدية للترمذي .
البداية والنهاية للامام عماد الدين بن كثير .
السيرة النبوية لابن كثير .
تاريخ الأمم والملوك للإمام ابي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ الكامل لابن الاثير .
الروض الأنف للامام عبد الرحمن السهيلي .
الطبقات الكبرى لابن سعد .

المغازي للواقدي .
سيرة النبي لابن هشام .
مجلة الأزهر – تصدرها مشيخة الازهر .
تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي .
قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ترجمة الاستاذ محمد بدران والدكتور زكي نجيب محمود .
قصص الانبياء للشيخ عبد الوهاب النجار .
حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل .
دعوة الرسل الى الله تعالى للاستاذ محمد احمد العدوي .
نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري .
محمد رسول الله وخاتم النبيين للشيخ محمد الخضر حسين .
فقه السيرة للاستاذ محمد الغزالي .
حياة محمد ورسالته للاستاذ مولانا محمد علي ترجمة الاستاذ منير البعلبكي .
العقيدة الإسلامية واسسها للاستاذ عبد الرحمن حبنكه الميداني .
النبي محمد للاستاذ عبد الكريم الخطيب .
القرآن والنبي للدكتور عبد الحليم محمود .
محمد رسول الله للأستاذ أحمد تيمور .
بطل الأبطال للأستاذ عبد الرحمن عزام .
النبوة والأنبياء للاستاذ محمد علي الصابوني .
الرسول القائد للاستاذ محمود شيت خطاب .
نساء النبي للدكتور بنت الشاطىء .

وهناك بعض المراجع الأخرى ذكرناها في حواشي هذا الكتاب .

محتويات الكتاب

آدم عليه السلام

ادريس عليه السلام

نوح عليه السلام

هود عليه السلام

صالح عليه السلام

ابراهيم عليه السلام و اسماعيل عليه السلام

لوط عليه السلام

اسحق عليه السلام و يعقوب عليه السلام

يوسف عليه السلام

شعيب عليه السلام

داود عليه السلام

سليمان عليه السلام

يونس عليه السلام

زكريا عليه السلام و يحيى عليه السلام

عيسى عليه السلام

محمد ﷺ

القسم الأول: سيرته من مولده إلى هجرته

القسم الثاني: جهاده في سبيل الدعوة

القِسمُ الثالِث: مِن حياتهِ الخاصّة والعامّة

وللمؤلف كتاب

روح الدين الإسلامي

عرض وتحليل لأصول الإسلام ومبادئه وأحكامه
تحت ضوء العلم والفلسفة
مع دحض أخطر الشبهات عن الإسلام

وللمؤلف كتاب

الخطايا

في نظر الإسلام

• يُبيّن ماهيّة الخطيئة وأقسامها وما يترتّبُ عليها مِنْ غضبِ الله وعواقب سيّئة على الإنسان والمجتمع كما يُبيّن منهج الإسلام في التكفير عن الخطايا وعلاجها.

• يعرضُ لخطايا الإنسان نحو ربّه وعائلته وخطاياه في الجنس والمجتمع والمعاملات.

• يُبيّن مظاهر البطر والاجرام وأخطارهما على الأمّة وكيفية القضاء عليهما.

• يحلل مفهوم المصيبة في الإسلام والعلاج الذي وضعهُ لها بما يخفّفُ من وقعها ويُساعِد على تحمّلها.

للمؤلف تفسير

رُوحُ القُرآن
الكريم

من أوضح تفاسير القرآن واكثرها فائدة
يستفيد منه المتخصصون والطلبة وعامة الشعب
صدر منه حتى الآن :

١ تفسير جزء عم
٢ تفسير جزء تبارك
٣ تفسير جزء قد سمع
٤ تفسير جزء والذاريات
٥ تفسير جزء الاحقاف
٦ تفسير جزء الشورى

صدر حديثًا للمؤلف كتاب :

الحِكمَة النَبَوِيَّة
مختارات من أحاديث رسول الله محمد ﷺ
مع شرحها شرحًا وافيًا
تلبي حاجات المجتمع الاخلاقية والتربوية والروحية